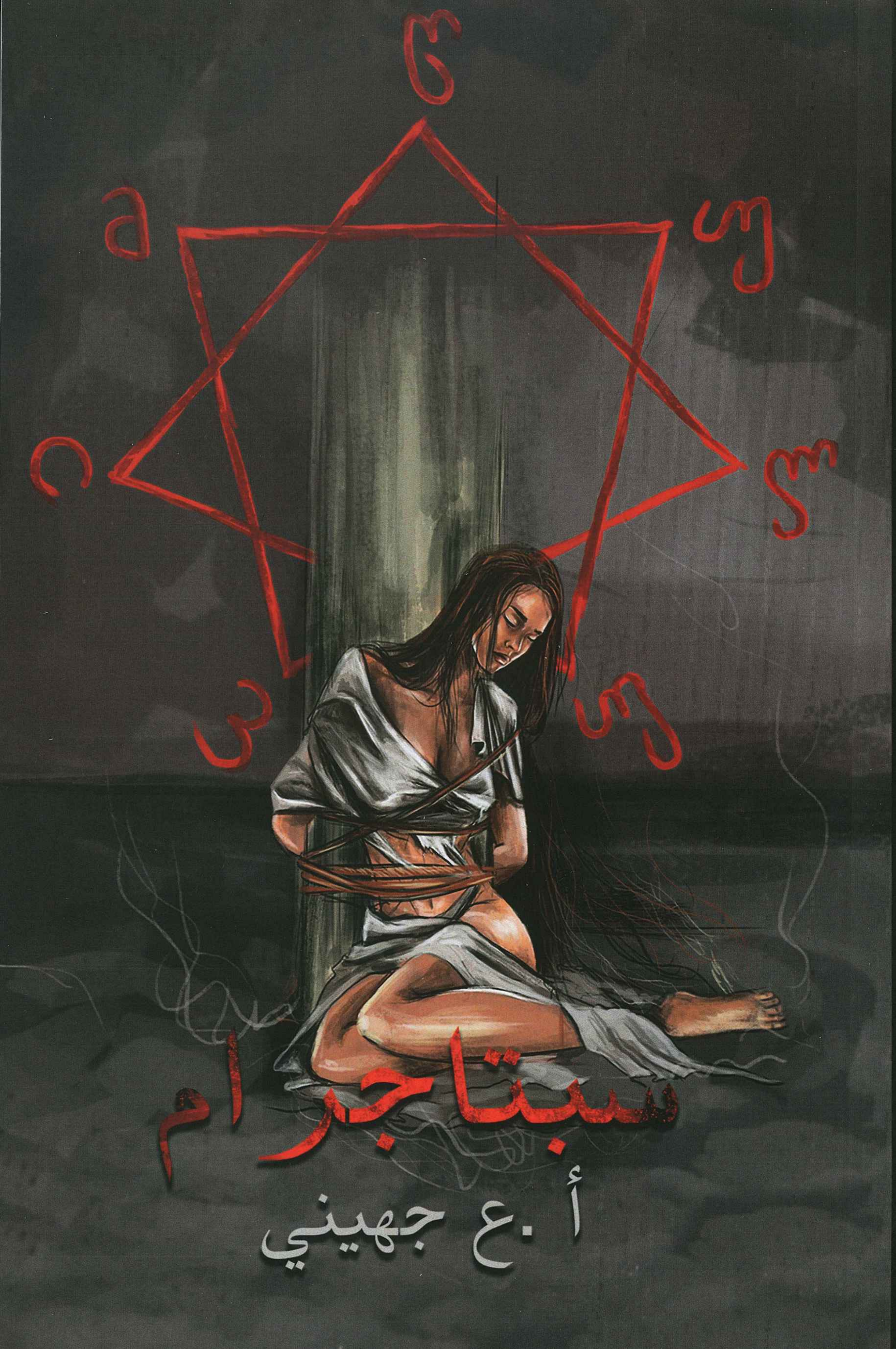

سبتاجرام
أ.ع جهيني

أحمد عطية الجهيني المعروف اختصاراً بـ (جهيني).

- طبيب وأديب مصري.
- تخرج من كلية الطب (جامعة القاهرة) في العام 2005.
- عُرف من خلال مشاركاته في ورش الكتابة لعدة برامج تلفزيونية.

الإهداء

إلى من سحت في مدائن وجهها عشر سنوات ولم أتعب، إلى من إذا سبقت تبعتني،
وإن تأخرت دفعتني،
إلى زهرتي الفريدة (داليا) أُهدي هذا الكتاب.

أ .ع جهيني

سبتاجرام

Austin Macauley Publishers™
London * Cambridge * New York * Sharjah

الرقم الدولي الموحد للكتاب 5-443-37-9948-978 (غلاف ورقي)
الرقم الدولي الموحد للكتاب 8-442-37-9948-978 (كتاب إلكتروني)

رقم الطلب: MC-02-01-0843119
التصنيف العمري: +21

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

اسم المطبعة:
iPrint Global Ltd
عنوان المطبعة:
Units 12-14 Sedgeway Business Park, Common Road
Witchford, England
CB6 2HY

الطبعة الأولى (2019)
أوستن ماكولي للنشر م. م. ح
مدينة الشارقة للنشر
صندوق بريد [519201]
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
www.austinmacauley.ae
+971 655 95 202

شكر وتقدير

كل الشكر والتقدير للسادة الذين ساهموا في إخراج هذا العمل للنور:

- د. محمد حسونة (اختصاصي جراحة التجميل – مصر)
- د. حسن الجندي (اختصاصي الطب النفسي – مصر)
- د. أحمد نور (اختصاصي التخدير والرعاية الحرجة – مصر)
- م. محمد عطية الجهيني (مهندس حر – مصر)
- الرائد: حسام رمضان (ضابط مباحث – مصر)
- د. مايكل بيتر(اختصاصي الجراحة العامة – مصر)
- د. وائل نخالة (ألمانيا)

تباً لشمس الظهيرة في سماء صافية! تبدو كأفضل رامٍ للنبال، صوّبت سهاماً دقيقة نحو عينيه فاخترقتهما بلا رحمة. تغتسل عيناه ببعض دموعها علَّها تطيب جروح السهام المنهمرة.. بمحاذاة رأسه الذي افترش التراب، يرى الأحذية الجلدية تروح وتذهب حاملة أصحابها فوقها. يتوقف زوج من الأحذية بمحاذاته، ينحني صوبه ذلك الرأس الذي ارتدى عقالاً عربياً؛ فيسمع صوته قائلاً في فضول:

- "أأنت بخير؟".. اعتلت الشمس رأس صاحب العقال فعجز هو عن تحديد ملامحه.

"انهض! فلا تملك ترف التعثر".. يقولها لنفسه وهو ينهض، لا يجيب سؤال صاحب العقال.. يثبّت (طربوشه) الأحمر على رأسه بحركة عفوية بيمناه؛ بينما تحتضن يسراه الحقيبة الجلدية الثقيلة عبر البيوت القصيرة المصنوعة من الطين المحموس، ترى عيناه المأذنتين الرفيعتين ذواتي القبتين الفيروزيتين للمسجد الكبير، يغير اتّجاه ركضه.. هو يعلم أن هناك سوقاً كبيراً قرب مسجد (المقام).. سيخفيه زحام السوق عن مطارديه. فقط عليه التخلص من ثيابه التي تشي بمصريته، يخلع (طربوشه) ويلقي به بجوار تلك اللافتة الخشبية الكبيرة التي كتب عليها (مرحباً بكم في البصرة). يعود ليشق طريقه بين الكتل البشرية بمدخل السوق؛ بينما تطبق راحته على حقيبته الجلدية.

يتوقف بأحد حوانيت الثياب.. يبتاع ثوباً تقليدياً وعباءة.. ويدخل حجرةً ضيقة في الحانوت؛ فيخلع بدلته الرمادية، ويقف أمام المرآة الطويلة التي احتلت الجدار الشمالي للحجرة، يتطلع إلى صدره الرياضي الواسع. النجمة السباعية الزرقاء الموشومة على جانب صدره الأيسر ترتفع وتنخفض بسرعة مع لهثاته.. يبقى ساكناً لبرهةٍ حتى تستعيد أنفاسه المضطربة انتظامها؛ ثم يخرج من الغرفة الضيقة وقد ارتدى الثوب التقليدي والعباءة، يضع على رأسه ذلك (الشماغ) الأبيض المطرز بخيوط سوداء – المميز لأهل العراق – ويثبته بالعقال الأسود، يختطف نظرة عابرة

للتقويم المعلق على جدار الحانوت قبل أن يغادره.. اليوم هو الثلاثون من يونيو لعام 1923 م.

يختلط بزحام السوق لبرهةٍ قبل أن يسلك طريقه إلى أحد الأزقة الخالية.. لقد ضلّل مطارديه بلا شك...

يجلس القرفصاء على الأرض الترابية.. من الحقيبة الجلدية يخرج ذلك اللوح العتيق المصنوع من الطين اليابس.. يتأمل النقوش؛ تُصوِر أسدين متقابلين قد أحاطت بهما بومتان، على ظهري الأسدين وقفت تلك المرأة العارية ذات الجناحين تحدق فيه في شر.

- "صرلنا تلت أيام عم نبرم وراك يا زلمة!!".. ينتفض جسده وهو يلتفت إلى مصدر الصوت الذي قال العبارة باللهجة السورية. سدّ ثلاثة رجال مدخل الزقاق بأجسادهم، يتراجع ببطء وهو ينظر خلفه، أربعة آخرون يسدّون نهاية الزقاق.. يمد ما بدا وكأنه قائد السبعة يده في اتجاهه في طلب صامت.. ندّت عنه حركة عصبية، لا يمهله السبعة؛ فينهالون عليه باللكمات حتى اِنهار أرضاً لينهالوا عليه بالركلات، ينتزع أحدهم الحقيبة من بين أصابعه المنقبضة.

"بيكفي راح يموت!".. يقولها صاحب الصوت السوري فتتوقف الركلات العنيفة.. يسمع وقع أقدامهم المهرولة وهم يغادرون الزقاق.

"فشلت.. سامحيني".. يقولها بصوت متقطع؛ بينما يغيب وعيه لينزلق في أنبوب أسود بلا قرار.

وأخيراً، يلقي به الأنبوب على أرضٍ.. عشبية خضراء هذه المرة.

- "اِنهض يا فتى".. يسمع الصوت الأجش الزاجر وهو يردد بالعربية؛ بينما الرمح الحاد ينخس ظهره.

- "أنهكني الوقوف".. يتمتم بعربية كسيحة فلا يجيبه إلا نخسة رمح أخرى، يتحامل على قدميه المكدودتين لينهض من جديد، يدير رأسه إلى الجانبين؛ فيرى مئات الصبية يشاركونه الوقوف في ذات الصف الطويل، الذي امتد على الأرض العشبية تحت شمس ترسل ضوءاً بلا حرارة. أحاط بصف الصبية عشرات الجنود الذين يمتشقون سيوفهم.. لوحت وجوههم شمس صيف ولّى؛ وقد أبى إلا أن يترك لهم تذكاراً. يرى الجند يتأهبون في وقفتهم.. بحركات متصلبة يعيدون تنظيم الصبية ليستقيم الصف؛ بينما عيونهم لا تكف عن التطلع إلى الوافد الذي دنا من صف الصبية في ثلة من رجاله، يقترب منه الوافد.. يتفحصه ملياً بعينين زرقاوتين صافيتين كالسماء الباردة التي ظللتهم.

- "هل تعرف من أنا أيها الصبي؟".. يقولها الوافد مبتسماً.

- "أنت (مروان الأطرش)".. يرد عن فوره.

- "هو سيدك (مروان الجعدي) فتحدث معه بأدب".. يعود الرمح لينخس ظهره من جديد؛ فيرفع (مروان الجعدي) راحة يده للجندي الحامل للرمح أن توقف.. يدير وجهاً شاهق البياض إلى أحد مرافقيه متسائلاً:

- "هو ابن أحد سادتهم".. يجيب المرافق عن السؤال الافتراضي مسرعاً.

- "أين أبوك يا فتى؟".. يعود (مروان) ليسأل.

- "قُتل في المعارك، كذلك أخوتي".. يجيب بصوت ثابت وهو يتطلع إلى وجه (مروان) بعينين لا تطرفان.. يهز الأخير رأسه.. يعود ليتطلع إليه كأنه يفكر.

- "أرسلوه إلى بيت الإمارة.. فيتعلم ديننا ولغتنا، ولينشأ نشأةً صالحةً؛ فإن اشتد عوده عاد إلى قومه، فصار لنا خير سفير".. يقولها (مروان) لرجاله بصوت جهوري.

- "هيا يا فتى".. يقولها الجندي له، وهو يجذبه من ذراعه فيقاومه.

- "للفتى اسمٌ يا عمرو!".. يقولها (مروان الجعدي) وهو ينظر إليه.. يسأله: "ما اسمك يا بني؟".

- "ملخازي!".. يجيب هو بعد لحظة تردد.

- "اسم عسير هو!".. يبتسم (مروان الجعدي).. ينظر إليه ويتفحصه من رأسه حتى أخمص قدميه.

- "لقد صرت (صالحاً)، صالحٌ هو اسمك".

وتعود الأرض لتميد به من جديد.

"صار الأمر مملاً!".. يقولها وهو ينهض من على الأرض التي افترشها للمرة الثالثة، منهكٌ هو؛ يكاد لا يقوى على حمل ذبابة، يقلّب عينيه في وجوه الحشد حوله، اجتمعوا في ذلك البهو الواسع للبيت الكبير – معظمهم من النساء وقليلهم من الرجال – تحلّق الجميع حول تلك المرأة التي بدت في منتصف عقدها الرابع، يقترب مرتجفاً من مركز الحشد، هم يتكلمون بالآرامية التي صار يفهمها، لا يعبأ به أحد ولا يبدو أن أحداً يراه.

- "لقد منّ عليكِ (يهوه) بالشفاء يا (مريم)".. تقولها إحدى النسوة للمرأة التي تحلّق الجمع حولها، وهي تربت على كتفها، تبتسم (مريم) في اضطراب؛ تبدو كمن لم يستجمع شتات نفسه بعد.

- "ببركة ذلك (الناصري) الصالح".. يقولها أحد الرجال برزانة وهو يشير إلى باب البهو الواسع الذي غادره ذلك (الناصري) للتو.. تنهض (مريم) متجهةً إلى حيث أشار الرجل وسط نظرات الحشد المندهشة.

- "إلى أين تذهبين يا (مريم)؟".. تسأل امرأةً أخرى.

- "سأتبع سيدي".. تقولها (مريم) وهي تخطو نحو الباب الواسع.

- "أتتركين (مجدالا) وأنتِ من سادتها؟".. تسأل امرأةُ ثالثة.

- "سأتبع سيدي".. تكرر (مريم) وهي تقف بعتبة الباب، تلتفت فتنظر للحشد نظرة طويلة وكأنها تودعهم.

- "ماذا عن بيتك الواسع؟ ماذا عن أموالك؟".. يسأل الرجل الرزين.

- "خذوها!".. تقول (مريم) في هدوء قبل أن تستدير لتلحق بآثار الأقدام التي تركها السيد الناصري!

السيد الذي يدعوه أتباعه (يسوع المسيح).

الفصل الأول

هي تمتطي الوحش، بيدها اليسرى اللجام الذي يمثِّل الشغف الذي يوّحدهما، في يدها اليمنى ترفع الكأس عالياً، الكأس المقدسة الملتهبة بالحب والموت...

(أليستر كراولي - كتاب توت)

مملكة ايجريسي

الثالث من ديسمبر 670 م

"بسم الرب يسوع المخلّص، وبسم السلطة المخولة لي من الملك (جريجور) – الأول من اسمه – ملك (ايجريسي)؛ حكمنا بإعدام (جوشا دفاليشفيلي)؛ لِارتكابه خطيئة القتل بحق زوجته (تيكو)، عسى أن يرحم الرب روحه الآثمة".

ألقى السيد (إيراكلي ميخي) حاكم وقاضي مدينة (خوني) منطوق حكمه بلهجة متعجّلة ملولة، لم يكن هذا الحكم هو الأول هذا العام – وإن تمنى السيد (ميخي) أن يكون الأخير – سبقته ثلاثة إعدامات أخرى: (فارو ميسخي) الحداد، (بيكا اخالدزي) صاحب مزرعة الكروم بنهاية الطريق الغربي، و(دايفت زارايدز) الإسكافي؛ جميعهم قتلوا زوجاتهم.. جميعهم نفّذوها بوحشيّة.. بدا ذلك غريباً في مدينة خاملة كـ (خوني).. مدينة لا تشتهر بشيء، ولا يعبأ بها أحد.. مدينة لا تعرف الإثارة إلا عندما يأتيها أحد شبابها الجنود في جيش الملك (جريجور) بأخبار غارات العرب من الجنوب والشرق أو غارات الروس من الشمال.

يهز الحاكم (إيراكلي) رأسه هزةً خفيفةً؛ فيتقدم القس الذي كان واقفاً في أحد أطراف ساحة المحاكمة إلى وسطها.. ساحة المحاكمة هي نفسها السوق العامر الذي يتوسط البلدة. عموماً لم تنصب محاكمات عدة في تاريخ البلدة باستثناء العشرة شهور الأخيرة.. صاروا ينصبون منصةً أمام دكّان (جورجي) الجزار.. يجلس عليها الحاكم – القاضي السيد (إيراكلي) – ليصدر أحكامه القاسية.

جادل بعض أهل البلدة بأن السيد (إيراكلي) ليس مؤهلاً كفاية لمهنة القاضي، فردّ عليهم البعض الآخر بأن الجرائم التي حكم فيها السيد (إيراكلي) بالغة الوضوح والبشاعة، بحيث أن أي طفل كان ليصدر ذات الأحكام.

الحقيقة أن السيد (إيراكلي) كان طيب القلب، منذ أن عثروا على جثة الطفل (نيكا نيكولادزي) المذبوحة منذ عشرة أشهر وهو يكره مهنة الحاكم.. منذ أن فشلوا في العثور على قاتله وهو يكره مهنة الحاكم.. منذ أن بدأ الرجال في قتل زوجاتهم وهو يكره مهنة الحاكم. هو يظن أن تلك المهنة تحتاج شخصاً أكثر حزماً، أكثر قسوةً، وهو حاكم مدينة وادعة، يبدو كحارس لم تصوب الكرات إلى مرماه. الآن بدأت الكرات تقصف المرمى؛ صدّها جميعاً أو كاد، إلا أن ركبتيه ترتعشان بلا توقف، يريد أن يترك المرمى ويهرب إلى مدرجات المتفرجين.

يقف القس مواجهاً (جوشا دفاليشفيلي) الجاثي على ركبتيه مكبلاً بالأصفاد.. بدا (جوشا) منذهلاً، عيناه تحدقان في الفراغ وقد سال خيط لعاب من ركن فمه.. يرسم القس علامة الصليب بذراعه في الهواء.

- "هل لك بكلمات أخيرة أي بني؟"

يرفع (جوشا) رأساً كان مطرقاً صوب الأرض.. ابتسامة بلهاء تعلو شفتيه.. لا يبدو أنه قد سمع أو فهم ما قاله القس، يكرر القس كلماته.

- "هل لك بكلمات..!"

تقاطع بصقةً أطلقها (جوشا) كلمات القس بعد أن اصطدمت بوجهه.. صيحات مستبشِعةٌ تصدر من الحشد المجتمع في ساحة المحكمة، حيث خرج أغلب أهل (خوني) لمتابعة المحاكمة والحصول على بعض التسلية المجانية.. هم يعيشون ذات الإثارة منذ عشرة شهور؛ إلا أن الجريمة الأخيرة كانت الأكثر إثارة وبشاعة حتى الآن؛ حيث استيقظ جيران (جوشا دفاليشفيلي) فزعين على صوت صراخ ابنته (سالومي)، فاقتحموا الباب المغلق ليجدوا الزوجة (تيكو) تسبح في بركة من الدماء فوق جسدها المُسجّى يجثو (جوشا) وهو يعبث بكلتا يديه داخل بطنها المشقوق.. فمه مغطى بالدم.. بدا كضبع مسعور قد فرغ لتوّه من التهام كبد (تيكو).. بينما صرخات (سالومي) لا تتوقف، وهي تراقب الجيران يقاومون اشمئزازهم وهلعهم، ويقيدون والدها عنوةً ثم يسحبونه إلى المخفر.

رجال المخفر يقولون إن (جوشا) ظل صامتاً أثناء استجوابه.. ربما ارتسمت تلك الابتسامة البلهاء على شفتيه بين الفينة والأخرى.. زنزانته صارت بشعة الرائحة؛ بعد أن ملأ جنباتها بالغائط، وبه لوّث وجهه وجسده.. فتوقفوا عن إدخال الطعام له، واكتفوا بالماء. ودّ الحراس أن يقتلوه بأيديهم قبل أن يصدر الحاكم حكمه؛ فقط

ليتخلصوا من الرائحة النتنة، وعندما صدر الأمر بمثوله للمحاكمة، وضعوا لفّات بها ثوم مفروم حول أنوفهم ليغطي على رائحته البشعة أثناء دخولهم للزنزانة لجلبه.

يمسح القس البصقة بكمِّ ثوبه الأسود الواسع في تقزز، يتراجع إلى الخلف راسماً علامة الصليب مرة أخرى في الهواء، يهزُّ الحاكم (إيراكلي) رأسه مرةً أخرى مصدراً أمره للجلاد بالتنفيذ، يرفع الجلاد سيفاً ضخماً في الهواء، تتعلق أعين الحشد بالقاتل المعدني البارد المعلق في الهواء كقدر محتوم؛ إلا عيني الفتى (أوماري شفيلي) صانع النبيذ.. كانت عيناه ترمقان (آليس) الواقفة على أطراف الساحة محتضنةً رضيعتها وقد غطّت وجهها ظلال الشمس الغاربة؛ فبدا من الصعب عليه أن يحدد أين تنظر.

يرتفع هتاف الحشود إذ يهوي السيف منهياً علاقةً قديمةً بين رأس (جوشا) وجسده، تنصرف عينا (أوماري) إلى الرأس المتدحرج على الجليد للحظةٍ.. ثم يعود ببصره إلى (آليس).. تقف متسمرة كتمثال من الرخام الأبيض، الآن يرى عينيها الواسعتين ترمقان الرأس المقطوع في ثباتٍ لا يراه في نساء البلدة.. ابتسامة شاحبة تمر كضيف عابر بشفتيها.. تضم رضيعتها إلى صدرها ثم تغادر بهدوء.. فيحتضنها ظلام الليل الوليد.

لماذا يا آليس...؟!

يجلس (أوماري) جلسته الليلية اليومية تحت شجرة البلوط الضخمة في أطراف الغابة المجاورة للبلدة.. جذع الشجرة به تجويف لم يصنعه صانع.. هو كهفه الخاص.. هواء ديسمبر البارد يجمّد أنفه وأعلى رقبته.. يضم معطفه المصنوع من شعر الماعز إلى جسده بإحكام، ثم يستلقي على ظهره ناظراً للسماء السوداء..

لماذا يا آليس...؟!

لم تأتِ (آليس) الليلة.. لم تأتِ منذ زمن!.. انتظرها كل ليلة أسفل شجرة البلوط؛ حيث الكهف الخشبي.. يأتي فيستلقي وينظر إلى السماء.. يتذكر ضحكاتهم الخافتة.. يتذكر لمسات أصابعها الباردة دوماً.. يتذكر نظراتها الوالهة إلى وجهه الصبوح.

(أوماري شفيلي) صانع النبيذ..

الفتى الوسيم ذو العشرين عاماً، عجائز القرية يقولون أنه ورث جمال أبيه.. عينان عميقتان سوداوان، لا ينافس سوادهما إلا سواد شعره الفاحم.. جبين عريض وضّاء.. أنف مستقيم طويل.. قامة طويلة، وجسد عضلّي منحوت تأمَّله أهل البلدة جميعاً عندما عاد إليهم عاري الجذع، نافر العروق، حاملاً جثة الذئب الذي روّع البلدة منذ ثلاثة أعوام.

هو حقاً لا يعرف أنه كان قد ورث جمال أبيه.. هو لم يره. ترك أبوه البلدة والتحق بجيش الملك وهو بعد جنين في بطن أمه.. البعض يقول أنه قد قتل في المعارك مع الروس، البعض الآخر يقول أنه قد صار نبيلاً مالكاً للأراضي ومتزوجاً من إحدى النبيلات.. هو ميت بالنسبة لـ (أوماري)..

لقد هجره هو وأمه في كل الأحوال.. أمه ذات الأنف الأحدب، والعينين الضيقتين.. هو لا يشبهها في شيء.. إلا أنه ورث نبلها وقلبها الذهبي.. لا يترك محتاجاً إلا لبّى له حاجته، ولا مستجيراً إلا أجاره.

ربما لهذا السبب ظلّ بـ (خوني).. كثيرون هم من دعوه للالتحاق بجيش الملك (جريجور).. يقولون إنه فارس بالفطرة.. مكانه هو ساحات القتال، أو بهو القصر الملكي. لكنه لن يترك أمه، لو تركها لماتت جوعاً.

يتجه صباح كل يوم إلى دكانه الصغير.. يمر بشابات البلدة في الطرقات، يلاحظن مرور (أوماري) الوسيم؛ فيجذبن قمصانهن لأسفل خفية؛ لتظهر نحورهن وأعلى نهودهن التي تعلوها الصلبان الخشبية.. أو يرفعن تنانيرهن خلسةً لتظهر سيقانهن الناصعة البياض.. جميعهن يتمنين (أوماري) الوسيم زوجاً.. جميعهن يتمنين (أوماري) الشجاع الشهم زوجاً.

لماذا يا آليس...؟!

(أوماري) يهيم حباً بـ (آليس).. تبدو كنسخته الأنثوية.. ذات الوجه الصبوح والجبهة الوضّاءة.. ذات العينين السوداوين والشعر الفاحم.. بشرتها مرمرية مشوبة بحمرة خفيفة كأنها الحليب المخفوق بالكرز.. عندما بلغت الثانية عشرة صنعت لها (آنا جابيدافا) حمّالة صدر عريضة محكمة الصنع.. لم تنجح في إبعاد أعين الفضوليين عن نهديها العامرين.. يبدوان نافران مهما ارتدت من ثياب محتشمة.. وبالرغم من أن تنانيرها كلها طويلة تصل إلى متنصف ساقيها؛ إلا أن الجزء المكشوف منهما كان يطيّر ألباب أكثر الرجال حكمة ووقاراً. في مرة ضبطت (آنا جابيدافا) القس يحملق في ساقي (آليس) المخروطيتين، وقدميها الرقيقتين كأوراق الياسمين رغم حفائهما الدائم.

الحقيقة أن أنوثة (آليس) كانت مشكلةً دائمةً لـ (آنا)؛ (آنا) الأرملة العاقر التي تحيك ثياب فتيات البلدة، كادت الوحدة والحزن لموت زوجها أن يقتلاها. عندما ذهبت إلى الدير – أعلى الجبل القريب من البلدة – تطلب الرهبنة؛ قابلتها راهبة جرمانية وأخبرتها أن تعود من حيث أتت عسى أن يطبب الرب قلبها، وفي طريق عودتها على أطراف الغابة وجَدَتْها.. رضيعة باكية ملفوفة بخرقة بالية، نبذتها إحداهن ربما لتخفي عار إنجابها من غير زواج! ضمتها (آنا) وأسمتها ذلك الاسم الغريب (آليس)، تيمناً بالراهبة الجرمانية صاحبة البشرى.

لماذا يا آليس...؟!

(آليس) تهيم حباً بـ (أوماري).. منذ أن رأته في قدّاس العيد منذ خمس سنوات وهي تعلم أنها قد صارت له.. تخبره في كهفهما الخشبي أسفل شجرة البلوط أن (نينو) ورفيقاتها يسخرن منها ينادينها بـ (آليس) ابنه (آنا)..

- "ستتزوجني يا (أوماري)؟"

- "سأتزوجك أو أعيش راهباً"

- "ستتزوج ابنة الزنا؟"

- "سأتزوجك لو كنتِ ابنة الشيطان!"

تضحك.. تخرج شيئاً من بين طيات ثيابها.. قميصاً قرمزي اللون.

- "صنعته لك.. لترتديه في عيد الميلاد".

- "سآتي لخطبتك في عيد الميلاد.. وستفرح (آنا) العجوز كثيراً".

يقلب القميص بين يديه.. على ظهر القميص نجمة سباعية كبيرة زرقاء اللون.

- "ما هذه؟".. يضحك وهو يشير بسبابته إلى النجمة الزرقاء.

- "هذه... أنت!"

تستلقي على ظهرها وتنظر إلى السماء.. يستلقي بجوارها.. تشير بسبابتها إلى نجم لامع: "أنا أرى هذا النجم فجراً.. أنت مثل هذا النجم اللامع.. لا يطفئ نورك شيء في سمائي.. حتى ضياء الشمس!".. (ابتسامة طفلة تنير وجهها)، أردفت: "أنت نجم الصباح يا (أوماري)".

لماذا يا آليس...؟!

مازال مستلقياً في الكهف الخشبي تحت شجرة البلوط، يتذكر ذلك اليوم في أوائل يناير الماضي قبل أعياد الميلاد بثلاثة أيام، واقفاً في المقابر وسط جمع من أهل البلدة.. بينما يلقي القس عظته؛ ماتت (آنا جابيدافا)، ذهبت (آليس) لتوقظها في الصباح فلم تستيقظ. يحاول القس أن يعدد محاسن (آنا) وهي مهمة بدت صعبة لأهالي البلدة، النساء منهم لا يتذكرون لها إحساناً، أمّا الرجال فيتذكرون تبنيها لـ (آليس) رائعة الجمال.. ربما كانت تلك هي حسنة (آنا) الوحيدة. التابوت يغيب داخل المقبرة بينما تنهار (آليس) أرضاً وهي تجهش بالبكاء، تمتد بعض أيادي الرجال لتساعدها على الوقوف والتماسك.. لمسات الأيدي ليست بريئة تماماً! عرفت (آليس) أن أيامها القادمة في البلدة ستكون صعبة؛ فلسان (آنا) السليط – قدّس الرب روحها – كان كفيلاً بمواجهة أوقح الرجال، ماتت (آنا) وتركت (آليس) ابنة الزنا تواجه شهوة البلدة بمفردها.

لماذا يا آليس...؟!

انتظرها في كهفهم الخشبي ليلتين.. لم تأتِ.. جاءت في ليلة عيد الميلاد.. ترتدي ذلك الثوب الأبيض الواسع.. جلست بقربه ولم تتكلم.. ربّت بيده على يدها الباردة.

- "اعتصر أحدهم ثديي الأيسر.. يد أحدهم كانت تتحسس فخذي، وأحسست بآخر يلتصق بي من الخلف".. غلالة من الدموع تغطي حدقتيها.. لا يدري (أوماري) كيف يرد.. يربت على يدها مرة أخرى.

- "(آنا) كانت كل عائلتي.. أنا ضائعة تماماً!!".. ترتجف وتبكي.. بدت كجرو أبيض منبوذ.. يقترب منها (أوماري)، يلتصق بها.

- "سنتزوج يا آليس.. سأكون عائلتك وستنجبين عشرة أبناء سيكونون عائلتك".. ينظر لها.. وجهها صار شاحباً بشدةٍ.. يضيف جزِعاً: "بحق يسوع يا (آليس)؛ أنتِ تتجمدين!!".. يفتح أزرار معطفه الصوفي الواسع.. يضمها إليه.. يشعر بأنفاسها

تلامس صدره.. يقبّل جبينها ووجنتيها.. تلتصق به أكثر.. ثدياها ينضغطان على جانب صدره.. مشاعره هائجة.. يطبق بشفتيه على حبتي الكرز في فمها.. ودّ لو أدخلها بين ضلوعه.. يعتصرها بين ذراعيه.. أحس بانتصاب حلمتي ثدييها في صدره.. يعتصرها أكثر.. قاومت للحظة ثم ذابت بين ذراعيه.. فعلوها في تلك الليلة ثلاث مرات.. وقبيل الفجر قال لها:

- "أنتِ لي يا آليس".. يضم جسدها العاري ويضمهما معاً معطفه المصنوع من شعر الماعز.

- "وأنت نجم صباحي يا (أوماري)".

لماذا يا آليس...؟!

قالها حاكم (خوني) السيد (إيراكلي ميخي) من فوق المنصة المنصوبة أمام جزّاره (جورجي)، والمطلة على ساحة البلدة، وهو ينظر إلى (آليس) الواقفة في منتصف الساحة مكبلة بالأصفاد.

"لماذا يا (آليس)؟!" لماذا وجدنا (أليكو كاكوشادزي) النجار خارجاً من دارك بعد منتصف الليل؟"

مازال ذهن السيّد (إيراكلي) مشوشاً.. أيقظوه في الواحدة صباحاً.. وضع نفسه في ثيابه، وحشر قدميه في حذائه، وركب عربته التي يجرها زوجان من الخيول، وانطلق إلى ساحة البلدة، هناك وجد الراهبة الشابة الأخت (نينو) واقفة وحولها جمع غفير من أهل البلدة.. ينعكس ضوء المشاعل على أنفها الضخم الذي لوّثه عرق الإثارة على الرغم من برد ديسمبر القارص.

- "الموت للساحرة".. تصرخ الراهبة فيردد هتافها نساء البلدة المجتمعات وبعض رجالها.. ترفع ذراعها النحيلة اليابسة وتشير بها إلى (آليس) المكبلة، وتعيد الهتاف "الموت للساحرة".

- "لماذا يا آليس؟.. لماذا وجدنا (أليكو كاكوشادزي) شارداً بعد أن خرج من دارك؟ لماذا اتجه إلى داره شاهراً منشاره الحاد؟ لماذا حاول أن يقتل زوجته لولا أن كبّله الرجال في اللحظة الأخيرة؟ لماذا يسيل خيط اللعاب من ركن فمه؟! لماذا يبتسم تلك الابتسامة البلهاء؟".. أسئلة عديدة يوجهها الحاكم.. لا تجيب (آليس)، هي فقط صامتة.. تعلقت عيناها برضيعتها النائمة على ذراع واحدة من النسوة المحتشدات.

- "الموت للساحرة!".. تصرخ الراهبة (نينو) بصوت كصوت ضبع يتعذب.. هي دميمة كأنها الشيطان.. ماتت أمها صغيرةً وتعهدها جدها بالرعاية.. عندما بلغت الرابعة عشرة لم ينمُ ثدياها كغيرها من فتيات البلدة.. فقط نما أنفها الضخم ليصير أضخم.. وأبى الدهن أن يسكن ردفيها فسكن أكتافها الحدباء..

ذهبت ذات مرة لتحيك ثوباً عند (آنا)، فعادت تحمل الثوب وحسداً لا ينتهي لـ (آليس) الفاتنة.. وعندما ارتدت الثوب القصير في عيد الفصح سخر الجميع من ساقيها المستدقتين كسيقان الدجاج، ونظروا بإعجاب إلى سيقان (آليس) المرمرية.. سخروا من ثدييها الضامرين ونظروا بإعجاب إلى نهدي (آليس) العامرين.. هنا أدركت (نينو) أن لا قتال لها في ساحه الأنوثة؛ فغلفت حسدها بالإيمان.. وحقدها بالتقوى.. والتحقت بالدير.

هي تسمع لثرثرة العجائز اللاتي يأتونها في الدير.. يقولون إن (آليس) ابنة (آنا) قد تبدلت بعد موت أمها.. يقولون أن بطنها انتفخت وصارت حبلى، رأى البعض (فارو ميسخي) الحداد يغادر دارها قبل قتله لزوجته.. رأى البعض الآخر (بيكا أخالدزي) و(دايفيد زارايدز).. حتى ولادتها لرضيعتها مجهولة الأب لم تمنعها من استقبالها لـ (جوشا دفاليشفيلي).. هكذا قالت العجائز.

"هي ساحرة!".. تقول (نينو) لنفسها: "إنها تسحر الرجال ليقتلوا زوجاتهم! هل تعاشرهم؟! العاهرة!! الزانية ابنة الزنا.. الجميع يرغبها ويشتهيها.. وأنا (نينو) الطاهرة العفيفة لا ينظرون لي إلا بسخرية! هل عاشروها بقوة؟ هل أولجوا ذكرانهم الضخمة بين فخذيها؟ هل اعتصروا ثدييها؟ هل صفعوها على ردفيها؟".. تفكر (نينو): "ها قد جاءت ساعة الانتقام".. وعقب إعدام (جوشا دفاليشفيلي) طلبت من بعض الرجال الأتقياء أن يراقبوا منزل (آليس) متسربلين بأستار الظلام.

بعد عدة أيام من السكون وجدوا (أليكو كاكوشادزي) يدخل إلى منزلها خفيةً، ثم يغادر في منتصف الليل..

تبع بعضهم (أليكو) ومنعوه من قتل زوجته، واقتحم بقيتهم منزل (آليس) يبحثون عن أدلة تدينها بتهمة السحر أو الدعارة، وعندما لم يجدوا ما يبحثون عنه كبلوها بحبال ليفية، وجروها إلى الساحة بعد أن تكفلت الأخت الراهبة (نينو) بإيقاظ البلدة كلها بصوتها المزعج، ثم أرسلت من يوقظ الحاكم.

- "لماذا يا (آليس)؟ لماذا لا تجيبي يا ابنتي".. يقول السيد (إيراكلي) الحاكم.

- "الموت للساحرة".. تصرخ الأخت (نينو) من جديد.

- "لن أحكم بقتل الشابة لأنكِ تصرخين بذلك يا أختاه؛ فاهدئي".. يقولها السيد (إيراكلي) وقد انعقد حاجباه ضيقاً.

- "ولكن الزانية ابنة الزنا هي سبب كل الشر الذي سكن ببلدتنا".. ترد الأخت (نينو) بغلّ.

- "(آليس) فينا منذ أن كانت رضيعة.. لم تزد بلدتنا إلا جمالاً".. ودّ السيد (إيراكلي) أن يضيف (ولم تزيدينها أنتِ إلا قبحاً)، لكنه آثر السلامة.

- "هي زانية فاقتلوها".. يلتمع أنفها الضخم المبلل بالعرق تحت أضواء المشاعل؛ وهي تنظر بحقد لـ (آليس) الصامتة كأن الأمر لا يعنيها.

- "يا أختاه.. نحن لا نقتل زناة في هذه البلدة.. الخطيئة بالقلب، فلمَ نعذّب الجسد؟ ظننت أنكِ من سيخبرنا بهذا!".. يقول الحاكم (إيراكلي) في امتعاض.

تضيق عيني الأخت (نينو) الضيقتين أصلاً.. مقلتاها تدوران في محجريهما بجنون.. السيد (إيراكلي) اللعين يفسد مخططها كله.. لا بد أن ابنة الزنا قد سحرته هو أيضاً.. ها هي ترى (آليس) تبتسم ابتسامة ساخرة.

- "دعني أثبت لك أنها ساحرة".. تقول الأخت (نينو) بارتباك!

يهز السيد (إيراكلي) رأسه إيجاباً في ملل.. تتجه الأخت (نينو) إلى حيث (آليس).. تمزق عنها ثوبها الأحمر بقسوة.. لا تتركها إلا كما ولدتها أمها المجهولة.. تكاد عيون الحشد المجتمع أن تقفز من المحاجر؛ وهم يرون الجسد المرمري الذي طالما اشتهوه.. لا تستطيع (نينو) أن تخفي نظرة الحسد في عينيها، وهي تتفحص جسد (آليس) العاري المكبّل.. تباً!! كيف لم يفسد الحمل هذا البطن المشدود؟ كيف لم تفسد الرضاعة هذا الثدي المتماسك ذو الحلمة النافرة لأعلى؟ ها قد وجدت ضالتها أعلى الثدي الأيسر لـ (آليس).

- "ها هي علامة الشيطان على جسدها الخاطئ".. تهتف الأخت (نينو).

ينظر السيد (إيراكلي) إلى العلامة.. تبدو نجمة سباعية زرقاء اللون.. وإن رآها بصعوبة على أضواء المشاعل.. ودّ أن يقترب ليتحقق إلا أن خجله منعه.

- "ربما هي شامة أو وشم.. تكلمي يا (آليس) يا ابنتي".. يقول الحاكم.. لا تتكلم (آليس)؛ فقط تدير عينيها في الحشد.. شبح الابتسامة الساخرة لا يفارق شفتيها.

- "أرى أن الساحرة قد سحرتك أيها الحاكم (إيراكلي)".. تقولها الأخت (نينو) بلهجة خاصة وهي تضيق عينيها بخبث.. يجفف السيد (إيراكلي) عرقاً وهمياً عن جبهته.. سيترك منصب الحاكم بعد هذه الليلة.. أقسم على ذلك.. يرى زوجته على هودجها بين الحشود.. تنظر إليه بتحفز.

- "حسناً.. سنودعها السجن حتى نتبين أمرها".. يقولها بتردد.

- "لا تدع ساحرة تعيش أيها الحاكم.. هذا ما قاله الرب".. تقول الأخت (نينو) وهي تنظر إلى الحشود.. تضيف هاتفةً: "أنفذوا أمر الرب!"

- "أنفذوا أمر الرب!!".. تهتف النسوة المحتشدات وهن يقذفن جسد (آليس) العاري المكبل بالحبال بكل ما تطوله أيديهم.

- "سكووووت!!".. يهتف السيد (إيراكلي): "بسم الرب يسوع المخلص، وبسم السلطة المخولة لي من الملك (جريجور) – الأول من اسمه – ملك (ايجريسي).. حكمنا بإعدام (آليس) ابنة (آنا) حرقاً لارتكابها جريمة السحر".. يضيف بصوت خافت: "عسى أن يرحم الرب روحك يا ابنتي".

ها هم الجند يجلبون الحطب المبتل بالزيت.. يقيدون (آليس) العارية إلى العمود الحجري في منتصف الساحة.. يحيطونها بالحطب المبتل.. يوقدون بعضه بإحدى المشاعل.. وبينما تتصاعد النيران ببطء لتأكل السيقان المرمرية.. أخذت الأخت (نينو) تنظر إلى (آليس) وقد ودّت أن تسمع صراخها.. ودّت أن تراها تتألم أو تستجدي الرحمة.. ودّت حتى أن تلعنها (آليس) أو تلعن البلدة أبد الدهر.. إلا أنه وحتى أكلت النيران وجهها ظلت صامتة، وإن كانت ابتسامتها الساخرة لم تفارق شفتيها.

لماذا يا آليس...؟!

لماذا لم تأتِ إلى كهفنا الخشبي أسفل شجرة البلوط منذ أن مارسنا الحب؟!

يعتدل (أوماري) جالساً بعد رقادٍ طال على ظهره.. ازداد الجو برودةً.. يحكم إغلاق معطفه المصنوع من شعر الماعز، وهو يضم ركبتيه إلى صدره.. انتظر (آليس) بعد تلك الليلة في الكهف الخشبي بضعة أيام، وعندما استبدَّ به القلق، ذهب إلى حيث دارها بجوار الطاحونة القديمة.. وحين طرق الباب نهاراً أمام أعين الفضوليين المندهشة.. رأى ستائر نافذة الدار المنسدلة تنزاح خفية.. ثم تعود لانسدالها.. لم تفتح الباب، هي لا تريد لقاءه.

سمع تعليقاً سخيفاً أو اثنين من متسكعي البلدة.. حسناً لن يأتي إلى الدار مرة أخرى.. قرر أن ينتظرها أسفل شجرة البلوط كل ليلة.. وبعدما مرت بضعة شهور، صُعق عندما رآها في سوق البلدة ترتدي ذلك الثوب القرمزي، تسير مرفوعة الرأس، منتفخة البطن، لم تبدو وجلة أو خائفة.. لم تحاول حتى أن تخفي عارها.. وعندما نادى باسمها.. بدت وكأنها لا تسمعه.. من خلفه سمع عجوز تقول لصديقتها: "ربما كان العرب أكثر منّا مروءة.. هم يقتلون الزانيات.. لو كانت ببلادهم لما تجرأت أن تمشي تحت سماء الرب.. ابنة الزنا!"

الجو يزداد برودة.. حان وقت العودة إلى المنزل.. يترك الغابة خلفه ويسير في اتجاه منزله على أطراف البلدة.. يرى أضواء المشاعل تنير الساحة التي تتوسط البلدة.. يسمع أصوات الهتاف.. يغيّر اتجاه سيره إلى الساحة.. يقترب منها.. يشم رائحة اللحم المشويّ.. فجأة يرى المشهد البشع.. الجسد المحروق.. أمامه وقفت الأخت (نينو) تراقبه في تشفّي.. تطلّب الأمر منه برهة حتى يفهمه.. ثم برهة أخرى ليصدقه.. يصرخ ملتاعاً، يهرول صوب الجسد التي غيبت النار ملامحه.. يتكالب عليه الجند ليمنعوه من التقدم أكثر.

- "جميعنا يعلم كم كنت تهيم بها حباً يا (أوماري).. أنت تعلم أنك فتى البلدة المحبوب.. لكننا كنا مضطرين.. فلربما أصابتك لعنتها أنت أيضا!".. يقول السيد (إيراكلي) في أسف.. يضيف: "هل تعلم أي لعنة أصابتها يا بني؟"

لماذا يا آليس؟؟

"هل هي حبلى بطفلي؟".. سأل (أوماري) نفسه عشرات المرات: "هي ليست عاهرة!! هي أحبتني!".. يدور في مخزن النبيذ كمن أصابته الشياطين بمس.. "لو كان طفلي فلماذا تنكرني؟.. أم هو طفل غيري؟ هل ستتزوجه؟ هل وعدها بالثراء؟ البلدة فقيرة.. أثرياؤها هم من يملكون ثمن عشائهم.. هل هو الحاكم؟"

اتجه إلى دارها حيث الطاحونة القديمة في جنح الليل.. لا فضوليين ليلاً.. سيسألها وستخبره.. ها هو يقترب من باب الدار.. تأتيه من الداخل أصوات صاخبة.. يسمع صوت (آليس) تضحك في مجون لم يعرفه عنها قط.. ضحكاتها تختلط بصوت بومة تنعق فوق سطح الدار.. كاد أن يطرق الباب عندما سمع ذلك الصوت خلفه.. استدار ليجد ذلك الكلب الأسود الضخم يزمجر؛ هو ينظر إليه بعينين تشتعلان مقتاً.. لم يدرِ لما تخلّت عنه شجاعته وهو من قتل الذئب.. فقط ابتعد عن الباب وعيناه لا تفارقان عيني الكلب.. ثم جدّ السيّر مبتعداً عن الدار.. وعندما قابل (بيكا أخالدزي) صاحب مزرعة الكروم متجهاً إلى الطاحونة القديمة لم يرد تحيته؛ فقد كان جسده كله يرتعد.

- "لا أعلم ماذا حلّ بها.. لم أحدثها طوال عام إلا مرة واحدة".. يجيب (أوماري) سؤال السيد (إيراكلي) بصوت خنقته عبرات متحجرة.

- "وبماذا أخبرتك؟ أنت الوحيد الذي تحدث معها في السنة الأخيرة، ومازال لسانه يعمل!".. يعود السيد (إيراكلي) للتساؤل.

لماذا يا آليس؟؟

لماذا وضعتي طفلتك سراً، والبلدة جميعها تعلم بحملك؟ لماذا لم تنادي (أسما) القابلة أو تستعيني بأحد النسوة؟ كان عائداً من دكانه في تلك الليلة عند غروب الشمس.. رآها تحمل طفلتها وتخرج من البلدة في اتجاه الغابة.. للغابة تبعها.. اقتربت من شجرة البلوط.. فوقها وقفت البومة اللعينة تنعق.. في الكهف الخشبي أرقدت رضيعتها.. ثم خلعت ثوبها القرمزي.. لم ترتدي سوى القرمزي مذ حملت بطفلتها.. صار أهل القرية يلقبونها بالمرأة القرمزية.. جسدها المرمري العاري يتدثر بأشعة الشمس الذابلة التي ألبستها ثوباً قرمزياً آخر من نور.. تجثو على ركبتيها أمام الرضيعة.. وجهها للكهف الخشبي.. يراها تهمس للرضيعة بكلمات لم يبينها.. يقترب منها ببطء.

- "اقترب يا (أوماري)".. تقولها بصوت هامس دون أن تلتفت.. كيف رأته؟! يقترب كالمنوَّم.. يراها تدمي حلمة ثديها بنصل لم يستبينه في الضوء الذابل.. تلقم رضيعتها ثدياً اختلط لبنه بدمه.. هنا لاحظ النجمة السباعية الزرقاء أعلى ثديها الأيسر.. يسألها عنها..

- "هذا نجم الصباح يا (أوماري).. هذا أنت!".. تجيبه هامسةً.

- "ابنتي؟".. يجثو على ركبتيه جوارها.. يسألها بصوت كالفحيح.. تنظر إليه بحدّة.. منذ متى صارت عيناها برتقاليتين؟ أم هو انعكاس الشمس الغاربة؟.. تضع الطفلة أرضاً وتحيط رأسه بكفيها.. تجذب رأسه إلى صدرها.. لم يقاوم.. لم يرغب حتى في المقاومة.. تلقمه ثديها الدامي وتعتصره.. يشعر في فمه بالمذاق المالح الصدئ للدم واللبن!

- "ابنتك، زوجتك، أختك، لا يهم.. هي منك وأنت منها".. تقول بصوت كالفحيح.. هل جنت أخيراً؟!.. يحدث (أوماري) نفسه.. مازال الدم الممزوج باللبن يسيل في فمه من الثدي الجريح.. تهدهده (آليس) كما تهدهد الطفل.. مرددةً أغنية لا يبينها بمقاطع ممطوطة، كان آخر ما سمعه هو بكاء الرضيعة.. نام أو غاب عن الوعي.. لا يدري..

فقط عندما استيقظ رأى النجوم تضيء السماء.. ووجد تلك البومة تحدّق فيه من قمة شجرة البلوط.. لقد ذهبت (آليس).

- "اقتلوا الطفلة.. اقتلوا ابنة الساحرة.. هي بذرة الشيطان".. تهتف إحدى شمطاوات الحشد المجتمع في ساحة البلدة، وهي تشير إلى الرضيعة ابنة (آليس).

- "أخبرتني بأن الرضيعة هي ابنتي أيها الحاكم!".. يهتف (أوماري).. هذا ما أخبرتني به (آليس) في المرة الوحيدة التي حدثتني فيها".. يوجه نظرة كارهةً للأخت (نينو): "ربما لو لم تحرقوها، لعرفت منها أكثر!".. الأخت (نينو) تحدّق في الجسد المحترق.. تبدو ذاهلة وكأنها انفصلت عن العالم.

- "اقتلوا بذرة الشيطان".. تهتف الشمطاء مرة أخرى.

- "لن تُمسَّ ابنتي بسوء".. ينتزع (أوماري) الطفلة من بين ذراعي المرأة التي تحملها.. يلتقط عصا غليظة من على الأرض المكسوة بالثلوج.. ينظر للحشد في توحش.. فتسري الهمهمات في الحشد.. يقاطعها الحاكم:

- "سكوووووت".. يصمت لحظات: "انصرف يا بنيّ.. وخذ طفلتك معك.. لكم مني الأمان"، ثم يضيف بخفوت: "يكفي مأساة واحدة لتلك الليلة".

في ركن قصي مهمل من مقابر البلدة حفروا لها، وبدون صلاة أو تابوت دفنوها.. القبر حفرة في الأرض مغطاة بلوحٍ حجري باستواء الأرض ككل قبور مملكة (ايجريسي).. وإن كان اللوح الحجري أملس بلا كتابة تخلد ذكرى الشابة الصريعة.. القبر لا تظلله أشجار كباقي القبور.. لن يحميه ظل من شمس الصيف الحارقة أو ثلوج الشتاء القارص، أمام القبر على ركبتيه جثا (أوماري) صامتاً.. تباً لتلك الدموع المتحجرة، منذ ثلاثة أيام وهي تأبى أن تنهمر فترطب حزنه القاحل.. هو يعلم أن دموعه لن تنهمر إلا بعد أن يثأر لـ (آليس).

سيقتل الأخت (نينو).. تلك العاهرة المتدثرة برداء الرب، عجائز البلدة لا يكفّون عن الثرثرة.. منهم عرف كيف أوقعت بـ (آليس) المسكينة.. هو لا يصدق أن (أليكو كاكوشادزي) كان بدارها – برغم أنه رآه ذلك اليوم متجهاً نحو الطاحونة القديمة – (آليس) لم تحب سواه.. هو لا يصدق أنها ساحرة.. ربما تلف عقل (آليس).. أتلفه حزنها على (آنا) وخوفها من المجهول.. ولكن روحها لم تتلف.. سيقتل الأخت (نينو) الحاقدة.. فقط عليه أن يكون حذراً!

هي لم تخرج من الدير منذ قُتلت (آليس).. بالأحرى لم تغادر غرفتها.. راهبات الدير يقلن أنها مريضة.. هل ترهق روحها عذابات الضمير لقتلها لـ (آليس) المسكينة؟ أم أرهقت مصرانها وجبة دسمة أكلتها احتفالاً بالتخلص من غريمتها؟

سيفه سيريحها من عذاب الضمير أو المصران على كل الأحوال!!

هجر كهفه الخشبي أسفل شجرة البلوط بعد مقتل (آليس).. عاد إلى داره فسلّم أمه الرضيعة الباكية.. ضمتها بحنان فهدأت الطفلة.. أمه تجيد الأمومة.. ستعتني بالصغيرة.

- "هل هي ابنتك حقا؟".. سألته أمه.

- "ابنتي، زوجتي، أختي، لا يهم.. هي مني وأنا منها".. أجابها (أوماري) شارداً.

الآن صارت جلسته الليلية أمام قبر (آليس) الموحش.. مازالت رائحة التربة الرطبة المحروثة تفوح من أركانه.. بجوار القبر دفن بعض بذور الأشجار المورقة الظليلة، وعلى سطحه الحجري وَضَعَ بعض الأوراق الجافة والأعشاب. على رأس

اللوح الحجري جلس مخرجاً سكيناً قصيرة.. سيصنع للقبر شاهدة تخلد ذكرى المسكينة.. على الحجر نقش:

(هنا ترقد آليس، سلام عليك يا ابنة آنا).

ثم أرَّخ اللوح الحجري بتاريخ مقتل (آليس).. ثم عاد فجلس كما كان.

يمزق سكون الليل صوت بومة وقد علا نئيجها، يرفع رأسه فيراها تحدّق به من أعلى شجرة قريبة.. من خلفه يسمع الصوت الغليظ يتردد:

"قم يا (أوماري).. فاقتل الحسود".

ينتفض جسد (أوماري).. يثب على قدميه ويلتفت.. لا أحد هناك.

"قم يا (أوماري) وخذ بثأرك".

الآن يميز تلك الأجساد التي تتحرك في الظلام.

"قم يا (أوماري) ولا تحنث بقسمك".

هم أربعة ظلال.. لا يتبين وجوههم.

- "هي في الدير.. لا تخرج.. لن أقتلها في بيت الرب!".. يقول (أوماري) بصوت مرتجف.

- "مخطئ أنت يا (أوماري).. هي مكبلة بأصفاد الخطأة عند الكهف الخشبي أسفل شجرة البلوط".. لا يستطيع تحديد من المتحدث من بين الأربعة.. مازالت البومة تنعق.. "خذ هذا السيف.. فاقتص!".. يضيف الصوت الغليظ.

تحت قدمي (أوماري) يُلقى سيف ذهبي اللون.. يبدو ثميناً.. عليه عَظَمَة قرون غابرة.. ينحني فيلتقط السيف الثقيل.. يرفع رأسه فلا يرى الظلال الأربعة.

"من هؤلاء؟".. يحدث نفسه: "لا يهم.. سأذهب إلى الغابة فأتبين.. لو صدقوا.. سأقتل الراهبة اللعينة!".

خطر له أن يكون هذا الأمر فخاً نصبه له بعض أهالي البلدة: "ليكن.. سأقتلها وإن كان هذا آخر ما أفعله في حياتي".. يحث الخطى نحو الغابة.. يهرول في اتجاه شجرة البلوط.

"كيف عرفوا بأمر الكهف الخشبي وشجرة البلوط؟ شجرة البلوط هي سريّ أنا و(آليس).. اسم الكهف الخشبي لم أحدّث به سوى نفسي! هل كنت أتوهم؟ هل بدأت أهذي أنا أيضاً؟".. الثقل المعدني للسيف الذهبي في يده يخبره أنه لا يتوهم.. "كل هذا غريب وعجيب.. كل الشواهد تقول أن شيئاً شريراً يحدث.. شيءٌ أصاب (آليس).. هل

أعمى الحب عينيك يا (أوماري)؟".. يقولها لنفسه.. الآن يشاهد جسد الأخت (نينو) العاري الضامر مكبل لجذع شجرة البلوط.. شدَّت الأصفاد إلى ذراعيها وساقيها فبدت كغراب مصلوب.. حول جذع الشجرة التي قُيدت بها الراهبة، تطوف أشباحٌ سوداء أربعة.. صوتهم يصل إلى أذنيه مقبضاً كصوت ذئب يعوي في برية.

"هه.. هه"

يراه الأشباح الأربعة فينسلُّون بعيداً.. يختفون بين الأشجار وظلال الليل.. يحسُّ (أوماري) برغبته في الثأر تفتر.. فيشعل نار حقده من جديد.. (حتى وإن كان شيئاً شريراً قد أصاب (آليس) لمَ لم تصلِّ الأخت (نينو) لخلاصها؟.. لمَ سعت إلى حرقها؟).. يقف أمام الأخت (نينو) المكبلة.. ينظر في عينيها الدامعتين.

- "لقد قتلتيها!".. يقولها بغلٍّ.

- "كنت أسمع كلام الرب!".. تقولها منتحبة.

- "بل كنتِ تستمعين لشيطان حسدك.. لطالما حسدتها.. لطالما آلمتِها بلَمَزَاتك الحقودة كما آلم جمالها دمامتك!".. اتسعت عيناه في جنون.

- "الحبُّ سحر عينيك يا (أوماري).. هي ساحرة.. سكن جسدها الشيطان!".. تخنق العبرات كلماتها فلا تكاد تُسمع.

- "وإن كانت! لمَ لم تساعديها.. لمَ لم تسعي لخلاصها!".. يهز (أوماري) رأسه في عناد.

- "وما أدراك أنني لم أفعل!".. سال أنفها كما سالت عيناها فازداد قبحها قبحاً.

يسمع حفيف جناحي البومة إذ تحط فوق شجرة البلوط.. بطرف عينه يرى الأشباح الأربعة.

- "اقتلها يا (أوماري) ولا تحنث!".. الصوت يتردد في جنبات الغابة.. ينتزع (أوماري) السيف من غمده.. ضوء القمر الفضي ينعكس عن السيف.. فيضيئ بقعة زرقاء على ثدي الراهبة (نينو) الأيسر الضامر.. نجمة سباعية كانت مختفية وسط ظلال أرخاها الليل.. يرتجف جسد (أوماري).

- "ما هذا الوشم؟".. يشير (أوماري) إلى النجمة السباعية بإصبع مرتعش.

- "هذا نجم الصباح يا (أوماري)، هذا أنت!".. تقولها الأخت (نينو) بصوت بدا كصوت (آليس).. ينظر إلى وجهها الذي كسته ملامح (آليس) الصبوح كما عرفها دوماً.. يصرخ بصوت تهتز له جنبات الغابة.. يرفع سيفه..

ثم يهوي به.

الفصل الثاني

فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم.

سفر التكوين – الإصحاح الأول – (27)

مدينه الشيخ زايد - الجيزة

الخامس والعشرون من يناير 2016

"ياسين".. ينادي (غسّان) باسم ابنه صاحب الخمس سنوات فلا يلقى إجابة.. ينتقل من غرفة إلى أخرى باحثاً عن ابنه في بيته الواسع نسبياً، في ذلك (الكومباوند) الهادئ في مدينة (الشيخ زايد).

"يااااسين".. صوت الهتاف يمتزج بصوت نحيبٍ مكتوم في صوت (غسّان).. "أنتا فين يا ابني؟!".. يدور رأسه ويشعر برغبة عارمة في التقيؤ.. يتكئ بكلتا يديه على الجدار فيلوثه بالدم.

"يا يااسين".. يتمالك نفسه أخيراً.. يهبط درج بنايته السكنية قفزاً هاتفاً باسم ابنه.. البناية تتكون من ثلاثة طوابق فقط.. بكل طابق شقتان.. تسكنها أسرٌ صغيرة شابة كأسرته.. ينفتح باب شقة في الطابق الأول.. تطلُّ منه زوجة شابة.. تبدو مستيقظة للتو، وقد أزعجها هتاف (غسان) في العاشرة صباحاً من يوم العطلة الرسمية.

- "في إيه يا دكتور (غسان)؟".
- "مشوفتيش (ياسين)؟".

هالتها هيئته.. تتراجع داخل شقتها.. تكرر بقلق: "في إيه يا دكتور (غسّان)؟!".

يجيبها (غسّان) بنظرة زائغة.. يخرج من البناية إلى هواء يناير البارد بالخارج.. البناية هي الثالثة على اليمين من مدخل (الكومباوند).. يهرول ناحية المدخل وهو يفتش بعينيه الحدائق بين البنايات القصيرة الأرجوانية اللون.. يراه رجلا الأمن على بوابة (الكومباوند) فيقفان متحفزين.

- "ماشفتوش (ياسين) ابني؟".. يسألهم بصوته المرتجف الممتزج بالنحيب المكتوم.

- "لا يا دكتور والله".. ينظران إليه باستغراب: "هو فيه إيه؟ حضرتك كويس؟"

يتركهم ويعود مهرولاً إلى البناية.. يتبعه رجلا الأمن ركضاً.. يدخل شقته مرةً أخرى.. منها إلى الشرفة.. ينظر أسفلها كأنه يبحث عن جسد طفله.. لا شيء!.. يصرخ بأعلى صوته فيجرح أحباله الصوتية..

"يا يااسين".

يخرج إلى (ريسبشن) الشقة أمام أعين فردي الأمن المذعورين.. ينهار على ركبتيه أمام جثة (مروة) السابحة في بركة من الدم.

- "السجاير غليت أوي يا دكتور (حسّان)!".. يقولها الرائد (حسام).

- "غسّان!".. يقاطعه (غسّان) في شرود.. يتأمل الرائد (حسام) وجهه.. بشرته شاهقة البياض المشربة بالحمرة.. شعره الأسود الفاحم المنسدل إلى أسفل عنقه.. هناك خصلة فضيّة من الشعر في مقدمة رأسه، زادته وسامة.. أنف طويل مستقيم.. فك عريض وشفاه رفيعة.. عينان سوداوان عميقتان أحاطت بهما هالتان داكنتان، ربما بفعل التوتر والسهر؛ فزادتا عينيه عمقاً.

- "لا مؤاخذة يا دكتور".. ينظر في أوراق أمامه: "غسّان مراد الجرجاوي".

- "الكرجاوي!".. يعود (غسّان) ليصحح للمرة الثانية: "غسّان مراد الكرجاوي".

- "أنتا أصولك مش مصرية ولا إيه؟".. يتأمل الرائد (حسام) مجدداً بشرته شاهقة البياض.

- "أنا جدي اسمه عبّاس".. يبتسم (غسّان) ابتسامة مصطنعة باهتة.

- "وإيه يعني!! ما السلطان (عبّاس حلمي) اللي كان بيحكم مصر كان تركي ابن تراكوه.. ولا ألباني باين".. يبادله الرائد (حسام) الابتسام: "تعرف.. أنا بفكّر جدياً أبطل السجاير وأتجه للمعسّل يا د.(غسّان)".. يكمل الرائد (حسام) رئيس مباحث قسم شرطة (الشيخ زايد).. يريح ظهر مقعده إلى الوراء علّه يتخلص من آلام ظهره المزمنة، فبرز كرشه واضحاً جلياً.. منذ عدة أعوام وهو يعاني من انخفاض نسبة هرمون غدته الدرقية مما جعل وزنه يزداد.. كافح زيادة الوزن بحمية قاسية وتدخين كثيف.. فلا انتصر المرض.. ولا انتصرت الحمية.. صار بين وبين.. يبدو كرئيس قسم الحسابات بإحدى الشركات عن كونه ضابط شرطة مشهود له بالكفاءة.. جال بذهنه خاطر أنه ربما بدا (غسّان) بطوله الفارع وجسده الرياضي الممشوق مناسباً أكثر لدور ضابط المباحث، لو كان لقاؤهما هذا مشهداً من فيلم سنيمائي. لا يصارح (غسّان) بفكرته.. يقول بعد لحظة صمت:

- "أنتا دكتور.. عاوز طريقة تجيب من الآخر تخليني أبطل تدخين".. لا يرد (غسّان) فقط يمد يده إلى جيبه ويخرج علبة سجائر محليّة ويشعل واحدة بأصابع مرتجفة في إجابة صامتة تحمل معنى (لو كان العلق نفع حد.. كان نفع نفسه)..

يضحك الرائد (حسّام) وهو ينظر إلى سجائر (غسّان).. توقع الأخير السؤال الغبي المعتاد (دكتور وبتدخّن؟!).. إلا أن الرائد (حسام) خيب توّقعاته.. ربما كان أذكي مما يبدو عليه.

- "بتشرب مصري؟ هو الطب مبيكسّبش ولا إيه يا دكتور.. ولا أنتا بخيل؟".. يقول الرائد (حسام) ضاحكاً.

- "إحنا بقالنا ربع ساعة بنتكلم عن السجاير يا (حسام) بيه.. أنا ابني مخطوف على فكرة!".. يقولها (غسّان) بعصبية عجز عن إخفائها.. تختفي ضحكة الرائد (حسام) عن وجهه.. ينظر لـ (غسّان) نظره طويلة.

- "ومراتك مقتولة!! مدام (مروة) الله يرحمها.. أنتا ناسيها ولا أيه؟".. يشرد (غسّان).. يعود لصدره الانطباق الذي أبى أن يفارقه منذ صباح اليوم.

الجسد المسجى أرضاً غارقاً في الدماء.. تلك النظرة المذعورة في العينين.

- "بحاول أنسى!!" يجيب (غسّان) بصوت مرتجف.

أبداً لن ينسى تلك النظرة في عينيها.. نظرة تصميم وحشيّة.. ساحرة.. في ذلك اليوم لم يرَ منها سوى عينيها.. كانت ملثمة بتلك (الحطّة) الفلسطينية التي يرتديها أبناء المقاومة.. كان بياض عينيها قد استحال احمراراً.. فبدت كأنثى ذئب غاضبة.

- "أكيد اللي قتل مروة.. هوا اللي خطف (ياسين)".. يضيف (غسّان) بعد لحظة صمت.

- "ليه؟".. يمعن الرائد (حسام) النظر في وجه (غسّان).

- "يمكن هيطلب فدية.. مش عارف!!".. يضغط (غسّان) جانبي رأسه براحتي يديه؛ كأنه يمنع عقله من الفرار.. يهز الرائد (حسام) رأسه مستنكراً.

- "الحكاية شكلها أعقد من كده يا دكتور.. خليني أفكر معاك بصوت عالي، أنتا قلت للزملاء أنك كنت في (نوبتجية) في المستشفى من الساعة التاسعة بليل للساعة التاسعة الصبح.. رجعت البيت لقيت مدام (مروة) واقعة في (الريسيبشن) بهدوم البيت و(ياسين) مختفي.. مداخل ومخارج البيت سليمة.. يعني القاتل معروف لمدام (مروة) و فتحتله الباب.. لاحظ إنه مفيش حاجة أتسرقت من البيت.. اللي قتل مش عاوز فلوس.. القاتل قتل مدام (مروة) بوحشية.. كأنه انتقام.. الطبيب الشرعي أكيد هيوضّحلنا الصورة أكتر.. بس أنتا أكيد شوفت الجروح اللي في دراعتها.. صوابعها

المتكسرة.. طبعاً مش هتكلم عن الجرح البشع اللي في صدرها".. يرتجف (غسّان) وهو يستعيد صورة المشهد.

"جرح بشع في صدره".. كان هذا أول ما قالته له (مروة) في ذلك اليوم.. صوتها خشن.. مبحوح.. ارتدى قفازات جديدة وأسرع للمصاب الذي يتكئ على ذراع (مروة) ليعاين جرحه.. كان جرحاً سطحياً في أعلى الصدر.. لم يتجاوز الجلد إلا بمليميترات.. يبدو أن خبرتها الطبية معدومة.. يومها ابتسم لها من وراء قناعه الجراحي.. القناع يقيه نسبياً من الغاز المسيّل للدموع.. ربما أفضل من (الحطّة) الفلسطينية التي تتلثم بها (مروة).. والتي من خلفها رأى عينيها الحمراوين تبتسمان بعد أن طمأنها على سلامة زميلها المصاب.

- "(مروة) الله يرحمها لها أعداء يا دكتور؟".. يسأل الرائد (حسام).

"أعدائي هم الظلم والاستغلال وسلطة رأس المال العالمي".. قالتها له (مروة) ذلك اليوم في المستشفى الميداني على أطراف الميدان.. كشاب متحمس أراد أن يشارك في تلك الثورة الشابة.. وكطبيب قرر أن أفضل ما يقدمه هو أن يساعد في إسعاف المصابين ميدانياً.. رأى (مروة) وقد نزعت لثامها عن وجهها الفاتن.. بدا جمال وجهها متناقضاً مع خشونة صوتها ونبرته المقتحمة العنيفة.. تذكر قاعدة بلاغية قالها لهم مدرس اللغة العربية في مدرسته الثانوية؛ بأن التضاد يقوي المعنى ويزيده وضوحاً.. حسناً لم تبدُ المقولة أكثر جلاء من لحظتها حين تأمل وجهها الذي زادته خشونة صوتها جمالاً!

هدأ احمرار عينيها فبدأ خضارهما الزراعي معلقاً بعيني (غسّان) بجراءة.. "أعدائي هم الرأسمالية المتحالفة مع السلطة.. أعدائي هم رجال الأعمال اللي بيمصوا عرق العمّال".. لا يفهم (غسّان) شيئاً من كلامها.. كانت مفرداتها غريبة عن عالمه.. لم يسمع تلك المفردات في نادي (هيليوبلس) حيث كان يمارس الـ (كاراتيه).. لم يسمعها في مدارس اللغات التي ارتادها.. لم يسمعها في كلية الطب.. إذاً هي نزلت الميدان للثورة على رأس المال العالمي! بدا له هذا السبب مضحكاً. تشعل سيجارة طويلة محلية الصنّع بأصابع طويلة رقيقة تبدو أوردتها الزرقاء واضحة في تناقض صارخ آخر.. "خد ولّع".. وعندما هزّ (غسّان) رأسه رافضاً.. ابتسمت بسخرية.. "ولّع يا دكتور.. محدش بيموت ناقص عمر".

- "لأ.. على حد علمي (مروة) مكنش ليها أعداء".. يجيب (غسّان).. مازال الرائد (حسام) يتطلع في وجهه بذات النظرة.

- "(مروة) كانت عضو في حركة اشتراكية أيام الثورة.. تعرف إيه عن دائرة أصدقاءها؟" يعاود الرائد (حسام) التساؤل.

"أصدقائي.. الرفيق (علاء)، الرفيق (طاهر)، الرفيقة (سهام)".. يصافحهم (غسّان) بحماسة وود.. وعلى أنغام أغنيات الشيخ (إمام) عرف (غسّان) البرجوازية والبروليتارية، والرأسمالية والاشتراكية، العولمة والأممية.. عالم كامل من المصطلحات والنظريات والمعاني يتكشف أمام عينيه الفضوليتين.. تقوده (مروة) فتضيء له ظلام ما استعصى على فهمه.. بدا له ذلك العالم أكثر إنسانية.. أكثر رومانسية.. عالم به (مروة) التي أحبها.. لو لم تكن به لصار قاسياً مملاً رتيباً كعالمنا! تخبره (مروة) عن تأميم ثروات رجال الأعمال وعدالة التوزيع.. يضحك.. يخبرها أنه لو تحققت الاشتراكية لصار جده من المُأممين.. تشاركه الضحك.. بدا له هذا العالم الذي يؤمم فيه الأغنياء كعالم بعيد خيالي.. ربما كانت (مروة) هي واقعه الوحيد.

- "أصحابها (علاء) و(طاهر) و(سهام).. (طاهر) و(سهام) أظن برا مصر بقالهم فترة.. (علاء) صحفي ليه اسمه.. عموماً علاقتها بيهم وبالحركة تكاد تكون مقطوعة من زمان.. الجواز وتربية (ياسين) شغلوها".. يصمت (غسّان) للحظات.. يستطرد: "إيه علاقة الحركة وأصحاب (مروة) باللي حصل؟".

- "يمكن أتقتلت عشان سابت الحركة؟ عشان متطلعش أسرارها برا مثلاً؟".. يرد الرائد (حسام) على السؤال بسؤال.

- "دي مش مافيا يا (حسام) بيه، ولا هي الماسونية العالمية مثلاً.. أفكارهم أفكار أحزاب سياسية كتير في العالم.. همّا أصلاً ليهم حزب تحت التأسيس!! وأنشطتهم كلها على الـ (فيس بوك).. دول شوية شباب متحمس مفيش عندهم أسرار أساساً!".. يجيب (غسّان) مستنكراً!

- "أمال تفسّر بإيه النجمة الكبيرة اللي لقيناها مرسومة على الجدار في (ريسبشن) الشقة.. مش دي نجمة الشيوعية تقريباً؟".. يعود الرائد (حسام) للتساؤل.

- "وهو اللي هيقتل هيسيب توقيعه يا (حسام) بيه؟".. يرد (غسّان) مستنكراً!

"النجمة دي توقيعنا في الفاعليات اللي بنشارك فيها".. تجيبه (مروة) عندما سألها عن النجمة الخماسية الحمراء مدببة الرؤوس الموجودة على الراية التي تحملها.. الغاز المسيّل للدموع أحال بياض عينيها دماً من جديد: "الغاز اللي بيستخدموه المرة دي مختلف".. تضحك: "هو كل ما نتعود على غاز يغيّروه!!".. كانت قد تراجعت إلى بداية شارع (محمد محمود) لتلتقط أنفاسها ومعها تراجع (غسّان).. صدره مكتوم.. أرهقه الغاز المسيّل للدموع وزادته السجائر المحلية الطويلة إرهاقاً.. يخبرها أنه يعرف أن المطرقة والمنجل هي رمز الشيوعية.. تهز رأسها إيجاباً: "المطرقة والمنجل رمز الشيوعية في السلام.. لما بيكون فيه إنتاج زراعي وصناعي.. النجمة هي شعارنا وقت الحرب!!".

يسألها وهو يفرك عينيه بقوة عن المعنى الرمزي للنجمة.. تصمت لحظات.. ثم تجيب: "المفروض إن أذرع النجمة الخمسة ترمز للأصابع الخمسة اللي في إيد العامل".. تضيف: "ناس بتقول إنها بترمز لقارات العالم الخمسة اللي هتوحدهم الأممية.. فيه رأي تاني يقول إن الخمس أذرع بتوع النجمة بيرمزوا للمكونات الخمسة للمجتمع الشيوعي (الشباب، الجيش، العمال، الفلاحين، الأنتلجانسيا)".. ترتسم البلاهة على وجه (غسّان) عند سماعه الكلمة الأخيرة.. تضحك (مروة): "الأنتلجانسيا.. الطبقة المثقفة يعني.. إحنا!!".. تقولها خريجة العلوم الإنسانية بالجامعة الأمريكية.. الثائرة التي خانت طبقتها والتحقت بالعمّال.. يتطلع (غسّان) إلى عينيها الحمراوين.. أنفها الذي يسيل.. وجهها المحتقن بالدم.. يقول لها وهو يسعل: "(مروة).. تتجوزيني؟".

- "النجمة سباعية يا (حسام) بيه!".. يستطرد (غسّان).

- "مش فاهم!!".

- "النجمة اللي على جدار الريسبشن سباعية.. نجمة الشيوعية خماسية".. يشرح (غسّان).

- "تفرق يعني؟!".. يتساءل الرائد (حسام) ساخراً.

- "أيوة.. تفرق جداً.. الخمس أذرع بتوع النجمة ليهم معنى واضح عند الشيوعيين".. يهز (غسان) رأسه مصمماً.

- "أصلها نجمة حمرا.. اللي أعرفه أن نجمة الشيوعية حمرا".. يرد الرائد (حسام).

- "يمكن اللون الأحمر مش مقصود!!".. يجيب (غسّان).

- "بمعنى؟".

- "بمعنى أن النجمة حمرا عشان مرسومة بالدم.. بدم (مروة) مراتي".

يدلّك (غسّان) ركبته المصابة براحة يده.. يثنيها ويفردها عدة مرات.. ربما مرت عليه ساعة وهو يقف أمام تلك النجمة السباعية المرسومة بالدم على جدار (الريسيبشن).. لم تعد حمراء.. صارت بنية قاتمة.. شاخ الدم الأحمر الفتيّ مرهوب الجانب، وتحول إلى ذلك الدم العجوز البنيّ كتجاعيدٍ على وجه شيخ هرم.. خَبِر كل شيء.. ولا يفصح بشيء.

البقعة الدامية البنية على أرضية (الريسبشن) تشارك النجمة السباعية في إضفاء جوٍ ثقيلٍ كئيب على روح المكان. أنهى رجال المعمل الجنائي عملهم في الشقة منذ يومين، وصار بوسعه أن يعيد ترتيب الفوضى الدموية الضاربة في أرجاء الشقة.. لكنه آثر البقاء في بيت (أنطوان) حتى يستجمع شجاعته، ويستطيع العودة إلى بيته.

يشعل سيجارته المحلية الطويلة.. ينفض الرماد على أرضية الغرفة.. حسناً.. (مروة) لن توّبخه بعد الآن.. دائماً ما وبخته كأم.. دائماً ما اعتنت به كأم.. أخبره (أنطوان) أن (مروة) تحرك فيه عقدة أوديب.. يخبره أنه أحب فيها (ماما التي تعرف كل شيء).. كان قد فقد أمه منذ صغره.. هو حقاً لا يدري.. فقط أدرك أنه توقّف عن حبها منذ زمن.. بعد عامين من الزواج صارت كتلة من الإملال.. لم يعد لها ذات الروح التوّاقة التي عرفها في الميدان، فقدت شغفها التحرري.. وتخلت عن أحلامها الأممية.. وعندما فقدت (مروة) هالة أفكارها الحالمة، لم يبقَ منها شيء.. إلا دخان سجائر طويلة محلية الصنع، وبحة خشنة في صوتها تخبره بألا ينسى إحضار حفاضات الطفل وهو عائد من العمل.

يخبره (أنطوان) أنه تعيس.. ولهذا صار الويسكي صديقه.. يضع له مكعبات الثلج في كأس الويسكي ويخبره بأنه دائماً ما كان كبرياؤه هو داءه الوبيل.. يخبره أنه دائماً ما يرفض الاعتراف بضعفه أو فشله.. لو اعترف بإصابته في نهائي بطولة الـ

(كاراتيه)، ولم يتحامل على ركبته المصابة لربما ظل بالحلبة، ولم تنتهِ مسيرته الرياضية مبكراً.. لو اعترف بفشل زواجه لأنهاه وأنهى تعاسته.

- "أدخل.. الباب مفتوح".. يقولها (غسّان) بصوت مرتفع دون أن يلتفت استجابة لطرقات مترددة على باب شقته.

- "غسّان!" ينتفض جسد (غسّان) كمن لدغه عقرب.. يلتف لمصدر الصوت بجسده كله مواجهاً فتاة في أوائل العشرينات، ضئيلة الحجم ذات شعر قصير.. ترتدي (تيشيرت) رياضي بسيط وجينز أكثر بساطة.. وجه خمري بلا مساحيق تجميل تتوسطه نظّارة طبيّة رفيعة الإطار، تغطي عينين عسليتين واسعتين تشّعان ذكاءً.

- "تُقى!".. تقترب منه (تُقى).. تحيط رقبته بذراعيها، وهي تقف على أطراف أصابعها في محاولة فاشلة لتعويض فرق كبير بين قامتها القصيرة وقامته الفارعة.. تلصق صدرها بصدره.. فتحس بانضغاط ثدييها في أسفل أضلعه.

- "انتي اتجننتي؟ انتي من امتى بتيجي هنا؟".. يزيح ذراعيها من حول رقبته ويبعدها عنه بخشونة؛ تتراجع (تُقى) وهي تنظر إليه نظرة طويلة لائمة.

- "بقالك كذا يوم مش بترد على التليفون".. تقول وعيناها لا تفارقان وجهه.

- "انتي مش عارفة المصيبة اللي أنا فيها ولا إيه؟".. يرد بعصبية بصوت أقرب للهتاف.

- "عرفت.. عرفت من برا.. زي أي حد غريب".. عيناها تتجوّل في الشقة التي طالما تخيلتها.. تتوقف عند مدخل غرفة النوم التي تبدو جلية حيث تقف.

- "مادام عرفتي.. يبقى المفروض تراعي حالتي النفسية.. أظن ده حقي!".. يحاول السيطرة على عصبية صوته.

- "كان لازم أبقى جنبك دلوقتي بالذات.. ده حقي يا (غسّان)؟!".. ترى البقعة الدموية على الأرضية.. (**هل هذا دم؟!**)

- "حق إيه؟ حقك في إنك تعمليلي فضايح وشوشرة؟".. تغلبه عصبيته مرة أخرى.

- "حق السنتين اللي عرفنا فيهم بعض.. حق كلمة بحبك اللي قولتها ليا".. الآن تنظر برهبة إلى النجمة السباعية المرسومة على الجدار وراء ظهر (غسّان).

- "(تُقى).. مش هينفع نتكلم هنا.. البيت أكيد مُراقب.. انتي كده بتودّيني في داهية على فكرة".. يجذبها من يدها متحركاً نحو الباب.. تقاومه.. عيناها معلقة برهبة بالنجمة على الجدار.

- "الرسمة دي مرسومة بالدم؟".. تقولها بصوت مبحوح.

- "يوووه.. مش وقته يا (تُقى).. يلا بقى".. يقولها (غسان) دون أن يلتفت.

- "(غسّان).. فيه نقط دم بتقع على الأرض.. النجمة دي كأنها بتنزف".. صوتها يتحول لفحيح هامس.

- "إيه العبط ده؟".. يلتف (غسّان) إلى حيث النجمة المرسومة.. ينتفض جسده.. فمن الرؤوس السبعة المدببة للنجمة كانت تسيل قطرات من الدم، دم أحمر فتيّ مرهوب الجانب.

- "طيب تمام.. أنا شوية وجاي".. ينهي (غسّان) مكالمته الهاتفية في ذلك الـ (كافيه) في حي المهندسين.. ينظر لـ (تُقى) المتوترة.. حيث جلسا على إحدى الطاولات الركنية.. بذلك الـ (كافيه) صارحته بحبها منذ عامين.. حرص على أن تكون جلستهم معزولة قدر الإمكان؛ ليبتعد عن أعين الفضوليين كما يفعل دائماً عندما يلتقيا خارجاً.. عندما يجمعهما لقاء يبدو مظهره كوالدها في أحسن الأحوال، وكـ (بيدوفيلك) في أسوأها. هو في الخامسة والثلاثين وهي في الثانية والعشرين، وعلى الرغم من أن فارق السن بينهما ليس بهذه الضخامة إلا أن (تُقى) تزيده سوءاً، بهيئتها التي تجعلها تبدو كصبية في الخامسة عشرة.. هو نفسه حسبها طفلة أحدهم قبل أن تبدأ معه تلك المقابلة الصحفية (في مستشفى الشيخ زايد حيث يعمل) منذ عامين.

- "عملت إيه؟".. تسأله متوترة.

- "بعتّ حد يأخذ مفتاح الشقة من على بوابة (الكومباوند) وينضف الشقة على ما أرجع".. يضيف المزيد من السكر إلى كوب قهوته.. ما زالت مُرَّة كالحنظل.. أو لعل تلك المرارة بحلقه هو!

- "إحنا إيه اللي نزلنا المهندسين.. أنتا ساكن في زايد وأنا ساكنة في زايد".. تستطرد: "أنا كده هتأخر!".. يشعر بدمه يفور غضباً.. يهزُّ قدمه بعصبية أسفل الطاولة.. يتطلع إليها طويلاً وقد بدت له عيناها الواسعتان – لأول مرة – غبية كعيني بقرة.

- "تُقى.. أنا مراتي اتقتلت من تلات أيام.. تفتكري لما حد يشوفك وانتي في البيت عندي.. أو وأنا بتسكع معاكي في كافيهات زايد.. تفتكري ممكن يقول إيه؟".. يقول بصوت حاول أن يجعله هادئاً.

- "إيه؟".. تسأل بجهل حقيقي.

- "هيقول قتلت مراتي عشان يخلا لي الجو مع عشيقتي.. إيه الغباوة دي!".. فشل في التحكم بعصبيته هذه المرة.. تتسع عينا (تُقى)، تبدو وكأنها قد أدركت هذه الفرضية للتو!

- "بس أنتا مش ممكن تعمل كده!!".. تصمت للحظة، ثم تستطرد بقلق: "صح؟".. لا يجيب (غسّان) على الفور.. ينظر بإمعان إلى فنجان القهوة أمامه كأنما يستجمع أفكاره.

- "(مروة) كانت مقيداني.. كلبش حاسه في إيدي".. يستطرد: "أنا كنت عاوز أسيب (مروة) من غير خسائر ليا ولا ليها.. كنت عاوز مفتاح الكلبش.. مكنتش عاوز أكسّره بشاكوش".. صوت (كريس ريا) يشدو على أنغام الموسيقى من مكبرات صوت موزعة بشكل جيد في المكان.

- "مش بيغيروا المزيكا هنا تقريباً".. تبتسم ابتسامة خفيفة.. (كريس ريا) يغني ذات الأغنية التي سمعاها سوياً في أحد أيام يناير الممطرة منذ عامين.

التكلفة عظيمة..

السعر عالٍ..

خذ كل ما تعرفه وقل وداعاً.

خبرتك الساذجة..

لا تعني شيئاً الآن...

في ذلك اليوم اندهش عندما وجدها تردد أغنية (كريس ريا).. لم يعرف الكثير ممن يحبون موسيقى (البلوز روك) التي يعشقها.. يومها نظر إلى وجهها المراهق باهتمام؛ فابتسمت كطفلة ذكية.. نفس الابتسامة التي استقبلته بها في المستشفى، عندما أجرت معه حوارها الصحفي.. كان قد استأصل ورماً ضخماً من بطن سيدة عشرينية.. وأرادت طالبة الإعلام بجامعة القاهرة أن تجري معه حواراً صحفياً لكُليتها.. يومها لاحظ نظرات الإعجاب في عينيها.. هو يعرف نظرة الإعجاب في عين الأنثى حين يراها، مساءً هاتفته لتستوضح منه بعض الأمور الطبية الخاصة بتلك الحالة.. ثم هاتفته لتستوضح منه بعض الأمور الطبية الخاصة بوالدتها.. ثم هاتفته بلا سبب معين.. ثم تكررت مكالمتهما الهاتفية عديمة السبب.. حتى تقابلا في ذلك (الكافيه) في المهندسين.

لأنه في هذا المكان..

الذي يعلم كل شيء..

يقابل من لا يبالي..

أين كنت؟

سمعتك تقول..

سأقابلك في المقهى الأزرق

مازال (كريس ريا) يشدو.. في ذلك اليوم عرف أنها تحبه.. بدت منبهرة به.. بوسامته الرجولية الناضجة.. بعلمه الذي بدا لها غزيراً.. أما هو فقد بدت له كمغامرة.. طريق لم يسلكه من قبل.. كان قد سئم (مروة).. ماما التي تعرف كل شيء ولا يبهرها شيء.. كان قد افتقد لذة الانتصارات منذ ترك حلبة الـ (كاراتيه).. وبدت له كل نظرة انبهار في عيني (تُقى) انتصاراً صغيراً.. سمع كل تأوه لـ (تُقى) في الفراش كهتافات مشجعيه في حلبة القتال.. عندما عاشرها لأول مرة أحس بالذنب تجاه (مروة)، يومها أخبر (أنطوان) بفعلته.. بدا (أنطوان) وكأنه لم يسمعه.. أعاد عليه ما قاله فأجابه في ملل:

- "أيوة يعني.. فين المشكلة؟".

- "مكنتش عاوز أخون (مروة)!"

- "بتستخدم أنتا ألفاظ غير دقيقة علمياً يا (غسّان).. مفيش حاجة اسمها خيانة!".. أضاف (أنطوان): "الست بتنتج كل شهر بويضة واحدة.. لحيوان منوي واحد.. الراجل بينتج يومياً ملايين الحيوانات المنوية.. لو بويضة واحدة هيخصبها.. لو عشرين هيخصبهم برضه.. البيولوجيا هي اللي بتفرض عليك التصرف اللي أنتا بتسميه خيانة!!".

- "يا سلام!"

- "طب بلاش دي.. زمان أوي مكنش فيه مفهوم الأسرة.. كانت كل النساء لكل الرجال.. الفحول اللي عينهم فارغة من الرجالة زي حالتك كده، كانوا بيتزاوجوا مع ستات أكتر.. فبالتالي جيناتهم انتشرت أكتر.. وخلفوا عيال عينهم فارغة برضه.. لكن الستات اللي مكنتش مكتفية براجل واحد ودايرة على حل شعرها مكنتش بتاخد بالها من ولادها فكانوا بيموتوا.. وبالتالي جينات الستات المنحلة انقرضت.. فكانت نتيجة الانتخاب الطبيعي أن بقى عندنا رجالة كتير عينهم زايغة وستات كتير بتاخد بالها من عيالها ومكتفية براجل واحد!".

- "يا راجل!".

- "متخافش يا (غسّان).. أنتا ذكر بشري متطور بشكّل جيد.. نظرية التطوّر بتقول كده".

- "دي نظرية أمك!".

أين كنت؟..

إلى أين ستذهب؟

أريد أن أعرف أخبارك..

أريد أن أذهب معك.

يحب تلك البحة الخشنة في صوت (كريس ريا).. تشبه البحة في صوت زوجته الراحلة.. يحدق في الفراغ.. تضع (تُقى) راحتها الدافئة على يده.

- "أنتا مش بتبص ليا ليه؟".. تستطرد: "خلاص بقى متخافش.. مش هجيلك البيت تاني".. ينظر إليها (غسّان).. أدرك منذ شهور أنه قد صار يسأمها.. عندما أنهى قصص انتصاراته السابقة في الـ (كاراتيه) سئمها.. عندما أنهى قصص جراحاته البارعة سئمها.. عندما أسمعها كل موسيقى (البلوز روك) التي يحبها سئمها، صارت مكالماتها ولقاءاتها عبئاً عليه.. حتى معاشرتها صارت عبئاً عليه.. صارت (مروة) أخرى.. (كلبش) آخر يريد أن يتخلص منه دون أن يحطمه.

- "(تُقى) انتي ليه مش قادرة تفهمي أن ابني مختفي ومعرفش عنه حاجة".. يرد بعصبية.. تلتمع دموع في مقلتيه: "انتي عارفة أنا حاسس بإيه؟؟".. يصمت لحظة كأنه يبحث عن تشبيه مناسب: "عارفة لما تتعثري على السلم؟؟ عارفة لحظة الذعر والخضة اللي ما بين ما تتعثري وما بين ما جسمك يتهبد على الأرض.. أنا عايش في اللحظة دي من تلات أيام.. ذعر متواصل.. قلبي حاسه في بلعومي.. لدرجة إني بحاول أبلعه تاني.. بس مش عارف يا (تُقى).. مش عارف!!".

- "عملت حاجة توصلك ليه طيب؟".. تربت على يده بحنان.

- "بلاغ البوليس طبعاً.. إعلانات على النت.. إعلانات مطبوعة.. مكافأة.. كل اللي ممكن يتعمل في الحالات اللي زي دي".. يقول (غسّان) بيأس.

- "هنلاقيه إن شاء الله.. وهنربيه سوا".. تبتسم: "وهنخلف عشرة غيره".. لا يبادلها (غسّان) الابتسام.. ينظر إليها نظرة طويلة مجدداً.. يبدو أنها تحاول أن تحل

محل (مروة).. مستحيل!! هو لن يستبدل (مروة) بـ (مروة) أخرى.. كلامها أقلقه.. صارت (تُقى) خطراً!

- "يللا أروّحك عشان متتأخريش".. يقولها بلا تعبير.. يغادران الكافيه ويستقلان سيارته (كيا سيراتو) كغيرها من سيارات أبناء الطبقة الوسطى العليا.. لا يتكلمان كثيراً طوال الطريق إلى الشيخ زايد.. يصل إلى الحي السادس عشر حيث تسكن.

- "خلاص كفاية كده".. تستطرد: "أنتا عارف يعني عشان ماما وأخويا".. أمها موظفة بهيئة حكومية ما بمدينة (6 أكتوبر).. أبوها توفِّي منذ فترة.. بمكافئة نهاية خدمته اشترت أمها تلك الوحدة السكنية الصغيرة بـ (الشيخ زايد)، بعد عقود من سكنهم بشارع (فيصل).. تودِّعه بقبلة سريعة على خده.. وتجري بخفة بين ظلال البنايات خماسية الطوابق.. لا يوجد مارة في الشوارع الضيقة بين البنايات في تلك الساعة من المساء.. يشعل (غسان) سيجارته المحلية الطويلة، ثم يعيد تشغيل سيارته، ويتحرك ببطء عبر الشوارع الضيقة الغير جيدة التمهيد.

فجأة يراها.. فتاة صغيرة بعمر ولده (ياسين)، وجهها يواجه جدار إحدى البنايات فلا يتبين ملامحها.. ترتدي ثوباً شتوياً غريب التصميم.. شعرها غزير طويل انسدل على ظهرها حتى منتصف فخذيها.. ترفع ذراعها.. تبدو وكأنها ترسم شيئاً على جدار البناية.. يقترب (غسَّان) أكثر بسيارته ليتبين الرسمة.. نجمة سباعية مدببة الرؤوس أنهتها للتو.. تتسارع دقات قلب (غسّان).. لا يجرؤ على الاقتراب أكثر.. تلتفت إليه الفتاة الصغيرة مبتسمةً.. فجأة تضع يديها على أذنيها وتصرخ بلا صوت وهي تتراجع إلى الوراء.. وقبل أن تبتلعها الظلال، خيل له أنه يرى جرح دموي طويل في رقبتها يمتد من الأذن إلى الأذن.

الفصل الثالث

فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً.

وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم.

فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ».

لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً

سفر التكوين – الإصحاح الثاني – (21-24)

- "لأ.. مش (ياسين)!".. يهز (غسّان) رأسه نافياً.

- "إتأكد يا دكتور!".. أمين الشرطة بقسم (النزهة) يضيق عينيه في ذكاء بوليسي!!

يشعر (غسّان) بالغيظ.. هو أحمق لو ظنَّه سيجهل ابنه الوحيد.. يعيد النظر إلى تلك المرأة الرثَّة الثياب.. بائسة الوجه وإلى الطفل الصغير المتعلق بذيل جلبابها.. كانت تتسوّل وهي تجر طفلها في إحدى إشارات المرور بـ (مصر الجديدة).. اشتبهت بالطفل إحدى السيدات المتشككات وبدأت في الصراخ.. لم تهدأ إلا بعد أن أشبع المارة المتسولة ضرباً وجروها هي والطفل إلى قسم الشرطة.

- "متأكد.. مش ابني!".. يقولها (غسّان) بلهجه قاطعة.

- "أصل الأطفال بيكبروا بسرعة.. شكلهم بيتغير!!".. مازال أمين الشرطة محتفظاً بلهجته ونظرته البوليسية التي تدعى الذكاء.. يصرف المتسولة وطفلها من الغرفة الضيقة كريهة الرائحة.. يضيف وهو يبتسم ابتسامة صفراء أظهرت أسناناً أكثر اصفراراً: "عموماً إحنا في الخدمة يا باشا.. لو لقينا أطفال مفقودة هبلغك علطول.. وهبلغ الزملاء في باقي أقسام البلد".. ودّ (غسان) لو لكمه في صف أسنانه العلوي فبعثرها له أرضاً.. هو حقاً لا يطيق كل هذا الغباء اللزج، ولا كل هذا المكر الساذج!!

- "شكراً".. يدسُّ في يد أمين الشرطة ورقة نقدية من فئة المئتين.. ويسرع مغادراً الغرفة الكريهة الرائحة، ثم القسم كلَّه مسرعاً.. يدخل سيارته.. يضرب المقود براحة يده بعصبيّة.. عندما تلقى هذا الاتصال في الصباح بالتوّجه إلى (قسم النزهة) كان أمله كبيراً في العثور على طفله المفقود.. ها هو يعود إلى نقطة الصفر من جديد.. يختنق بعبرات مكتومة فيبتلعها.. يشعل سيجارة وهو يدير محرك السيارة.. يمر بمتجر مشروبات شهير بـ (مصر الجديدة) ويبتاع زجاجة من الويسكي.. ثم يسلك

طريقه الطويل عائداً إلى (الشيخ زايد).. يفتح باب البيت فيرى (أنطوان) واقفاً في (الريسبشن) بثيابه الداخلية وقد أولاه ظهره.. يدير (أنطوان) رأسه وهو يحك شعره الثائر ويتثاءب كدب استيقظ لتوّه من سباته الشتوي.

- "هو اللي رسم البتاعة دي رسمها بإيه؟؟ زراديه!!".. يقولها (أنطوان) وهو يشير بذقنه إلى آثار النجمة السباعية على الجدار.. يبتسم (غسّان) رغماً عنه.. رغم كل شيء مازال (أنطوان) قادراً على انتزاع ابتسامته.

- "ليه؟".. يسأل (غسّان) وهو يضع زجاجة الويسكي على منضدة أمامه.. يتجه إلى حيث يقف (أنطوان) مقابلاً للجدار.

- "عم (سيد) مسح الأرضية ونضّف الحيطة كويس، ومع ذلك بُص.. فيه خدوش عميقة إزاي في الدهان.. كأن اللي رسم النجمة دي كان عاوز يحفرها حفر في الجدار".. يقول (أنطوان) وهو يحك كرشه الضخم أسفل (فانلته) الداخلية حمراء اللون كلون بشرته.. يضيف: "أنتا واثق أن النجمة دي ملهاش دعوة بالشيوعيين اللي (مروة) تعرفهم؟".

- "لأ.. ملهاش دعوة".. يهز (غسّان) رأسه نافياً.

- "هممم.. النجمة السباعية موجودة في علم الأردن – يفكّر (أنطوان) – هي (مروة) كان ليها أعداء بالأردن؟!".

- "أنتا أهبل يا بني؟".. يتساءل (غسّان) باستنكار.. لا يبدو أن (أنطوان) قد اكترث لإهانته.. ينظر (أنطوان) إلى الجدار بمزيد من التمعن.

- "هي البوية دي إيه؟ زيت ولا بلاستيك؟!".. يسأل (أنطوان).. يضيف: "أصل عاوز أعمل زيها في العيادة".. ينظر إليه (غسّان) مندهشاً.. رغم كل شيء مازال (أنطوان) قادراً على إثارة دهشته.

- "أنتا مروّحتش ليه يا (أنطوان)؟".. يتساءل (غسان) باسماً.

- "يعني بايت عندي تلات أيام واكل أكلي وشارب خمرتي.. وجايبني على ملا وشي امبارح من مصر الجديدة للشيخ زايد الساعة احداشر بالليل، أنا وصاحب الجلالة عم (سيد) الفرّاش عشان نسيّألك الشقة.. وفي الآخر تقولي مروّحتش ليه.. كسّلت أرجع المشوار ده كله الساعة اتنين الفجر".. يصمت لحظة ثم يضيف: "دنتا لو جايب واحدة شمال تنام معاك هتسيبها تبات عندك للصبح يا أخي!".

يبتسم (غسّان) مرة أخرى وهو ينظر لـ (أنطوان) البدين نظرة طويلة ممتنَّه.. لولا وجوده معه في تلك الظروف لانهار منذ بدايتها.

(أنطوان هالبيان) طبيب الأمراض النفسية.. واحد من أبناء الطائفة الأرمينية التي عاشت سنيناً طويلة في مصر.. (أنطوان) وأسرته لم يغادروا مصر كما غادرتها معظم الأسر الأرمينية بعد ثورة يوليو.. هو صديق (غسّان) الصدوق منذ انتقل للعيش مع جده.. أصر جدُّه (عبّاس الكرجاوي) على نقله من مدرسته الابتدائية إلى تلك المدرسة الأرمينية في مصر الجديدة.

كره أن يفرّق جدّه بينه وبين أصدقائه كما فرّق ذلك الحادث بينه وبين أسرته.. مازال يذكر انقلاب سيارة أسرته، وهم في طريقهم للإسكندرية.. قذفت السيارة جسده الضئيل خارجاً قبل أن يتدحرج في التّرعة فلم يصب بخدش.. أخرج الأهالي جثث أبيه وأمه وأخيه الأكبر من المياه الآسنة.. وعندما أتى جده لاصطحابه من المستشفى احتضنه بلوعة، وأخذ يتمتم بكلمات ملهوفة لم يبينها، وهو يتشممه كأنه يتأكد أن الحادث لم يتلفه!! كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي احتضنه فيها جدّه.. يومها همس في أذنه بصوت ثابت: "أنت وريثي..!! البذرة فيك أنت.. فاحذر!".

- "أنا همشي بقى".. ينزعه (أنطوان) من تداعي أفكاره.. يهز (غسان) رأسه ببطء.. يتجه نحو المطبخ المظلم فيتعثر بجسد ما لشخصٍ نائم وقد افترش الأرض.. يطلق سبّة بصوت عالٍ.

- "عم (سيّد) كسّل يروّح برضه".. يقولها أنطوان من خلفه وهو يرتدي قميصه.. ينّظر له (غسّان) بغيظ.. فترتسم على وجهه البدين ابتسامته العريضة.. نفس الابتسامة التي استقبله بها في مدرسته الجديدة منذ ما يقارب الثلاثين عاماً.. في ذلك اليوم جاءه حيث جلس في آخر الفصل منعزلاً كهرٍّ صغيرٍ وأخبره أن المدرسة طلبت منهم أن يعاملوه برفق لأنه يتيم.. ثم سأله:

- "يتيم يعني إيه؟ عيّان؟"

- "معرفش!.. أنا (غسّان)"

- "وأنا (أنطوان هالبيان)"

- "يعني إيه (هالبيان)؟"

- "ويعني إيه (غسّان)؟"

وكعادة الأطفال أصبحا صديقين على الفور.. وبرغم أن (غسّان) صار له عدة أصدقاء في المدرسة بعد ذلك.. إلا أن (أنطوان) كان الوحيد الذي استطاع تحمّل العزلة التي فرضها (عبّاس الكرجاوي) على حفيده في (فيلته) بـ (مصر الجديدة).. فلم يكن يسمح له بزيارة أصدقائه.. وعندما يأتي أصدقاؤه للعب معه في (فيلا) مصر الجديدة كان يطردهم بلا هوادة.. إلا (أنطوان).. دائماً ما كان يعود من نافذة غرفة (غسّان).. ويهتز خداه السمينان وهو يضحك مخبراً (غسّان) كيف تسلق سور (الفيلا)؛ لينسلَّ داخلها دون أن يراه الجد.

ظل (أنطوان) يتسلق سور (الفيلا) ومعه الكرة في طفولتهما.. ثم صار يتسلقها ومعه أشرطة الأفلام الإباحية في مراهقتهما.. ثم صار يتسلقها ومعه زجاجات الويسكي والساقطات في شبابهما المتهوّر.. ثم نضجا فتوقَّف (أنطوان) عن تسلّق السور.. تزوّج (غسَّان).. وبقي (أنطوان) مع ساقطاته وزجاجات الويسكي.

يجلب (غسَّان) كأسين من المطبخ.. يجلس على إحدى أرائك (الريسيبشن) ويصبُّ في الكأسين بعض الويسكي، وهو يراقب (أنطوان) الذي أخذ يحشر مؤخرته السمينة في سرواله (الجينز).. يناديه ليشاركه الشراب.

- "ويسكي! الساعة تلاتة الضهر! ومن غير تلج! لأ شكراً!".. يهز (أنطوان) رأسه رافضاً في استنكار.. ينظر إلى زجاجة الويسكي: "جاك دانيال؟! جايبها بكام دي؟".

- "ألف وستمية!".. يرفع (غسّان) الكأس إلى فمه ويجرعه دفعة واحدة.

- "يا بني حرام عليك فلوسك.. الوضع مبقاش زي زمان.. ابنك أولى بالفلوس..." يبتر جملته وقد انتبه لسخف ما يقول.. لا يعلّق (غسّان).. يصب مزيداً من الويسكي في كأسه.. يجرعه دفعة واحدة.. صمت ثقيل يخيّم على الغرفة.

منذ عرف (غسّان) معنى النقود، وهو يدرك أنه يملك الكثير منها.. (عبّاس الكرجاوي) يملك الكثير منها.. كانت طلبات (غسّان) المادية مجابة على الفور.. وعندما أراد استكمال دراسته العليا في الجراحة.. أرسله الجد إلى (إنجلترا) ليدرس في الكليّة الملكية.. لم يعرف لجدِّه مهنة محددة.. هو يعمل بتلك المهنة المبهمة (رجل أعمال).. لم يكن (غسّان) يدرك أي أعمال تلك التي يزاولها جده.. سمع من مربيته الثالثة وهو صغير أن جده يعمل بسمسرة الأراضي والعقارات.

كان يحب تلك المربية.. لم تتركه كما تركته المربيتان اللتان سبقتاها، أحبَّها حتى وجدها ذات صباح تتدلى من أنشوطة ثبتتها في سقف غرفتها ولسانها الأزرق يبرز خارجاً.. فتوقف عن حبها.. حلّ الغضب محلّ الحب.. لماذا تركوه؟ أبوه.. أمه.. أخوه.. مربياته؟ لماذا تركوه، وقد أحبهم بصدق.

سمع من مدرسة التربية الدينية في المدرسة أن الله إذا أحب العبد بارك له في أهله وأحباءه...

يومها بكى.. لماذا لا يحبه الله.. يومها سأل جده: "لماذا يكرهني الله؟".. مازال يتذكر ارتعاشة وجه (عبّاس الكرجاوي) وهو ينظر له نظرة طويلة.

لم يجب سؤاله، فقط أخبره أنه سيحضر له مربية جديدة.. لم تأتِ أي مربية.. ولم يطلب (غسّان) مجدداً.. تكرار الهجر، والثكل أرهق قلبه الطفل قبل الأوان.. لم يرغب في مزيد من الثكل.. اكتفى بوجه جده الصارم الخالي من المشاعر.. يعود من أعماله الغامضة؛ فيدخل إلى غرفة مكتبه.. الخادم الصعيدي الأسمر يحضر له طعامه داخلها.. جدرانها عبارة عن مكتبة ضخمة امتلأت رفوفها بالكتب من الأرض إلى السقف.. في المساء يخرج الجد من صومعته فيسأله بلهجة روتينية عن أخباره؛ فيجيبه (غسّان) بنفس اللهجة الروتينية التي تعلمّها منه.. ثم يلقي الجد عليه تحية المساء ويأوي إلى فراشة.

- "هتلاقي (ياسين) إن شاء الله".. يقولها (أنطوان) بصدق وهو يربت على كتف صديقه.. يجلس بجواره.. يقول (غسان) بعد لحظات من الصمت:

- "فاكر سبوع (ياسين) فاكر الست (أنكين) عملت إيه؟".. تشرد عيناه متذكراً لحظات دافئة.

- "رَسَمِت مثلث على الأرض وحطت جواه ياسين.. هيا كانت كاتبة إيه على المثلث".. يتساءل (أنطوان) باسماً.

- "سنوي، سانسينوي، سيمانجيلوف.. يومها قالت: إنهم ملائكة بتحفظ الطفل من الشيطانة اللي بتقتل العيال".. يرد (غسّان) باسماً.

- "أمي طول عمرها مخَّها طاقق وبتحب الدجل ده.. بس جدك أحرجها.. يومها خطف الواد من على الأرض وقالها بطلي جهل".. يضحك (أنطوان).. يضيف: "بتكره عمي من يومها".

يتذكر (غسّان) جده عندما حمل (ياسين).. تشممّه كما تشمّم (غسّان) بعد الحادث.. ثم ناول الطفل إلى (غسّان) في فتور.. لم يحمله بعدها قط.. ولم يطلب رؤيته.. مات (عبّاس الكرجاوي) منذ عام في فراشه بلا معاناة.. وعلى الرغم من ثروته التي ظنّها (غسّان) – وريثه الوحيد – هائلة.. لم يجد المحامي الذي قام بحصر ثروة (عبّاس الكرجاوي) إلا (فيلا) مصر الجديدة، وبضع عشرات من الألوف في حسابه البنكي، باع (غسّان) (الفيلا) لمقاول عظيم الكرش.. هي الآن برج سكني تحت الإنشاء.. اشترى تلك الشقة في ذلك (الكومباوند) الهادئ بالشيخ زايد حيث يعمل.. ووضع المتبقي من الملايين السبع في حسابه البنكي.

- "أنتا مش هتروح المستشفى ولا إيه؟".. يحاول (أنطوان) تغيير دفة الحديث.

- "لأ! قدَّمت على أجازة شهر".. يرد (غسّان) وهو يعيد ملء كأسه.

- "طيب.. أنا همشي بقى.. المفروض أبقى في العيادة كمان ساعتين".. ينهض.. يمدًّ يده نحو زجاجة الويسكي التي نقص ربعها: "هات بقى الأزازه دي.. كفاية كده.. صحتك!".. يقولها بلهجة تمثيلية.. يبعد (غسّان) الزجاجة عن متناول يده وهو يبتسم بسخرية.

- "لا يا شيخ؟".. يضيف: "امشي يا بني وخد عمّك (سيّد) وخد الباب في ايدك".. يشعل سيجارته الطويلة.. يتجه (أنطوان) نحو الباب.. يفتحه.. يبدو كمن تذكر شيئاً.. يلتفت إلى (غسّان): "بالنسبة للميتين جنيه اللي أنا أديتهم لعم (سيّد) لما تفك ابقى هاتهم.. أنا مش مستعجل".. ينظر له (غسّان) بدهشة.. يضحك.. رغم كل شيء مازال (أنطوان) قادر على انتزاع ضحكاته.

- "أيوة".. يجيب (أنطوان) تلك المكالمة على هاتفه المحمول.. يستمع إلى محدثه لدقيقتين: "أنا في العيادة دلوقتي".. يضيف بعد لحظات: "خلاص هستناكي... مع السلامة يا (تُقى)".

تنهي (تُقى) المكالمة.. تجلس متربعة على فراشها بغرفتها التي أوصدت بابها.. شعرها منفوش.. عيناها الذكيتان تعكَّر بياضهما باحمرار، بدا واضحاً خلف زجاج نظاراتها الطبية.. تحدق في الفراغ لبرهة.. تلتقط هاتفها المحمول مرة أخرى وتتصل بـ (غسّان).. ما من رد.. منذ رأته في (كافيه) المهندسين بالأمس وهو لا يرد على مكالماتها.. تتصل مرة أخرى.

"رد يا غبي!".. تقولها بعصبية عندما لا يأتيها الرد هذه المرة أيضاً.. تعاود الاتصال للمرة الثالثة..

ينظر (غسّان) إلى شاشة هاتفه، وقد انتزعه رنينه من غفوة قصيرة.. (تُقى) لا تمل الاتصال وهو لن يرد.. سئم حصارها له.. أصبح اهتمامها به لزجاً، وحبها عبئاً.. سيخبرها أنه لا يرغب في استكمال العلاقة.. ستبكي وتسبّه وستحزن قليلاً ثم تنسى الأمر برمته.. سيخبرها ولكن ليس الآن.. لا يملك في تلك الظروف سعة الصدر اللازمة لاستخدام عبارات مثل.. (عمري ما هنساكي) أو (انتي تستاهلي راجل أحسن مني).. سيجد (ياسين) أولاً.. سيجد (ياسين) ولتزأر العاصفة بعد ذلك.

مازال جالساً – نائماً على تلك الأريكة في (الريسيبشن) – لا يدري كم مرَّ من الوقت.. فقط لاحظ أن الشمس قد غربت منذ فترة، وأن زجاجة الويسكي قد شارفت على الانتهاء.. تباً لهذا الصداع العنيف، يكاد أن يشق رأسه.. رنين الهاتف مرة أخرى.. رسالة نصية هذه المرة.. (تُقى) مرة أخرى:

"لو مردتش يا غسّان هجيلك البيت".

هي تهدده الآن! قالها لنفسه.. صارت (تُقى) خطراً! هو يعلم ذلك منذ فترة.. لا بد أن يجد حلاً يخرجه من هذه الورطة بلا خسائر.. صوت ضوضاء ممتزجة بضحكات طفل تأتي من إحدى الغرف.. تباً لهذا الصداع.. يضع راحتي يده على جانبي رأسه.. مازال صوت الضحكات الطفولية يأتي من الغرفة.. يهتف:

"بطل دوشة يا ياسين.. بابا مصدع!!".. ينتبه فجأة لعدم معقولية ما يقول.. (ياسين) مختفي منذ أربعة أيام.. ينتفض جسده.. ينهض فيترنح بعنف..

"ياسين..؟! أنتا رجعت يا حبيبي؟".. يتجه إلى الباب الموارب لغرفة (ياسين).. الغرفة مضاءة.. شعاع من النور يهرب من الباب الموارب ليفترش أرضية الـ (ريسبشن).. يمر به ظل صغير لثانية.

"ياسين!!".. يفتح الباب.. يقلب عينيه في الغرفة الفارغة.. غرفة (ياسين) كما عهدها دائماً.. الألعاب المتناثرة في كل ركن من الغرفة الصغيرة.. خزانة الثياب المغلقة تستند لأحد الجدران في وضعها المعتاد.. النافذة المغطاة بالستائر التي تتوسط الجدار المواجه للباب.. التلفاز المعلق على الجدار الثالث.. لا أحد هناك.. هل هي هلوسة؟ مهلاً!!.. ستائر النافذة تتحرك ببطء.. هناك انبعاج صغير خلفها.. يبدو كانبعاج صنعه جسم طفل مختبئ.. يسمع الآن الضحكات الجزلة المكتومة.. لطالما أحب (ياسين) لعبة الاختباء.

يبتسم (غسّان).. يسير مترنحاً إلى حيث الستائر.. تباً للصداع!!.. يزيح الستائر وهو يهتف: "مسكتك!!".. لا شيء وراء الستائر.. يتراجع (غسّان) ببطء ووجهه للنافذة.. لا يلاحظ باب الخزانة وهو ينفتح ببطء.. يخرج منه ذراعان شاحبان لطفل صغير.. يتبعهما جسد الطفل كله.. ثيابه ثقيلة طويلة الكميّن والرقبة.. ينكز الطفل ظهر (غسان) بخفة.. فيلتفت الأخير بسرعة.. يجري الطفل إلى خارج الغرفة وهو يضحك ضحكاته الرنانة.. يتبعه (غسّان) مترنحاً..

"ياسين!".. الآن يرى الطفل في الـ (ريسبشن) خافت الإضاءة.. لا تبدو هيئته كهيئة (ياسين).. يقف أمام ذلك الجدار مواجهاً للبقعة حيث كانت النجمة السباعية.. وجهه يخفيه شعره الأشقر الذي تهدّل فغطّى عينيه.. تكفلت ظلال الغرفة بإخفاء الباقي من وجهه.. (ياسين) أسود الشعر كأبيه.. يحرك الطفل ذراعه على الجدار كأنه يرسم النجمة مرة أخرى.. ذراعه شاحب يابس الجلد.. يقترب منه (غسّان) بخطى بطيئة.. يدير الطفل رأسه لـ (غسّان).. يضع راحتي يديه على أذنيه ويصرخ بلا صوت.. الآن

يرى (غسّان) الجرح الدموي أعلى رقبة الطفل يمتد من الأذن إلى الأذن.. يتسمّر (غسّان) مكانه.. الطفل يفرد ذراعه كلها أمام وجهه كأنه يحتمي بها من شيء ما.. يكمل صراخه الصامت.. ثم يستدير ويجري مختفياً بين الظلال..

"غسّان!".. يسمع الآن الصوت الخشن المبحوح قادماً من دورة المياه.. ينتفض جسده بعنف.. قلبه يوشك أن يثب من فمه.. "هات لي (البورنس) من الدولاب".. صوت (مروة)!!.. دائماً ما كانت تنسى (البورنس) عندما تذهب للاستحمام.. يخطو تجاه باب دورة المياه المغلق بساقين ترتجفان بلا توقف.. "بسرعة يا (غسّان)!!".. يفتح باب دورة المياه بيد ترتعش.. ضوء أعمدة الإضاءة الخافتة تأتيها من نافذة صغيرة هناك على استحياء.. يمد يده مسرعاً إلى مفتاح الإضاءة ويضيئ دورة المياه.. الآن يراها.. جالسة على المرحاض وقد تهدّل شعرها، فغطّى وجهها المطرق في أرضية دورة المياه.. ترفع رأسها ببطء وتزيح شعرها عن وجهها.

- "أعملك العشا؟".. تنظر لـ (غسّان) بعينين لا سواد لهما!!.. تفرد ذراعيها أمامها.. جرحان داميان يغطّيان معصميها.

"شوفت أنتا عملت فيّا إيه".. تصرخ فجأة.

يتراجع (غسّان) بلا هدف.. يتعثر.. جانب رأسه يصطدم بالأرض بعنف.. يرتج عقله داخل جمجمته.. بمحاذاة رأسه الذي افترش الأرض.. يرى صورة مشوشة لقدمي طائر عملاق غطّاهما ريش رمادي تقتربان منه بخطوات بطيئة.. ثم يفقد الوعي...

يتنبه (غسّان) إلى رنين هاتفه المحمول الذي يأتيه خافتاً.. يرفع رأسه بصعوبة من على وسادته.. يفتح عينيه فيزعجه ضوء الشمس القادم من نافذة غرفة نومه.. كيف وصل للفراش؟!.. يتساءل.. آخر ما يتذكره بالأمس هو تعثره أمام دورة المياه.. هل كان يحلم؟ تباً للصداع! ألم ممض في جانب رأسه الأيسر.. يكاد ينزع عينه اليسرى من محجرها.. يتجاهل رنين هاتفه المحمول.. يقف أمام المرآة.. مازال يرتدي ثيابه كاملة منذ الأمس.. يبدو بحالة مزرية بعينيه المنتفختين ولحيته الطويلة وشعره المبعثر.. الآن يرى تلك الكدمة الزرقاء الكبيرة أعلى وجنته اليسرى حين تعثر بالأمس.. لم يكن حلماً إذاً!!.. هلوسات؟!.. لا بد أن يتوقف عن الشراب.. الويسكي سيفقده عقله بأسرع مما توّقع.

رنين الهاتف الخافت يأتيه من الـ (ريسبشن) مرةً أخرى.. ينظر إلى الساعة المعلَّقة على الجدار.. مازالت السابعة صباحاً.. رنين الهاتف يدلّه على مكانه أسفل إحدى الأرائك.. يرد..

- "(حسام) بيه صباح الخير".

- "صباح الخير يا دكتور.. معلش صحيتك بدري".

- "تحت أمرك.. فيه جديد؟؟".

- "عاوزك تجيلي حالاً الحي السادس عشر".

- "فين في الحي السادس عشر؟".

- "بيت (تُقى).. تعرفه؟".

يصمت (غسّان) للحظات.

- "أعرفه!".

- "كنت عارف أنك أذكى من أنك تنكر معرفتك بيه يا دكتور.. منتظرك".

يستمع إلى الصمت للحظات من سماعة الهاتف المحمول بعد أن أغلق الرائد (حسام) الخط.. أي مصيبة أوقعته بها (تُقى) الآن؟؟ عرق بارد يغمر جبهته.. يشعر

بالحمض يتصاعد من معدته إلى حلقومه.. معدته تحمَّلت الكثير من التوتر، وكثيراً من الكحول.. حان الوقت لتعترض!!.. يهرول إلى دورة المياه ويفرغ جوفه.. يشعر ببعض التحسن.. يفتح الصنبور ويصب بعض الماء البارد على رأسه ووجهه.. يحاول أن يهندم ثيابه ويصفف شعره على عجل.. يضع نظاراته الشمسية على عينيه علها تخفي تلك الكدمة أعلى وجنته اليسرى.. يغادر البيت متجهاً إلى الحي السادس عشر.

زحام فوضوي أمام مدخل البناية التي تسكن بها (تُقى).. سيارة شرطة متوقفة.. أمامها يقف سائقها يشرب كوباً من الشاي وهو يتجاذب أطراف الحديث مع سائق سيارة الإسعاف المتوقفة بدورها.. عدة سيارات أخرى تحمل لوحات حكومية متوقفة بلا نظام.

يصعد الدرج.. (تُقى) تسكن في الطابق الثالث.. معظم أبواب الشقق السكنية مفتوحة وأمامها وقفت ربّات البيوت يتطلّعن بفضول إلى كل من يمر.. أطفال البناية يركضون على الدرج صاعدين وهابطين.. بدا أن الجميع يستمتع بوقته حقاً... صوت الشيخ (عبد الباسط عبد الصَّمد) يصدح بما تيّسر من سورة (الرحمن) يأتي عالياً من الطابق الثالث.. باب الشقة التي تقطنها (تُقى) مفتوح كباب مركز تجاري في موسم التخفيضات.. أشخاص عدة يدخلون ويخرجون بلا هدف واضح!!.. تمنعه لباقته من أن يدخل بلا استئذان.. يطرق الباب المفتوح، وهو يبحث عمّن يعطيه الإذن بالدخول.

أخو (تُقى) المراهق يشير له بيده أن يدخل، وقد رسم على وجهه ملامح الخطورة؛ حيث جلس بردهة المنزل أمام شاشة (لاب توب) وصله بمكبرات صوت عملاقة يأتي منها صوت الشيخ (عبد الباسط) العالي.. غير بعيد.. بجوار مدخل إحدى الغرف تجلس أم (تُقى) تبكي وقد اتشحت بالسَّواد.. بجوارها بعض النسوة البدينات المتشحات بالسواد بدورهن، يربتن على كتفيها وهن يمصمصن شفاههن كإحدى طرق المواساة.. يرى (غسّان) السواد فينقبض قلبه.. صار الأمر واضحاً.. لا يدري أين يتجه.. يقترب من الغرفة التي جلست بجوارها أم (تُقى).. مدخلها منتهك تماماً.. الحلق الخشبي للباب مُنتزع من مكانه.. الباب نفسه يستند إلى أحد جدران الردهة في إهمال.

"كانت قافلة على نفسها الباب يا حبة عيني من امبارح العصر".. يصله صوت أم (تُقى) الباكي: "قلقت عليها.. صليت الفجر وقعدت أخبّط عليها مفتحتش".. صار بكاؤها نواحاً: "أخوها ورجالة العمارة كسروا الباب..."، يرتبك (غسّان).. يحسُّ

برغبة عارمة بإطلاق ساقيه للرياح والفرار من المكان.. يستدير محاولاً المغادرة.. يأتيه صوت الرائد (حسام) من داخل الغرفة.

- "يا دكتور!!.. أنا هنا اتفضل".. يراه (غسّان) بصعوبة داخل الغرفة.. الغرفة مزدحمة بالأشخاص، وسُحبُ دخان السجائر المعلّق في سمائها.. يعبر (غسّان) المدخل المُنْتَهَك.

- "كنت رايح فين يا دكتور؟".. يزيح الرائد (حسام) أحد الأشخاص ويقترب من (غسّان).

- "بدوّر عليك".. عينا (غسّان) تجولان في الغرفة.. يرى الجسد الضئيل المسجى على الفراش، وقد غطّته ملاءة بيضاء تلوثت بالدم في أكثر من موضع.. بقعة دم متجلطة تفترش الأرضية أسفل أحد الجدران.. الجدار نفسه عليه رسم دموي صار مألوفا!!

- "أنتا مالك؟ شكلك كأن دايس عليك قَطْرْ!!".. يتطلع الرائد (حسام) إلى وجه (غسّان) بتمعن.. بدون استئذان ينزع عنه نظارته السوداء.. يضيف: "إيه الكدمة دي؟".

- "وقعت في البيت".. يرد (غسّان) وهو ينظر إلى الرسم على الجدار.

- "وقعت في البيت!!".. يكرر الرائد (حسام) وهو يرفع حاجبيه بدهشة مصطنعة.. يلاحظ عيني (غسّان) المعلّقة بالرسم الدموي، يضيف: "نجمة سباعية تانية.. طبعاً أنتا مش محتاج أقولك الجثة دي جثة مين.. تحب تشوفها؟".. يهز (غسّان) رأسه نافياً بقوة.

- "إزاي؟".. يسأل (غسّان) بصوت مبحوح، وهو ينظر إلى الجثة المغطاة والمحاطة برجال المعمل الجنائي.. (كلابش) آخر ودَّ أن يخلعه بلا خسائر.. إلا أنه أبى إلا أن يتحطم!!

- "كسروا عليها الباب الصبح لقوها سايحة في دمها.. طبق الأصل من اللي حصل مع مدام (مروة).. جرح الصدر الوحش ده.. جروح الدراعات.. الأصابع المتكسرة".. يضيف: "مش مبتكر أنتا خالص يا دكتور!!".. ينتفض جسد (غسّان) بقوة..

- "تقصد إيه؟ أنا دخلي إيه بالموضوع ده؟".. يرتجف وجهه متوتراً.

- "علاقتك إيه بـ (تُقى) يا دكتور؟".. يسأله الرائد (حسام) بلهجة نافذة الصبر.. لا يجيب.. يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى حيث النجمة السباعية ذات الأذرع القصيرة

مدببة النهاية.. على قمة كل ذراع رمز لا يفهمه، بدا وكأن كل ذراع يشير إلى أحد الرموز، سبع رموز تحيط بالنجمة بدت كسبع حروف للغة مجهولة.

"(تُقى) الله يرحمها سهلت علينا الحكاية.. مش عاملة كلمة سر لتليفونها.. سطعشر مكالمة ليك امبارح".. يكمل الرائد (حسام).

- "مردتش عليها".. يجيب (غسّان) بسرعة.

- "ورسالة نصية (لو مردتش يا غسّان هجيلك البيت).. واضح أنك منبه عليها ماتجيش عندك في البيت.. من بعد ما كانت عندك أول امبارح".. يقولها الرائد (حسام) بلهجة خاصة.. يرتجف وجه (غسّان).. ظنه كان صحيحاً هم يراقبون منزله.

- "في صور لطيفة أوي ليك أنتا والمرحومة على تليفونها المحمول.. واضح إنها كانت أكتر من أخت عزيزة يعني.. أكيد صور زي دي أنتا مش عاوزها تظهر".. يكمل الرائد (حسام) وقد بدا أنه لا ينتظر رداً.

- "(حسام) بيه، أنتا بتلمّح أني أنا اللي قتلت (تُقى)؟".. يقولها (غسّان) بعصبية مكتومة.

- "وطّي صوتك.. لو حد من أهل البيت شمِّ خبر هيدفنوك في مكانك".. صرامة خافتة تكسو صوت الرائد (حسام).. يضيف: "أنا مش بلمّح.. أنا بتهمك أنك قتلت (تُقى) وقبلها (مروة) مراتك!!".. يكمل: "مراتك عرفت أنك بتخونها، قتلتها! و(تُقى) كانت هتفضحك فقتلتها هي كمان! بس واضح إنِّ (تُقى) الله يرحمها قاومتك.. مش زي مدام (مروة) الغلبانة".. يشير إلى الكدمة الزرقاء أعلى وجنة (غسّان) اليسرى.

يجلس (غسّان) على مقعد موضوع في الركن بإهمال.. ركبتاه ترتعشان.. يخفض رأسه ويحيط جانبيها براحتيه.. سقط بالأمس أمام دورة المياه واستيقظ على فراشه.. لا يتذكر سوى الهلوسات.. يعرف منذ فترة أن (تُقى) صارت خطراً عليه.. هل فقد عقله حقاً؟ هل كان عقله يختلق تلك الهلوسات بينما هو يتوجَّه ليقتل (تُقى)؟ هو لا يدري!! لا يملك نقطة ارتكاز واحدة ليبني عليها احتمالاته!!

- "أنتا بتقول إن أهلها كانوا في البيت.. وغرفتها مقفولة من جوه.. طيب أنا دخلت إزاي؟!".. يشير للنافذة الضيقة الموجودة في الغرفة: "دي مينفعش طفل صغير يدخل منها!!".. يضيف: "والنجمة السباعية المرسومة دي تفسيرها إيه؟".. لا يبدو كمن يدافع عن نفسه.. بدا وكأنه لديه رغبة حقيقية في الفهم حتى وإن كان التفسير سيدينه!.. ينظر إليه الرائد (حسام) نظرة طويلة متفحصة.

- "متتعبنيش يا دكتور.. أنا اللي مستني إجابات!.. يمكن تكون عاوز تقلّد سفاحين الأفلام الأمريكاني المختلين!!.. عموماً، إحنا هنعرف نطلّع منَّك الإجابات بطريقتنا"..
يشير لرجل ضخم وقف يراقب الحديث في ركن الغرفة.. يقترب الرجل الضخم من (غسّان) واضعاً يده على كتفه بقوة، منتظراً الأوامر التي همَّ الرائد (حسام) أن يوّجهها له.. يرتفع رنين الهاتف المحمول للضابط.. يستمع لمحدثه لبضع دقائق في صمت.. أخيراً يقول: "متأكد؟!".. يستمع لمحدثه مرة أخرى.. يغلق الخط.. ينظر نظرة حائرة إلى حيث النجمة السباعية.. يقلُّب كفيه في حيرة.. يتجه إلى حيث جثة (تُقى) يبدو وكأنه يفحص شيئاً بها.. يستدير مرة أخرى إلى حيث وقف (غسّان).

- "سيبه يا ابني".. يقولها بلهجة بدت مترددة للرجل الضخم.. ينظر الضخم إلى الرائد (حسام) في شك.. يكرر الأخير بعصبية: "يا ابني سيبه بقولك!".. يضيف موجهاً حديثه لـ (غسّان): "روّح دلوقتي يا دكتور.. وبالليل تعدي عليّا ضروري في القسم".

- "خير؟؟".. يسأل (غسّان).. في عينيه ألف سؤال آخر.. يمطُّ الرائد (حسام) شفتيه.

- "مدام (مروة) متقتلتش.. مدام (مروة) انتحرت!"

الفصل الرابع

من لمس القير توسخ، ومن قارن المتكبر أشبهه.

سفر حكمة (بن سيراخ) – الإصحاح الثالث عشر (1)

حسناً..

لقد سمعتم أن الحب..

يعطي بصيرة للأعمى...

تنساب أنغام الجيتار الإلكتروني من مشغل (أم بي ثري) سيارة (غسّان) فيجفل.. يضغط مكابح السيارة فيسمع صرير إطارات سيارة خلفه، إذ يضغط سائقها المكابح بدوره.. يعود ليضغط دواسة الوقود.. تحاذيه السيارة التي كانت خلفه.. يرى سائقها بطرف عينه وهو يفتح النافذة المجاورة له ويهتف:

"يا حمار!!"..

يتداخل صوت السبّة مع صوت (ستيفي راي فون) الذي يلاحق صوت الجيتار الإلكتروني في مشغل (الأم بي ثري)..

حب صغيرتي..

يجعل الشمس تشرق

إنها شيء صغير جميل

إنها فخري وفرحتي

أسمعتها له (تُقى) للمرة الأولى في غرفة ذلك الفندق حيث اعتادا أن يتقابلا.. لم يسمعها من قبل.. أخبرها بذلك فابتسمت بفخر كطفل صغير نجح في إبهار معلِّمه.. تضافر شعرها القصير ونظاراتها الطبية وابتسامتها الطفولية في منحها مظهراً صبيانياً.. رآه (غسّان) فضحك.

- "بتضحك على إيه؟".. قالتها له وهي تهتز على الإيقاع.. لم تنتظر إجابة.. طوّحت بفردتي حذائها الرياضي من قدميها الصغيرتين.. جواربها صفراء عليها

رسومات لشخصيات كرتونية.. وقفت على الفراش وأخذت تحرك ذراعيها كأنها تعزف على جيتار وهمي..

إنها شيء صغير جميل

وأنا طفلها الصغير الجميل

أجل أنا أحب صغيرتي

قلباً وروح

حب كحبنا

أبداً لن يشيخ

احمرت وجنتاها إثارة.. حبات صغيرة من العرق نبتت على جبهتها.. خلعت قميصها القصير الكميّن وطوّحته في أحد أركان الغرفة، وهي مستمرة في العزف على الجيتار الوهمي.. حمّالة صدرها الوردية تهتز وقد ناءت بثدييها.. راقبها وهو يضحك.. دعته ليشاركها الرقص فرفض.. فشل في الرقص طوال عمره..

نعم أحب سيدتي

طويلة ونحيفة

اعبثوا معها

وسترون رجلاً لئيم..

توقفت عن الرقص.. قفزت من على الفراش واتجهت نحوه، وقفت على أطراف أصابعها وأحاطت رقبته بذراعيها كما اعتادت.

- "ممكن تعمل نفسك ماخدتش بالك من موضوع (طويلة) ده!!".. ضحك وأحاط جسدها الضئيل الذي رطبّه العرق بذراعيه..

"بحبَك!!".. أضافت: "مش عاوزة حاجة غير الدقايق اللي ببقى فيها معاك".. قالتها له وهي نائمة بجسدها كلُّه على صدره.. حقاً لم تطلب منه (تُقى) أي شيء.. ربما لو لم يغيّب الموت (مروة) لاكتفت بوجودها في الظل للأبد.. وجود (غسّان) في حياتها كان منتهى رغبتها فلم تطلب المزيد... هل حقاً سئمها؟ يسأل نفسه.. لماذا لم

ينهِ علاقته بها منذ فترة إن كان قد سئمها؟ هو لا يفهم نفسه حقاً!.. لماذا عاوده شعور الثكل إن كان قد سئمها!.. لماذا تلك الغصّة المؤلمة في حلقه إن كان قد سئمها؟

- "أناني ووسخ!".. يقولها بصوت عالٍ وهو يضرب مقود السيارة.. لم يهتم إلا بنفسه.. لم يفكر إلا فيما يسعده.. لم يعبأ إلا بانتصاراته الصغيرة.. ملَّ (مروة) فخانها وتركها تزوي.. ملَّ (تُقى) فأهملها.. ربما هاتفته بالأمس لتستنجد به.. كانت خائفة مذعورة.. فاستجارت به فلم تجد إلا هاتفاً أصماً كصاحبه.

- "احضني يا (غسّان)".. قالتها له قبل أن تهم بالنهوض لارتداء ملابسها في تلك الليلة في الفندق.. أعاد تشغيل أغنية (ستيفي راي فون) مراراً وتكراراً..

أحب صغيرتي

كما أجود أنواع النبيذ

سأظل معلّق بها

حتى نهاية الزمن

- "عجباك؟".. تتساءل بجزل.. "نزلها على (أم بي ثري) العربية".. قالتها له وقد عادت ابتسامة الفخر الصبياني إلى وجهها.. أسعدها أنها أثارت إعجابه بأغنية (البلوز روك) التي لم يعرفها.. كان معلّمها وكانت تلميذته النجيبة.. نهضت من رقدتها على صدره.. راقبها وهي تعيد تغطية صدرها بحمالتها الوردية.. الآن هناك جرح دموي بشع ينتهك هذا الصدر الذي طالما التصق به.. يغيم الطريق أمام عينيه التي غطّتهما الدموع.. حزنه لمصرع (تُقى) يطغى على ذعره لاختفاء (ياسين) لبرهة.. كإيقاع طبل طغى على موسيقى الجيتار الإلكتروني في أغنية (سيفي راي فون) للحظات.. يمسح دموعه بظهر يده فتتضح الرؤية.

يصفُّ سيارته أسفل منزل (أنطوان) بمصر الجديدة.. يطفئ المحرك.. لا يغادر على الفور.. يشعل سيجارته.. يوقف تشغيل (أم بي ثري) سيارته ليطفئ حماس (ستيفي راي فون) قليلاً.. ذهبت (تُقى) وبقي (ستيفي) يغني في سيارته.. كما ذهبت (مروة) وبقت السجائر المحلية الطويلة في فمه تطلق عادمها الأبيض.. يغادر السيارة.. ينظر إلى نوافذ شقة (أنطوان) المغلقة وهو يتحسس جيبه بلا توقف.

يدق (غسّان) جرس باب شقة (أنطوان) للمرة الثالثة.. لا رد.. يعيد تحسس الورقة الراقدة في جيب سرواله.. يتذكر كلمات الرائد (حسام) الأخيرة التي قالها له قبل أن يسمح له بمغادرة منزل (تُقى).

"(تُقى) كلمت واحد اسمه (أنطوان) امبارح.. الغريب بقى أننا لقينا أن مدام (مروة) كلمت رقم (أنطوان) ده أكتر من مرة.. بس هي كانت بتحذف مكالمتها ليه من سجل المكالمات.. تفتكر ليه يا دكتور (غسّان)؟"

يدق جرس الباب مرة أخرى.. يتذكر أنه مازال محتفظاً بمفتاح الشقة.. ترك له (أنطوان) نسخة احتياطية منها عندما استضافه فيها منذ ثلاثة أيام.. يفتح (غسّان) باب الشقة المظلمة، ويدخل وهو ينادي باسم (أنطوان).. لا رد.. يأتيه صوت شخير (أنطوان) العالي من غرفة النوم.. يفتح بابها ويضغط مفتاح الإضاءة.

- "بوليس.. بوليس!!".. تهتف بها تلك الفتاة شبه العارية الراقدة على الفراش بجوار (أنطوان) وهي تنظر إلى (غسّان) بذعر.. تبدو وكأنها قد استيقظت للتو.. تهز (أنطوان) بعنف.. يستيقظ مذعوراً هو الآخر.. يرى (غسّان) فيتنفس الصعداء.. ينكز الفتاة بكوعه لتتوقف عن الصراخ.

- "إيه يا (غسّان) يا أخي!! حد يطب على الناس كده!!".. يعبث بيده أسفل الفراش باحثاً عن سرواله الداخلي.

- "بكلِّمك بقالي خمس ساعات مش بترد.. وبخبط على الباب بقالي نص ساعة".. يمطُّ (غسّان) شفتيه كمن سئم كل هذا الهراء.. يضيف: "مستنيك برا.. بسرعة!".

يغادر (أنطوان) غرفة النوم بعد خمس دقائق مرتدياً ملابسه الداخلية وهو يحك رأسه كالأجرب.. رآه (غسّان) بملابسه الداخلية أكثر مما رآه مرتدياً ثيابه.

- "منوّر يا (غسّان)!".. يتابع نظرات (غسّان) للفتاة التي خرجت لتوّها من غرفة النوم، مبعثرة الشعر ملفوفة في (بشكير) ضخم تتجه إلى دورة المياه.

- "آنسة (رشا) خطيبتي".. يقولها (أنطوان) وهو يشير إلى الفتاة.

- "علياء!!".. تقولها الفتاة وهي تمط شفتيها بلا اكتراث.

- "ها؟! أيوة.. آنسة (علياء) خطيبتي.. أنتا عارف إن (رشا) و(علياء) فيهم نفس الحروف.. فبتلخبط!!".. يتدارك (أنطوان) مسرعاً.. فيبتسم (غسّان) رغماً عنه.. تشير الفتاة بإصبعها إشارة سوقية وتدخل دورة المياه.. يتابعها (أنطوان) بعينيه للحظة، ثم ينظر إلى (غسّان) بجدية.

- "فيه إيه يا (غسّان)؟ قلقتني!! وإيه الكدمة اللي في وشك دي.. أنتا اتخانقت مع حد؟".. يقولها بقلق حقيقي.

- "إيه دي يا (أنطوان)؟".. يخرج ورقة مطوية من جيبه.

- "لقيتها فين (الروشته) دي؟".. ينظر (أنطوان) للوصفة الطبية للحظات كأنه يتأكد من اسمه المطبوع أعلاها.

- "كنت بدوّر من شويّة في حاجات (مروة) الله يرحمها.. لقيت (الروشته) بتاعتك دي".. يرد (غسّان).

ينهض (أنطوان) من على كرسيه.. يشعل سيجارة.. ينفث سحابة كثيفة من الدخان.

- "(مروة) كان عندها اكتئاب شديد في الكام شهر اللي فاتوا".. يقولها بلهجة تقريرية.

- "اكتئاب؟! مروة؟!".. يقول (غسّان) مدهوشاً، بدت كلمات (أنطوان) كصفعة على وجهه.. يضيف:

- "من إيه؟"

- "اختلال في تركيز السيرتونين والدوبامين!".. يشيح بيديه: "فيه إيه يا دكتور؟!.. أنتا نسيت الطب ولا إيه!"

- "(أنطوان) بلاش لف ودوران.. أنتا فاهم قصدي.. أنا مش بسأل عن آلية المرض.. أنا بسأل عن سببه".. يقول (غسّان) وهو يمط شفتيه.

- "وراثي.. هرموني.. مجتمعي.. وعائي.. عصبي.. أو كل دول مع بعض.. أو ولا حاجة منهم!".. يجيب (أنطوان) وهو يشيح بوجهه متفادياً عيني (غسّان).. دائماً ما كان فاشلاً في الكذب.. ينهض (غسّان) من كرسيه.. يمسك ذراع (أنطوان) بعصبية، فيخلّص (أنطوان) ذراعه بعصبية مماثلة.. يقاطعهما صوت الفتاة إذ خرجت من دورة المياه.

- "صلوا على النبي يا إخوّانا.. فيه إيه؟!".. تنقل عينيها بينهما بقلق.

- "عليه الصلاة والسلام".. يقولها (أنطوان) في خشوع.. ينظر له (غسّان) في دهشة.. في أكثر الأوقات توتراً مازال (أنطوان) قادراً على إثارة دهشته.. تدخل الفتاة مرة أخرى إلى غرفة النوم.. يقول (أنطوان):

- "(مروة) كانت عارفة إنك بتخونها!!"

- "إيه؟!".. صفعة أخرى يتلقاها على وجهه.

- "مش أنتا عاوز تعرف سبب اكتئاب مروة؟".. يقولها (أنطوان) بعصبية.. "خافت تقولك إنها عارفة.. كانت بتقولي إنك أرقى من أنك تجرحها حتى لو مبقتش تحبها.. لو واجهتك بخيانتك مكنتش هتقدر تبص في عينها تاني.. علاقتكم كانت هتنتهي، وهي كانت متمسكة بيك".. يضيف: "(مروة) كانت بتحبك أوي.. كانت بتحكيلي إنها عملت المستحيل عشان ترجع تجذب اهتمامك زي زمان.. بس أنتا مكنتش شايفها أصلا.. كنت أكبر عنصر ضغط على مرضها النفسي يا (غسّان)".

يتراجع (غسّان).. يعود ليجلس على كرسيه.

- "طب مقلتليش ليه؟".. يتمتم بصوت خافت.

- "سببين".. يفرد إبهامه: "السبب الأول خصوصية المريض.. بالذات المريض النفسي.. دي حاجة مقدّسة مقدرش أتجاهلها.. يمكن دي الحاجة الوحيدة المقدّسة بالنسبة لي!!"

- "بس معرفتي بوضع (مروة) أكيد كان هيساعد في علاجها".. يعقب (غسّان).

- "السبب التاني".. يتجاهل تعقيب (غسّان).. يفرد السبَّابَة: "(مروة) نفسها كانت رافضةً تماماً.. زي ما قلتلك كانت حريصة أنك متعرفش إنها اكتشفت موضوعك أنتا و(تُقى)".. يصمت لحظات: "بس أنا كنت هقولك لما جتلي العيادة قبل ما تتقتل بيوم.. اليوم اللي أنا كتبت فيه الروشتة اللي في إيدك".

- "وإيه اللي كان هيخليك تتجاهل الخصوصية المقدّسة لمراتي في اليوم ده؟!".. يقولها (غسّان) بنبرة سخرية.

- "إنها ابتدت تبقى خطر على نفسها.. وغالباً على اللي حواليها!".. لا يبدو أنه لاحظ نبرة السخرية في صوت (غسّان).

- " إزاي؟".. يرتجف صوته.. تلقَّى الصفعة الثالثة للتو.

- "هلوسات بصرية وسمعية".. يصمت لحظةً: "كانت بتشوف ست بتقول إنها أمك، وبتطلب منها تقتل نفسها عشان سعادتك".

- "أمي؟.. (مروة) متعرفش شكل أمي.. أنا نفسي مش فاكر شكلها!!".. يعقب (غسّان) مستغرباً.

- "(مروة) كانت ذكية.. عقلها قدر يفرق بين الهلوسات والحقيقة.. استنجدت بيا.. ودي كانت أول وآخر مرة تجيلي العيادة.. قبل كده كانت كلها استشارات تليفونية".. كعادته لا يبدو مهتماً بتعقيب (غسّان).. يضيف: "طلبت منها إنها تدخل مصحة نفسية للعلاج.. رفضت تماماً.. كتبتلها علاج مكثّف، بس كنت هكلِّمك تقنعها تدخل المصحة.. حالة زي دي مينفعش تتساب برا المستشفى.. لو كانت قادرة تفرق بين الهلوسات والحقيقة في وقتها.. بعد شوية كانت مش هتقدر".

- "فصام؟".. يتساءل (غسّان) بصوتٍ خافت.. يهزُّ (أنطوان) رأسه نافياً.

- "اكتئاب ذهاني".. يستدير مواجهاً (غسّان) بجسمه كله.. يضع إحدى قدميه على الكرسي ويبدأ بالشرح كأنه يلقي محاضرة: "الاكتئاب مش بيتطوّر لفصام.. احتمالية إن المكتئب يجيله فصام زي احتمالية أن أي واحد سليم يجيله فصام.. كمان هلوسات الفصام مش بتطلب من المريض أنه يموت نفسه.. الاكتئاب الشديد ممكن يتطوّر ويبقى معاه أعراض ذهانية زي الهلاوس.. الهلاوس دي ممكن تخليه يقتل نفسه.. طبعاً أنتا عارف أن المكتئب بالأساس عنده ميول انتحارية".. بدا مظهره مضحكاً وهو يلقي محاضرته الطبية بملابسه الداخلية حمراء اللون!!

- "وأنا كنت فين من كل ده؟.. إزاي ملاحظتش أي حاجة من دي!!".. لا يبدو أنه يوجه سؤاله لـ (أنطوان).. بدا وكأنه يلوم نفسه.

- "أنتا سارح في ملكوتك يا (غسّان).. مش بقولك (مروة) كانت بتقول أنك مش شايفها أساساً!!".. يجيب (أنطوان) على كل حال!!

- "أنا اللي قتلتها.. أنا السبب!".. صار وجهه شاحباً كورقة بلا حبر.. يقترب منه (أنطوان).. يربت على كتفه..

- "متحملش نفسك فوق طاقتها بذنب معملتوش".. يضيف: "بس إيه دخلك بموت (مروة)؟ (مروة) الله يرحمها اتقتلت".. يقول (أنطوان) برفق.

- "(مروة) انتحرت!!".. يقولها بنفس اللهجة الخافتة.

- "نعم؟!".. يفغر (أنطوان) فاه ببلاهة.. حان دوره ليندهش.

- "تقرير الطب الشرعي بيقول كده!".. يقلِّب (غسّان) يديه في حيرة!!

- "والجرح اللي في صدرها.. مفيش حد يقدر يسبب جرح زي ده لنفسه!!".. يقول (أنطوان) في دهشة.

- "معرفش تفاصيل لسه.. الرائد (حسام) طالبني بالليل.. هفهم منه".. يهزّ (غسّان) كتفيه بنفس الحيرة.. ينظر إلى وجه (أنطوان) الذي ابتلع ريقه مراراً وتكراراً؛ كأنه يحاول أن يبتلع تلك المعلومات الجديدة التي بدت له غير منطقية.. يضيف (غسّان) بعد دقيقه صمت: "هي (تُقى) كلمتك امبارح؟".

- "آه.. هي قالتلك؟!".. يشيح (أنطوان) بذراعه في ملل.

- "كان فيه إيه؟".. يتساءل (غسّان).

- "أبداً يا سيدي.. بتقولي إنها بتحلم بنجمة سباعية، وإنها صحيت متوترة جداً.. وكل شوية بتشوف نجوم سباعية على جدران بيتهم".. يقول (أنطوان) بلا اكتراث.. يضيف: "واضح إنها أعراض ما بعد الصدمة.. لما جتلك البيت وشافت الدم اللي مغرق الأرض، والنجمة السباعية المرسومة بالدم.. أعصابها متحملتش.. خفيفة أوي البنت دي".

- "وأنتا قلتلها إيه؟".. يسأل (غسّان) متوجساً.

- "مفيش.. قلتلها تعالي العيادة.. كنت هكتبلها حبوب مهدئة ولّا حاجة".. يشيح (أنطوان) بيده في ملل: "أنتا مكنتش بترد عليها ليه؟.. ناوي تخلع؟".. همَّ أن يضيف شيئاً.. يقاطعه صوت الفتاة من داخل غرفة النوم..

- "يا دكتور!"

- "أيوة يا حبيبتي.. الـ 800 جنيه عندك جوّا على الكومدينو".. يقولها بصوت عالٍ.. يضيف بصوتٍ خفيض موجهاً حديثه لـ (غسان): "الأسعار كلها بقت نار.. بس (رشا) بتعملي تخفيض".

- "علياء!".. يقولها (غسّان) شارداً.. ينظر له (أنطوان) بدهشة.. تخرج الفتاة من غرفة النوم لطّخت وجهها بأصباغ رخيصة.

- "مفيش غير 600 بس".. تضيف: "موبايلك بيرن بقاله كتير جوّا".. ينهض (أنطوان) من على كرسيه.. يوجه كلامه لـ (غسّان): "(غسّان)، إديها الـ 200 جنيه اللي أنا عاوزهم منك!!".. يتجه إلى غرفة النوم.. بينما تغادر الفتاة المنزل.. دقائق ويخرج (أنطوان) من الغرفة شاحب الوجه.. يهزّ (غسّان) رأسه متسائلاً.

- "الشغل.. بيقولوا إن جاي لي استدعاء للنيابة العامة على المستشفى".. يضيف: "مطلوب للمثول أمام النيابة اليوم مساءً".. يتساءل (أنطوان) في حيرة: "هو فيه إيه؟".

- "فيه إن (تُقى) اللي كلمتك امبارح ماتت".. يقولها (غسّان) ثم يميل إلى الأمام مفرغاً معدته مرةً أخرى أمام عيني (أنطوان) المذعورتين.

- "جروح التردد يا دكتور.. تعرفها؟".. يقول الرائد (حسام) وهو يتراجع في كرسيه ليريح ظهره.. يهزُّ (غسّان) رأسه ببطء.. أحب مادة الطب الشرعي بكلية الطب.. بها الكثير من التشويق الذي افتقدته المواد الطبية الأخرى.. يتذكر أستاذ الطب الشرعي الهرم وهو يشرح للطلبة المتسعة أعينهم ماهية جروح التردد.

- "جروح سطحية على باطن المعصم.. أو الفخذ.. غالباً بتكون جروح طولية.. ضحية الانتحار بيسببها لنفسه في لحظات تردده، قبل ما يجرح نفسه الجرح النهائي القاتل اللي غالباً بيقطع فيه شريان رئيسي.. شريان الذراع أو الفخذ".. يقول (غسّان) وهو يحدّق في الفراغ.. يرمقه الرائد (حسام) بنظرة طويلة.

- "فيه علامات تردد على ذراع مدام (مروة) الشمال.. فوق المعصم بكام سنتيمتر فوق الجرح الرئيسي، بس مفيش علامات تردد في الذراع اليمين".. يضيف: "إحنا كنا بنفكّر في موضوع (القتل بدافع انتقامي)، خصوصاً أن السلاح المستخدم مش موجود.. الأصابع المتكسرة.. جرح الصدر الكبير.. كل ده خلانا منفكرش في فرضية الانتحار.. بس تقرير الطب الشرعي قال حاجة تانية خالص".

- "إزاي؟".. يقولها (غسّان) وهو ينظر في عيني الرائد (حسام) مباشرة؛ نظرة مترددة في عيني رجل الشرطة.

- "دكتور (غسّان)، المفروض إني مقولش كل ده.. المفروض أقولك النيابة أعطت تصريح بالدفن.. وروح ادفن مراتك.. بس".. يصمت لحظات: "بس أنا بشاركك المعلومات يمكن تقدر تساعدني.. زي ما أنا عاوز أساعدك". يؤمّن (غسّان) على كلامه بإيماءة رأس.. يكمل الرائد (حسام): "شغل الشرطة أعطاني حاجة كده.. تقدر تقول موهبة.. حاسة سادسة.. الحاسة دي بتقولي أنك مش قاتل يا دكتور.. حاستي بتقول كده وتقرير الطب الشرعي بيقول كده".

يشعل سيجارة.. مصرع (مروة) ومن بعدها (تُقى) الغامضين.. اختفاء (ياسين) الطفل.. كل هذا يتحدى ذكاءه بوقاحة!! ينفث سحابة كثيفة من الدخان، يكمل:

- "تحت أظافر مدام (مروة) لقوا بقايا من دهان شقتك.. دهان الريسيبشن بالذات.. لقوا برضه الدهان مختلط بسلاميات الأصابع المتكسرة.. عارف ده معناه إيه؟".

- "لأ!".. يقولها (غسّان) بحيرة حقيقة.

- "مدام (مروة) هي اللي رسمت النجمة الكبيرة اللي على حيط الـ (ريسبشن) بإيدها.. الحبر اللي استخدمته كان دمها.. مش رسمتها بس.. دي زي ما تكون كانت عاوزة تحفرها على الجدار حفر.. لدرجة أنها كسّرت صوابعها، وهي بترسمها أو تقدر تقول وهي بتحفرها".. يقول الرائد (حسام) بصوت مازال به بقايا دهشة.

"عم (سيد) مسح الأرضية ونضّف الحيطة كويس، ومع ذلك بُص.. فيه خدوش عميقة إزاي في الدهان.. كأن اللي رسم النجمة دي كان عاوز يحفرها حفر في الجدار".. يقول (أنطوان) وهو يحك كرشه الضخم.

يتذكر (غسّان) عبارة (أنطوان).. يتخيل (مروة) وهي تغمس أصابعها في دمها المرهق وتغرس إصبعها في الجدار.. ينتصب شعر ساعديه في قشعريرة واضحة.. يبتلع ريقه بصعوبة.

- "وجرح الصدر؟ مفيش بشر يقدر يعمل كده في نفسه.. صح؟!".. يقول (غسّان) بصوت غلبه الشك.. تلقّى اليوم عدة مفاجآت تخص طبيعة زوجته، التي ظنّ أنه يعرفها كما يعرف خطوط كفه.. فاكتشف أنه لا يعرفها على الإطلاق.. صار لا يستبعد أي شيء.. ينظر الرائد (حسام) إلى أوراق أمامه.. يقرأ..

- "بمناظرة الصدر، تبيّن وجود جرح تهتكي بمنتصف الصدر مع وجود كسور تفتتيه بعظمة القص والمفاصل الضلع - قصيّة، وجروح تهتكية في الرئتين وشغاف القلب وعضلة القلب".. يكمل: "حواف الجرح غير متوّرمة، لا يوجد آثار لنزف أو تجلط.. عارف ده معناه إيه؟".

- "إن الجرح حصل بعد الوفاة".. يقول (غسّان) بصوت مبحوح.

- "بالضبط".. يطرق الضابط بقبضة مضمومة على مكتبه: "البيت مقفول.. المداخل والمخارج سليمة.. ملابس مدام (مروة) مترتبة وأزرارها سليمة.. الجروح

اللي في الدراعين والأصابع هي اللي عملتهم بنفسها.. بمعنى آخر انتحرت.. بس بعد كده، حد دخل بوسيلة ما وجرحها في صدرها بسلاح ما، بعد ما ماتت بالشكل ده.. وخطف (ياسين) بوسيلة ما.. وخرج تاني بوسيلة ما".. يقول الرائد (حسام) كأنه يفكر بصوت عالٍ.

- "وأخد السلاح اللي مروة قتلت بيه نفسها بوسيلة ما!!".. يقول (غسّان) بحيرة.

- "بالضبط كده!".. يهزّ الرائد (حسام) رأسه مؤمِّناً.

- "مين الشخص ده؟".. مازالت الحيرة طاغية على نبرات (غسّان).

- "تقصد إيه الشيء ده؟".. يقول الرائد (حسام).. يتابع: "لما بلغوني في التليفون بتقرير الطب الشرعي بتاع مراتك وأنا في بيت (تُقى) الله يرحمها.. رحت بصيت تاني على جثتها.. لقيت تقريباً نفس الآثار اللي في جثة مدام (مروة)، نفس جروح الدراعين، نفس الأصابع المتكسرة، نفس جرح الصدر، نفس الريش".

- "ريش؟!".. يتساءل (غسّان).

- "جوّا الجرح، الطبيب الشرعي لقى مخلب طائر مكسور.. لقى آثار ريش بُني ورمادي.. فحصوا الريش والمخلب المكسور".. ينظر لملامح (غسّان) المندهشة.. يتابع وهو يقرأ من الأوراق أمامه: "أثبتت الفحوصات المجراة على البقايا الحيوانية الموجودة في الجرح أنها تعود إلى طائر من فصيلة (البوميات الحقيقية) من نوع (البومه الصغيرة)".

- "إيه؟".. يقول (غسّان) بغباء حقيقي.

- "(أم قويق) يا دكتور.. متعرفهاش؟!".

فوضى من الأضواء المختلفة الألوان أحاطت به.. النجوم السباعية الملتهبة تأتي من كل مكان وتذهب إلى اللامكان.. الأصوات الخافتة حوله تتضخم، لتصنع ضجيجاً عجز عن تحمله.. يطرق برأسه وهو يغطّي أذنيه براحتي يديه وقد أغمض عينيه.

- "مالك يا (أنطوان)؟".. يقولها (غسّان) وهو يدلف إلى سيارته التي أوقفها في تلك البقعة الهادئة أمام قسم شرطة (الشيخ زايد).. كان قد خرج للتّو من القسم، وجد (أنطوان) بانتظاره أمام سيارته بعد أن أنهى تحقيق النيابة.

- "مصدّع شوية!".. ينتفض جسد (أنطوان).. ينظر لـ (غسّان).. كأنه انتزعه من حلم طويل.

- "عملت إيه في النيابة؟".. يسأل (غسّان) وهو يدير محرك السيارة.

- "سألوني عن علاقتي بيك وبـ (مروة).. سألوني عن الأدوية اللي وصفتها ليها".. يقول (أنطوان) وهو يدلّك جبهته.

- "مسألوش عن موضوع (تُقى)؟".. يسأل (غسّان) وهو يشعل سيجارته الطويلة.

- "لأ.. التحقيق كان في قضية (مروة).. هيعملولي استدعاء تاني عشان (تُقى)".. يصمت لحظات ثم يقول: "بس فيه حالة ارتباك.. الكل متلخبط.. محدش فاهم حاجه!".

- "همم".. يقولها (غسّان) في شرود وهو ينفث دخان سيجارته.. ينظر له (أنطوان).. يتأمل كدمة وجهه، وعينيه المنتفختين وشفتيه اليابستين.. ودّ أن يصرخ فيه (يلعن أبو اليوم اللي شوفتك فيه).. يبتلع ريقه فلا ينطقها.. أحس بالخجل من نفسه.. لم يسبب له (غسّان) أي مشكلات من قبل.. هو من سبب له المشكلات دائماً بنزقه وتهوّره.. مهاترات عديدة أقحمه فيها طوال سنوات صداقتهم السبعة والعشرين.. مشاجرات شوارع عدة أنقذه منها بجسده الرياضي وإتقانه للـ (كاراتيه).. ديون عدة سدّها عنه بنبله الكبير وكرمه الفياض.

حقاً هو يحبه.. منذ طفولته كان (غسّان) هو الوحيد الذي لم يسخر من جسد (أنطوان) بالغ البدانة أو بشرته الحمراء كـ (قريدس) مسلوق.

كان (غسّان) الوحيد الذي لم يهتم بدينه أو طائفته، ولم يوجّه له نظرات الشك.. حتى أبناء جاليته الأرمنية كانوا يعاملونه بتحفظ وببعض الريبة.. وهو مراهق أخبرته جدته لأبيه أنهم أقلية وسط الأقلية الأرمينية.. فعلى الرغم من أن أغلبية الأرمن يتبعون الكاثوليكية، كانت عائلة (أنطوان) تنتمي للأقلية الأرثوذكسية الجريجورية.. لكن الأتراك لم يكونوا ليفرقوا بين الطوائف.. كانوا يذبحون الكل.. فرّوا من (أرمينيا) إبّان المذابح التي أقامها لهم الأتراك، واستقروا في مصر لعشرات السنين.. غادر معظم الأرمن مصر في عهد (عبد الناصر) وبقت عائلة (أنطوان) كأحفورة متحجرة جُمّد فيها تاريخ عريق لطائفة منسيّة.

- "إيه اللي حصل في القسم؟ عرفوا مين خطف (ياسين)؟".. يقولها (أنطوان) منقذاً نفسه من تداعيات أفكاره.

- "أم قويق!!".. يقولها (غسّان) بسخرية مريرة.

- "مين؟".. يتساءل (أنطوان) مندهشاً.

- "أم قويق يا دكتور.. متعرفهاش!!".. يقولها (غسّان) مقلداً لهجة الرائد (حسام).

- "أم قويق؟!".. يتذكر (أنطوان) زوجة بواب العقار الذي يقطن فيه، وهي تنادي ابنتها الباكية بـ (أم قويق).. "أم قويق رمز للنكد والتشاؤم في الثقافة الشعبية المصرية.. بس أنا معرفش إيه (أم قويق) دي فعلياً!".

- "بومة.. نوع من البوم الصغيّر.. ده اللي أنا فهمته من الرائد (حسام) يعني".. يقلّب (غسّان) كفيه في حيرة.. يحكي لـ (أنطوان) تفاصيل ما دار في اللقاء.. يستمع (أنطوان) وقد تدلّى فكه السفلي في بلاهه.. ينهي (غسّان) كلامه.. لا يعلق (أنطوان)، ويسود الصمت لدقائق.. أخيراً يتكلم.

- "يعني عاوز تقنعني أن بعد ما (مروة) ماتت وبعد ما (تُقى) ماتت، دخل بوم ونهش الجثة؟؟ ليه إحنا فين؟ في الأدغال!!".. يهز (أنطوان) رأسه استنكاراً.

- "مش عاوز أقنعك بأي حاجة.. زي ما أنتا قلت.. مفيش حد فاهم حاجة".. يضيف بعد لحظات صمت: "هتفضل فاتح بقك كده كتير؟".. يخرج هاتفه المحمول.. يكمل: "إيه رأيك في الصورة دي؟".

- "جبتها إزاي الصورة دي؟".. يتساءل (أنطوان) وهو يتأمل صورة النجمة السباعية الدموية المرسومة على جدار غرفة (تُقى).

- "دي موجودة على موبايلات القسم كله".. يضحك (غسّان) ضحكة صغيرة عصبية.. يضيف بلهجة ساخرة: "خمسين جنيه لعسكري على باب غرفة رئيس المباحث بعتهالي.. وكان مصمم يبعتلي مقاطع ساخنة للراقصة (ليالي) بس مكنش فيه وقت الحقيقة".

- "النجمة دي فيها حاجات زيادة ماكانتش موجودة في النجمة الأولى".. يقول (أنطوان) وهو يتأمل الصورة باهتمام.

- "أيوة.. الرموز السبعة الموجودة فوق رأس كل ذراع من أذرع النجمة".. يهزّ (غسّان) رأسه باهتمام.

- "حروف جورجية".. يقولها أنطوان بلهجة تقريرية.. يضغط (غسّان) مكابح السيارة ويتوقف على جانب الطريق.

- "إيه؟".. يقولها بدهشة.

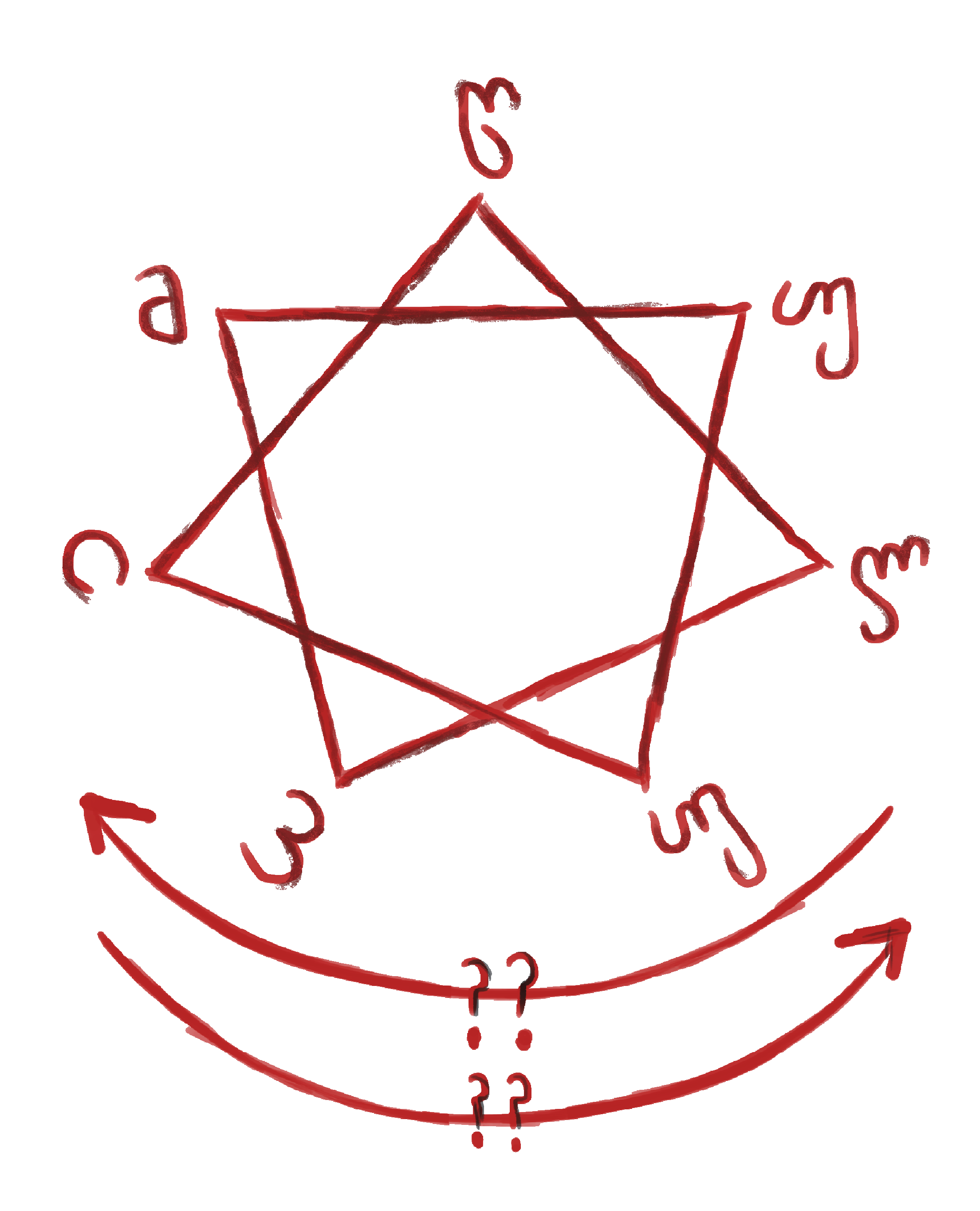
- "حروف للغة الجورجية".. يكرر (أنطوان).. يضيف: "أبويا.. الله ينيّح روحه كان عنده كتب كتير مكتوبة بالأرمينية وارثها عن أبوه وأبوه عن جده... نوع من الحفاظ على الفلكلور والتراث العائلي يعني.. عمره ما فتحهم أصلاً".. يبتسم.. يكمل: "مرة لقيت كتاب مكتوب بأبجدية تانية غير اللغة الأرمينية اللي أنا عارف حروفها كويس.. سألته عنها قالي الكتاب ده بالجورجية".

- "جورجية؟ اللي هيا جورجيا يعني؟".. يتساءل (غسّان) بغباء!

- "أيوة.. جورجيا.. دولة من دول الاتحاد السوفيتي سابقاً في منطقة القوقاز.. ليها حدود مشتركة مع أرمينيا".. يهزّ (أنطوان) رأسه.

- "وهي (تُقى) تعرف الحروف الجورجية دي منين؟ أنا واثق إنها مسمعتش عن بلد اسمها (جورجيا) أصلاً!".. يعود (غسان) ليتساءل بدهشة.. يهزّ (أنطوان) كتفيه علامة الجهل.. يضيف (غسّان): "طيب أنتا تعرف الحروف دي معناها إيه".

-"أبويا كان علمني الحروف زمان.. حاجة تسالي كده.. بس ناسي معظمها".. يصمت للحظة.. يخرج من جيبه دفتراً صغيراً وقلماً، ويبدأ في نسخ الصورة على الورق بهذه الطريقة.



يقول: "لو افترضنا أن السبع حروف دول يمثلوا كلمة مثلاً! الحروف محيطة للنجمة بشكل دائري.. فين أول حرف من الحروف؟ ولو عرفنا أول حرف.. نمشي لتاني حرف إزاي؟؟ مع عقارب الساعة ولا عكس عقارب الساعة".. يشير إلى السهمين المرسومين.

- "طب خلينا نجرب!".. يقولها (غسّان) بحماس وهو يعيد الانطلاق بالسيارة.

- "أنتا عارف ده يبقى كام احتمال؟؟.. وخصوصاً أننا منعرفش اللغة أصلاً!".. يهزّ (أنطوان) رأسه رافضاً للفكرة.

- "فيه حد عاوز يقولنا حاجة يا (أنطوان).. الحد ده خطف (ياسين) أو يعرف مكانه".. يقولها (غسّان) بتصميم.

- "أو تكون خيالات واحدة مريضة نفسياً قبل ما تنتحر".. يلاحظ (أنطوان) خيبة الأمل على وجه (غسّان).. يربت على ركبته.. يكمل بخفوت: "أنا مش عاوزك تتعلق بحبال دايبة".. يهزّ (غسّان) رأسه بلا انفعال معين.

- "بكرة دفنة (مروة) الله يرحمها بعد صلاة الضهر في مقابر الأسرة".. يقول محاولاً تغيير دفة الحديث.

- "هكون موجود طبعاً".. يرد (أنطوان) بسرعة.. تتوقف السيارة أمام منزل (أنطوان) فيغادرها صامتاً.. يشير بكفِّه لـ (غسّان) مودعاً.. يصعد إلى شقته.. يتجه إلى دورة المياه ويغسل وجهه.. يرى أحمر شفاه نسته عاهرة الليلة الماضية بجوار مرآة الحمام.. يمسكه ويخط به شيئاً على سطح المرآة اللامع، وفي عينيه نظرة متصلبة.



الفصل الخامس

وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

سفر التكوين – الإصحاح الثاني – (17)

يرتقي (غسّان) سلم بنايته المظلم.. أخبروه على بوابة (الكومباوند) أن الكهرباء مقطوعة منذ ساعة أو أقل قليلاً.. السكون يخيّم على البناية في تلك الساعة المتأخرة من الليل.. يحب السكون المظلم منذ طفولته.. هو يؤمن أننا لا نخشى ما لا ندركه.. فليحيط به ألف شيطان صامت في الظلام.. هو لن يدرك وجودهم.. إذاً هم غير موجودين!! إيمانه هذا جعله أشبه بنعامة دفنت رأسها في الرمل فاختفى أعداؤها على الفور.. يصل إلى الطابق الثالث حيث شقته.. يلهث وقد أحس بالدوار.. لم يتناول طعاماً منذ اليوم السابق.. ألم معدته والتوتر منعاه.. كان يومه حافلاً، بدأ بمصرع (تُقى) وانتهى بحروف جورجية لعينة.. يدير المفتاح في قفل الباب.. يسمع صوتاً موسيقياً خافتاً يأتي من داخل الشقة.

حسناً..

لقد سمعتم أن الحب..

يعطي بصيرة للأعمى

يتوتر كهر رأى كلباً.. هل نسي التلفاز يعمل؟ يتذكر أن الكهرباء مقطوعة.. يدخل الشقة ويضغط على أزرار الإضاءة.. يتذكر أن الكهرباء مقطوعة!! صوت (ستيفي راي فون) يأتي من غرفة النوم.. إضاءة خافتة في الداخل..

حب صغيرتي..

يجعل الشمس تشرق

إنها شيء صغير جميل

إنها فخري وفرحتي

يضيء (كشّاف) هاتفه المحمول.. يدخل إلى غرفة النوم.. الـ (لاب توب) خاصته مفتوح، وقد وُضع على (الكومود) المجاور للفراش.. منه تأتي الإضاءة الخافتة.. ومنه تأتي أنغام الجيتار الإلكتروني الممتزجة بصوت (ستيفي راي فون).. يجلس (غسّان) على طرف الفراش متوجساً.. يفحص اللاب توب بعينه.. شحن بطاريته مازال شبه كامل.. لا يوجد احتمال أنه قد تركه يعمل منذ الصباح.. همَّ بأن يغلقه.. يأتيه صوتٌ هامسٌ كالفحيح في أذنه اليمنى.

"عجباك؟!"

ينتفض من على الفراش مطلقاً صرخةً قصيرةً.. يوجّه كشّاف المحمول إلى مصدر الصوت.

"نزلها على أم بي ثري العربية"

الآن يراها.. وقفت على الفراش وهي تهتز اهتزازات متخشبة على أنغام الموسيقى.. تحرك ذراعيها الشاحبين في حركة متصلبة كمن يعزف على جيتار وهمي.

إنها شيء صغير جميل

وأنا طفلها الصغير الجميل

أجل أنا أحب صغيرتي

قلباً وروحاً

حب كحبنا

أبداً لن يشيخ

يرتجف جسده وقد تصلبت قدماه فلا يتحرك.. لشدة ما تغيرت (تُقى).. البشرة الشاحبة الجافة.. العينان البيضاوان بلا سواد.. تنظر إليه بهما وتمد ذراعيها كأنها تدعوه إلى الرقص.. الآن يرى الجروح الدموية التي تغطّي ذراعيها.. تخلع قميصها قصير الكميّن.. حمّالة صدرها الوردية تهتز وقد ناءت بثدييها.. بين الثديين جرح كبير قبيح كتجويف أسود.. منه أطلَّ رأس بومة.. وبومة وبومة.. عشرات البومات تطير من تجويف صدرها الدامي صوب (غسّان).

يطلق صرخة عالية.. يتراجع وهو يحمي وجهه.. يتعثر في الظلام.. اصطدم بمئات الأشياء التي لا يدري كنهها.. أخيراً يجد باب الشقة.. يهبط الدرج قافزاً.. يستقل سيارته ويغادر مسرعاً أمام نظرات أمن (الكومباوند) المرتابة.

- "مالك، عامل زي اللي شاف عفريت كده".. يقولها (أنطوان) وهو ينظر إلى وجه (غسّان) الشاحب.. كان قد تركه منذ أقل من ساعتين.

- "أنا بشوف حاجات".. يقول (غسّان) وهو يرتجف.

- "حاجات زي إيه؟".. يقول (أنطوان) بصوت هادئ وهو يربت على كتفه مدخلاً إياه إلى شقته.

- "بقالي يومين أو تلاتة.. بشوف أطفال مذبوحة.. بشوف (مروة).. دلوقتي شوفت (تُقى)".. يرتجف صوته: "كنت متّقل في الشرب الكام يوم اللي فاتو.. توقعت أنه الكحول.. بس النهارده مشربتش حاجة".. يكمل بصوت عالٍ: "ولسه بشوف حاجات.. وبسمع حاجات.. أنا حصلي إيه يا (أنطوان)؟".. جسده يرتجف بلا انقطاع.. يشعر (أنطوان) أن (غسّان) على شفير الانهيار العصبي.. يقترب منه ويمسك معصمه بغلظة.. ويجلسه على أحد مقاعد الردهة.. يجلس قبالته.

- "ممكن تهدى؟! أنا مش فاهم حاجة.. احكيلي بالتفصيل واحدة واحدة".. يقولها (أنطوان) بصرامة وهو ينظر مباشرة إلى عيني (غسّان) الزائغتين.. ينهض بعد أن أنهى (غسّان) حكيه... يضع قدم واحدة على الكرسي كعادته، كلما ألقى إحدى محاضراته القصيرة.

- "الويسكي.. الكحول عموماً مستحيل تسبب هلوسات سمعية وبصرية بالقوة دي".. يضيف بعد لحظة صمت: "تبطيل الكحول ممكن يسبب هلوسات سمعية وبصرية".

- "يعني الهلوسة اللي حصلتلي النهارده.. حصلت عشان مشربتش؟".. يتساءل (غسّان).. مازال جسده يرتجف.

- "برضه صعب.. الذهان الكحولي مش بيجي غير لمدمن كحول.. شخص يشرب يومياً بكميات كبيرة ويبطل مرة واحدة.. أنتا مش كده.. دي مش هلوسات ذهان كحولي إطلاقاً".. يهزّ (أنطوان) رأسه نافياً.

- "أنا اتجننت يا (أنطوان).. صح!".. يشعل سيجارته الخمسين لهذا اليوم بأصابع مرتجفة.

- "أنتا أعصابك تعبانة.. اللي مريت بيه الكام يوم اللي فاتوا مش بسيط".. يكمل: "نام كويّس وريّح جسمك.. والصباح رباح".

- "أنا خايف أروّح".. يضيف بصوت متوسل: "ممكن أبات عندك كام يوم يا (أنطوان)؟".. يرتفع حاجبا (أنطوان) بحنان.. لم يرَ (غسّان) بهذا الضعف من قبل.. تعوّد منه أن يكون قوياً.. دائماً ما أخفى ألمه وتحامل على ضعفه، كما تحامل على ركبته المصابة في نهائي بطولة الـ (كاراتيه).

- "طبعاً.. البيت بيتك.. أنا أساساً مكنتش هسيبك تروّح".. يقول (أنطوان) بصدق.. يكمل: "قوم كده أدخل الحمام واغسل وشك.. هطلعلك (بيجاما) تنام بيها".. يدخل (أنطوان) إلى غرفة النوم لجلب المنامة.. يسمع باب دورة المياه ينصفق إذ يدخلها (غسّان).. تمر دقيقتان قبل أن يأتيه صوت (غسّان) الهاتف:

- "أنتا اللي رسمت البتاعة دي؟".. يخرج (أنطوان) من غرفة النوم.. يرى (غسّان) واقفاً في منتصف الردهة.. يرتجف وقد انتفش شعره.

- "بتاعة إيه؟".. يتساءل (أنطوان) بِحيرة.. يتبع (غسّان) الذي عاد مسرعاً إلى دورة المياه.

- "النجمة دي".. يشير إلى المرآة فوق الحوض.. ينظر (أنطوان) بِحيرة إلى المرآة.. رُسمت عليها النجمة السباعية بأحمر شفاه.. أحمر الشفاه نفسه مفتوح وملقى داخل الحوض بإهمال.

- "لأ مش أنا اللي رسمتها".. يتمتم (أنطوان) بخفوت.. ينظر لـ (غسّان) بقلق.. يكمل: "(غسّان).. تعالى نام.. أنتا محتاج ترتاح".

- "لأ يا (أنطوان)، ما هو أنا متجننتش لدرجة إني أرسم حاجات معرفهاش".. يهتف (غسّان).. جسده يرتعد.. يتجه (أنطوان) إلى الصيدلية الصغيرة المعلقة في ركن دورة المياه.. يخرج (أمبولة) ما ومحقن.. يعبئ المحقن بخبرة.

- "هات ذراعك".. يقول (أنطوان) بنفاذ صبر.

- "إيه ده؟".. يسأل (غسّان) بعصبية.

- "مهدئ.. فاليوم".. يمسك بذراع (غسّان).. يقاومه الأخير ويسحب ذراعه.

- "أنا كويس!!".. يهتف (غسّان).. يخرج إلى الردهة مرتعداً.. ينظر له (أنطوان) لحظة في تردد ثم يحسم أمره.. يدفعه على الكرسي ويضغط عليه بثقل جسمه كله محاولاً الوصول إلى ذلك الوريد المنتفخ في ذراعه.. يسقط الكرسي الخشبي بهما أرضاً.. مازال (أنطوان) متمسكاً بذراع (غسّان)..

- "أنتا محتاج تنام.. محتاج تنام".. يكررها (أنطوان) مراراً.. أخيراً يفرغ المحقن في ذراع (غسّان).. ظل راقداً عليه بوزنه الثقيل كله لما يقارب الخمس دقائق حتى هدأ جسده وارتخى.

- "يوه!.. شكلي جيت في وقت مش مناسب!".. تقولها عاهرة الأمس وهي تحدّق في (أنطوان) الراقد فوق (غسّان) بخبث.. ينظر لها (أنطوان).. نسى باب الشقة مفتوحاً بعد ما فتحه لـ (غسّان).. يمط شفتيه بمعنى أنه لا وقت لهذا الهراء.. يحاول حمل (غسّان) الفاقد الوعي.

- "تعالي شيليه معايا يا (رشا) ندّخله جوّا".. يقولها (أنطوان) وهو يلهث.

- "علياء!!".. تساعده الفتاة حتى يمددا الجسد الفاقد للوعي على فراش صغيرٍ بغرفة جانبية.

- "شكراً يا (رشا).. معلش روحي انتي النهارده.. انتي شايفة الظروف".. يعطيها ورقة مالية من فئة المائتين.. تهزّ الفتاة كتفيها بمعنى (أياً كان!).. تغادر الفتاة الشقة.. يُحكم (أنطوان) إغلاق الباب خلفها.. يشرد قليلاً وعيناه تحدّق في الفراغ.. يدخل غرفة نومه وشفتاه تتمتمان بشيء ما.

يسير داخل غابة كثيفة الأشجار.. الآن يراها واقفة أمام شجرة بلوط ضخمة.. تواجه شجرة البلوط فلا يرى سوى ظهرها.. بدت كـ (مروة) زوجته.. تخلع ثوبها القرمزي.. جسدها المرمري العاري يتدثر بأشعة الشمس الذابلة التي ألبستها ثوباً قرمزياً آخر من النور.

"اِقترب يا (غسّان)".. تقولها له بلا صوت.. هو – فقط – شعر بالصوت بداخله.. يحاول الاقتراب بلا جدوى.. قدماه تزنان أطناناً.. فجأة تندفع الحشود البشرية من كل مكان.. وجوههم مشوّهة وأنوفهم مجدوعة.. تتقاذفه أمواج الحشود يمنةً ويسرة؛ كمركب ورقي وسط محيط ثائر.. يسقط أرضاً في وحل مظلم.. يحاول النهوض بلا جدوى.. ها هو يرى الحشود تحيط بالمرأة العارية، تمتد أياديهم الجشعة لتعبث بأردافها الممتلئة.. لا يرى وجهها.. لم تعد هيئتها كهيئة (مروة).. بدت أشبه بـ (تُقى).. تقيدها الحشود إلى عمود حجري.. الآن يرى وجهها.. صفحة بيضاء بلا ملامح.. لا تتوقف الحشود عن العبث بجسدها العاري.

"النجدة يا (غسّان)!".. تهتف المرأة عديمة الملامح.. يحاول النهوض مرة أخرى بلا جدوى.. الآن يرى الحشد يقرِّب منها مشاعل عدة.. يرى جسدها يحترق.. يبكي فلا يجد دموعاً.. يصرخ، فيحشر الصوت في حلقومه ثم ينفجر في جوفه كألف قذيفة حارقة.. النار تأكل المرأة.. ينصرف الحشود مهللين.. تدير المرأة وجهاً محترقاً بلا ملامح لـ (غسّان)، وترمقه بنظرة لائمة بلا عينين.. تسير المرأة المحترقة عائدةً إلى حيث شجرة البلوط، تمد يدها لتلتقط يد طفل صغير.

"ياسين!".. يصرخ (غسّان) فيخرج صوته أخيراً متحشرجاً خفيضاً.. يحاول النهوض من الوحل المظلم مجدداً، فينهض بعد عناء.. تسير المرأة نحو ما بدا أشبه بمقابر نبتت من العدم.. تعبر المدخل الحجري.. المدخل تعلوه قبَّة نحت عليها ملاكين مجنحين متقابلين، يبكيان بدموع حجرية.. يتبع هو المرأة المحترقة بخطوات بطيئة

متعثرة.. شواهد القبور هي ألواح حجرية باستواء الأرض تغطّي فتحات القبور.. على الألواح الحجرية كلمات بحروف لا يفهمها.. تتوقف المرأة أمام قبر مفتوح.. بجواره لوحه الحجري العاري من الكلمات.. القبر محاط بأشجار الأرز.. بدت جذورها ظاهرة لعينيه فوق الأرض، وهي تمتد نحو القبر وكأنها تشرب من دماء الموتى.. ينظر (ياسين) إليه ويلوح بيده مودعاً.. تخطو المرأة المحترقة إلى القبر جاذبةً معها (ياسين).. يغيبا داخل القبر أمام عيني (غسّان) الملتاعتين.. تمدُّ المرأة يداً محترقة ساحبةً اللوح الحجري العاري ليغطّي فوّهة القبر.. يصرخ مجدداً بصوت متحشرج.. أخيراً تحط به قدماه الثقيلتان أمام القبر.. يسقط على ركبتيه باكياً بلا دموع.. فيرفع صوته بالنشيج.

"انهض وخذ بثأرك!".. صوت صامت يتردد في داخله مرةً أخرى.. يتلفّت حوله فيرى جدّه يرمقه بنظرة صارمة مشتعلة.. يلقي الجدّ له بسيف ذهبي يبدو عليه القدم.. يتلفّت حوله باحثاً عن عدوّ لا يعرفه، وهو يطوّح بالسيف يمنةً ويسرة.. في داخله يناديه صوت نسيه منذ زمن.

- **"أمي!"..** الآن يراها.. لا يتذكر ملامحها جيداً؛ ولكنه يدرك أنها هي.. يقترب منها بقدمين ثقيلتين فتتراجع لتقف بجوار جدّه تهتف داخله بصوت هادر:

"اذهب وخذ بثأرك!".. يرى جسدها يهتز.. يتفكك إلى عشرات البوَم.. يطير البوْمُ نحوه ناعقاً بصوت حاد.. يصرخ هو بصوت متحشرج.. يطوّح بسيفه يمنة ويسرة مبعداً البوم.. تحاول إحداها خدش وجهه ببراثنها، فيبتر قدمها بالسيف.. ينفجر في وجهه الدم الحار.. يصرخ.. يسعل.. يهتز جسده بقوة.. يصرخ.. يسمع من ينادي اسمه.. يصرخ.. يهتز جسده من جديد، وهو يسمع تكرار النداء.

- "(غسان).. اِصحى!!".. يفتح (غسّان) عينيه.. ثم يعود لإغلاقهما وقد آذاه ضوء الشمس.

- "الساعة كام؟".. يتساءل بصوت أزال التوتر آثار النعاس فيه.

- "سبعة الصبح".. يجيب (أنطوان).. يضيف: "كنت بتحلم حلم مش حلو.. صح؟".

- "كابوس!".. يتمتم (غسّان).. يربت (أنطوان) على كتفه.

- "طيب.. أنا عملت فِطار.. قوم كُل لقمة.. النهاردة يومك طويل".. يقول (أنطوان) وهو ينهض من على حافة الفراش الذي أرقد عليه (غسّان) بالأمس متجهاً

نحو باب الغرفة.. يتوقف فجأة وهو يحملق في شيء ما على الأرض: "إيه ده؟!".. يتساءل وهو ينحني على ركبتيه متفحصاً ما وجده.. ينهض (غسّان) من على الفراش بدوره.. يرى الشيء الذي أمسكه (أنطوان) متقززاً.. ينتفض جسده.. ثم تنبسط أساريره.. يختطف الشيء من يد (أنطوان) أمام عينيه المندهشتين.

- "أنا مش مجنون يا (أنطوان).. مش بهلوس!!".. يهتف (غسّان) متحمساً.

- "إيه دي أصلاً؟".. يتساءل (أنطوان) في حيرة.

- "دي رجل البومة".. يلوّح (غسّان) بالقدم المخلبية التي غطّاها الريش الرمادي والبني.. يضيف: "رجل البومة.. أم قويق اللي قطعتها في الحلم!".. يتابعه (أنطوان) في حيرة وهو ينهض مرتدياً ثيابه على عجل.

- "رايح فين؟ لسه بدري على الدفنة".. يتساءل (أنطوان).

- "مصطفى عبد العظيم".. يضع القدم المبتورة في أحد الأكياس البلاستيكية في حرص.

- "بتاع بيطري!".. يقولها (أنطوان) كأنه يبصق.

- "أستاذ مساعد في طب بيطري دلوقتي".. يرتدي حذاءه.. يضيف: "شكلي كويس؟".

- "جداً.. نسخة من (جورج كلوني) لو داسه قطر أرياف".. يجيب (أنطوان) بجدية.

- "كويس! أشوفك في الدفنة".. يخرج مسرعاً صافقاً الباب خلفه بصوت عالٍ.

تتابع عيناه جسد (مروة) الملفوف بالأبيض إذ يغيب داخل القبر.. خطط لم تتحقق وأحلام محبَطة تغيب معها.. على الجانب الآخر من القبر – وسط الغبار الذي أثارته أقدام المشيعين – يرى أباها وأخاها ينظران نحوه.. يكاد يرى النظرة اللائمة الكارهة في أعينهم، التي غطّتها النظارات السوداء.. يعرف أنه لولا طبعهم المهذب لمزقاه إرباً بأيديهم العارية.. هم يعلمون أن ابنتهم لم تكن سعيدة في زيجتها.. هم يعلمون أن ابنتهم قد انتحرت.. لا بد وأنهم يظنون أن (غسّان) – الوغد – له دور كبير في مصرعها.. هو لا يستطيع لومهم على ظنهم.. جزء منه حقيقي على كل الأحوال.

هو أيضاً ارتدى نظارات سوداء فرَّت من أسفلها دموع باردة لا يعلم سببها حقاً.. يقولون أنك لا تعرف مدى حبك لشخص إلا عندما تفقده.. هو لا يشعر سوى بلوعة فقدانه لـ (ياسين).. هل تضخمت لوعته فاحتوت داخلها غيرها من مشاعر الحزن والثكل؟ هل أحب (مروة) حقاً؟ هل أحب (تُقى)؟ سببّ للأولى اكتئاباً وتخلّى عن الأخيرة حين استنجدت به.

ربما لو طال بالثانية العمر لسببّ لها اكتئاباً هي الأخرى.. مازالت دموعه الباردة تنهمر.. هي دموع شعوره بالذنب إذاً! وإن فسّرها من جاوره من المشيعين بغير ذلك لحسن الحظ؛ فربّتوا على كتفه مواسين.

"اللهم اغفر لها، وارحمها، واعفُ عنها، وعافِها".. يقولها شخص ما من بين الجمع المحتشد حول القبر.. فيرفع المشيعون أكفهم أن (آمين).

"اللهم أكرم نزلها، ووسّع مدخلها، واغسلها بالماء والثلج والبرد".. يرى (أنطوان) يأمّن عن يمينه وقد رفع كفيه إلى السماء في ضراعة!! يندهش.. في أحلك الظروف مازال (أنطوان) قادراً على إثارة دهشته.. من خلف كتف (أنطوان) يرى ذلك القبر المفتوح.. يبدو أن اللّحاد يجهّز لميتٍ لم تصل جنازته بعد.. أمام القبر وقف

ذلك الطفل! يهمس (غسّان) في أذن (أنطوان): "مين الطفل الصغير ده؟ إيه اللي جايبه المدافن؟".. ينتزع همسه (أنطوان) من تبتله!.. يدير عينيه إلى حيث ينظر (غسّان).. لا يرى شيئاً.

"اللهم نقِّها من الذنوب والخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس".. الآن يرى (غسّان) ذلك الجرح الدموي الممتد من الأذن إلى الأذن.. ينظر له الطفل ثم يصرخ بلا صوت، واضعاً يديه على أذنيه.. ثم يخطو داخل القبر فيغيب جسده.

"اللهم أبدلها داراً خيراً من دارها وأهلاً خيراً من أهلها".. طفل آخر دامي الرقبة يقترب من القبر.. يصرخ بلا صوت.. ثم يغيب داخله.. تتبعه طفلة.. ثم طفلة ثم طفل.. عشرات الأطفال يغيبون داخل القبر أمام عيني (غسّان) المتسعتين خلف نظارته السوداء.. يرتجف جسده ويشيح بعينيه بعيداً.. لحظات ويعود لينظر إلى القبر المفتوح.. لا مزيد من الأطفال الصارخين.. لا شيء!

"اللهم وقِها فتنة القبر، وعذاب النار".. يقرأ الحشد الفاتحة، ثم يخرجون إلى ذلك الممر الواسع حيث وقفت عائلة (مروة) صفاً قصيراً يتلقون العزاء، وعلى رأسهم (غسّان).. صافح عشرات المعزين شارداً وتلقى عشرات القُبل بلا مشاعر.. يصافحه الرائد (حسام).. متى جاء؟.. لم يره (غسّان) سوى الآن.

- "البقاء لله".. يقولها بصوت عالٍ.. يميل على أذن (غسان) هامساً: "تقرير الطب الشرعي بتاع (تُقى) هو نفسه بتاع مدام (مروة)".. يهزّ (غسّان) رأسه.. لا ينصرف الرائد (حسام) على الفور.. يقف جانباً بجوار (أنطوان).

- "إزيك يا دكتور؟".. يقولها الرائد (حسام) موّجهاً حديثه إلى (أنطوان).. لا يجيب (أنطوان) الذي اتسعت عيناه دهشة، وهو يحدّق في (غسّان) الذي اندفع من مكانه ممسكاً بتلابيب أحد المجاذيب الذين يسكنون المقابر.

- "إيه اللي أنتا بترسمه ده؟".. يقولها (غسّان) بصوت عالٍ موجهاً حديثه إلى المجذوب.. تتعلق عينا الرائد (حسام) بنجمة سباعية كبيرة عليها ذات الرموز الجورجية، رسمها المجذوب على الأرض الترابية للممر بعصا خشبية رفيعة سقطت جواره إذ أمسك به (غسّان).. يسرع (أنطوان) إلى حيث اشتبك (غسّان) مع المجذوب المذعور.

"إيه اللي أنتا راسمه ده!".. يصرخ (غسّان) مرة أخرى في المجذوب أمام أعين المعزين المندهشة.

- "سيبه يا (غسّان)!".. يحاول (أنطوان) تخليص المجذوب من بين يدي (غسّان).. عدة أصوات أخرى تأتي من الحشد أن: "سيبه يا دكتور.. ده بتاع ربنا".. يفلت (غسّان) المجذوب الذي التقط عصاه.. يخطو عدة خطوات قافزة كغراب مشؤوم، ثم يقف غير بعيد من (غسّان).. يضحك ببلاهة كاشفاً عن أسنان سوداء متهدمة.

"تزيل.. أون.. لاس".. يحاول (غسّان) الإمساك بالمجذوب مجدداً فيمنعه (أنطوان) وهو ينظر للمجذوب باهتمام.. يجفل المجذوب ويبتعد عدة خطوات أخرى.. يضيف بعد لحظات وقد عادت ضحكته البلهاء إلى وجهه: "أون.. بار.. أين.. زيل".. يتمايل بحركات راقصة وهو يقفز مبتعداً أمام الأعين المندهشة مكرراً: "تزيل.. أون.. لاس.. أون.. بار.. أين.. زيل".. ظل يكررها بصوت عالٍ، وهو يتقافز مبتعداً حتى اختفى بين شواهد القبور البعيدة.

- "جبت رجل الطائر دي منين يا (غسّان)؟".. يقولها الأستاذ الدكتور (مصطفى عبد العظيم) بلهجة من تعوّد على إلقاء الأسئلة.

- "لقيتها في بيت (أنطوان)".. يقول (غسّان) بصوتٍ حاول أن يجعله محايداً خالياً من الانفعال.

- "ليه؟ هو أنتا ساكن في خرابة يا (أنطوان)؟!".. يقولها (مصطفى) وهو يضحك ضحكة مجلجلة، بدت غريبة وهي تصدر من شخص نحيف ضئيل الحجم كـ (مصطفى)!.. يحمرُّ وجه (أنطوان) من الغيظ.. لا يرد.. أصر (غسّان) أن يصحبه إلى مكتب (مصطفى) بكلية الطب البيطري.. لم يرغب (أنطوان) حقاً في مقابلة (مصطفى).. فعلاقتهما اتسمت بتوتر غير مبرر، منذ كانوا جميعاً زملاء في المرحلة الثانوية.. لكن (غسّان) يستحق تلك المجاملة البسيطة؛ لم يذهب إلى عيادته منذ يومين لكنه يستحق تلك المجاملة البسيطة...

لم يضاجع (رشا) – أم لعلها (علياء) – منذ يومين، لكن (غسّان) يستحق تلك المجاملة البسيطة.. يكمل (مصطفى) بعد أن أنهى نوبة ضحكه: "أصل الواحد ممكن يلاقي في بيته صرصار.. فار!! لكن رجلين طائر!! صعبة شوية".

- "عادي.. ما انتوا بيتكم كان كله رجلين فراخ.. هو انتوا كنتوا بتاكلوا غيرها!".. يقولها (أنطوان) بسماجة وهو يبتسم ابتسامة صفراء.. يضيف موجهاً كلامه لـ (غسّان): "هي الفراخ مش طيور برضه؟".

- "لسه لسانك طويل يا (أنطوان)".. يقولها (مصطفى) وقد احمرّ وجهه غيظاً.. حاول أن يرسم ابتسامةً باردةً على وجهه، ولكنها جاءت مرتبكة متلعثمة.

- "مش كفاية هزار بقى".. يقولها (غسّان) بصوت حاول أن يخفي نفاذ الصبر في نبرته.. يربت على ركبة (أنطوان) أن تحمّل.. يضيف: "عرفت هي قدم أي نوع من الطيور؟".

تحمّل هراء (مصطفى) منذ 30 دقيقة وهو يمعن في وصف بطولاته الأكاديمية، وتفوقه العلمي، ورحلاته الدولية إلى المؤتمرات العلمية، وقد انتفخت أوداجه من

الفخر، بدا وكأنه يقول لهما: "لقد صرت أفضل منكما".. بكى كثيراً عندما عجز عن الالتحاق بكلية الطب البشري، منذ ما يقارب العشرين عاماً.. بينما التحق بها صديقاه اللدودان أو عدواه المقربان اللذان لم يقضيا ربع الوقت الذي قضاه هو في الاستذكار.

- "قدم لطائر من نوع (أثين ناكتوا)".. يتراجع (مصطفى) في مقعده وهو يبتسم باستمتاع، متطلعاً إلى وجهيهما اللّذين بدا عليهما الغباء.

- "طيب الحمد لله.. أيّ خدمات يا (مصطفى)؟".. يقولها (أنطوان) بعصبية ساخرة وهو ينهض من مقعده.

- "كلمنا كلام نفهمه يا (مصطفى)!".. يقولها (غسّان) وهو يجذب (أنطوان) من معصمه ليُجلسه مرة أخرى.

- "Little Owl.. البومة الصغيرة.. بالبلدي كده (أم قويق)".. يحكُّ (مصطفى) صلعته.. يضيف: "بومة بتعيش في الخرايب، المزارع، الغابات، الأماكن شبه الصحراوية في إفريقيا، وغرب آسيا وشرق وجنوب أوروبا.. صغيّرة.. طولها حوالي من 20 لـ 30 سنتيمتر.. موجودة عندنا هنا في الخرابات أو الغيطان".

- "إيه فرصة إني ألاقي بومة من النوع ده في بيتي في زايد، أو في بيت (أنطوان) في مصر الجديدة؟".. يتساءل (غسّان) وقد بدت عليه الجدية.. ينظر له (مصطفى) مندهشاً.

- "أنتا بتتكلم عن مناطق حضريّة غالباً راقية، فرصة وجودها ضئيلة جداً".. يصمت (مصطفى) للحظة.. يضيف: "حواف مكان البتر مفيهاش تهتك يذكر للأنسجة.. عظم الساق نفسه مفيهوش أي تفتت أو شروخ في مكان البتر.. واضح أن السلاح المستخدم حاد جداً.. ساطور جديد.. سيف".. ينظر (غسّان) لـ (أنطوّان) نظرة ذات معنى.. كان قد حكى له تفاصيل ذلك الكابوس، وهم في طريقهم إلى كلية الطب البيطري لمقابلة (مصطفى).

- "شكراً يا (مصطفى).. عطلّناك معلش".. يقولها (غسّان) وهو ينهض.. يمدُّ يده ليأخذ الكيس الذي يحوي قدم (أم قويق).. يشدُّ على يد (مصطفى) في حرارة.

- "متطوّلش الغيبة يا (غسّان).. ابقى هات المدام والأولاد وتعالوا لينا زيارة في البيت".. يقولها (مصطفى) مجاملاً وهو يودِّعهما.. يخرجان إلى حيث سيارة (غسّان) الراقدة في الظلام بجوار سور الجامعة.. يستقلّانها.

- "مقلتلوش ليه على موضوع (مروة)".. يتساءل (أنطوان) وإن كان يعرف الإجابة.. لا يرغب (غسّان) في مزيد من الـ (شد حيلك).. لا يرغب في مزيد من المواساة.. نظرات الشفقة في أعين الناس تقتله قتلاً.. لا يطيق الشفقة ولا يطيق إظهار ضعفه.

- "عادي!".. يجيب (غسّان) شارداً.. يشرد كل منهما فلا يتكلمان كثيراً حتى يصلا مصر الجديدة حيث بيت (أنطوان).

- "العبيط اللي كان في المدافن النهاردة كان بيقول إيه؟".. يقولها (أنطوان) وهو يجلس إلى منضدة صغيرة في ردهة شقته.

- "كان بيقول أي كلام!!".. يشيح (غسّان) بيده بلا اكتراث.

- "لأ!".. يهزّ (غسّان) رأسه نافياً ببطء.. يكمل: "مش أي كلام".. ينظر له (غسّان) في حيرة.. يشعل (أنطوان) إحدى سجائره.. يضيف: "الذُهان – أو بالبلدي الجنون – مش عدوى يا (غسّان).. (مروة) حصل ليها هلوسات ذهانية قبل وفاتها.. (تُقى) جالها هلوسات.. أنتا جالك هلوسات برضه.. كل واحد فيكم كان في مكان مختلف ووقت مختلف.. يعني فرصة إنكم تكونوا أكلتوا أو شميتوا حاجة بتسبب الهلوسة؛ صفر.. إيه الاحتمالات اللي عندنا يا (غسّان)".

- "أننا كلنا نكون مجانين؟!".. يقلّب (غسّان) كفيه في حيرة.

- "صدفة غريبة.. تكاد تكون مستحيلة.. في احتمال تاني؟".. يقول (أنطوان).

- "إنها متكونش هلوسات أصلاً!!".. يقول (غسّان) وهو يزفر بصوت عالٍ.

- "بالضبط كده".. يضرب (أنطوان) المنضدة براحة يده المفتوحة.. يكمل: "أنا وأنتا رجال علم.. تفكيرنا مادي... بس مفيش أي منطق علمي يقول أنك تحلم ببومة تصحى تلاقي رجلها جنبك على السرير!! الهلوسات.. الأحلام مش بتسيب أثر مادي".. يهزّ رأسه: "اللي بيحصل ده خارج عن حدود المنطق".. بدا وكأنه أراد أن يضيف شيئاً لا يستطيع التعبير عنه بكلمات.

- "ومش من المنطق أننا نفكر في الأمور المش منطقية بأسلوب منطقي!!".. يقولها (غسّان) كأنه يحدّث نفسه.. يتطلع (أنطوان) في وجهه بارتباك محاولاً فهم الجملة الملتفة!

- "بالضبط كدة!".. يشرق وجهه أخيراً إذ يفهم جملة (غسّان).. يضيف: "لازم عشان نفهم اللي بيحصل، أننا نفكر بنفس منطقها.. أنتا فاهم حاجة ولا إيه؟".. يهزّ (غسّان) رأسه أن نعم.

- "إيه النجمة السباعية اللي بتطاردني في كل حتة دي؟!".. يتساءل (غسّان).

- "معرفش!".. يهزّ (أنطوان) كتفيه.. يضيف: "بس الموضوع ده ليه ريحة مش حلوة".

- "ريحة إيه؟".. يتساءل (غسّان) بريبة.

- "ريحة عبرانية.. ريحة سحر (قبالة) أو سحر أسود.. أي هباب من ده".. يجيب (أنطوان) وهو يشيح بذراعه.. يخرج ورقة مطوّية من جيبه.. الورقة التي رسم عليها النجمة السباعية المزدانة بالحروف الجورجية في سيارة (غسّان) بالأمس.. يحدّق فيها (أنطوان).. يقول بصوت كالفحيح وهو يشير إلى السهم المرسوم مع عقارب الساعة.. "تزيل.. أون.. لاس.. أون..".. يقطّب جبينه محاولاً التذكر.

- "هه؟ أنتا بتقول إيه؟".. يتساءل (غسّان) مندهشاً.

- "أنتا عشان متعرفش طريقة نطق الحروف.. فاللي قاله المجذوب كان بالنسبة ليك أي كلام.. لكن المجذوب كان بينطق حروف جورجية.. الحروف المرسومة حول النجمة.. كان بيقول لنا الترتيب الصح".. يقول (أنطوان) وهو يشير إلى أحد الحروف على رأس أحد أذرع النجمة، يكمل وهو يفرك جبهته: "الحرف ده (تزيل) لو أنا لسه فاكر صح.. اللي بعده في اتجاه عقارب الساعة (أون).. كده نقدر نكمّل الكلمة بسهولة".. يسجّل الحروف المرتبة على الورقة.. ينهض إلى حيث الكمبيوتر القريب.

- "هتعمل إيه؟".. يقول (غسّان) وهو يتابعه ببصره.

- "في حد ليه علاقة بكل اللي بيحصل.. الشخص ده أو الشيء ده بيدِّيك إشارات.. بس لمّا لقانا جوز حمير مش فاهمين الإشارات، بعت العبيط يبسطها شوية".. يقولها (أنطوان) وأصابعه تداعب لوحة المفاتيح.. يتابعه (غسّان) وهو يدخل الحروف الجورجية المرتبة باستخدام لوحة مفاتيح رقمية على تطبيق ترجمة جوجل.. يضغط زر الترجمة من الجورجية إلى الإنجليزية.. ينطق الترجمة الإنجليزية بكثير من العسر..

"Tsulukidze"

- "يعني إيه؟!".. يتساءل (غسّان) بجهل حقيقي.

- "معرفش.. المفروض أنك عشت كام سنة في إنجلترا وبتفهم إنجليزي أحسن مني".. يضغط (أنطوان) زر الترجمة من الإنجليزية إلى العربية.. ينطق الكلمة المترجمة للعربية **"سولوكيدز"**.. يهزّ رأسه في يأس: "واضح أن نظريتي كانت غلط.. بالعربي برضه شوية حروف ملهاش معنى".

- "أو اسم علم!!".. تلتمع عينا (غسّان).. يزيح راحة (أنطوان) من على لوحة المفاتيح.. يبحث على (جوجل) عن الكلمة الإنجليزية.. يقرأ النتائج في دهشة ثم يترجمها لـ (أنطوان): "في اتنين اسمهم (سولوكيدز)".. يصمت لحظة: (ألكسندر سولوكيدز) وده مناضل شيوعي بلشفي من جورجيا، وفيه (فاردين سولوكيدز) وده قاد الثورة على الشيوعية في عاصمة جورجيا (تبليسي).

- "رجعنا تاني للكلام الأحمر!".. يقولها (أنطوان) وهو يمط شفتيّه.

- "المناضل الشيوعي مات بالسلّ سنة 1905، والثائر على الشيوعية أعدمه البوليس السري السوفيتي سنة 1923 بعد هزيمة الثورة في (تبليسي)".. يقولها (غسَّان) وهو يفكر: "الاتنين عكس بعض.. أضداد.. واحد مع الشيوعية والتاني مع الملكية!".

- "لسه برضه مقتنع أن موت (مروة) مالوش دعوة بفكرها الاشتراكي؟!".. يتساءل (أنطوان).. ينظر له (غسّان) متسائلاً.. يكمل (أنطوان) وهو يشيح بيده: "تلاقيها هي والرفيقة الدادة (أم عطيات) كانوا قاعدين بيقروا (مدينه البهائم) وهما بيسمعوا أغاني (الشيخ إمام)، قاموا اختلفوا على مدى إخلاص المناضل (سولوكيدز) للمبادئ الأساسية للبيان الشيوعي.. فالرفيقة الدادة (أم عطيات) زعلت من الكلام ده وقتلتها!".. يحدّق (غسّان) في وجهه للحظة ثم ينفجر ضاحكاً.. رغم كل شيء، مازال (أنطوان) قادراً على انتزاع ضحكاته.

"أنتا بتقول أي كلام على فكرة!".. يقول (غسّان) وسط ضحكاته، ثم يتمالك نفسه.. يكمل: "أولاً النجمة اللي بتطاردني في كل حتة سباعية مش خماسية.. ثانياً تفسّر بإيه الهلوسة اللي جتلي أنا و (مروة) و(تُقى).. ثالثاً.. حروف كلمة (سولوكيدز) لقيناها على النجمة السباعية اللي عند جثة (تُقى) مش (مروة).. (تُقى) ملهاش دعوة بالكلام الأحمر ده خالص.. رابعاً (أم قويق) اللي شوفتها أكتر من مرة دي تفسيرها إيه؟.. خامساً (مروة) و(تُقى) انتحروا يا (أنطوان).. ما اتقتلوش.. وهما اللي رسموا النجمة بأديهم!!".

- "تبقى حركة (مناضلين من أجل سولوكيدز) بتقتل الناس اللي أنتا بتحبهم باستخدام السحر الأسود".. يضحك (أنطوان) بسخرية عصبية.. ينظر إليه (غسّان) بعينين شاردتين..

- "رغم أنك بتهزر.. بس كلامك فيه جزء كبير منطقي!".. يضع راحتي يديه على جانبي رأسه كعادته كلما فكّر بعمق: "معظم المواقع اللي بتتكلم على الشخصين اللي اسمهم (سولوكيدز) بالجورجية".. يصمت لحظة.. يكمل (غسّان): "الشخص أو الشيء اللي قتل (مروة) و(تُقى)، أو بمعنى أصح خلّاهم يقتلوا نفسهم، هو المسؤول عن اختفاء (ياسين)، بس مقتلوش لسبب مجهول".. يرتجف صوته: "الشخص أو الشيء ده عاوزني أوصل له.. بيعطيني إشارات عشان أوصل له.. وهوصل له".. تلتمع عيناه في تصميم: "عاوز حد يعرف تاريخ (جورجيا) كويّس.. عاوز حد بيفهم في السحر الأسود ده.. دول مشكلتين لازم يتحلّوا".

- "أنا عندي الحل!".. يقولها صوت أنثوي أتى من خلفهم بهدوء.



الفصل السادس

يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذي يحبه الرب يؤدبه، وكأب بابن يسر به

سفر الأمثلة – الإصحاح الثالث – (11-12)

"ياسين"..

يصرخ (غسّان) فيخرج صوته مكتوماً خفيضاً.. يحاول النهوض من الوحل المظلم.. ينهض بعد عناء.. يرى المرأة المحترقة عديمة الوجه تجذب (ياسين) من يده.. تسير نحو المدخل الحجري للمقبرة.. الملاكان الحجريان مازالا يبكيان.. يتبعها بخطوات بطيئة متعثرة.. تتجه صوب أشجار الأرز في ذلك الركن القصي من المقبرة.. تتوقف أمام القبر المفتوح.. ينظر (ياسين) إليه ويلوّح بيده الصغيرة مودعاً.. تخطو المرأة المحترقة إلى القبر جاذبة معها (ياسين).. يغيبان داخل القبر مجدداً.. يصرخ هو بصوت متحشرج.. يسقط على ركبتيه باكياً بلا دموع.. فيرفع صوته بالنشيج..

"أمي!"..

الآن يراها إذ تمشي على مهلٍ بين شواهد القبور.. لا يتذكر هيئتها جيداً، ولكنه يدرك أنها هي.. ينهض.. يقترب منها بقدمين ثقيلتين.. تدير إليه وجهاً غطّته الظلال..

- **"اذهب وخذ بثأرك"..**

يسمع صوت جده يتردد في داخله.. يلتفت فيراه خلفه.. يطوّح له بالسيف الذهبي فلا يلتقطه.. يتركه ليسقط في الأرض الموحلة.. جدّه ينظر إليه وقد اشتعلت عيناه غضباً.. صوت جدّه يدوي داخله.

- **"سياماك.. شُيري.. ريسكفا.. سيزروماتس.. جامازجروبت.. تشوتشكياني.. سيرفيلي".**

- **"اذهب وخذ بثأرك"..** تقولها أمه، فيسمع صوتها داخله كالعادة؛ يرى جسدها يهتز.. يتفكك إلى عشرات البوم.. يطير البوم نحوه ناعقاً بصوتٍ حاد.. يسقط على ركبتيه مجدداً مغمضاً عينيه بقوة.. يصرخ وهو يغطّي وجهه.. مازال صوت جدّه يدوّي داخله هادراً.

"سيماك.. شُيري.. ريسكفا.. سيزروماتس.. جامازجروبت.. تشوتشكياني.. سيرفيلي".

يصم أذنيه حفيف أجنحة البوم المحلق حول رأسه.. يصرخ.. ويصرخ.. يصمت كل شيء فجأة.. يفتح عينيه فيرى ظل جدّه وقد افترش الوحل عند ركبتيه.. يرفع رأسه.. جدّه يرفع السيف القديم.. يراه يهوي به، وهو ينظر إليه بعينين لا تريان.. يصرخ.. انتزعته صرخته الأخيرة من الكابوس.. ينهض في ذلك الفراش الضيق في شقة (أنطوان).. جسده تحت الأغطية غارقاً في العرق على الرغم من برودة طقس يناير.. يجلس على حافة الفراش لبرهة فيستجمع أنفاسه.

ينهض ذاهباً إلى دورة المياه.. غرفة (أنطوان) – التي تتوسط المسافة بين الغرفة التي رقد فيها ودورة المياه – مضاءة.. خيطٌ من النور يهرب من أسفل الباب الموصد.. يسمع صوت (أنطوان) الخافت من وراء الباب يتمتم بشيء ما لا يبينه.

- "أنطوان؟!".. يدق باب الغرفة بقبضته.. لا رد.. يلصق أذنه بالباب ويرهف السمع.

- "سيماك.. شُيري.. ريسكفا.. سيزروماتس.. جامازجروبت.. تشوتشكياني.. سيرفيلي".. يسمع العبارة ولا يفهم.. (أنطوان) لا يتحدث سوى العربية وبعض الإنجليزية المهشمة.

- "أنطوان؟!".. يعيد الدق على الباب.. لا رد.. يحاول فتحه.. الباب موصد من الداخل.. حبّات العرق البارد تنبت على جبهة (غسّان) فتستقبلهن أخواتهن اللاتي سبقنهن على إيقاع دقات قلبه المتسارعة.

- "أنطوان!.. لو مفتحتش هكسر الباب!".. يتداخل صوته مع صوت (أنطوان) الخفيض، الذي يأتي من الداخل حاملاً معه الكلمات المجهولة.. يتراجع (غسّان) للخلف.. يصطدم بأحد المقاعد فيتعثَّر.. يزيح المقعد وهو يطلق سبّة.. يندفع نحو باب الغرفة الموصد ضارباً إياه بكتفه؛ فيسمع الصوت المكتوم.. صاروخ من نار يندفع من ركبة (غسّان) المصابة ليحرق رأسه بالألم.. يتحامل على نفسه.. يتراجع مرة أخرى للوراء وهو يعرج على ركبته المصابة.. ضربة أخرى.. ثم ضربة.. أخيراً ينهار الباب فيندفع جسد (غسّان) إلى داخل الغرفة الباردة.. يجاهد ليحفظ توازنه.. نافذة الغرفة في جدارها الشرقي مفتوحة على مصراعيها ومنها يأتي هواء فجر آخر أيام يناير البارد.

الآن يرى (أنطوان) جالساً على ركبتيه في بركة من دماء لم يتبين مصدرها.. وجهه يقابل الجدار الشمالي المواجه للباب.. يغمس سبابة محطمة في البركة الحمراء القانية، ويرفعها إلى الجدار مضيفاً بعض الخطوط إلى تلك النجمة الغير المكتملة التي شرع في رسمها.. يقترب منه (غسّان) مهرولاً.. الآن يرى الجرح القبيح أعلى باطن معصمه الأيسر.. يرى شفرة الحلاقة الملوثة بالدم.. يمسك ذراع صديقه صارخاً:

- "أنتا بتعمل إيه؟ أنتا اتجننت؟".. يحاول أن يوقف النزيف.. ينظر إليه (أنطوان) بعينين خاويتين.. ينتزع ذراعه بعنف.. يدفع (غسّان) بقوة كبيرة تتناسب مع وزنه الضخم.. فيرتطم ظهر (غسّان) بالجدار الغربي للغرفة.. يسقط متألماً.. الآن يراهم عبر النافذة المفتوحة المواجهة له حيث سقط.. عشرات الطيور المفلطحة الوجه تقف على أعمدة الإنارة القريبة من نافذة غرفة النوم.. تتابع الصراع داخل الغرفة بأعينها الصفراء.. "بوم؟!".. يقولها (غسّان) لنفسه.. (أم قويق) لديها المزيد من المرح اليوم!!.. بدت كجمهور يتابع نزالاً دموياً في ساحة رومانية قديمة وإن التزمت الصمت.

يتحامل (غسّان) على ركبته المصابة وينهض مرة أخرى حيث (أنطوان)، الذي عاد لاستكمال لوحته الدموية الخاصة.. يلقي بوزنه كله على (أنطوان) ممسكاً بذراعه المصابة.. ينتزعه (أنطوان) من فوقه على الرغم من مقاومة (غسّان) المستميتة.. فارق الوزن الكبير أعطى الأفضلية لـ (أنطوان) في الالتحام المباشر.. هكذا فكّر (غسّان) الساقط أرضاً للمرة الثانية، وهو ينظر إلى (أنطوان) الذي عاد لما كان يفعله بهدوء شديد، مردداً ذات الكلمات الغامضة.

"سياماك.. شُيري.. ريسكفا.. سيزروماتس.. جامازجروبت.. تشوتشكياني.. سيرفيلي".

ينهض (غسّان) من سقطته مجدداً.. يوجّه شتائم بذيئة حقاً لشيء لا يعلمه.. لن يفقد (أنطوان) كما فقد من سبقه.. لم يكن موجوداً في المرات السابقة.. هو موجود الآن.. لن ينتصر ذلك الشيء.. يتراجع (غسّان) حتى مدخل الغرفة.. يرى ذلك البوم المتجمع فوق أعمدة الإنارة.. هذا البوم يحدّق فيه بلا شك!.. يمسح عرقاً بارداً تساقط على عينيه فشوّه رؤيته.. يتمتم بصوت خافت: "سامحني يا (أنطوان)".. يقترب بخطوات مدروسة من (أنطوان) المنهمك في تكسير سلاميات أصابعه أثناء رسمه

على الجدار، يرفع ساقه السليمة متحاملاً على الأخرى المصابة؛ فيتصاعد الألم الحارق إلى رأسه من جديد.. يوجه ركلة عنيفة إلى مؤخرة رأس (أنطوان).. يصطدم رأس (أنطوان) بالجدار بعنف، ثم يميل جسده ببطء كسفينة غارقة ساقطاً في بركة الدم التي صنعها فاقداً للوعي...

الآن يسمع (غسّان) نعيق البوم.. ينظر عبر النافذة فيراه مهتاجاً.. يطير متجهاً صوب نافذة الغرفة.. يسرع (غسّان) إلى النافذة فيغلقها.. يرى البوم يصطدم بالزجاج الموصد.. أعينه الصفراء تحدّق فيه بجنون.. يهرع عائداً إلى صديقه الفاقد الوعي؛ فتخوض قدماه الحافيتان في الدم.. يخلع قميصه ويربطه بإحكام أعلى الجرح في ساعد (أنطوان).. يسرع إلى الردهة حيث الهاتف طالباً الإسعاف.. يعود مرة أخرى إلى الغرفة حيث (أنطوان) الفاقد لوعيه، ينهار جسده بجوار الجدار الغربي للغرفة؛ فأخذ يلهث بينما تراقب عيناه – من النافذة المقابلة – البوم الذي حلّق في السماء السوداء مبتعداً.

تجدُّ السيدة (أنكين بيتروسيان) السير لاهثة في ذلك الممر البارد المضاء بـ (النيون).. أطنان الشحوم المتراكمة على ردفيها وصدرها يعيقان حركتها وتنفسها.. طاقتا أنفها الأحمر تتسعان في محاولة لالتقاط أكبر قدر من الهواء.. دموعها الغزيرة تنهمر من عينين محتقنتين حمراوين لا ينافس احمرارهما إلا احمرار وجهها.. تتوقف أخيراً في صالة الانتظار المقابلة لغرفة العمليات في ذلك المستشفى الاستثماري بمصر الجديدة.. كتل الشحوم في صدرها وردفيها مازالا يرتجّان بفعل القصور الذاتي، وقد أزعجهما التوقف المفاجئ.. توجّه حديثها لـ (غسّان) الواقف أمام مدخل غرفة العمليات قلقاً، وقد لوّثت ثيابه دماء ليست بدمائه.

- "ماله (أنطوان) يا (غسّان)؟".. تتساءل بصوت عالٍ من بين دموعها وهي تجاهد لالتقاط أنفاسها.. بدا سؤالها لائماً متهماً.. صارت تعرف القصة بأكملها منذ الأمس.. كعادته يترك (أنطوان) باب شقته مفتوحاً.. دخلت منه السيدة (أنكين) وسمعت نقاش (أنطوان) و(غسّان) وتخبطهما في لجّة الأسئلة الحائرة.. عرضت المساعدة بعد أن استمعت للقصة كاملةً.

- "كان عاوز ينتحر يا حجّة.. دكتور (غسّان) هو اللي أنقذه كتّر خيره".. تنظر السيدة (أنكين) إلى الشخص الذي اقتحم الحوار بغير استئذان.. يمط (غسّان) شفتيه قائلاً:

- "الرائد (حسام) ضابط شرطة صديق لينا".. يقولها بضيق مكتوم.. يضيف ناظراً إلى الرائد (حسام): "مدام (أنكين) والدة (أنطوان)".. يهزّ الرائد (حسام) رأسه أن تشرفنا.

- "هو بيعمل إيه في العمليات؟".. تقولها السيدة (أنكين).. بدت وكأنها قد استوعبت كل شيء.. كأم هي تعلم أن ابنها أبعد ما يكون عن الإقدام على الانتحار.

الأمر كله مرتبط بتلك الأحداث الغريبة المحيطة بـ (غسّان).. لا تستطيع إلا أن تلوم (غسّان) على ما أصاب ابنها.. هي تعلم مدى إخلاصهما لبعضهما البعض.. هي تعلم مدى الحيرة والعجز الغارق فيهما (غسّان) حتى أذنيه.. والآن هي علمت أن (غسّان) قد أنقذ ابنها.. مما أطفأ حنقها على (غسّان) قليلاً.. لكن هذا الأمر لا بد أن ينتهي.. لا يمكن أن يستمر (غسّان) في نشر الموت يمنةً ويسرة.. إن كان مجنوناً فليراجع طبيباً.. وإن كان ممسوساً فليقصد شيخاً أو قساً!!

- "بيوّصلوا الشرايين والأوتار المقطوعة.. حاجة بسيطة بس بتأخد شوية وقت.. متقلقيش".. يرد (غسّان) بصوت خافت.

عقله يجد صعوبة في استيعاب ما يحدث.. هل حدث كل هذا في أقل من أسبوع؟ هل تحاول الحياة أن تعوّضه عن ركودها ومللها السابق، فأعطته كل إثارتها في بضعة أيام.. صارت جلسته المملة أمام التلفاز بجوار (مروة) حلماً من جنة زارها قديماً.. ثم اختفت فلم يعد واثقاً إن كانت قد وجدت قط! يعلم أنه قد صار لعنة تعصف بكل أحبته.. صار كطاعون ينشر عدوى الموت بين أحبّائه.. (ياسين).. (مروة).. (تُقى) والآن (أنطوان). هل لعنته تلك هي من حرمته من مربياته في صغره؟ هل هي من ألقت بسيارة أسرته في تلك الترعة؟؟ سينهي تلك اللعنة! سينهها وإلا سيقتل نفسه راجياً ألا يخط أي نجوم دموية على الجدار.

تجلس السيدة (أنكين) فوق شحوم ردفيها على إحدى المقاعد الموجودة بصالة الانتظار.. واضعةً رأسها بين راحتي يديها.. يتأمل الرائد (حسام) وجهها الأحمر العجوز لبرهة..

- "كانت هتنط في كرشك لولا أني قلت لها أنك أنتا اللي أنقذت ابنها".. يهمس الرائد (حسام) في أذن (غسّان).. يتابع: "شكلها شرس أوي الست نرمين دي".

- "(أنكين).. اسمها (أنكين)".. يقولها (غسّان) بذات الصوت الخافت.. يشيح الرائد (حسام) بيده بمعنى (لا يهم).

- "كلكم أساميكم غريبة".. يضيف: "تفتكر كانت هتعمل فيك إيه لو عرفت أنك سببت لابنها ارتجاج في المخ".. يضحك بخفوت: "أقلّه كانت كلت مصارينك!".. ينظر له (غسّان) نظرة طويلة.. لا يرد.. يضيف الرائد (حسام): "أنتا ضربته بإيه؟".

- "برجلي".. يقولها (غسّان) باقتضاب.. يلاحظ نظرة الدهشة على وجه الرائد (حسام).. يستطرد: "كنت بلعب كراتيه زمان".. يشعر أنه بحاجة لتبرير موقفه أكثر.. يضيف: "كان مسلوب الإرادة تماماً.. وكان بيقاومني بعنف.. كنت لازم أنقذه من نفسه".. يهزّ الرائد (حسام) رأسه متفهماً.

- "هيبقى كويس؟".. يسأله الرائد (حسام) بجدية.. يهزّ (غسّان) رأسه إيجاباً..

- "أنتا جاي ليه يا (حسام) بيه؟ أنتا اتنقلت قسم النزهة؟".. يقولها (غسّان) بنبرة ساخرة.

- "المرة دي سلاح الجريمة موجود".. يتجاهل الرائد (حسام) سؤال (غسّان).

- "ملحقتش تاخده".. يعقب (غسّان) بصوت خافت.

- "مين؟".. يتساءل الرائد (حسام).

- "أم قويق".. يجيب (غسّان) بلهجة تقريرية.. يضيف: "عشرات منها كانت واقفة برا شباك (أنطوان)، منتظرة الضحية تسلّم الروح عشان تبتدي مهمتها القذرة".

يحدّق الرائد (حسام) في وجه (غسّان) بدهشة.. يضيف (غسّان): "المرة دي أنا شوفتهم.. شفت كل اللي حصل بعيني.. وبأكدلك فيه شيء شرير بيحصل".. همَّ الرائد (حسام) بالتعليق لولا أن قاطعه انفتاح باب غرفة العمليات إذ يخرج (أنطوان).. تنتفض السيدة (أنكين) واقفة.. تهرع إلى النقّالة التي تحمل جسد ابنها هاتفةً باسمه بلوعة.. تهتف الممرضة بأن المريض مازال تحت تأثير المخدر.. يتابع الرائد (حسام) النقّالة التي تجري على عجلاتها متجهةً إلى المصعد، وعندما تحاذى (غسّان) الواقف مستنداً على الجدار مع النقّالة التي مرّت قربه.. ينتفض جسد (أنطوان) جالساً على النقّالة ليمسك بتلابيب (غسّان)، هاتفاً فيه بصوت شوّه التخدير مخارج ألفاظه..

"أم قويق يا (غسّان).. أم قويق أخدت (ياسين)".. ثم يغيب عن الوعي مجدداً أمام أعين الرائد (حسام) المندهشتين.

يُسرِّع (غسّان) الخطى في تلك الشوارع القديمة الضيقة.. لقد تأخر عشر دقائق عن ميعاده بالفعل.. غادر المستشفى بعد أن اطمأن على (أنطوان).. استبدل ثيابه التي لوّثها الدم على عجل ثم اتجه إلى منطقة (مجمّع الأديان) بمصر القديمة.. لم يزر (بيت لحم) من قبل؛ وإلا أدرك أن تلك الشوارع الضيقة العتيقة التي يجتازها ـ مندهشاً من تصميمها الفريد ـ تناظر مثيلتها في مدينة ميلاد المسيح. تطالعه كنيسة (مار جرجس) من أعلى نقطة بالمكان.. بدت الكنيسة الدائرية وكأنها عش نسر يشرف على (القاهرة) القديمة.

يقف أسفل الدرج الحجري المرتفع المفضي إلى الكنيسة والبرج المجاور لها.. من مكانه أسفل الدرج يرى علم (اليونان) يرفرف في الساحة الخارجية للكنيسة.. هل سيصعد كل هذه الدرجات؟.. السجائر المحلية الطويلة أنهكت صدره.. يلهث باعتبار ما سيكون!.. ها قد بدأت السماء المكفهرة في نثر قطرات مطر خفيفة باردة على إيقاع طبول الرعد.. لم يبدُ منزعجاً من قطرات المطر على عكس من تسارعت خطواتهم حوله.. حمّام بارد سيغسل روحه المرهقة.. فينزاح عنها قليلاً من وسخ علق بها في الأيام القليلة الماضية.

يهبط الدرج شابان في خطوات سريعة اتّقاء المطر.. يسألهم عن (مقصورة مار جرجس) فيشيرون له في عجالة على مدخلٍ ما على اليسار أسفل الدرج الحجري.. يتنهد بارتياح.. لن يصعد الدرج.. يعبر المدخل المقصود بخطى حثيثة إلى ردهة واسعة يفتح فيها ممر.. يسلك الممر المفضي إلى غرفة متوسطة الحجم.. الغرفة خالية من البشر.. يبدو أن الطقس الماطر قد أطفأ همة الزوّار.. الغرفة والمكان ككل ضعيف التهوية.. معبّق برائحة القِدم والرطوبة.. في أنحاء الغرفة تبعثرت عدة لوحات رخامية وخشبية تمجد لـ (مار جرجس).. ربما شكرته على قضاء حاجة أو إبراء من مرض.. على الجدران لوحات عديدة لـ (مار جرجس) بينها أيقونته الشهيرة، وهو على صهوة فرسه طاعناً بالرمح التنّين المصروع تحت حوافر الفرس.

(مار جرجس) بتسميته الشرقية أو (سان جورج) بتسميته الغربية، الروماني (سريع الندهة) كما يلقبه المصريون.. تناثرت في الغرفة عدة واجهات عرض لآثاره.. بإحداها خوذة ودرع وشيء أشبه بعجلة حديدية كدفة السفينة.. على حواف محيطها برزت أشواك حديدية كسنان الحراب.. بداخل واجهة العرض رسم لرجل يدحرج ذات العجلة الحديدية على جسد القدّيس (جرجس) الممدد أرضاً.. لم يفتقر هؤلاء المعذَّبون إلى الخيال أبداً!.. واجهة أخرى بها صليب حديدي عليه كتابات يونانية، وإكليل من شوك حديدي كالذي يراه (غسّان) دائماً محيطاً برأس المسيح وهو على الصليب.. يجول (غسّان) ببطء في الغرفة.. على إحدى جدرانها القديمة عُلِّقت سلسلة معدنية ضخمة.. يتسمّر أمامها لدقائق.

- "السلسة ليها طاقة نفسية كبيرة".. يشق الصوت الجهوري سكون المكان.. يلتفت (غسّان) إلى الصوت القادم من خلفه.. يطالعه وجه أبيض مليء بالتجاعيد لشيخ ربما تجاوز السبعين ببضع سنوات.. يرتدي سترة قديمة حال معظم لونها، وتكفّل بلل المطر بإضاعة ما تبقى من معالمها.. بيده التي غطّاها قفاز صوفي سميك.. يخرج من جيب سرواله (الجينز) منديلاً قماشياً عملاقاً ويجفف شعره الأشيب الكثيف المتناثر بلا نظام حول رأسه.. قوي البنية.. فارع الطول، وإن انحنى كتفاه قليلاً تحت وطأة سنينه البضع والسبعين.

يهزّ (غسّان) رأسه موافقاً، ثم يدير وجهه من جديد إلى حيث السلسلة المعلّقة على الجدار وائداً للحوار الوليد.

"أنتا (غسّان)؟".. يقولها الشيخ بنفاذ صبر.. يعود (غسّان) للتحديق فيه بدهشة.. أخبرته السيدة (أنكين بيتروسيان) بالأمس أنها رتّبت له مقابلة مع الأب (متروفاتس كريتبولس) راهب بدير (سافا) بالإسكندرية.. أحد الأديرة التابعة لطائفة (الروم الأرثوذكس) المسيحية.. الراهب حدد مكان اللقاء في مقصورة (مار جرجس) الملحقة بالكنيسة التي تحمل ذات الاسم بـ (مجمّع الأديان) بمصر القديمة، والتي تتبع طائفة (الروم الأرثوذكس).

وقتها سألها (غسّان) إن كانوا يتبعون ذات الطائفة فهزت رأسها نفياً.. أخبرته بوجود فوارق طفيفة بين طائفة (الروم الأرثوذكس) وطائفة (الأرمن الجريجورين) التي تتبعها عائلتها.. كِلا الطائفتان لهما بعض الاختلافات الطفيفة عن الكنيسة

(القبطية الأرثوذكسية) التي يتبعها جلّ مسيحيي مصر، وإن كان الود يجمع الطوائف الثلاثة على قلّة رعايا كنيسة (الروم الأرثوذكس) وشبه انقراض طائفة (الأرمن الجريجورين) التي ربما كانت السيدة (أنكين) وابنها (أنطوان) آخر أبناءها في مصر.

أحسّ بجهله بعد إجابتها، فهو كغيره من مسلمي مصر غلب عليه الظن أن مسيحي مصر يتبعون نفس الكنيسة ولهم نفس (البابا).. صارح السيدة (كيتيفان) بخاطرة فعددت له الطوائف المسيحية في مصر من (أقباط أرثوذكس)، و(بروتوستانت)، و(كاثوليك)، و(روم أرثوذكس)، و(شهود يهوه)؛ و(أرمن كاثوليك)، و(كلدان)، و(موارنة)؛ بالإضافة إلى طائفتها المنقرضة.. سألها عن جدوى ذهابه لذلك الراهب فابتسمت في غموض ولم تعقب.

- "أيوة.. أنا دكتور (غسّان)".. يقولها (غسّان) بصوت لم تفارقه الدهشة.. توقَّع أن يأتيه الراهب في ثياب الرهبنة السوداء.. فليعلّق صليباً على صدره على الأقل!! يضيف (غسّان): "حضرتك الأب (متروفانس كريتبولس)؟".. ينطق (غسّان) الاسم بكثير من العسر.. يبتسم الأب إذ لاحظ تلعثم (غسّان) بالنطق بالاسم.

- "سابقاً.. أنا مشلوح من فترة طويلة".. مازالت الابتسامة تكسو الوجه المتغّضن.

- "مشلوح؟".. يتساءل (غسّان) بِحيرة.. لا يفهم الاصطلاح وإن بدا غير إيجابي في العموم.

- "مشلوح.. غير مسموح لي ممارسة أي نشاطات كنسية، غير مسموح لي أخذ الاعترافات أو ممارسة أي من الأسرار المقدسة، حسب قرارات قداسة البابا بطريرك كنيسة (الروم الأرثوذكس) بالإسكندرية وسائر أفريقيا".. يقول الجزء الأخير بسخرية مكتومة.. يميل بوجهه إلى الأمام مقترباً من (غسّان) فيشم الأخير رائحة خمر رخيص يعبّق أنفاسه.. يضيف الراهب السابق: "تقدر تناديني باسمي العلماني (أجابيوس فانيوكس)".

- "يوناني؟".. يلاحظ (غسّان) أخيراً اللكنة الأجنبية في صوت الراهب العجوز.

- "معظم رجال الكهنوت في كنيسة الروم الأرثوذكس يونانيين.. معظم رعايا الكنيسة كمان من أصول يونانية".. يقولها الأب السابق بينما عيناه تتابعان طفلين صغيرين دخلا إلى الغرفة.. غرفة التعذيب كما يُطلق عليها.

- "الست (أنكين) مقالتش ليا على موضوع.. أحم – يسعل – الشلح ده".. يقولها (غسّان) بحرج.

- "الست (كتيفان) ست طيبة.. مؤمنة بيا جداً.. مش هتقول عني حاجة وحشة.. عموماً أنا مستمر في خدمة الرب سواء من جوّا الكنيسة أو برّا".. يقولها الراهب بلكنته الأجنبية التي يمكن ملاحظتها بصعوبة.. يفكر (غسّان).. لكنته لم تكن كلكنة (الخواجة بيجو) كما يحب المصريون تصوّر لكنة اليونانيين متحدثي العربية.. يبدو أن الراهب قد قرأ أفكار (غسّان).. يقول باقتضاب: "أنا عايش في مصر بقالي ربع قرن.. مصر حلوة".. يهزّ (غسّان) رأسه موافقاً.. لا يدري كيف يبدأ أسئلته.. كيف سيساعده هذا الشيخ المخمور؟!.. يعود للتحديق في السلسلة الحديدية الضخمة باحثاً عن كلمات مناسبة.

- "الست (أنكين) قالت إنك هتساعدني".. يقولها (غسّان).. مازالت عيناه مثبتة على السلسلة المعلّقة بالجدار.

- "السلسلة دي كانوا مقيدين بيها (مار جرجس) وقت تعذيبه".. يتجاهل الراهب جملة (غسّان) الأخيرة.. يضيف: "تخيّل تعذيبه استمر سبع سنوات!".. يتابع ببصره الطفلين الراكضين بين واجهات العرض الزجاجية مثيرين لضوضاء عالية.. يستطرد الراهب المشلوح، وهو ينظر إلى (غسان) نظرة طويلة: "السلسلة دي ليها معجزات كتير.. بتشفي مرضى كتير ببركة القدّيس (مار جرجس)".

يهزّ (غسّان) رأسه باحترام مصطنع.. عجز عن منع شبح ابتسامة ساخرة أن يطفو على شفتيه.. ينظر للراهب وقد همَّ بالكلام.. يراه لا ينظر إليه.. عيناه تتابعان ركض الصبيين.. وما إن اقتربا منه حتى اقتنص ذراع أحدهما بقسوة.

"لو عملت دوشة في بيت الرب تاني، هسلخ جلدك زي ما الرومان كان بيسلخوا جلد (مار جرجس)"..

يقولها الراهب للطفل وقد ضاقت عيناه حتى اختفتا أسفل حاجبيه الكثّين.. يشحب وجه الطفل المسكين وهو يحاول أن يخلِّص ذراعه من بين براثن الراهب العجوز.. يفلته الأخير؛ فيطلق الطفل ساقيه للرياح مغادراً المقصورة يتبعه زميله.. يتابعهما الراهب.. بعينيه نظرة مستمتعة!

- "الأطفال!".. يقولها كأنه يبصق.. يضيف موجهاً كلامه لـ (غسّان): "عينيهم فيها شقاوة ومكر، جشع متشفهوش غير في عنين إبليس!!".. يتمتم (غسّان) بكلمات مبهمة قد تحمل معنى الموافقة أو الرفض.. أي ورطة أوقعته فيها السيدة (أنكين)؟!.. يفكّر.. بين مائة مليون إنسان في مصر، لم تختر إلا هذا اليوناني المشلوح، المخمور، والمخبول ليساعده!!

- "تعال".. يقولها الراهب بلهجة آمرة.. يدخل إلى غرفة صغيرة ملحقة بالغرفة الأولى.. بدت الغرفة ككهف حجري منخفض السقف.

- "(مار جرجس) اتحبس في الكهف ده سنين".. يشير إلى كوّة حجرية صغيرة في جدار الكهف الشمالي.. يضيف: "لو عندك أمنية أو طلب.. اكتبه في ورقة وحطّها في الكوّة دي.. ربنا يحققها ببركة (مار جرجس)".

- "أنا مش مسيحي!".. يقول (غسّان) بصوت خافت.. يعود الراهب لينظر إليه نظرة طويلة: "كلنا خراف الرب يا بني".. يخرج من جيب السترة المهترئة قلماً ومفكرة صغيرة.. يضيف: "اكتب!".

- "الأوضة دي كتمة أوي".. يقول (غسّان) متجاهلاً يد الراهب الممدودة بالقلم والمفكرة.. يخرج منها إلى غرفة التعذيب مرة أخرى.

"علاقة مسيحيين مصر بـ (مار جرجس) معقدة!".. يقولها الراهب إذ تبع (غسّان) إلى الخارج.. يضيف: "تقدر تعتبرها زي علاقة المريدين بالقطب الصوفي.. باب مفتوح.. بيوصّل رحمّة الرب للمعذبين.. سلّم للملكوت بيطلع عليه التائهين.. معجزات (مار جرجس) حقيقية؟".. بدا وكأنه يسأل نفسه.. لا ينتظر إجابة من (غسّان).. يجيب: "حتى لو مكانش فيه معجزات كانت الناس اخترعتها.. البشر محتاجين (أخ أكبر).. حد يطبطب عليهم ويقولهم معلش.. أمل يخليهم يستحملوا النهاردة ويستنوا بكرة.. الناس محتاجة تؤمن يا بني".. يضيق صدر (غسّان).. شعر بحاجته لهواء مفتوح.. يغادر مقصورة (مار جرجس) بخطى سريعة فيلفحه الهواء البارد المحمّل بقطرات المطر خارجها.. يتبعه الراهب.

- "أنتا مؤمن يا (غسّان)؟".. يسأله الراهب وهو يسير بجواره بتؤدة.

- "مؤمن آه".. يقولها (غسّان) بسخرية عصبية.. ينظر إليه الراهب.. يلاحظ ارتعاشة خفيفة بوجهه.. يضيف بعصبية: "مؤمن بالفوضى!!".. عقله المكدود عجز

عن اصطناع إجابة دبلوماسية لبقة كعادته عندما يوّجه له هذا السؤال.. إجابته الصريحة أدهشته هو شخصياً!

- "لا تؤمن بالإله ؟".. يرتفع حاجبا الراهب في دهشة مصطنعة.

- "بالعكس!".. يهز (غسّان) رأسه بقوة نافياً؛ فتتناثر عن شعره قطرات المطر.. يضيف: "أنا مؤمن بالإله اللي خلق الكون في ستة أيام.. ثم استراح".. يقول الكلمة الأخيرة بلهجة خاصة.. يكمل بعصبية: "استراح.. ومعدش بيسأل فينا!".. كانا قد وصلا إلى أسفل الدرج الحجري المفضي إلى الكنيسة.. يجلس (غسّان) على الدرجتين السفليتين للدرج المبلل.. يواجهه الراهب بنظرة صامتة.. تتساقط على وجنتي (غسّان) قطرات باردة، فلا يدري هل هي دموعه أم المطر.. يحاول إكمال حديثه.. يشعر بغصة في حلقه، يقاومها فيخرج صوته مبحوحاً عالياً: "الكون مكان مليان بالفوضى يا أبونا".. يقطع حديثه هزيم الرعد.. ينتفض (غسّان) واقفاً مرة أخرى.. يشير إلى السماء.

"في اللحظة اللي إحنا بنتكلم فيها دي، في مجرتين بيصطدموا ببعض.. في الحقيقة هما بيصطدموا ببعض من ألف سنة، ولسه قدامهم ألف سنة كمان.. آلاف الشموس بتنفجر وآلاف تانية بتندمج.. ملايين الكواكب بتصطدم ببعضها وتتفتت.. فوضى لا متناهية مفيش حد ينظمها!!".. يضرب قبضتين مضمومتين ببعضهما البعض بعصبية.. يضيف: "الأرض نفسها!.. كوارث طبيعية.. حروب.. تقدر تقولي كام مسيحي في أوروبا مات وهو منتظر رحمة الرب تشفيه من الطاعون؟!.. كام يهودي مات في أفران الغاز، وهو مفكّر أن يهوه هينقذه في اللحظة الأخيرة؟.. كام مسلمة انتظرت الله لينقذها من الاغتصاب في البوسنة؟".

تخنقه عبراته وهو يكمل: "كام طفل استنى أبوه يرجع ومرجعش.. كام أب فقد ابنه في لحظة؛ بدون أي سبب منطقي.. عالمنا كله فوضى مجنونة، حياتنا مأساة غير ضرورية".. يصمت لحظة.. يضيف: "بنتكلم عن الإيمان بالرب يا أبونا؟ طبعاً مؤمن بالرب، بس هو سايبني الدنيا تلطش فيا ليه؟ والله في الآخرة زي ما هيسألني.. هسأله!".. صار جسده كله ينتفض أمام نظرات الراهب الصامتة.. أخيراً يتكلم الراهب.

- "أنتا غاضب يا (غسّان).. الغضب جوّاك.. أنا حاسُّه وشايفه".. يزيح الراهب المشلوح خصلة شعر التصقت بجبهته بفعل المطر: "عجيب أمرك!.. بتلوم الرب على أفعال الشرير!".

- "الشرير؟".. يكرر (غسّان) الكلمة في تساؤل.

- "الشيطان.. المرض.. الفقر.. الكوارث.. كلها أفعال الشيطان الملعون.. الرب لا يفعل إلا خيراً! الشيطان يجربك.. بيدخلك التجربة.. وفي التجربة الرب يختبرك.. بيعطيك ورقة الأسئلة، نجاحك في الاختبار أنك تلجأ ليه.. تطلب منه المساعدة".. يجيب الراهب وهو يبحث بعينيه عمّا يحميهما هو و(غسان) من المطر في الساحة الخالية أسفل السلم المفضي إلى الكنيسة فلا يجد.

- "اختبرني كتير أوي".. يتمتم (غسّان).

- "عشان بيحبك.. كل ما تنجح في اختبار.. كل ما تعلى درجة".. يقولها الراهب بحرارة.

- "مش بيحبني".. يهزّ (غسان) رأسه نافياً: "من وأنا طفل عارف أنه مش بيحبني".. يشعر بمرارة كالعلقم في فمه.

- "بتتعامل مع ربنا معاملة الند بالند.. مغرور أنتا أوي.. واثق في عقلك أوي.. قررت أن الرب بيكرهك عشان خسرت شيء أو اتنين، شخص أو اتنين".. يقول الأب المشلوح بهدوء.. يضيف: "أيوب خسر عياله كلهم.. خسر ماله.. خسر حتى جلده.. بس فضل يصلي ويمجد الرب.. أيوب التّقي وأنا وأنتا، أبسط بكتير من أننا ندرك حكمة ربنا".. يلتقط نفساً عميقاً ثم يكمل: "فوق يا بني.. الأرض متخلقتش عشان تمشي عليها.. ولا السماء اتخلقت عشان تمشي تحتها.. اعرف حجمك الحقيقي.. السماء والأرض، أنا وأنتا والناس كلها، اللي راحوا واللي جايين جزء من خطة إلهية.. مش بتحمل لنا – إحنا أبناء الرب – إلا الخير".. همَّ (غسّان) أن يعقِّب.. يقاطعه الراهب بإشارة من يده.. يشير بسبابته إلى أعلى الدرج: "تعال نطلع فوق.. أنا كده هيجيلي التهاب رئوي".. يقولها باسماً.. يرتقي الدرج في خطى حثيثة يتبعه (غسّان).. يتوقف أعلى الدرج وهو يلهث.. يلتفت إلى (غسّان) الذي أخذ يلهث بدوره.. يقول:

"أبوك بيحبك.. ممكن يمتحنك.. يأدبك.. لكن مستحيل يكرهك".. لا ينتظر إجابة من (غسّان).. يعبر المدخل الواسع للكنيسة العتيقة.

يدلف (غسّان) بدوره إلى الكنيسة المستديرة.. على يساره مقصورة خشبية عتيقة صممت على الطراز البيزنطي، فيها أيقونة (مار جرجس) الشهيرة.. تدور عيناه في فضاء الكنيسة الواسع.. يحمل سقفها ثمانية أعمدة (جرانيتية) ضخمة تعلوها أعمدة مذهّبة.

- "أقدر أساعدك بإيه يا ابني؟".. يقطع الراهب المشلوح تأمله.

- "أنا في حاجة بتطاردني".. ينظر للسقف المقبب.. في باطن السقف لوحة زيتية للسيد المسيح، يحمل في يساره الكتاب المقدس، ويشير بيمينه بعلامة البركة.. يشعر بنظرة اتّهام في عينيّ المسيح المحلّق في سماء الكنيسة فوقهما.. يخفض عينيه.. يضيف: "رمز.. رسمة على شكل نجمة سباعية.. المرحومة مراتي رسمتها بدمها بعد ما قطّعت شرايين ذراعيها.. نفس الأمر اتكرر مع صديقة عزيزة.. أنقذت النهاردة الصبح (أنطوان) ابن مدام (أنكين) قبل ما يكرر نفس المأساة".. يصمت للحظة: "بشوفها في أحلامي.. بقيت بشوفها وأنا صاحي!".

- "وأنتا بتظن إن في شيء شرير بيحصلك.. وجايِّلي تطلب الخلاص؟".. يقولها الراهب.. كان قد خلع سترته.. وإن أبقى قفازاته الصوفية تغطّي يديه.. تحت سترته (بول أوفر) صوفي طويل الرقبة عديم اللون.. نافس السترة في اهترائها بنجاح.

- "لأ.. جاي لك عشان الست (أنكين) قالت إن عندك إجابات".. يقولها (غسّان) وقد استعاد اعتداده التقليدي بنفسه.

- "مغرور!".. ضحكة قصيرة يطلقها الراهب.. يضيف: "أنا معنديش إجابات.. أنا عندي معلومات.. فيه فرق، يمكن معلوماتي تجيب أسئلتك، ويمكن تحيَّرك أكتر".. يهزّ (غسّان) رأسه أن تكلَّم.. يخطو الراهب السابق عدة خطوات حتى يتوسط ساحة الكنيسة الخالية.. تجول عيناه في أيقونات القدّيسين المتناثرة على جدران الكنيسة؛ كأنه يتأكد من انتباه المستمعين لمحاضرته الوشيكة.

- "يمكن أنا معرفش كلمة عربية دقيقة ترادف كلمة (symbol) الإنجليزية.. بس نقدر نقول عليها رسمة رمزية.. الإنسان رسم الرموز، أول ما بدأ يتحكم في مهارات يديه، قبل ما يخترع الحروف، يمكن حتى قبل ما يتعلم الكلام.. هتلاقي الرموز على جدران الكهوف، المعابد، كانت نوع من تعبير الإنسان عن العالم المحيط بيه.. وعن تصوراته للعالم ده.. بعد ما الإنسان اخترع الأبجدية، فضلت الرموز موجودة.. نوع من التعبير عن معاني عجز الإنسان عن وصفها بالكلمات؛ أو كان وصفها بالكلمات

محتاج عشرات الألواح الحجرية أو أوراق البردي.. معاني معقّدة عن علاقة الإنسان بغيره من البشر؛ عن معتقدات قبيلة أو دولة، عن علاقة الإنسان بالرب أو حتى علاقته بالشياطين".

"يمكن رمز النجمة.. كان من أكتر الرموز اللي تم استخدامها من قديم الزمان، وبشكل واسع جداً، من أدنى الأرض إلى أقصاها.. نجوم مختلفة استخدمها البشر بطرق رسم مختلفة؛ ما بين نجوم قصيرة الأذرع أو طويلة الأذرع؛ رؤوس الأذرع دي مدببة أو مشطوفة، دايماً كان رمز النجمة موجود بشكل أو بآخر في شعارات النبالة الأوروبية.. النجمة الخماسية المدببة الرؤوس كانت بترمز دايما للابن الثالث للنبيل".

"في التراث المسيحي قدّيسين كتير مرسوم ليهم أيقونات مع رمز النجمة زي القدّيس برونو.. القديس دومينيك، القديس بطرس القنطري.. النجمة كمان بترمز لقوة القانون في الولايات المتحدة.. تلاقيها موجودة على ملابس شريف أي بلدة أمريكية.. طبعاً عدد أذرع النجمة هو المفتاح الأهم في معرفة دلالة النجمة.. يمكن أشهر أنواع النجوم هي النجمة الخماسية والسداسية والسباعية، فيه نجوم ثمانية الأذرع، وفيه أكتر من كده كمان؛ لكن استخدامهم وأهميتهم الرمزية أقل كتير من الأنواع التلاتة الأولى".

"النجمة الخماسية أو الـ (بنتاجرام) في التراث اليهودي؛ بتمثل القبائل العشرة الإسرائيلية المتشعبين من نسل يهوذا، وبنيامين، والبطارقة الأوائل.. أحياناً بتبقى محاطة بدايرة دلالة على الموت.. أو اللانهائية للإله الخالد.. النجمة الخماسية مع الهلال كانت رمز للإسلام.. تلاقيها في علم الدولة العثمانية أو علم مصر الملغي.. في الثقافة الغربية، النجمة الخماسية بترمز للقوة العسكرية أو الحرب.. طبعاً النجمة الخماسية الحمراء كانت رمز للهيمنة الشيوعية بالإضافة لوجودها في أعلام خمسة وتلاتين دولة.. حتى عصابات الشوارع في أمريكا استخدموا النجمة الخماسية رمز ليهم.. النجمة الخماسية عند معتنقي ديانة وثنية جديدة زي (الويكا) هي رمز الإيمان.. زي الصليب عند المسيحيين كده.. طبعاً مقدرش أنسى النجمة الخماسية المفرغة ذات الرؤوس المائلة لأسفل اللي بترمز للشيطان.. أو كنائس الشيطان"..

"النجمة السداسية أو الـ (سيكساجرام) باللاتينية، يمكن تكون من أشهر الرموز الدينية.. بيسمّوها نجمة داوود أو خاتم سليمان أو درع داوود، بتستخدم بكثرة في

اليهودية، وبنسب أقل في الهندوسية والمسيحية وحتى في الإسلام.. عندك مثلاً الطائفة الأحمدية الموجودة في الهند وباكستان، بيستخدوا النجوم السداسية مع الهلال كشعار ليهم.. ولأن النجمة السداسية عبارة عن مثلثين متقابلين ومتداخلين فهي رمز اتحاد القوى المتضادة في الماسونية.. النور والظلام.. الرجل والمرأة وغيرها من الأضداد"..

"النجمة السداسية ليها استخدامات كتير في السحر الأسود.. بترمز للمكونات الأربعة الرئيسية للكون (النار، والهواء، والأرض، والماء).. الشعار الأمريكي العظيم عبارة عن نجمة سداسية جوّاها تلتطعشر نجمة خماسية دلالة على المقاطعات الأمريكية الرئيسية.. بالمناسبة كانت النجمة السداسية رمز لحركة التصوف اللي أسستها (هيلينا يلاتفسكي) في أمريكا في القرن الثامن عشر.. بمناسبة أمريكا برضه النجمة السداسية هي علم مدينة شيكاغو؛ ثالث أكبر مدينة في أمريكا".

يتململ (غسّان) في وقفته، لا يبدو مهتماً بتلك المحاضرة الأكاديمية.. يمط القس شفتيه وقد لاحظ تململه.. يقول:

- "أنا عارف أنك مش مهتم بكل التفاصيل دي.. لكن لو عاوز تواجه عدوّك لازم تعرفه.. لازم تعرف لغته.. عدوّك لغته الرموز.. يبقي لازم تتعلم".. يطرق بسبابته على جانب رأسه بعصبية.. يضيف: "عاوز تعرف النجمة السباعية بترمز لإيه؟"..

"النجمة السباعية أو الـ (سبتاجرام) نوعين: الأول (سبتاجرام) طويلة الأذرع حادة الزوايا والنوع الثاني قصيرة الأذرع منفرجة الزوايا.. الزوايا هنا؛ هي كل زاوية بين كل ذراعين من أذرع النجمة مش الزاوية المكونة لكل رأس للنجمة.. فاهمني؟".. يصمت لحظة وهو يتطلع لـ (غسّان) الذي هزّ رأسه علامة الفهم.. يضيف الراهب: "الـ (سبتاجرام) في الأغلب رمز إيجابي.. مش خبيث.. يمكن ده بيرجع لارتباطه بالرقم سبعة؛ اللي بيمثل الكمال في الثقافة البشرية بشكل عام.. مش محتاج أكلّمك عن السماوات السبعة، أو الأراضين السبعة، أو إنه ألوان الطيف سبعة، أو إن مدارات الإلكترون سبعة.. مش محتاج أقولك إن المسلمين بيطوفوا حول الكعبة سبعة.. أو إن الفضائل الرئيسية سبعة، والخطايا المميتة برضه سبعة.. وغيرها كتير.. عشان كده النجمة السباعية كانت رمز للكمال في المسيحية.. الرب خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في السابع.. استخدام النجمة السباعية في المسيحية لم يمنع حركة

وثنية جديدة اسمها (ويكا النجوم الزرقاء) من إنها تستخدم نفس النجمة السباعية وإن كان بنفس الدلالة.. رمز للكمال".

"في الخيمياء القديمة، كانت النجمة السباعية أو الـ (سبتاجرام) بترمز للأجرام السماوية السبعة المعروفة في الوقت ده.. برضه الـ (سبتاجرام) كان ليها استخدامات سياسية.. علم الأردن فيه نجمة سباعية.. علم أستراليا فيه نجمة سباعية بيضاء كبيرة؛ بترمز للمقاطعات الأسترالية السبعة، وأربع نجوم سباعية صغيرة بالإضافة لنجمة خماسية بتمثل كوكبة (كروكس).. راية (بننجتون) فيها تلطعشر نجمة سباعية، حتى القبائل البدائية استخدمت الـ (سبتاجرام).. كانت رمزاً للهنود الحمر من أمة (شيروكي) في الولايات المتحدة.. درع دولة جورجيا كمان عبارة عن نجمة سباعية".

تتسع عينا (غسّان) عند سماع الجملة الأخيرة.. يسأل الراهب:

- "درع دولة جورجيا ده.. على شكل نجمة سباعية قصيرة الأذرع منفرجة الزوايا.. على محيطه حروف جورجية؟!".. ينظر له الراهب بِحيرة.

- "لأ.. هو أقرب لعجلة ليها سبعة رؤوس، جوّاها أيقونة (مار جرجس) وهو يقتل التنين".. يهزّ رأسه نفياً.. يمط (غسّان) شفتيه في خيبة أمل.. يخرج هاتفه المحمول.. يقترب من الراهب ويريه صورة النجمة السباعية الدموية التي كانت موجودة على جدار غرفة (تُقى).

- "طيب النجمة السباعية أو الـ (سبتاجرام) دي معناها إيه؟؟".. يسأله (غسّان).. تضيق عينا الراهب، ويطرق برأسه كمن يحاول التذكّر.. تمر بضع لحظات، ثم يرفع رأسه ببطء ناظراً لـ (غسّان) من أسفل حاجبيه الكثيّن الأشيبين.. يقول له بصوت خفيض مرتجف:

- "بابلون الملعونة رجعت من جديد!".

الفصل السابع

ثم جاء واحد من الملائكة السبعة الذين معهم الكؤوس السبعة، وتكلم معي قائلاً: هلمَّ فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة، التي زنى معها ملوك الأرض وسكر سكانها من خمر زناها.

سفر الرؤيا – الإصحاح السابع عشر (1-3)

كاتدرائية سفيتيتسكفالي

في 12 ديسمبر 1993 م

العزيز الأب/ متروفاتس كريتبولس

كيف حالك أيها الصديق القديم؟ تلقيّت بمزيد من السعادة خطابك الأخير، عندما أُخبرت بأن لي خطاباً قادمٌ من مصر تعجبت.. فليس لي في مصر أي علاقات أو أصدقاء.. ربما لو كان الخطاب قادماً من المريخ لكان أقل إثارة لدهشتي! حسناً.. لقد زال العجب بعد قراءتي للخطاب، وإن حلَّ محلَّه عجب جديد؛ فلم أكن أعرف أن في مصر رعايا لكنيسة الروم الأرثوذكس، حيث نُقلت خدمتك لدير القدّيس (سافا) بالإسكندرية.. مما جعلني أعيد فتح كتبي مرة أخرى، وتعجبت مجدداً فليس بمصر كنيسة واحدة أو اثنتين للروم الأرثوذكس، بل هناك بطريركية كاملة ترعى شعب الكنيسة في مصر وسائر إفريقيا.. بورك الرب الذي جعل أبناءه في كل مكان.. لقد زادني هذا العلم بشراً وسروراً.

أتوقَّع أنك لا تشعر بآلام الاغتراب في الإسكندرية.. فمدينة بناها (الإسكندر الأكبر) وحكمها (البطالمة) لقرون؛ لا يمكن أن تكون دار اغتراب ليوناني.

أعرف أيها الصديق العزيز أنك حرصت أن تكتب لي وتخبرني بمكانك الجديد، خوفاً من أن أكون قد وجّهت لك خطابات إلى مكان خدمتك السابق في اليونان.. حسناً.. بكل خجل أصارحك أنني لم أفعل.. أعرف أنني لم أكتب لك أي خطاب منذ لقائنا الأخير في (أنطاكية) في نهاية العقد المنصرم.. ولكن أرجو أن تلتمس لي العذر، فالأعوام الأربعة السابقة كانت حافلة بحق، حافلة على الصعيدين العام والشخصي.. حافلة بشكل يجعلني ألهث كلما استرجعت أحداثها.

لقد انهارت الشيوعية أخيراً يا صديقي، واستعادت (جورجيا) استقلالها مجدداً، أرجو أن يكون حظنا أفضل هذه المرة.. فلربما لم تنعم (جورجيا) باستقلال حقيقي منذ نهاية عهد الملكة (تمار) في أوائل القرن الثاني عشر، حتى الاستقلال الصوري لـ (جورجيا) الذي بدأ في العام 1918 انتهى باجتياح الجيش الأحمر للبلاد في العام 1921.

انهارت الشيوعية أيها العزيز، وعادت الكنائس لتدق أجراسها وتستقبل أبناء الرب. عجيب أمر أبناء هذا البلد.. سبعون عاماً من التضييق على الكنائس وإغلاق المئات منها.. سبعون عاماً من نشر بروباجندا الإلحاد في الإعلام والمدارس.. سبعون عاماً لم تنجح في طمس إيمان أبناء (جورجيا).. فتدفقوا على الكنائس وكأنهم كانوا بها بالأمس.. يرتلون صلواتهم التي تمجد..

لـ (يسوع)، الذي أنعم علينا بنعمة الجهر باسمه.. وبعد أن كان الآباء والكهنة يقتلون ويسجنون بالمئات.. ها أنا أسير مرتدياً ردائي الكهنوتي الأسود في طرقات (متسخيتا)؛ فينظر إليّ المارة باحترام وتبجيل.. فشل العرب والترك والفرس في تغيير عقيدة هذا الشعب، وها هي الشيوعية تفشل هي الأخرى.

أقرأ عناوين الصحف في ذلك الدكّان القريب؛ فيقدم لي صاحب الدكان الصحيفة مقسماً بألّا أدفع فيها (لارياً) واحداً.. عُملتنا الوطنية (اللاري) منهارة بشدة.. أنصار الرئيس المخلوع (زفياد جامساخورديا) يقاتلون أنصار (إدوارد شيفرنادزة) الطامع في الرئاسة في الغرب.. الحكومة الهشّة تخوض صراعاً مريراً مع الانفصاليين في (أوسيتا الجنوبية) في الوسط و(أبخازيا) في الشمال الغربي. أقرأ كل هذا في الجريدة وأبتسم.. ستستقر الأمور أطال الوقت أو قصر.. إن كانت تلك القلاقل هي الثمن الذي سيدفعه الجورجيون للتخلص من الشيوعية، فهو ثمن حقاً بخس.

حسناً.. دعني أخبرك بكل صراحة أنني لم أكتب إليك اليوم لأحدثك عن الوضع السياسي الراهن لـ (جورجيا)؛ فتصفّحك للجرائد اليومية سيخبرك بتفاصيل عديدة، يحررها أناس أكثر حنكةً وتخصصاً من شخصي الضعيف؛ إنما كتبت لأخبرك بتفاصيل تلك الأحداث الغريبة التي وقعت لعائلة (جاكيلي) المقيمة في (متسخيتا) بمكان ليس ببعيد عن الكاتدرائية، وكلي ثقة أنك ستنصت باهتمام؛ فأنا وأنت لم نصبح أصدقاء إلا لتشاركنا ذات الاهتمام.. وما صرنا أخوين إلا لكوننا جنديين من جنود الرب، نذرا نفسيهما لمواجهة (الشرير) وعشيرته من الشياطين! وإن كنت أنت تمتاز

عني بتلك الهبة التي منحها لك الرب – والتي أغبطك عليها كثيراً – إلا أنني أعوّض ذلك النقص بكثيرٍ من الصلاة وكثيرٍ من القراءة، آملاً أن تكون قراءتي لطرق عمل (الشرير) سلاحاً لي في كل موقعة أنازله فيها.

سبب ثاني جعلني أقصَّ عليك تلك الأحداث، هو حوارنا السابق في (أنطاكية).. هل تذكره؟ عندما قصصت عليَّ قصة سَحَرَة (الويكا) الذين واجهتهم في اليونان، حينها أخبرتك أنه إن كان للشيوعية ميزة واحدة، فهي أن الستار الحديدي الذي ضربه (ستالين) ومن بعده (خروشوف) حول الاتحاد السوفيتي قد منع تدفق تلك الشعوذات، وتلك الديانات الوثنية الجديدة من غرب أوروبا إلى شرقها الشيوعي.. يومها جادلتني قائلاً: "أن تلك الممارسات تنساب كما الهواء غير معترفة بحدود".. أما السبب الأخير؛ هو اهتمامك الفيّاض بالرموز عموماً.. أعلم أنك قد صرت حجة في ذلك المجال، ولربما فاق علمك بها علم من منحوك درجة (الدكتوراه) عن بحثك في أسرار وطلاسم الرموز وعلاقتها بالتطور الإنساني.

يكفي استطراداً ودعني آخذك مباشرة إلى صُلب الأحداث، (ألكسندر جاكيلي) شاب آخر لا يميزه شيء، يقطن تلك الشقة المتواضعة في إحدى البنايات الكئيبة المتشابهة في شارع (خاندزتيلي) في أحد أحياء (متسخيتا) الصغيرة.. ترك لنا الإرث الشيوعي الآلاف من تلك البنايات السكنية الرمادية الكئيبة التي لا يميزها شيء، كأنها مستودعات تخزين البشر حتى اليوم التالي.

(ألكسندر) لديه متجر صغير للبقالة على أطراف (تبليسي)، يغادر كل صباح منزله الضيق مستقلاً دراجته النارية القديمة، قاطعاً العشرين كيلو متراً الفاصلة بين (متسخيتا) والعاصمة (تبليسي).. يبيع خلال اليوم بعض الأغراض القليلة، ثم يعود بعد غروب الشمس إلى تلك الحانة بـ (متسخيتا) حاملاً معه (لارياته) القليلة.. يمضي جزءاً من الليل في شرب (الفودكا) ولعن الشيوعية ثم لعن الحكومة الجديدة، ثم يعود ليمدح الشيوعية متذكراً أنه في العصر السابق كان الجميع يجد عشاءه.

ينهي شرابه فيعود إلى منزله الضيق، فيبرح زوجته (تمار) ضرباً ناعتاً إياها بالنحس، فلا ينجدها من ركلاته إلا أبوه وأمه القاطنين في شقة صغيرة أعلى شقته.. أو (خاتونة) زوجة أخيه (ديفيد) اللذان يقطنان شقة صغيرة أخرى مقابلة لشقته، يذهب بعدها إلى فراش ابنته النائمة ذات السبع سنوات (كيتيفان)؛ فيقبلها ويضمها إلى صدره ثم يغط في النوم بجوارها حتى صباح اليوم التالي ليعيد الكرة! كما أخبرتك،

هو مواطن جورجي آخر سيء الحظ، ألقى به رحم أمه للحياة ليصير رجلاً في تلك الأيام العصيبة التي تمر بها البلاد.. وكل أيام (جورجيا) عصيبة بشكل أو بآخر.

بدأت علاقتي بعائلة (جاكيلي) عندما جاءني قس الاعتراف الخاص بـ (ألكسندر جاكيلي).. من خلفه كان يسير ذلك الأخير الشاحب الوجه كأنه شبح.. أخبرني القس أن الشاب يطلب رأيي في بعض الجرائم، فأجبته برفق أنه قد أخطأ العنوان، وأن الشرطة ستكون أجدر مني بمساعدة الفتى المرتجف.

في الحقيقة لقد سمعت بعض الأخبار المتناثرة عن تلك الجرائم تلوكها ألسن أبناء المدينة؛ فـ (متسخيتا) مدينة يقطنها ما لا يزيد عن عشرين ألف شخص، دائماً ما كنت أمزح قائلاً أنه لو عطس شخص في أولها لأجابه آخر في آخرها بأن "حفظك الرب"؛ لذا كان من الطبيعي أن تصير تلك الجرائم هي حديث رجال المدينة في الحانات ليلاً، وحديث نسائها في الأسواق نهاراً.

أخبرني قس الاعتراف أن الشرطة مرتبكة وقد عجزت عن المساعدة.. ثم أضاف هامساً في أذني بلهجة خاصة؛ أنه يظن أنني الشخص الأجدر لمساعدة الفتى البائس.. حسناً، لقد صارت لي بين الكنائس تلك السُمعة كجندي للرب يحسن منازلة (الشرير) وأعوانه.. هززت رأسي للفتى بأن يبدأ في الكلام؛ فزفر عالياً وكأنه وجد الخلاص بالفعل.. ثم بدأ بالتكلم بصوت مرتجف، سارداً لي ما أخبرتك به آنفا، ثم استكمل السرد ليخبرني بالآتي:-

السيد (كوبا جاكيلي) والد (ألكسندر) يخرج يومياً قبيل الغروب بساعة للتريض في الشوارع المحيطة بمنزله – نصحه الطبيب بذلك – فالحقيقة أن صحة السيد (كوبا) النفسية ليست على ما يرام منذ ما يقارب العام.. هو رئيس عمّال سابق في أحد مصانع الغزل والنسيج المتاخمة لـ (متسخيتا)، تم تسريحه مع عشرات العمّال الآخرين بعد أن اشترى السيد (إيفاني سولوكيدز) المصنع من الحكومة. عائلة (سولوكيدز) من العائلات النبيلة ذات الأصل العريق في البلاد، العديد من أبنائها كانوا من كبار الإقطاعيين في غرب البلاد، أو من كبار رجال الجيش. أخبرني والدي مرة عن (فاردين سولوكيدز)، الذي كان من كبار قادة ثورة (تبليسي) على الحكم السوفيتي إلى أن أنهى (ستالين) حماسه.. لا يمكن أن تظل متحمساً بعد أن يقطع (ستالين) رأسك.. حقاً ينتابني همٌّ كبيرٌ كلما تذكرت أن (جوزيف ستالين) كان جورجياً!

كانت الحكومة تتخلص من جميع المصانع والشركات المملوكة لها، وكأن بها جرب أو طاعون، تبيعها بأبخس الأثمان لمستثمرين أجانب وقلة من الأغنياء الجورجيين، الذين نجحوا في إخفاء أموالهم بعيداً عن أيدي الشيوعيين الطويلة.. يبدو أن السيد (إيفاني سولوكيدز) قد أجاد إخفاء الكثير؛ فأسرع بشراء المصنع، ثم أسرع بتسريح العمّال مانحاً إياهم حفنة من (لاريات) لا تغني من جوع...

فجأة أصبح السيد (كوبا جاكيلي) لا يجد ما يسد به جوعه هو وزوجته العجوز (إيرينا). حاول أن يجد عملاً آخراً؛ إلا أن سِنّه الذي اقترب من الستين وخبرته المحصورة في آلات النسيج منعاه.. ها هو يبدأ في الاعتماد كلياً على ولده (ألكسندر) المسكين الذي يطعم زوجته وابنته بالكاد.. (أيونا) ولده الثاني والأخير له تجارة رائجة في (متسخيتا)، إلا أنه بخيل كبئرٍ جاف.. حتى أن زوجته (خاتونة) فقدت وعيها أكثر من مرة نتيجة لسوء التغذية.

لكل هذا أستطيع أن أتفهم ما شعر به السيد (كوبا) في ذلك اليوم قبيل الغروب، عندما اتجه إلى التلال القريبة وأنهى حياته قاطعاً شرايين يديه.

أستطيع تفهم لوعة الأسرة وهي تبحث عن كبيرها ليومين كاملين.. أستطيع تفهم حزنهم عندما أخبرتهم الشرطة بعثورها على جثته الباردة بين التلال.. أستطيع تفهم نهش الضواري لجثته صانعة ذلك الجرح الكبير في صدره.. أستطيع تفهم حروف اسم (سولوكيدز) التي خطها السيد (كوبا) على شكل دائرة بدمه على الأرض المغطاة بالجليد.. إلا أنني عجزت عن تفهم ذلك الرمز.. نجمة سباعية.. (سبتاجرام).. مرسومة بالدم داخل الدائرة الدموية، وكأن رأس كل ذراع للنجمة يشير إلى أحد حروف اسم النبيل الثري (سولوكيدز).. الاسم بالحروف الجورجية مكوّن من سبعة أحرف وليست عشرة كما في الإنجليزية التي استخدمها لكتابة هذا الخطاب.

ببعض العسر غضّت الشرطة الطرف عن النقوش الدموية، وببعض العسر فعلت أنا عندما وصل (ألكسندر) لتلك النقطة في قصته الرهيبة، ربما كانت هلوسات بلا معنى لشيخ محتضر أفسد الاكتئاب والبرد عقله العجوز، وبمزيد من العسر تفهمت انتحار (أيرينا)؛ الزوجة العجوز بعد يومين من اكتشاف جثة زوجها.. هي انتحرت لا بد؛ فمداخل شقتها المغلقة سليمة، إلا أن الشرطة عجزت عن إلقاء اللوم على الضواري هذه المرة.. عندما وجدوا ذلك الجرح القبيح في صدرها، عجزوا عن تفسير

رسم الـ (سبتاجرام) المرسومة بالدم على جدار بيتها محاطاً بحروف اسم (سولوكيدز).

لذا أتخيّل رجال الشرطة الذين وقفوا مرتبكين في الردهة الواسعة لبيت السيد (إيفاني سولوكيدز) منتظرين نزوله من غرفته، مرتدياً معطفاً من الفراء تعادل قيمته مجموع رواتبهم جميعاً لعامين.. أتخيل ترددهم في سؤاله عن إن كانت هناك أي صلة ما تربطه بالعجوز (كوبا جاكيلي) أو زوجته (أيرينا).. أتخيل نظرة الجهل في عينيه التي تتحوّل لنظرة مستبشعة عندما يخبره رجال الشرطة بأن السيد (كوبا) كان عاملاً سابقاً في مصنعه، وأنه انتحر هو وزوجته تاركين اسمه بحروف من دم. أتخيله وهو يخبرهم أنه غير مسؤول عن تصرفات "المخابيل" من كبار السن؛ فينصرف رجال الشرطة المرتبكين ليخبروا (ألكسندر) أن أبوه وأمه عجوزان مخرفان، حقدهما على السيد (سولوكيدز) أتلف عقليهما فانتحرا.

إلا أن (ألكسندر) المسكين كان يواجه مشكلة أخرى مع زوجته (تمار) صرفته عن غموض وفاة أبيه وأمه.

(تمار) تصحو من النوم صارخة.. (تمار) تقضي يومها شاردة صامتة، وإن تكلمت فهي تكلم أشخاصاً غير موجودين!.. (تمار) تقول أنها هي من قتلت العجوزين، يهتف فيها (ألكسندر) أن تخرس؛ سيفرح رجال الشرطة كثيراً بهذا الاعتراف المجاني؛ الذي سيغلقون به تلك القضية المحيّرة وقد شعروا بالرضا. الحقيقة أن (ألكسندر) لا يصدق اعتراف زوجته البتّة، كانت معه في الفراش وقت مات أبوه، وكانت تعدُّ عشاءً للمعزين في وفاة أبيه وقت ماتت أمُّه.. أضف إلى ذلك الحب الجارف الذي تكنه (تمار) للعجوزين الراحلين؛ فعائلة زوجها (ألكسندر) هم كل عائلتها.

في طفولتها وحتى أنهت مراهقتها، لم تعرف (تمار) لها بيتاً سوى ملجأ الأيتام، كانوا يقولون لها في الملجأ أنهم عائلة ويجبرونها على مناداة المشرفة الكئيبة بأمي! لا تعرف (تمار) كيف يكون شعور الشخص الذي يملك أماً؛ لكنه بالتأكيد يختلف عمّا تشعر به تجاه تلك المشرفة التي لا تعطيها من الطعام إلا ما يبقيها على قيد الحياة! ربما لهذا السبب نشأت نحيلة كماصّه الشراب، ربما لهذا السبب نشأت تحمل حقداً كبيراً لهذا العالم المليء بأناس يملكون أبوين.. حقداً دفنته في مزيدٍ من العمل في

مصنع الغزل والنسيج المتاخم لـ (متسخيتا)، بعد أن ركلوها خارج دار الأيتام حين أتمّت الثامنة عشر.

لذا أقول لك بكل ثقة صديقي العزيز: إن (تمار) كانت تشعر بحب جارف وامتنان بالغ للسيد (كوبا جاكيلي) العجوز الراحل وزوجته الطيبة اللذان احتضناها كأب وأم؛ بعد أن رآها السيد (كوبا) زوجة مناسبة لابنه الأكبر (ألكسندر).. هي عاملة مجتهدة ماهرة؛ وسيكون لها شأن كبير في مصنع الغزل والنسيج، إلا أن انهيار الشيوعية وبيع المصنع أنهى المسيرة المهنية لكليهما، فبقت (تمار) في المنزل تعتني بابنتها (كيتيفان) والعجوزين.. ربما تجاذبت أطراف الحديث مع (خاتونة) زوجة (أيونا) الابن الأصغر للسيد (كوبا).

كانت تحبها هي الأخرى.. وإن امتلأت حقداً على (أيونا) زوجها.. (أيونا) يتاجر بكل شيء تقريباً، وله علاقات جيدة بكل عائلات (متسخيتا).. لقد انهارت الشيوعية وحلت محلها الرأسمالية؛ ليصير رجلاً كهذا من الأثرياء.. الاقتصاد الحر خُلق لمثل هؤلاء وليس لمن هم مثل زوجها (ألكسندر)، الذي يعود كل يوم من دكّانه محملاً بفشله و(لارياته) القليلة، بينما يعود أخوه كل مساء حاملاً حقيبة سوداء تكدّست بالـ (لاريات)، وعلى الرغم من كل هذا، فإن نفقات العجوزين يتحملها (ألكسندر) الغبي المسكين بمفرده.

مسكينة هي (خاتونة)، لا تلقى أي اهتمام من زوجها (أيونا) الذي وهب حياته لتجارته.. مسكينة هي (خاتونة)، التي ربما مر عليها شهور منذ آخر مرة تذوَّقت فيها اللحم.. مسكينة هي (خاتونة) التي تعاني بخل زوجها وتقتيره على الرغم من سعة رزقه.. مسكينة هي (خاتونة) التي وجدوها جثة هامدة وقد تمزّقت شرايين معصميها وشوّه الجرح القبيح صدرها.. مسكينة هي (خاتونة) التي حطّمت أصابعها وهي تنقش الـ (سبتاجرام) على الجدار محاطة بالحروف المشؤومة لـ (سولوكيدز).

أجل أيها الأب العزيز (متروفاتس).. لقد قتلت (خاتونة) نفسها بعد ثلاثة أيام من وفاة الأم.

عاد المنزل ليمتلئ برجال الشرطة المرتبكين، ودَّ كبيرهم لو استطاع نسف هذا المنزل المشؤوم بصاروخ؛ إلا أنه لا يمتلك تلك الصلاحية للأسف؛ لذا اكتفى بنصح الأخوين (جاكيلي) بأن يلجأا لأحد رجال الدين، فهناك شيء (شرير) يحدث كما قال لهما.

لم يكن (ألكسندر) بحاجة إلى ذلك النصح؛ فهو يعاني بالفعل مع زوجته (تمار) التي ظلّت تصرخ طوال الليل أنها هي من قتلت المسكينة (خاتونة) كما قتلت العجوزين من قبل. كانت تبكي وتطلب من زوجها أن يتركها تذهب إلى (سولوكيدز).. ماذا ستفعل هذه المأفونة في منزل (إيفاني سولوكيدز) النبيل الثري؟! لن تسبب لزوجها سوى المزيد من المشاكل.

بالطبع منعها زوجها من الخروج من المنزل، وأراد أن يوجّه لها بضعاً من الصفعات والركلات.. كان يظن أنها كفيلة بإنهاء جنونها أو طرد الشياطين من جسدها، دائماً ما كان يظن أن الضرب هو العلاج الناجح لكل مشاكله مع زوجته؛ إلا أنه ذُهل عندما ردت عليه صفعته بصفعة لأول مرة.. وعندما ركلها أنشبت أظافرها في وجهه وصدره فأدمته.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تقوم بها بهذا الفعل؛ فلم تكن من قبل عنيفة أو صعبة المراس. مرتبكاً غادر إلى الحانة، سكراناً عاد منها ليتفاجأ بزوجته تنسلّ هاربةً من البناية، أسرع إليها يمنعها فقاومته بعنف شاهرةً سكيناً عملاقةً سرقتها من المطبخ، كانت تصرخ بأنها لا بد أن تذهب إلى (سولوكيدز) لتؤدّي طقوس الفداء، كانت كضبع هائج، إلا أنه أخيراً استطاع السيطرة عليها بعد أن أصابته بجروح لا بأس بها.. وبمساعدة أخيه (أيونا) ربطها إلى الفراش، وعندما أشرقت الشمس هرع إلى القس الذي أتى به إليّ.

لذا تراني أيها الصديق العزيز وقد جلست أحدّق حائراً في تلك الصورة الفوتوغرافية التي التقطها (ألكسندر) لتلك الـ (سبتاجرام) الدامية المرسومة على جدار غرفة (خاتونة) زوجة أخيه الراحلة، (مرفق بالخطاب نسخة من الصورة). الحقُّ أن لتلك النجمة قوة نفسية كبيرة تملأ نفسك بعدم الارتياح؛ لذا حاولت أن أخفي القشعريرة التي أحسست بها في عمودي الفقري، وأن أخبر (ألكسندر) بأنني سأعاود الاتصال به لاحقاً لآتي لتلاوة الصلوات في منزله؛ فانصرف الشاب الملتاع بعد أن أمطر يدي بالقبلات.

ربما كان رمز النجمة هو الرمز الأكثر تداولاً في ممارسات السحرة؛ إلا أن النجمة الخماسية – ذات الرؤوس المتجهة إلى الأسفل – لها نصيب الأسد من تلك الممارسات.. ربما استُخدمت النجمة السداسية على نطاق أقل كثيراً؛ إلا أن النجمة السباعية ظلّت دائماً بريئة من هذه الممارسات.. ربما كانت رمزاً مقدّساً لدى سحرة (ويكا النجوم الزرقاء)، المتفرعة في الولايات المتحدة من ديانة (الويكا).. تلك الديانة

الوثنية الجديدة التي نشأت في إنجلترا على وجه الخصوص.. النجمة السباعية هي رمز إيمانهم كما هو الصليب للمسيحيين؛ إلا أن أذرع النجمة السباعية المقدسة لـ (ويكا النجوم الزرقاء) طويلة ذات زوايا حادة بين تلك الأذرع.. أما النجمة التي رأيتها في الصورة فالزوايا بين أذرعها القصيرة منفرجة، كما أن (ويكا النجوم الزرقاء) ممارستها سلميّة بريئة في العموم، وهم يحرِّمون السحر الأسود وكل الممارسات الشريرة التي قد تؤذي البشر؛ فالسحر بالنسبة لتلك المجموعة ما هو إلا وسيلة لنشر السلام والارتقاء بأرواح أتباع الديانة.. بالتأكيد هم مجموعة من المخابيل؛ إلا أنهم مخابيل مسالمون لا يؤذون ذبابة.. حملني تداعي أفكاري من المخابيل المسالمين الودودين إلى المخابيل الغير ودودين فتذكرته؛ لذا تراني أنهض مسرعاً إلى مكتبتي العملاقة، التي لا يجرؤ أحد على دخولها.. أبحث بين مئات الكتب المرصوصة على الرفوف الخشبية حتى وجدت ضالتي.

(كتاب القانون) لكاتبه الإنجليزي (أليستر كراولي) مبتكر الـ (ثيلما).. الكتاب المكوّن من ثلاثة فصول، والذي يزعم (كراولي) أنه كتب كل فصل فيه في ساعة واحدة، بعد أن لُقّن ما كتبه تلقيناً من شيطان يزعم أن اسمه (أيواس).. أنت تعلم جيداً كما أعلم أنا أن (كراولي) لم يكن طاهر الذيل تماماً.. ربما اعتبره كثيرون الإنسان الأكثر شراً على هذا الكوكب، ولربما كان ما رُويَ عن الأحداث الغريبة التي رافقت وجوده في (بولوسكاين) باسكتلندا أو (كورفو) قرب صقلية، هي قمة جبل الجليد المختفي في بحر شرور هذا المشعوذ الذي لم يكن قتله للأطفال أبشع طقوسه الغامضة.

أقلّب صفحات الكتاب حتى أعثر على ضالتي.. النجمة السباعية أو الـ (سبتاجرام) ذات الزوايا المنفرجة بين أذرعها.. ها أنا أراها بجوار اسم (بابلون).. هي رمز (بابلون) وخاتمها.. لا أعلم صديقي العزيز إن كنت قد قرأت تلك الشعوذات الموجودة في (كتاب القانون) أم لا.. ولكنك بالطبع تعلم أنه هو الكتاب الأعظم للنظام الروحاني للـ (ثيلما) الذي أسسه (كراولي) في العام 1904 م.

(بابلون) هي إلهة أنثى في ذلك النظام.. نعتها (كراولي) بعدة نعوت: كالأم العظمي، والمرأة القرمزية، العاهرة المقدّسة، وأم الفواحش، وهي أسماء ليست مشرِّفة على الإطلاق كما ترى، إلا أنها تتوافق مع جوهر الـ (ثيلما) الذي لخَّصه (كراولي) في مبدئه (افعل ما تريد)!! في أكثر صورها تجريدية، تمثل (بابلون)

الدافع الجنسي الأنثوي أو التحرر النسوي. آمن (كراولي) بأن (بابلون) هي نظيرة للـ (وحش العظيم)، كما اعتاد (كراولي) أن يطلق على نفسه.. وقد صوّرها دائماً على هيئة امرأة تمتطي الوحش ممتشقةً سيفاً.

يقول عنها في كتابه (كتاب توت) المنشور في العام 1944م:-

"هي تمتطي الوحش.. بيدها اليسرى اللجام الذي يمثل الشغف الذي يوحدهما.. في يدها اليمني ترفع عالياً الكأس.. الكأس المقدّسة الملتهبة بالحب والموت"..

أنا وأنت – أيها الصديق العزيز – نؤمن بوحدانية الرب.. لذا، نستطيع أن ننفي بشكل قاطع وبقلب مطمئن وجود آلهة تحمل اسم (بابلون).. لكننا لا نستطيع أن ننفي بنفس الاطمئنان شعوذات (كراولي).. هل (بابلون) هي شيطانة قدّسها (كراولي) الآثم فجعلها له ربةً؟ شيطانة تمتطي وحشاً وتحمل كأساً؟ هل يذكرك هذا الوصف بشيء يا صديقي العزيز؟ أعلم أنك تفكر الآن فيما فكرت فيه وقتها؛ (عاهرة بابل)!! أجل!! هل لاحظت كما لاحظت أنا التشابه بين الاسمين؟ هل (بابلون) هي (عاهرة بابل) التي ذكرها يوحنّا الإنجيلي في سفر الرؤيا بالكتاب المقدّس؟!

جاء في الفصل السابع عشر من رؤيا يوحنّا: **"ثم جاء واحد من الملائكة السبعة الذين معهم الكؤوس السبعة وتكلم معي قائلاً، هلمّ فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة، التي زنى معها ملوك الأرض وسكر سكانها من خمر زناها. فمضى بي بالروح إلى البرية فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي عليه جميع أسماء التجديف له سبعة رؤوس وعشرة قرون. والمرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز ومتحلية بذهب، وحجارة كريمة، ولؤلؤ، ومعها كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها، وعلى جبهتها اسم مكتوب، سر بابل العظيمة أم زانيات الأرض. ورأيت المرأة سكرى من دم القدّيسين ومن دم شهداء يسوع، فتعجبت لما رأيتها تعجباً عظيماً".**

لقد تعلّمنا يا صديقي العزيز الأب (متروفاتس) منذ نعومة أظافرنا أن (عاهرة بابل) هي شخصية مجازية أو صورة تشير إلى (روما) ونظام حكمها الذي اضطهد الكنيسة في عصورها الأولى.. وقت أن كانوا يلقون بالمسيحيين للأسود.. ماذا لو كانت (عاهرة بابل) ليست بمجاز؟ ماذا لو كانت شيطانة حقيقية أراها أحد الملائكة السبعة لـ (يوحنّا) الرسول؟ شيطانة قديمة أنعش وجودها ممارسات (أليستر كراولي)

الشريرة؟.. كان (كراولي) يصف بعض النساء اللاتي عرفهن بأنهن الصورة البشرية لـ (بابلون)، مثل زوجته الأولى (روز أيديث) أو عشيقته (ليا هيرسينج).. فهل (تمار) زوجة (ألكسندر جاكيلي) تجسيد لـ (عاهرة بابل) أو(بابلون)؟ كيان شيطاني يقتل من حوله بطريقة غرائبية مبعثراً بصمته المتمثلة في الـ (سبتاجرام) في كل مكان؟ لن أعرف حتى أرى.

لذا تراني أيها الصديق العزيز وقد تدثرت بردائي الأسود وتسلحت بصليبي الخشبي الكبير وكتابي المقدّس واتجهت إلى بيت آل (جاكيلي)، بعد أن حددت موعداً مع (ألكسندر).. ها هو يدخلني إلى غرفة نومه حيث قيّد زوجته إلى الفراش الخشبي الكبير.. ألقي عليها التحية فتجيبني عيناها الجاحظتان بنظرة كارهة.. تحرك شفتيها مرددةً ما لا يمكنني سماعه بشفتين متشققتين جف عليهما لعاب سال منذ زمن.. بدت كدجاجة تنتظر الذبح بأنفها الكبير الذي بدا أشبه بالمنقار وساقيها الرفيعتين المقيدتين واللتين انكشف عنهما ثوبها الطويل.

توقعت أن يكون تجسيد (بابلون) أو (عاهرة بابل) أجمل مما كانت عليه (تمار).. لكن من أكون أنا لأحكم على الجمال الأنثوي!! وقد أنستني سنوات الرهبنة الطويلة كيف يكون.. ها أنا ذا أخرج الكتاب المقدّس وأبدأ في الصلاة، ومن حين لآخر أوجّه نظرة جانبية للمسكينة المقيدة، تارة أراها تضحك وتارة أخرى تبكي وتارة شاردة لا تلوي عن شيء.

عندما أنهيت صلاتي كانت الشمس قد مالت للمغيب، ومعها مال رأس (تمار) على وسادتها وقد غطت في سبات عميق. قمت بنثر الماء المقدّس في أنحاء غرفتها وسائر أركان المنزل.. وقتها أحسست بسلام عميق يغمر الأنحاء.. سلام أحس به (ألكسندر) وأخوه (أيونا)؛ فانهالا على يديّ بالقبلات قائلين أن (تمار) لم تعرف النوم مطلقاً منذ مصرع والدهما العجوز السيد (كوبا).

ودَّعت الأخوين وانصرفت طالباً منهما أن يبلغاني بكل جديد، وحقاً كانت النتيجة مرضية فقد استيقظت (تمار) مشرقة الوجه.. احتضنت ابنتها التي لم تمسها منذ بدأت تلك الأحداث العجيبة.. ثم أعدت وجبة عشاء دسمة لزوجها وأخيه.. أخبرني (ألكسندر) بهذا في مكالمة هاتفية، فأخبرته بأن الشر قد زال عن المنزل وعن زوجته ببركة (يسوع) المسيح الذي استخدمني أنا (كاليستراتوس) خادم الرب المخلص.

ربما لم أفهم كل خيوط القصة.. ربما لم أفهم لمَ اختارت (بابلون) تلك المسكينة (تمار) لتتجسد فيها، ربما لم أفهم العلاقة ما بين الـ (سبتاجرام) رمز (بابلون) وخاتمها، وبين النبيل (إيفاني سولوكيدز).. لم أفهم ما هو سر اقترانهما.. لم أفهم كل هذا ولكن فهمت أن عمل الرب قادر على إزالة كل الشرور.

بإخلاص

الأب/ كاليستراتوس

كاتدرائية سفيتسكيفالى

متسخيتا، جورجيا

أعاد (غسّان) ترتيب الأوراق الصفراء المهترئة للخطاب الطويل المرسل من الأب (كاليستراتوس)، والمكتوب بإنجليزية منمّقة والذي أنهى قراءته للتو.. وضع الأوراق جانباً ثم أخذ يتأمل صورة لـ (سبتاجرام) المرفقة مع الخطاب، والتي صار يعرف أنها خاتم (بابلون).. يرفع عينيه إلى حيث جلس الراهب المشلوح السيد (أجابيوس فانيوكس)، الذي عرف في سنوات خدمته الكنسية بالأب "متروفاتس كريتبولس".

- "هيّ فعلاً نفس النجمة.. ونفس الحروف اللي حواليها".. يقولها (غسّان) بلهجة تقريرية.

- "نجمة إيه؟".. يتساءل رجل الدين السابق بحروف مدغمة.

- "الرمز.. خاتم (بابلون)".. يلوّح (غسّان) بالصورة الفوتوغرافية.

- "(بابلون) مين؟".. يغمغم (أجابيوس – متروفاتس) وقد أراح رأسه إلى كتفه..

ينظر (غسّان) بضيق إلى الراهب المستلقي على أريكة قديمة تمزقت حشوتها وقد صرعه الخَمر.. كان قد خلع سترته المهلهلة و(البول أوفر) الصوفي كاشفاً عن قميص داخلي قصير الكميّن طغى صفاره على بياضه.. يده داخل قفازها الصوفي تقبض على زجاجة (براندي) محليَّة الصنع.. يمطُّ (غسَّان) شفتيه.. ينهض من جلسته على ذلك الكرسي الخشبي المتهالك.. يسير إلى مدخل الغرفة الواسعة والعالية السقف والضعيفة الإنارة، محاذراً التعثر في عشرات الأشياء التي يجهل كنهها.. يدخل المطبخ الممتلئ بزجاجات البراندي الفارغة.. يفتح خزانة المطبخ.. فيفر صرصوران وقد أزعجهما الزائر المفاجئ.. يعثر على بعض القهوة.. فيصنع بعضاً منها ويصبُّها في كوبٍ متداعٍ.

- "يا أبونا!".. يقولها (غسّان) وهو يهزّ كتف الراهب السابق.. ينتبه الأخير؛ فيمد (غسّان) يده بكوب القهوة.. لا يبدو أن الراهب قد لاحظ يد (غسّان) الممدودة.

- "مصر حلوة.. الكحوليات هنا رخيصة أوي".. يقولها (أجابيوس) أو (متروفاتس) بنفس الصوت المدغم؛ ثم يبدأ في الدندنة بكلمات أغنية يونانية ما.

- "طب خد اشرب".. يقولها (غسّان) بنفاذ صبر.. يعتدل الراهب من رقدته بصعوبة.. يبدأ في رشف القهوة واستعادة وعيه تدريجياً.. يأتيهما من خارج الباب صوت أطفال يضحكون.

- "حد يسكِّت العيال دي بدل ما أطلع أموّتهم".. يقولها الراهب للفراغ، وهو ينهض متجهاً إلى دورة المياه تاركاً (غسّان) وحيداً يقلّب عينيه في الغرفة الواسعة التي تراكمت في أرجائها مئات الكتب وزجاجات البراندي.

- "عظيم!!".. يقولها (غسّان) لنفسه ساخراً.. بدت تلك الغرفة جحراً مناسباً للراهب غريب الأطوار، الذي انتعشت ذكرى قديمة في عقله عندما أراه (غسّان) صورة النجمة السباعية على هاتفه المحمول.. تذكر خطاب صديقه الراهب الجورجيّ، ولكنه عجز عن تذكر التفاصيل.. فاصطحب (غسّان) إلى منزله.. ظل طوال الطريق صامتاً وهو ينصت إلى (غسّان) إذ يحكي له تفاصيل قصته.. وصلا إلى منزله فظل يبحث عن الخطاب القديم لساعتين وسط أطنان الكتب والأوراق حتى وجده.

بدأ (غسّان) بالقراءة بينما استلقى الراهب على (الأريكة – الفراش) التي تتوسط تلك الغرفة في منزله بإحدى البنايات القديمة المبنيّة على الطراز الأوروبي بأحد الشوارع الرئيسية بـ (وسط البلد). المنزل لا يحوي إلا على تلك الغرفة التي جلس بها (غسّان)، ودورة المياه التي دخلها الراهب المشلوح للتو، ومطبخ اقتطع اقتطاعاً من مساحة الغرفة.. هي جزء بسيط من شقة واسعة تشْغَلُها شركة ما من تلك التي تمتلئ بها (وسط البلد).. يفصلها عن باقي (الشقة – الشركة) جدار من (الطوب الإسمنتي) الغير مدهون، يمثّل الحائط الغربي لها.

يتابع (غسّان) الراهب المشلوح إذ يغادر دورة المياه مجففاً شعره الأشيب الغزير.

- "معاك دكتوراه في مجال الرموز؟".. يقولها (غسّان) وهو ينظر إلى الراهب الذي اختفى وجهه داخل المنشفة.

- "أمّال أنتا مفكّر المحاضرة الطويلة اللي أنا اديتهالك دي إيه؟ من المعلومات العامة؟".. يقولها الراهب وهو ينظر إلى وجهه في مرآة قديمة معلقة على الجدار.. فيهزّ (غسّان) رأسه متفهماً.

- "والست (أنكين) عارفة ده طبعا!".. يقولها (غسّان) وهو يشعل سيجارته.

- "أيوة".. يجيب الراهب باقتضاب وهو يمشّط شعره بأصابعه التي مازالت داخل قفازها الصوفي، بعد أن فشل في العثور على مشط وسط الفوضى.

- "ممكن أسألك سؤال؟".. يقول (غسّان) بتردد.. يهزّ (متروفاتس – أجابيوس) رأسه بلا اكتراث.. فيكمل (غسّان): "إيه موضوع الموهبة اللي عندك دي؟".. تتسمّر أصابع الراهب متوقفة عن تمشيط شعره.. يستدير ناظراً لـ (غسّان).

- "واضح إن الأب (كاليستراتوس) اتكلم كتير أوي في الجواب".. يعود للنظر في المرآة مضيفاً بخشونة مفاجئة: "الموهبة دي منحة من الرب.. مش مجال للتفاخر أو الزهو".. يصمت (غسّان) وقد أحس بالحرج.. يتنحنح.. ينظر له الراهب مجدداً قائلاً وقد انكسرت خشونة نبراته: "معرفش هي نعمة ولا نقمة أصلاً.. تقدر تعتبرها مرض مزمن ملهوش علاج.. مش بحب أتكلم عنها".. يهزّ (غسّان) رأسه متصنعاً التفهم.. الحقيقة، هو لا يفهم أي شيء.. منذ بدأت هذه الأحداث وهو لا يفهم شيئاً على الإطلاق.

- "وكان إيه ردك على الخطاب ده يا أبونا؟".. يتساءل (غسّان).

- "مفيش لا رد ولا حاجة".. يصمت الراهب لحظة.. يضيف وهو يعاود الجلوس على الأريكة: "اتشغلت بمشاكلي.. كانت الكنيسة كلها ضدي في الفترة دي.. بعد سنة تقريباً من تاريخ الخطاب ده اتشلحت".

- "من ساعة ما اتقابلنا وأنا عاوز أسألك عن السبب".. يتمتم (غسّان) بصوت متردد خافت.. ودَّ ألا يجيبه الراهب غريب الأطوار بمزيد من الخشونة.

- "مكنتش بنتظر موافقة الكنيسة قبل ما أعمل جلسات الصلاة لطرد الشياطين من أبناء الرب".. يستطرد بعصبية: "لازم أرفع للإيبارشية والإيبارشية ترفع للبابا والبابا يرفع للكرسي الرسولي في اليونان.. المفروض أني أقعد أستنى؟.. (الشرير) مش بيستنى!!".

- "إيه اللي حصل؟".. يسأل (غسّان) بنفس الصوت الخافت.

- "طفل.. تسع سنين.. مات أثناء الجلسة.. شكوى.. إيقاف.. تحقيق.. شلح".. يرد الراهب بصوت نافس صوت (غسّان) في خفوته.. يطرق (غسّان) برأسه.. لدى الراهب سبب وجيه إذاً لكره الأطفال.. طفل أطاح بمستقبله المهني إن جاز التعبير!! يُخرج (غسّان) الكيس البلاستيكي الذي يحوي القدم المبتورة للبومة.. يناوله للراهب

المشلوح الذي يفتحه فيتقلَّص أنفه اشمئزازاً من رائحة التحلل العفنة التي بدأت تدب في القدم المخلبية.

- "دي رجل بومة لقيتها في سريري.. تفتكر إيه علاقتها بـ (بابلون) أو (عاهرة بابل) دي؟".. يتساءل (غسّان).

- "مفيش علاقة!".. يجيب الراهب بلهجة قاطعة: "البومة رمز للنحس وسوء الطالع عند المصريين، ورمز للحكمة عند اليونانيين ومعظم الحضارات الأوروبية.. لو فيه طائر يرمز للشيطان فهو الغراب، اللي كان سحرة القرون الوسطى يعتبروه تجسُّد للشيطان خصوصاً لو كان موجود وقت ممارساتهم لطقوسهم".. يعود لتأمل القدم المبتورة.. يقول: "متأكد إن دي مش رجل غراب؟".

- "متأكد تماماً.. دي رجل بومة (أم قويق)".. يجيب (غسان) وهو يعاود التقاط الكيس الكريه الرائحة مغلقاً إياه.. يضيف متسائلاً: "مفيش طوائف معينة استخدمت البومة في السحر والكلام ده؟".

- "معرفش!".. يهزّ الراهب كتفيه.

- "طيب السيدة الجورجية (تمار) دي كانت مسكونة بـ (بابلون) اللي بدأت في قتل عائلتها.. معنى كده إن أنا برضه تجسيد لـ (بابلون) دي؟!".. يتساءل (غسّان) في تردد.

- "بابلون شيطانة أنثى.. لازم تتجسد في هيئة أنثى".. ينظر لـ (غسّان) نظرة طويلة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه: "واضح إن أنتا مش أنثى.. غالباً هتبقى (بابلون) متجسدة في حد من الستات القريبين منك".

- "كل الستات القريبين مني ماتوا!".. يقول (غسّان) بعصبية مكتومة.

- "معرفش!".. يعود الراهب لهزّ كتفيه.

- "طيب إيه علاقة عيلة (سولوكيدز) بـ (بابلون)".. يتساءل (غسّان) مجدداً.

- "معرفش".. يهزّ الراهب كتفيه للمرة الثالثة.

- "طيب إيه فحوى الصلوات اللي طهَّرت (تمار) وصرفت عنها (بابلون)؟".. يعود (غسّان) للتساؤل.. يهزُّ الراهب كتفيه ولا يرد.. بدا وكأنه سئم الإجابة بـ (معرفش).. ينظر إلى وجه (غسّان) الذي اعتلته علامات الإحباط للحظة.. يقول:

- "عالم ما وراء الماديات زي مدينة ضخمة غامضة.. الأديان كلها.. السحر.. التنجيم وغيرها وغيرها أبواب للمدينة دي.. كل واحد مهتم بالعالم ده بيدخل من باب

مختلف.. بيشوف جزء من معالم المدينة.. جزء مواجه للباب اللي دخل منه، معرفته للمدينة بتبقى من خلال الجزء اللي شافه.. الغبي بس هو اللي بيقول إنه شاف المدينة كلها، والكذاب بس هو اللي يقول إنه بقى خبير في دروبها".. يصمت لحظة ليلتقط أنفاسه.. يضيف: "أنا خمورجي.. بس مش غبي ومش كداب.. حاسس بحيرتك وضعفك.. لكن مقدرش أخدعك وأدّعي علم مش عندي".

- "يعني مفيش أمل إني ألاقي (ياسين)؟".. بدا (غسّان) وكأنه يسأل نفسه.

- "اللي يقدر يساعدك هو اللي دخل من الباب اللي لسه مقفول في وشك".. يجيب (متروفاتس – أجابيوس) بسرعة.. ينظر له (غسّان) وقد عاد الأمل إلى عينيه.. يضيف الراهب: "الأب (كاليستراتوس).. خليني أشوف عنوانه أو رقم تليفونه".. يتجه الراهب السابق إلى كومة ضخمة من الأوراق في أحد أركان الغرفة.. يسعل إذ يقلِّبُ في الأوراق القديمة المصفرة.. يبحث في كومة ثانية ثم ثالثة بينما عينا (غسّان) تتابعه بلهفة.. يخلع قفّازه ليلتقط ظروفاً قديماً مهلهلاً..

- "كويّس.. عنوان الكاتدرائية ورقم تليفونها على الظرف أهو".. يقول الراهب وهو يخط العنوان ورقم الهاتف بالإنجليزية على ورقة بيضاء: "يا رب بس يكون لسه عايش!!".. يناول الورقة لـ (غسّان) فيلتقطها الأخير بتلهف.

- "ألف شكر يا أبونا".. يقولها (غسّان).. ينهض مسرعاً متجهاً إلى باب الشقة.. يتبعه الراهب مودعاً.. يفتح باب الشقة القديم محدثاً صريراً عالياً.. يمدُّ يده بتلقائية ليشد على يد الراهب العارية بحرارة؛ فينتفض جسد الأخير وقد تملكته رجفة.. ثم يتهاوى على ركبتيه.

- "في حاجة يا أبونا؟ أنتا كويس؟".. يقولها (غسّان) بقلق للراهب الذي انتزع راحة يده من كف (غسّان) بسرعة.

- "مفيش.. مفيش! بس ماخدتش الأدوية بتاعتي النهارده".. يقولها الراهب وهو يحدّق في وجه (غسّان) كأنه يراه للمرة الأولى.

- "طيب أقدر أعملك حاجة؟".. يقولها (غسّان) وهو يتابع الراهب إذ ينهض ثم يعود ليرتدي قفازه الصوفي معطياً ظهره لـ (غسّان).

- "شكراً.. مع السلامة يا دكتور".. يقولها الراهب بلهجة جافة دون أن يلتفت.. يتطلع (غسّان) إلى الراهب الذي أولاه ظهره في حيرة..

- "متأكد؟!".. يقولها (غسّان) برفق.

- "أيوة!".. يقولها الراهب بنفس اللهجة الجافة.. يضيف بصوت خفيض لا يسمعه (غسّان):-

"نبيل أنتا يا (غسّان).. نبيل وشهم".. ينتظر حتى يسمع انغلاق الباب إذ يغادر (غسّان).. يعود لجسده الارتجاف الذي جاهد لمنعه في اللحظات القليلة السابقة.. يجلس إلى مكتب قديم في ركن الغرفة ويلتقط قلماً وبعض ورقات بيضاء، ويبدأ في كتابة خطاب قصير بأصابع مرتجفة غطّاها القفاز الصوفي

.

الفصل الثامن

لإنقاذك من المرأة الأجنبية، من الغريبة المتملّقة بكلامها،
التاركة أليف صباها، والناسية عهد إلهها.
لأن بيتها يسوخ إلى الموت، وسبلها إلى الأخيلة.
كل من دخل إليها لا يؤوب، ولا يبلغون سبل الحياة.

سفر الأمثلة – الإصحاح الثاني – (16 :19)

تبليسي - جورجيا

الثاني عشر من فبراير 2016 م

"أمي!".. الآن يراها تمشي على مهل بين شواهد القبور.. لا يتذكر هيئتها جيداً، ولكنه يدرك أنها هي.. ينهض.. يقترب منها بقدمين ثقيلتين.. تدير إليه وجهاً غطّته الظلال قائلة بالإنجليزية:-

"نحن على وشك الهبوط بمطار تبليسي الدولي، نرجو من السادة الركاب العودة إلى مقاعدهم وربط أحزمة المقاعد استعداداً للهبوط".

يفتح (غسّان) بهدوء عينين منتفختين.. يزيح عنهما خصلات شعر تهدّلت بلا نظام، فيفسح مجالاً للرؤية للعينين الحمراوين.. على المقعد المجاور له جلست شمطاء سبعينية ترمقه بكراهية غير مسببة.. لا بد أنه أزعجها أثناء نومه بأنّاته التي أهداها إليه كابوسه اليومي، صار الكابوس مألوفاً فلم يعد يستيقظ فزعاً.. بل ربما صار ينتظر الكابوس اليومي ليرى (ياسين).. ودَّ لو انطبعت صورة (ياسين) على مقلتيه فلا ترى عيناه غيره.. ذلك الشرطي في قسم شرطة النزهة قال له أن الأطفال يكبرون فتتغير أشكالهم وملامحهم سريعاً.. كم يخشى تلك اللحظة، أن يكبر (ياسين) بعيداً عن ناظريه.. ثم يلقاه فلا يعرفه.

يزفر بصوت عالٍ؛ فتتململ الشمطاء الجالسة بجواره.. ينظر لها بلا اكتراث.. صار جلفاً عديم اللياقة مذ فقد ابنه.. لم يعامله القدر بلياقة حتى يعامل بها غيره.. هل فقدت تلك الشمطاء ابناً وزوجة وحبيبة في بضعة أيام؟! لمَ الضيق إذاً؟! يحك لحيته براحة يده.. طالت فبسط البياض نفوذه عليها.. يربط حزام مقعده استعداداً للهبوط بمطار (تبليسي).

لو أخبره أحدهم منذ شهر أنه سيفقد ولده الوحيد بـ (الشيخ زايد) فيذهب للبحث عنه في (جورجيا) لأرسله لـ (أنطوان) ليفحص قواه العقلية! احتاج أن يطالع عدة خرائط حتى يعرف مكان (جورجيا) التي لم يسمع حتى اسمها قبل تلك الأحداث.. احتاج بضع اتصالات حتى يعرف موقع سفارتها في القاهرة.. احتاج بضعة أيام حتى حصل على تأشيرة زيارة سياحية، وبضعة أيام أخرى حتى استطاع تدبر أمر الطيران المباشر إلى العاصمة (تبليسي).

يقلّب عينيه في وجوه من جلسوا بقربه في الطائرة، بينما يهتز جسده إذ تقبِّل عجلات الطائرة أرض المطار بشوق العائدين من السفر.. وجوه غريبة تحدِّث بعضها البعض بكلمات ذات أصوات غريبة؛ فتصطدم الكلمات بأبواب أذنيه التي أوصدها الجهل، وتسقط شظاياها أرضاً.. "غريب في أرض غريبة".. قال العبارة لنفسه وهو يحاول تذكّر أين سمعها.. قلق الغربة ورهبتها استبدا به وهو يخطو نازلاً سلم الطائرة.. نفس القلق الذي شعر به يوم أن أرسله جده إلى تلك المدرسة الأرمينية بعد وفاة عائلته.. كان محظوظاً كفاية يومها ليجد (أنطوان) فيألفه سريعاً طارداً عنه قلقه وغربته.. من أين له بـ (أنطوان) آخر اليوم؟!

يضمُّ معطفه الثقيل – الذي لم يرتده منذ عاد من إنجلترا قبل بضعة أعوام – إلى جسده ليتّقي سياط الهواء المجمِّد الذي يحاول انتزاعه من على الأرض الزلقة المكسوة بطبقة رقيقة من الجليد.. يملؤه الجو البارد والعاصف بالخوار؛ فتتملكه رغبة عارمة في البكاء.. يجاهد لكتم دموعه فيأبى الدمع إلا أن يسيل من أنفه البارد فيشهق لكتمه.. هو ريشة في العراء.. ريشة استقرت على الأرض في وقت سكنت فيه الريح، فظنّت أنها امتلكت مصيرها وقرارها ومستقبلها.. ثم هبّت الريح الباردة فقذفتها إلى تلك الأرض الجليدية لتفيق من غفلتها.

تباً للبرد.. يشعر به يخترق عظامه فيجمّد نخاعه.. حذَّره (أنطوان) من برد القوقاز عندما زاره في المستشفى منذ أسبوع مخبراً إياه بنيته في السفر إلى (جورجيا)، فأجابه بصوت حلقي فاحش، ثم أردف بسوقية إن البرد سيجمّد مؤخرته، وأنه سيعود إلى مصر معدوم المؤخرة وقد قضمها الصقيع.. يومها ضحك.. مازال (أنطوان) قادراً على انتزاع ضحكاته حتى وهو على فراش المرض.

غطّت يديه الضمادات من أطراف أصابعه وحتى مرفقيه.. (أنطوان) لا يتذكر شيئاً البتة عمّا فعله بنفسه في ذلك اليوم، وعمّا فعله (غسّان) به.. بقعة بيضاء تشغل ذلك الحيّز من ذاكرته وإن تذكّر جميع ما سبقها وجميع ما تلاها.

أخبرَ (أنطوان) أن الأب (كاليستراتوس) الجورجي هو وسيلته الوحيدة لفهم غموض ما يجري وإيقافه.. أخبره أنه لا يستطيع أن يضمن سلامته؛ فذاك الشر يقتل كل من أحبهم يوماً.. أخبره أنه حاول الاتصال برقم الهاتف الذي أعطاه إياه الراهب المشلوح (متروفاتس) فلم يجبه إلا المجيب الآلي مخبراً إياه أن الرقم المطلوب غير صحيح.. ينقصه رقمان، ربما أضافتهما البضعة والعشرون عاماً المنصرمة من وقت الخطاب المُرسل إلى الراهب المشلوح.

عنوان كاتدرائية (سفيتيتسكفالي) في (متسخيتا) هو خيطه الوحيد إلى الراهب الأب (كاليستراتوس).. هكذا أخبر (غسّان) (أنطوان) ظهر اليوم على بوابات المطار، بعد أن أصرّ الأخير على اصطحابه ليودّعه؛ على الرغم من إصابته واحتياجه للراحة.. أجابه (أنطوان) بأنه مخبول.. وأن (متروفاتس) مخبول.. وأن ذلك الراهب الجورجي – إن كان مازال حياً – مخبول وأن أمه هي زعيمة المخابيل، ثم انهمك في وصلة سباب لهم جميعاً وهو يستدير مغادراً وقد نسي أن يودِّع (غسّان) المندهش.. دائماً ما كان (أنطوان) قادراً على إثارة دهشته.

ينهي إجراءات وصوله أمام أعين رجال الجوازات المتشككة.. التأشيرة السياحية التي يحملها لا تبدو متناسبة مع عينيه المنتفختين وملامحه المكفهرة.. إن كانت تلك هي هيئة سائحي مصر، فكيف ستكون هيئة قاطعي طرقهم؟! يحمل حقيبته الوحيدة ويخرج من بوابة المطار البعيد عن العمران في أطراف (تبليسي).. يشعل سيجارته الطويلة بكثير من العسر بفعل الهواء البارد.. ينظر إلى سيارات الأجرة البيضاء التي كساها الغروب بلون قرمزي.. يشير لواحدة منها.

- "وسط البلد".. يقولها بالإنجليزية للسائق.

- "آر فاسابروب أنجليزارد!!".. يجيب السائق وهو يلتقط راكباً آخر.. يمطُّ (غسّان) شفتيه، ويوجِّه حديثه إلى سائق آخر.

- "وسط البلد.. شارع (أيزوب جرايشاشفيلي)!!".. يقولها بالإنجليزية بكثير من العسر.. ينصرف عنه السائق قبل أن يتم جملته البائسة حتى!! تقترب منه سيارة أجرة أخرى يفتح سائقها زجاج نافذته جزئياً.

- "جفاريد باروسكي؟؟".. يسأل السائق بصوت جهير.. ينصرف عنه بعد أن رأى نظرة الجهل البلهاء التي كست عينيه.. يطلق (غسّان) سبّة فاحشة بالعربية.. هؤلاء القوم لا يعرفون الإنجليزية!! كرر محاولاته لربع ساعة بلا فائدة.. تباً للبرد الذي زاده وقوفه ساكناً سوءاً.. يبدو أن (أنطوان) كان محقاً.. ستتجمّد مؤخرته، وهو لم يغادر المطار بعد.. ينتابه الخوف.. تزداد غربته غربة، ويزداد ضياعه ضياعاً.. يطلق المزيد من السباب مقنعاً نفسه أن ما يشعر به هو الغضب وليس الخوف.

"مش هتلاقي هنا حد بيتكلم إنجليزي".. يأتيه الصوت الأنثوي من خلفه متحدثاً بلهجة مصرية كسيحة.. يلتفت (غسّان) إلى مصدر الصوت.. تتسع عيناه وكأنهما تحاولان الإحاطة بكل هذا الحسن.. لا يفهم ما تقوله تلك الفتاة الباهرة الجمال؛ فلا يدري هل لهجتها المصرية المهشّمة هي ما منعته من الفهم، أم هو هذا الحسن الذي جعله فاقد الإدراك لأي شيء آخر حتى الكلمات.. يطرق بعينيه أرضاً وقد آلمتهما تلك الروعة.

- "إيه؟".. قال الكلمة بصوت حاول أن يجعله رجولياً جهورياً، فخرجت منه مكتومة مبحوحة كاستغاثة غريق.. يعاود رفع عينيه بحذر إلى ذلك الوجه الذي لروعته؛ ظن أنه لم يوجد قط.. ابتسامة عابثة مراوغة تتأرجح على شفتيها كمن اعتادت رؤية نظرات الانبهار في عيون الآخرين.. إلا أن ابتسامتها لم تمنع خجلاً أحمر اللون من أن يكسو وجنتيها؛ فبدت كنهر من الحليب كسته أوراق الورد.

- "بقول.. مش هتلاقي حد هنا بيفهم إنجليزي!".. تتسع ابتسامتها فتنفرج حبتي الكرز في فمها عن لؤلؤ ناصع.. يحدّق بها (غسّان) لبرهة.. للحظة فقد إدراكه للزمان والمكان.. هو هنا أمامها منذ نشأة الكون.. ناسك بلا اسم ولد في محرابها فلا يعني له العالم إلا وجهها.

- "أمال بيفهموا إيه؟".. يتمتم بها (غسّان) فلا تدري حواسه المشلولة إن كان قد نطقها حقاً.

- "روسي!".. تضحك كحديقة غرَّد بها ألف كروان.. تضيف: "روسي وجورجي بس".. مازال (غسّان) يحدّق بها.. بدت كأجمل شيء رآه.. ليس كأجمل امرأة.. تسامت على جمال نساء الأرض كلهن وتركتهن عند أطراف قدميها يتمرّغن في الوحل.. هي أجمل زهرة أنبتتها الأرض.. فسال رحيقها معطياً لكل الوجود حلاوة..

هي أبدع شلال هدر ماؤه العذب؛ فملأ كل أنهار الأرض.. هي أروع طفل ضحك فخلقت ضحكته كل براءة عرفها العالم القاسي منذ عهد آدم حتى قيام الساعة.

- "أنا كده في مشكلة! معرفش غير إنجليزي وعربي".. يبتسم (غسّان).

- "أنتا رايح فين؟".. تقولها الحسناء بلهجتها المصرية المهشّمة وهي تعدّل وضع القلنسوة الصوفية فوق شعرها الذي تلاعب به الهواء البارد.. أو يتلاعب هو بالهواء البارد.. لا يفهمها (غسّان) فتعيد تكرار ما قالته ثم تضيف بالعربية الفصحى: "أنا لا أتحدث اللهجة المصرية بشكل جيد.. دراستي بالعربية الفصحى".. قالتها بلهجة أسوأ بكثير من لهجتها العامية المصرية.. يضحك (غسّان) لا إرادياً.. لم يسمع في حياته عربية أسوأ من تلك.. إن كانت تدرس العربية فهي لا بد تلميذة فاشلة، ربما لو اجتهد هو قليلاً لاستطاع فهم الجورجية بشكل أفضل من تلك العربية البائسة التي تتحدث بها الحسناء.

- "هل تتحدثين الإنجليزية؟.. ممتاز!.. أظنك تحتاجين لمزيد من التدريب للغتك العربية.. حتى يفهمها الحمقى من أمثالي".. يسيطر (غسّان) على ضحكته الوقحة.

- "أنت تهين إتقاني العربية بكلماتك تلك!".. قالتها بالإنجليزية وهي تتصنع الغضب، عاقدة حاجبين طويلين أعلى عينيها الواسعتين بدلال: "ما هي وجهتك؟".

- "وسط المدينة".. يقول (غسّان) بالإنجليزية.. يقرأ شيئاً ما على شاشة هاتفه المحمول، يضيف بصعوبة: "شارع أيزوب جرايشاشفيلي".

- "حسناً.. لنا ذات الوجهة".. ترد بالإنجليزية التي صارت لغة حوارهم.. تضم ياقة معطفها المصنوعة من الفراء.. تشير إلى إحدى سيارات الأجرة القليلة المتبقية أمام المطار، وتتبادل مع السائق بعض الكلمات القليلة بالجورجية.. ثم تدلف إلى السيارة ناظرة لـ (غسّان) الذي يتابعها بعينين حائرتين مشيرة إليه أن هلمَّ اركب.

- "شكراً لمساعدتك".. يقولها (غسّان) ممتناً وهو يدخل السيارة جالساً بجوارها على المقعد الخلفي.

- "أجرة السائق ثلاثون لاري.. سنتقاسمها".. تقول الحسناء بلهجة عملية.. تخلع قلنسوتها الصوفية وتهزّ رأسها يمنة ويسرة؛ فينسدل شعرها المموّج الأسود على كتفيها كليل لم يرَ شمساً قط.. تجاهد لخلع معطفها الثقيل القرمزي اللون، وهي جالسة في مقعد السيارة الضيق فتصطدم ساقها البضة داخل جوربها الشفاف بساق (غسّان) فيجفل.. تبعد ساقها التي أحاط بها حتى منتصفها حذاءٌ من الجلد الأسود طويل الرقبة

قائلةً: "معذرة!".. يغمغم هو بكلمات لا يدرك حتى ما هي.. يتأمل خلسة فستانها الأسود المخملي القصير الذي كشف عن ركبتيها.. يطول صمته وهو يتأملها بجانب عينه فلا يلاحظ المعالم الغير مألوفة للمدينة التي كساها الليل الوليد بالشحوب.. تكسر الحسناء حاجز الصمت:

- "سيالا.. سيالا جاتشافا.. دارسة لغات شرقية".. تمد له أنامل بيضاء طويلة كسا أظافرها اللون القرمزي.

- "جورجية؟".. يسألها وهو يصافح أناملها الدافئة برفق.. خشي أن يضغط على أصابعها فيسمع صوت تهشم البلّور.

- "مبتعثة من جامعة تبليسي لدراسة اللغة العربية بالقاهرة".. تهزُّ (سيالا) رأسها إيجاباً.. تصمت للحظة منتظرة أن يقوم بتعريف نفسه.. لا يفعل.. مازال وجودها يربكه حتى نسي أسس الحوار السليم بين البشر!! تسأله بعد أن فطنت لارتباكه "مصري؟"

- "أجل!".. يجيب (غسّان).. تلتقي عيناه بعينيها السوداوين الواسعتين.. بدتا كينبوعيّ ماء دافئ سقط فيهما جسده فاسترخى.. توتره ومشاعره القلقة تتبخر من خلايا جسده؛ فتنعقد سحباً كثيفة في سماء روحه.

- "لمَ أتيت إلى هنا؟ لا تبدو سائحاً!".. تقولها (سيالا).. مازالت عيناها مثبتة على عيني (غسّان).. ودَّ أن يجيب، إلا أن دموع غزيرة انهمرت من عينيه منعته.. دموع أدهشته هو شخصياً.. دموع مفاجئة لم تنذره بغصّة سابقة.. وقبل أن تشوّه دموعه رؤيته؛ رأى (سيالا) تنظر له بحنان.

- **"آر فاسابروب أنجليزارد!!"..** يمطُّ (غسّان) شفتيه.. لم يسمع من الجورجية سوى تلك الجملة منذ وطأت قدماه أرض (تبليسي).. لا يحتاج لكثير من الفطنة ليدرك أن معناها (لا أتحدث الإنجليزية).. تغادره سيارة الأجرة السادسة تاركةً إياه واقفاً يرتجف على ذلك الرصيف أمام الفندق الصغير، الذي اتخذه مكاناً لإقامته بشارع (أيزوب جرايشاشفيلي) بوسط المدينة. لا بد من أن يستأجر مرشداً أو مترجماً على الأقل، إن أراد ألا يمكث على ذلك الرصيف إلى أن تقوم الساعة. بمكتب استقبال الفندق كان هنالك ذلك الشاب الذي يتحدث بعض الإنجليزية ربما استطاع تدبر الأمر.. عسى أن يجده على مكتبه في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

همَّ بالعودة إلى الفندق ثم تسمّر في مكانه، إذ وقع عليها ناظريه.. (سيالا) تُشرق فجأة من ناصية الشارع القريبة.. مازالت في نفس ثيابها منذ الأمس.. تنقل ساقيها الممشوقتين بخطوات بطيئة متعبة، وهي تطوّح بحقيبة يدها القرمزية الصغيرة أماماً وخلفاً.. بدت كمن عادت من حفلة ليلية صاخبة.. يشيح (غسّان) بوجهه بعيداً.. ودّ ألا تراه ثانية.. منذ أن انهمرت أمطار سحب القلق المعلّقة في سماء روحه دموعاً غزيرة، وهو يودُّ ألا تراه.. منذ أن رأته خائراً ضعيفاً، وهو يودُّ ألا تراه.. منذ أن رأى نظرة الشفقة في عينيها، وهو يود ألا تراه.

يكره نظرات الشفقة منذ أحاطته بها معلماته في مدرسته الابتدائية كطفل يتيم.. كره شعور الضعف منذ أن سمع معلماته يهمسن "يا حرام!"، راثيات يتمه وضعفه كلما مر من أمامهن، منذ ذلك الحين أقسم ألا يبدو ضعيفاً قط.. سيكون دائماً رمزاً للقوة، لاعباً للـ (كاراتيه).. سيكون دائماً رمزاً للنبل.. جرّاحاً ماهراً.. سيكون دائماً رمزاً للمجد، وسيماً، غنيّاً.. لا ينقصه شيء.. ها هو يحنث بقسمه المرة تلو الأخرى منذ أن اختفى (ياسين).. شروخ عديدة أحدثتها أحداث الأسبوعين الماضيين في سد روحه، ثم كانت هزيمة اعتداده بنفسه الكاسحة بالأمس.. اِنهار السّد وغرق كل رمز

صنعه لنفسه في طوفان دموعه التي سالت أمام (سيالا) وسائق الأجرة الذي اتسعت عيناه دهشةً وذعراً.. وجّه سؤالاً ما لـ (سيالا) بالجورجية فأجابته ببعض الكلمات.. لا بد أنه سألها عن هؤلاء السوّاح المخابيل الذين يتركون بلادهم لينفجروا بالبكاء في بلاد الآخرين.. توقفت سيارة الأجرة بالأمس في الوجهة المطلوبة قبل أن تتوقف دموعه.. أخرج مرتبكاً حفنة من (اللاريات) لم يعرف عددها ودسها في يد السائق وغادر دون أن يلتفت للخلف، وبلا أي كلمة وداع.. بدا كنموذج بائس لغريبي الأطوار، وإن كان عزاؤه أنه لن يرى تلك الحسناء ثانية.. لكنه الآن يراها! فليأمل ألا تراه.

- "هاي.. أيها الجميل".. سمعها تهتف مناديةً إياه بحروف ممطوطة.. لا داعي لمزيد من التخفي إذاً.. ينظر نحوها بارتباك ثم يحوّل عينيه عنها.. تقترب منه على مهل وهي تتفحص وجهه كأنها تتأكد أنه هو.. ابتسامة عابثة تتلاعب بحبتي الكرز على فمها.. لاحظ أنها استخدمت الإنجليزية لتناديه بالـ (جميل) وليس الوسيم.. هي تسخر منه!.. ينعقد حاجباه في ضيق.. بكى بالأمس كطفل ساذج؛ فليتحمل تبعات حماقته إذاً.. تتوقف أمامه قائلةً: "أجر السائق ثلاثون (لاري).. أنت أعطيته مئتين!!".. تتسع عيناها كأنها لا تصدق وجود كل هذا الغباء في العالم.. تضيف: "استعدت منه مائة وخمسين (لاري) بأعجوبة.. بحثت عنك فلم أجدك.. هاك نقودك".. تبحث عنها في حقيبتها بلا جدوى.

- "لا مشكلة.. لست متعجّلاً.. شكراً على أي حال".. يقولها (غسّان) باقتضاب كأنه ينهي الحوار.. مازالت عيناه تجولان في كل مكان إلا وجهها.. لا يجرؤ على النظر إليها.

- "أنت تقيم بذات الفندق؟! صدفة جيّدة".. ابتسامتها العابثة لا تفارق شفتيها.. يرفع (غسّان) عينيه المندهشتين إلى وجهها.. هي مقيمة معه بذات الفندق!.. تلتقي عيناه بعينيها الدافئتين فتأسرانه من جديد.. يفرُّ بعينيه سريعاً.

- "خَجِلٌ أنت من دموع الأمس؟!".. تقولها وقد اختفت ابتسامتها العابثة.. يا لجرأتها! هكذا قال (غسّان) لنفسه.. ينظر في عينيها السوداوين مرة أخرى.. تضيف: "الدمع يظهر أصدق ما فينا.. الدمع والكحول".. تقرِّب وجهها منه.. يغطس في الينبوعين الحاريّن في عينيها، حتى تتفصّد قطرات العرق على جبينه.. يشم رائحة كحول قوي تعبّق أنفاسها.. تكمل: "لا عار في الدموع.. الدموع تغسلك.. تمسح عنك

كل هذا الزيف الذي تلوثك به الدنيا.. تتركك نقياً عارياً كطفل وليد".. مازال يحدّق في عينيها.. من جديد تتلاشى الموجودات وتصير هي الواقع الوحيد.. تقرّب وجهها أكثر.. تكاد شفاههم تتلامس.. تمد يدها لتتحسس صدره وهي تقول باللهجة المصرية: "أنا شوفتك عريان امبارح.. وعجبني اللي شوفته!".. تعود ابتسامتها العابثة إلى شفتيها.. يحس بلفح أنفاسها الحارة لوجهه.. على خلفية الكون المرتسم في عينيها يرى سيارة (تويوتا) سوداء تتوقف في الشارع شبه الخالي على الناصية القريبة.. سائقها ينظر إليهما بإمعان حيث وقفا.. يبدو قوي البنية، غربياً بشدة بوجهه الأحمر ورأسه الأحمر والأصلع تماماً.. ملامحه ليست قوقازية.. يبدو أجنبياً، أوروبيٌ على الأرجح.. السيارة فيها ثلاثة أشخاص آخرين لا يميّز (غسّان) ملامحهم.. نظرات السائق الحادة تنزعه من عالم (سيالا).

- "أنتِ مخمورة!".. يقولها (غسّان) بصوت مبحوح.. وهو يتراجع خطوة إلى الخلف.. تلاحظ هي تشتت انتباهه.. تتقدم خطوة للأمام.. عادت أنفاسها اللافحة المحمّلة بالكحول تعابث خياشيمه.. تسأله وقد عادت لاستخدام الإنجليزية: "أين تذهب في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟".

- "كاتدرائية سفيتيتسكفالي".. ينطق الاسم المعقد بكثير من التلعثم.. مقطوعة موسيقية عذبة تنساب إلى أذنيه مع ضحكتها المخمورة.

- "وكالعادة لا تجد من يفهم الإنجليزية؟".. تقولها وقد رفعت أناملها الطويلة ناصعة البياض لتزيح خصلة شعر أسقطتها الرياح الخفيفة فوق عينه اليسرى، معيدةً إياها إلى مكانها أعلى جبهته.. تضيف بالمصرية: "كده أحلى".

- "كنت سأعود الآن إلى الفندق.. سأحاول أن أجد مرشداً!".. يقولها (غسّان).. يحاول بكثير من العسر أن يتجاهل جملتها الأخيرة، وأن يتجاهل نبضات قلبه التي صار يسمعها كقرع الطبل في أذنيه.

- "سأكون مرشدتك!".. تقولها ببساطة.. تضع سبابتها بين شفتيها مفكِّرة.. زال أحمر الشفاه عن حبتي الكرز وظلتا مصبوغتان بحمرةٍ طبيعية.. تضيف: "خمسمائة لاري في اليوم".

- "موافق!".. يقولها (غسّان) وقد انفرجت أساريره.. مازال السائق الشرس في السيارة السوداء يراقبهما.. رآه بطرف عينه.. يضيف: "متى نستطيع البدء؟"

- "فور استيقاظي من النوم".. تقولها بلهجة ناعسة.. تبتعد عنه متجهة إلى مدخل الفندق.. خطواتها متعثرة.. يراها وقد أوشكت على السقوط.. يسرع لمساعدتها.. تمسك هي بذراعه.. تريح رأسها على صدره فيجفل.. لا يبدو أنها قد لاحظت ارتباكه حتى.. عيناها شبه مغلقتين.. يرتبك للحظة وهو ينظر خلسة لتلك السيارة السوداء التي أبت الرحيل.. يعبر مدخل الفندق داخلاً إياه، وهو يكاد أن يحملها حملاً.

- "(سيالا).. ما هو رقم غرفتك؟".. يسألها بصوت خفيض فلا تجيب.. يعود فيرفع صوته مكرراً سؤاله.. فلا تجيب إلا بهمهمة الناعسين.. موظف الاستقبال يتابعه بنظرة (يا – لك – من – محظوظ!)؛ فيجيبه بنظرة (ليس – الأمر – كما – تظن!!).. لا يدري كيف يتصرف.. يجرُّها جراً إلى غرفته.. يريحها على فراشه؛ فتغط في نوم عميق عن فورها.. حذاؤها طويل الرقبة لوّثه وحل الطريق.. يخلعه عنها برفق متأملاً قدميها الصغيرتين، ذواتي الأصابع الطويلة المصبوغة بأحمر قانٍ.. فستانها المخملي الأسود يكشف عن ساقيها الملساوين المخروطتين كأنهما من رخام أبيض.

يشعر بحلقه يجفّ.. شهوته تطفو على سطح روحه من مكان مجهول.. يشرب بعض الماء.. اضطرابه وقلقه في الأسابيع الأخيرة أنسياه شهوته؛ فبدت كوجه صديق قديم هجره طويلاً ثم عاد إليه مبتسماً مذكراً إياه بأيامهما الخوالي.. يجلس على أريكة وثيرة مواجهة للفراش وهو يتأملها.. انساب شعرها على وسادته محيطاً بوجهها النائم؛ فبدا كليلٍ بلا نجوم أحاط ببدرٍ ليلة تمامه.. رقبتها طويلة عاجية وكأنها نُحتت للتو.. فشل معطفها القرمزي الثقيل في إخفاء ثديين شامخين ارتفعا وانخفضا مع رتابة أنفاسها؛ فبديا وكأنهما يوّجهان لـ (غسّان) الدعوة أن اِقترب أكثر.

لم يدرِ كم ظلّ جالساً يتابع أنفاسها المنتظمة مطلقاً عادم سجائره الطويلة، كراهب بوذي أشعل بخوره وجلس يتأمل، حتى انتبه لقرب نفاد التبغ.. سعل وتنحنح كمن أفاق من حلم طويل.. ثم اتجه إلى دورة المياه غاسلاً وجهه بماء بارد أعاده إلى الواقع.. رفع عينيه إلى المرآة ناظراً لوجهه الذي لم يره منذ فترة طويلة.. صديق آخر افتقده.. صديق آخر ضربته الأحداث الأخيرة بسياط قاسية.. يتأمل شعره المبعثر الذي ازدادت خصلاته البيضاء كماً وكيفاً.. لحيته الطويلة التي وخط الشيب أغلب شعيراتها.. هالتان سوداوان أحاطتا بعينيه اللتين غابتا داخل محجريهما.. تذكّر قول (أنطوان) وابتسم.. حقاً يبدو كـ (جورج كلوني) بعد أن صدمه قطار أرياف!!

لحسن الحظ كان في دورة المياه أدوات حلاقة وعدة أمشاط للشعر.. لم يجد بالاً رائقاً لجلب تلك الأدوات معه.. حمل في حقيبته الواحدة ما وقعت عليه عيناه كما اتفق.. يحلق لحيته مقنعاً نفسه (أن النظافة من الإيمان).. يمشِّط شعره بعناية ثم يخرج من الغرفة لشراء علبة من السجائر، ولا ينسى أن يلقي نظرة عابرة على (سيالا) التي تغط في نوم عميق.. يعود من مهمته المستحيلة لشراء سجائر جورجية من بائع قريب لا يفهم سوى الجورجية.. شعور غريب بداخله بأنه قد افتقد (سيالا).. يوّبخ نفسه وهو يفتح باب غرفته متهما إياها بالنزق.. يدخل الغرفة موجهاً نظره صوب الفراش.

لقد اختفت الحسناء!! بالأحرى تبخرت وكأنها لم توجد قط.. فراشه مرتب على أكمل وجه.. حتى آثار الوحل التي خلّفه حذاؤها على شراشف الفراش اختفت بلا أثر تاركة إياها بيضاء ناصعة.. يطلق سبَّة.. ربما كانت لصَّة ممن يسرقون من هم مثله من السائحين الحمقى.. يهرع إلى خزينة الغرفة الموجودة داخل خزانة الثياب.. يطلق زفرة ارتياح.. أمواله ترقد داخلها في سلام.. يجلس على الأريكة الوثيرة المقابلة للفراش.. هل كانت (سيالا) تلك موجودة بالفعل؟

تلك الروعة الساحرة لا يمكن أن تتواجد في ذلك العالم القبيح.. هذا ما قال لنفسه.. الخيط الرفيع بين الهلوسات والحقيقة تمزَّق في عقله منذ زمن.. لربما كانت وهماً تخيله بالأمس واستيقظ معه صباحاً.. لربما كان سائق السيارة السوداء يتسلى بمراقبة الأحمق الذي يحدث نفسه.. يستغرق في خواطره فلا ينتبه للطَرَقَات على الباب إلا بعد برهة.. ينهض متثاقلاً.. تتهلل أساريره إذ يرى وجهها الملائكي يطل عليه من فرجة الباب الذي فتحه للتو.. تقول له بلهجة عملية: "مستعد؟!"

- "كاتدرائية (سفيتيتسكفالي) هي الكنيسة الأقدم بجورجيا.. لاحظوا أن (جورجيا) هي البلد الثاني الذي اعتنق كامل شعبه المسيحية بعد (أرمينيا) بفترة وجيزة".. يقولها القس الشاب بالجورجية وهو يوجِّه حديثه إلى (سيالا) و(غسّان).. في الواقع هو يوجه جل حديثه ونظراته وابتساماته التي حاول أن يجعلها متحفظة لـ (سيالا).. شعور بالغيرة يتسلل إلى قلب (غسّان)، ودَّ أن يخفيها داخل أضلعه بعيداً عن أعين البشر.. أدهشه شعوره.. فأقنع نفسه بأن ما يشعر به هو السأم من تلك المحاضرة المملة التي تطوّع بإلقائها القس الشاب.

- "انتهى بناء الكاتدرائية في العام 1029 إلا أنها كانت موجودة بصورة أوليّة منذ القرن الرابع الميلادي".. يقول القس الجورجي لـ (سيالا) فتترجم ما قاله لـ(غسّان) الذي لا يبدو مهتماً.. عيناه تدوران في أرجاء الكنيسة الواسعة التي عبرا بابها الحجري الكبير للتو.. هي مزار سياحي ديني كما أخبرته (سيالا)، وهم بداخل السيارة التي استأجروها ليقطعوا العشرين كيلومتراً التي تفصل (تبليسي) العاصمة عن (متسخيتا) العاصمة القديمة لمملكة (أيبريا) التي سيطرت علي معظم غرب جورجيا في القرون الميلادية الأولى.

(متسخيتا) صارت العاصمة الدينية للبلاد وقلب المسيحية النابض في (جورجيا) التي يؤمن أربع وتسعون بالمئة من سكانها بالمسيحية الأرثوذكسية.. لم يصدق مدى صغر المدينة الواقعة في سهل منخفض تحتضنه التلال الخضراء من كل جانب حتى وصلها.. هي أقرب للقرية بشوارعها الضيقة وبيوتها المنخفضة الارتفاع والهرمية السقف.. المدينة بنيت على موقع التقاء نهرين.. (أرجافي ومتكفاري).. هكذا أخبرته (سيالا) وهم يترجلون من السيارة قاصدين السور الحجري العالي الذي احتضن كاتدرائية (سفيتيتسكفالي).. الكاتدرائية هي وسط المدينة ومركزها.. بدت شوارع المدينة كشرايين نبتت كلها من قلب كبير مثّلته الكاتدرائية القديمة.

"بنيت الكنيسة في موقع دفن الرداء الذي ارتداه المسيح حين صُلب.. أخذه رجل جورجي يهودي من جندي روماني وعاد به إلى بلدته (متسخيتا)".. مازال القس المتحمس يطلق كلماته الجورجية في وجهيهما.. خطر لـ (غسّان) أن الجورجية تبدو كالتركية مع الكثير من صوت (الخاء).. محيرة هي تلك اللغة.. معزولة ومنحصرة في ثلاثة ملايين من متحدثيها هم تعداد دولة (جورجيا) بأبجدية خاصة لا تنتمي للغات الشرقية ولا الهندو أوروبية ولا السلافية.

"(سانت نينو) – هادية جورجيا المعادلة للرسل – أشارت على الملك (ميريان) ملك (أيبريا) الذي كان قد اعتنق المسيحية حديثاً بمكان بناء الكنيسة حيث دفن الرداء".. تترجم (سيالا) الحديث لـ (غسّان) حيث سارا خلف القس المتحمس في ساحة الكنيسة التي بدت كأروع مثال على ما أنتجته عمارة القرون الوسطى الأولى.. لا يبدو أنه سمع من الأساس.. تتأخر قليلاً عن القس حتى تحاذي (غسّان).

- "ما بك؟! أنت لن تدفع لي لأترجم للفراغ!".. تقولها (سيالا) وقد عقدت حاجبيها في غضب مصطنع.. ينظر لها (غسّان) في غيظ.. بدت مضحكة وقد ارتدت تلك التنورة الواسعة فوق الجينز الضيق.. كانت قد استبدلت فستانها المخملي الأسود بكنزة صوفية ثقيلة وسروال (جينز)... أزالت كل الأصباغ عن وجهها قبل أن يغادرا الفندق؛ فبدت أكثر روعة كفاكهة لم تقطفها يد.. استطاع (غسّان) أن يخمن أنها قد تجاوزت الخامسة والعشرين وأنها لم تتخطى الثلاثين بعد.. على مدخل الكاتدرائية التي لا تدخلها امرأة بملابس قصيرة أو سروال أعطوها تلك التنورة المضحكة لترتديها فوق ملابسها.

- "وأنا لم أدفع لكِ لتترجمي لي ما لا أوّد سماعه".. يجيب (غسّان) بغلظة واضحة.

- "ظننتك مهتماً بتاريخ جورجيا!".. تقولها (سيالا) وهي تنظر لعينيه محاولة فهم سر تلك الغلظة المفاجئة.

- "البتة!".. يقولها بنفس الغلظة.. جاء هنا من أجل الأب (كاليستراتوس).. هي تعلم عمّن يبحث.. أخبرها بهذا قبل انطلاقها، لم يتبقى سوى سويعات على الغروب لكنها تصر أن تهدر الوقت ساعية وراء ذلك القس الشاب الذي حاصرها بابتساماته اللزجة.. تمط (سيالا) شفتيها في استياء.. تسرع الخطى لتلحق بالقس الشاب وهي تسير في حركة دائرية على أطراف ذلك الجزء من القاعة الواسعة بالكنيسة.. بدت

حركتها غريبة لـ (غسّان) الذي سار بشكل مستقيم مجتازاً القاعة.. قبل أن توقفه صيحات غاضبة!!

يتسمّر في مكانه وهو ينظر لقسيّن عجوزين يهتفان فيه بالجورجية، وهم يشيران إلى قدميه.. ينظر إلى موطئ قدميه بارتباك.. كان يقف على لوح حجري باستواء أرضية قاعة الكنيسة التي تناثر في هذا الجزء منها عدة ألواح أرضية مماثلة للوح الذي وطأه.. اللوح يبدو أثرياً عليه نقوش جورجية يبدو عليها القدم.. يرتبك.. لا يدري هل يتراجع أم يتقدم.. يبحث بعينيه عن (سيالا) التي عادت إليه بخطى متمهلة سالكة نفس المسار الدائري على أطراف القاعة.. تنظر إليه ساخرة.

- "ماذا يقولون؟".. يسألها (غسّان) بارتباك.

- "ظننت أنك لا ترغب في ترجمة مالا تود سماعه!!".. ابتسامة عابثة تتراقص على حبتي الكرز في فمها.. بدت بتنورتها المضحكة وابتسامتها العابثة، وكأنها طفلة تلهو فصارت أكثر حسناً، تباً للنساء! قالها (غسّان) لنفسه وهو ينظر لها مندهشاً.. تكمل: "أنتَ تطأ بقدميك قبر الملكة (تمار) أعظم ملكات (جورجيا) على مر عصورها".. تتسع ابتسامتها العابثة تضيف: "صورتها على الخمسين لاري إن كنت قد لاحظت".

يتراجع (غسّان) مسرعاً لتفارق قدماه سطح القبر الأرضي، وهو يرفع يده معتذراً بالإنجليزية بصوت عالي.. عيناه لا تفارق الألواح الحجرية الأرضية التي عرف أنها شواهد قبور على الطريقة الجورجية.. تلك القبور تبدو أشبه بالقبر الذي يراه في كابوسه اليومي.. بدأ يشعر بأنه على الطريق الصحيح.. يرفع عينيه إلى (سيالا) التي وقفت مستقبلة دفعات جديدة من اللغة الجورجية يطلقها في وجهها القس الشاب الذي عاد إليهما.. أو إليها على وجه الخصوص.. تترجم لـ (غسّان):

-"الكاتدرائية كانت مكاناً لتتويج ودفن الملوك الجورجيين.. فيها ستة قبور لملوك سابقين".. تشير بيدها إلى الشواهد الحجرية المبعثرة على الأرض الحجرية للقاعة.

- "أين أجد الأب (كاليستراتوس)؟".. يسأل (غسّان) القس الشاب مباشرة.. ينظر الأخير إلى (غسّان) بارتباك، بدا وكأنه التقط اسم الراهب من بين الكلمات الإنجليزية.. تعاود (سيالا) ترجمة السؤال بالجورجية:

- "وينو كاليستراتوس؟".. يتساءل القس في شك وهو يقلب عينيه في وجهيهما.. تعقد (سيالا) حاجبيها وهي تردد ذات الجملة في دهشة.. لا يفهم (غسّان) سبب دهشتها.

- "هل مات؟!".. يتساءل (غسّان) في قلق.. تترجم (سيالا) السؤال.

- "(وينو كاليستراتوس).. حي يرزق".. يهز القس الشاب رأسه نفياً.. يشير بسبابته إلى أعلى نقطة فوق تل مرتفع يبدو جلياً من احدى نوافذ الكاتدرائية الحجرية، يضيف: "(وينو كاليستراتوس) يقيم أعلى الجبل".. تترجم (سيالا) الإجابة لـ (غسّان) فيتهلل وجهه بشراً.. يجذب (سيالا) من ذراعها أمام نظرات القس المندهشة شاكراً إياه.

- "لما العجلة؟".. تقولها له (سيالا) وهي تكاد تركض لتلحق بخطواته الواسعة السريعة.

- "اقتربت الشمس من المغيب.. عندي عدة أسئلة أود طرحها على ذلك الراهب (كاليستراتوس)".. يقولها (غسّان) وهما يعبران باب الكاتدرائية الحجري متجهان إلى الخارج.

- "لا أظن أن الراهب سيكون قادراً على إجابة أي سؤال".. تقولها (سيالا) وهي تلهث.. يتوقف (غسّان) فجأة.. فتتوقف بدورها فكادت أن تسقط على وجهها لولا أن تشبثت بذراع (غسّان) الذي نظر إليها متسائلاً.. تقول وهي تحرك أناملها أمام شفتيها: "وينو كاليستراتوس!".. تصمت لحظة.. تضيف: "أنتَ ستطلب إجابات من راهب مقطوع اللسان!!".


الفصل التاسع

بواباتها هي بوابات الموت
على مدخل بيتها ناحية العالم السفلي تجلس
لا أحد ممن يدخل سوف يعود أبداً
ومن أزعجها سوف يسوخ في الهوة

مخطوطات البحر الميت (4-148-Q)

- "وفقاً لمعلوماتي، الأب (كاليستراتوس) لم يكن أبكماً".. يقولها (غسّان) وهو يهزُّ ساقه اليمنى في نفاذ صبر واضح.

- "ليس أبكماً! هو بلا لسان.. هناك فرق لغوي في الجورجية! آوه".. تقولها (سيالا)، يصطدم جسدها بجسد (غسّان) بقوة على المقعد الخلفي للسيارة التي استأجراها؛ إذ تعبر منعطفاً خطيراً في طريق صعودها فوق تلك التلة متجهة إلى أعلى نقطة فيها.. تهتف بالسائق أن ينتبه.. تضيف موجهة حديثها لـ (غسّان): "ربما فقد لسانه في حادث!".

- "أو أستأصله لوجود ورم ما ".. يقولها (غسّان) وهو يتذكر حالات طبية مماثلة.. ينظر عبر زجاج السيارة إلى قمة التل حيث استقر ذلك الدير الحجري الأثري.. بدا كعين واحدة تحرس مدينة (متسخيتا).

- "كيف تتوقع أن تحصل على إجابات من شخص بلا لسان؟".. تقولها (سيالا) وقد اتسعت عيناها رعباً، إذ يتجاوز السائق المتهور منعطفاً حاداً آخراً.

- "ربما فقد لسانه.. ولكنه لم يفقد عقله.. فليجب كتابة.. فليجب رمزاً!".. يقولها (غسّان) وهو يشيح بيده بعصبية.. مازالت عيناه تراقبان الدَّير الذي يقترب بسرعة.. أُهرقت دماء الشمس الغاربة على جدرانه فبدا مثيراً للرهبة.. يربَّت (غسّان) على كتف السائق قائلاً له بالإنجليزية أن يسرع.. ينظر لـ (سيالا) كأنه يسألها أن تترجم ما قال للسائق.

- "مستحيل.. أنا لا أسعى للانتحار.. هذا السائق أحمقٌ بما فيه الكفاية.. لا يحتاج لمزيد من التشجيع إن كنت قد لاحظت!!".. تهز رأسها نفياً وقد ازدادت عيناها – الواسعة أصلاً – اتساعاً فكادت أن تلتهم وجهها كله.

تمر دقائق معدودة قبل توقف السيارة أمام الدَّير أعلى التلة.. يغادرها كلاهما.. من أعلى التلة يرى (غسّان) مدينة (متسخيتا) كلَّها وقد افترشت الأرض عند قدميه..

يحتضنها نهرا (أرجافي ومتكفاري).. اللذان التقيا أخيراً بعد يوم طويل ليغسل كلٌّ منهما همومه في مياه الآخر.. يهرول (غسّان) في خطوات سريعة إلى مدخل الدير معاكساً اتجاه نفر قليل من السواح المغادرين للدير، الذي أوشك أن يغلق أبوابه حتى اليوم التالي.. تلحق به (سيالا).. ترتقي خلفه الخمس درجات الحجرية المفضية إلى الباب الحجري للدير.

"دير (جيفاري) هو أقدم أديرة جورجيا.. بُني في القرن السادس على موقع غرَسَت فيه (سانت نينو) صليباً خشبياً.. الترجمة الحرفية لاسمه هي دير (الصليب) وهو.." يقاطعها (غسّان) بنظرة حادة أن تخرس!! لا تكف عن لعب دور المرشدة السياحية المخبولة.. يعبر بوابة الدير الحجرية إلى ساحته المتوسطة الحجم.. صليب خشبي كبير في صدر المكان يحيطه ما بدا أشبه بمذبح للدير.. تجول عيناه بين عدة أعمدة حجرية ضخمة تحمل سقفه العالي المقبب.. تقع عيناه على راهب شاب.. يتوجه إليه مباشرة.

- "أين أجد الأب (كاليستراتوس)؟".. يقولها بالإنجليزية بصوت حاول أن يجعله هادئاً فتترجمها (سيالا) اللاهثة من خلفه.. يقلِّب القسُّ الشاب عينيه فيهما في توجس.. لا يرد.. يكرر (غسّان) سؤاله.. فيجيبه الراهب بمزيد من النظرات المتوجّسة.. ينظر (غسّان) إلى (سيالا) مردفاً بعصبية: "هل هو مقطوع اللسان أيضا؟".. تبتسم (سيالا) ابتسامة مضطربة، وهي تنظر إلى الراهب الشاب الذي بدا كمن فهم ما يقوله (غسّان).. فيحمر وجهه غضباً وقد هم بالرد.

- "رويدك يا (جوجي)! الأب (كاليستراتوس) لا يستقبل ضيوفاً أيها السيد".. يأتيهم الصوت القادم من المذبح متحدثاً بالجورجية.. راهب آخر غزت وجهه تجاعيد الشيخوخة.. يتقدم منهم قائلاً: "منذ أن نذر الأب (كاليستراتوس) للرب صوماً، وهو يعيش في عزلة اختارها لنفسه فلا يقابل أحداً".. تترجم (سيالا) ما قاله الراهب الأخير.

- "قطعت آلاف الأميال لمقابلته.. من مصر أتيت!!".. يقولها (غسّان) بعصبية.. ينظر له الراهب العجوز في شفقة.

- "ربما يمكنني أنا أو أياً من الآباء الآخرين مساعدتك؟".. يقولها الراهب العجوز وهو ينظر خلسةً إلى غرفة خلفية غطّتها الظلال الباردة للمغيب.

- "لا!!".. يقولها (غسّان) بلهجةٍ قاطعةٍ! يضيف متوسلاً: "أرجوك.. دعني أقابله".

- "لا أستطيع مساعدتك يا بني.. آسف!".. يقولها الراهب العجوز وهو يهزُّ كتفيه.. يومئ (غسّان) برأسه محبطاً.. يستدير كمن استسلم لقدره ميمّماً وجهه شطر باب الدير الحجري، تتبعه (سيالا).. فجأة يغير اتجاهه مهرولاً صوب تلك الغرفة الخلفية.. يدق بابها الخشبي العملاق محاولا فتحها.

- "أيها الأب (كاليستراتوس) أعلم أنك بالداخل".. يهتف (غسّان) أمام الأعين المندهشة.. يعاود طرق الباب الخشبي العملاق مكرراً نداءه باسم الراهب.. يتبادل الراهبان حديثاً عصبياً بالجورجية.. لا يفهمهما (غسّان) وإن بدا من تعبيرات وجه (سيالا) القلق أنهما لن يقدما له الأزهار!! تهتف فيه (سيالا) بأنهما سيستدعيان الشرطة.. فلا يلقي (غسّان) لقولها بالاً.. الراهب (كاليستراتوس) هو التذكرة الوحيدة لطريق رحلته إلى ابنه الضائع.. فليستدعوا الشرطة إن أرادوا، ولكنه لن يترك هذا المكان مخيَّراً!! هكذا قال لنفسه وهو يدق الباب بعنف أكبر.

يقترب منه الراهب الشاب (جوجي) ويدفعه بخشونة مبعداً إياه عن الباب.. يرد إليه (غسّان) الدفعة بأحسن منها؛ فيسقطه أرضاً أسفل قدمي (سيالا) التي التصقت فزعة بإحدى الأعمدة الحجرية الضخمة وقد غطت فمها براحتيها.. يقتحم القاعة الواسعة شخصان بديا كعنصري أمن يحمل كلاً منهما عصاً سوداء قصيرة.. يستدير (غسّان) إليهما متحفزاً.. فجأة يتجمد المشهد إذ يدوّي صوت هتاف عالي يحمل صوتاً غير مفهوم.. سمعه (غسّان) من خلفه فاستدار مواجهاً باب الغرفة الخلفية الذي انفتح على مصراعيه.

في مدخل الغرفة المفتوحة وقف ذلك الشيخ السبعيني الضئيل مرتدياً زيه الكهنوتي الأسود كاملاً.. بدا صوت الهتاف الجهوري الذي أطلقه الراهب الأبكم غير متناسباً البتة مع قامته بالغة القصر.. صليب خشبي عملاق كان معلقاً على صدره.. بين الفينة والأخرى يرفع يداً ضامرة محتضناً الصليب العملاق كأنه يخشى ضياعه.. يقترب رافعاً رأسه محدقاً في وجه (غسّان) بعينين زرقاوين لم تنجح تجاعيد جفنيه في إخفاء حدتهما.. ينقل الراهب العجوز عينيه ببطء إلى حيث الراهب الشاب الذي نهض من سقطته نافضاً عن ثيابه السوداء غباراً وهمياً.

يحدّج الراهب الشاب (غسّان) بنظرات كارهة قائلاً شيئاً ما بالجورجية يميز منها (غسّان) كلمة (بوليس).. فيحرِّك الراهب الضئيل يده أن اهدأ.. ينقِّل (غسّان) نظره إلى (سيالا) طالباً الترجمة.. مازالت كما هي ملتصقة بالعمود الحجري وقد أصابها الفزع بعطب فتوقفت عن الثرثرة!! لا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء ليدرك أن الراهب الشاب أراد أن يطلب الشرطة.. فردَّ عليه الراهب مقطوع اللسان بأنه لا داعي لهذا.

- "جئتك من مصر سائلاً عن (بابلون) أيها الأب (كاليستراتوس).. أتذكرها؟.. هل تذكر خطابك إلى صديقك الأب (متروفاتس)؟ لقد قرأته!!".. يوجه (غسّان) حديثه مباشرةً إلى الراهب مقطوع اللسان بالإنجليزية التي يعرف أنه يجيدها.. رجفة تغزو جسد الأب (كاليستراتوس) فيحاول إخفاءها، إلا أنها تظهر جليّةً على وجهه.. يضع (غسّان) هاتفه المحمول أسفل أنف الراهب.. يضيف: "هل تذكر ذلك الرمز الدموي؟ خاتمها.. خاتم (بابلون)".

يشيح الأب (كاليستراتوس) بعينيه عن صورة الـ (سبتاجرام) الدموية كأنه لا يريد أن يتذكّر المزيد.. لا يرد.. يستدير عائداً إلى غرفته محاولاً إغلاق الباب.. يمنع (غسّان) انغلاق الباب بطرف حذائه.. يقول متوسلاً: "لقد اختطف ذلك الشر ابني الوحيد" يتهدج صوته وهو يضيف: "ساعدني أرجوك!".. ينظر له الأب (كاليستراتوس) مجدداً بعينين تحملان اضطراباً هائلاً كعيني طيرٍ حبيس.. بدا متحيراً عاجزاً عن اتخاذ قرار.. يحسم أمره بفتح الباب مجدداً و يشير لـ (غسّان) أن هلمَّ داخلاً.

يتقدم (غسّان) إلى الغرفة الحجرية خلف الراهب.. تدور عيناه في الغرفة.. على جدرانها علق عدد هائل من الصلبان الخشبية متنوعة الأحجام حتى كادت الجدران أن تختفي.. بدت كسد يحجز خطراً ما عن الراهب الضئيل.. الغرفة فيها مجموعة هائلة من الكتب والأوراق تشغل فضاءها كلَّه.. حشوة أرضية مجهزة للنوم تشغل على استحياء ركناً منزوياً من الغرفة.. في صدر الغرفة أعلى المدفئة الحجرية الكبيرة نسخة متقنة الصنع للوحة صلب المسيح لـ (فرانشيسكو دي زوربران).. أمام المدفأة وضعت منضدة بلاستيكية صغيرة عليها (لاب توب) ومكبرا صوت خارجيان متوسطا الحجم انسابت منهما موسيقى كلاسيكية ما.

ينظر (غسّان) عبر الباب إلى (سيالا) التي مازالت متسمرة في مكانها، فتتحرك أخيراً صوب الغرفة حيث وقف (غسّان).. يتبعها الراهب الشاب (جوجي).. مازال يوّجه نظراته الكارهة لـ (غسّان) كأنه الشيطان.. يشير إلى كرسيين بسيطين وضعا حول المنضدة البلاستيكية أن "اجلسا" فيفعلان..

- "شوستاكوفيتش.. ليننجراد".. تقولها (سيالا) بخفوت.. ينظر لها (غسّان) متسائلاً.. تشير إلى الـ (اللاب توب) والمكبرات التي انسابت منها السيمفونية الكلاسيكية.. يهزُّ رأسه في فهم، ثم تعاود عيناه لمتابعة الراهب (جوجي) الذي هرع لمساعدة الأب (كاليستراتوس) الذي أخذ يقلب بين مجموعة هائلة من الكتب والأوراق بيدين مرتجفتين زادهما اضطرابه ارتجافاً.. الراهب الشاب يبدو كمساعد للراهب مقطوع اللسان.. يهمهم الأخير بشيءٍ غير واضحٍ فيسرع الراهب (جوجي) حاملاً إليه رزمةً أخرى من أوراق مصفرَّة قديمة.. يفحصها الأب (كاليستراتوس) بصمت وهو جالس وقد ثنا ركبتيه.

بعد برهة ينهض الأب (كاليستراتوس) متكئاً على ذراع الراهب الشاب متجهاً صوب (غسّان) و(سيالا).. يمد الأب يداً مترددة بعدَّة أوراق مصفرة تآكلت حوافها.. يهمُّ (غسّان) بالتقاطها، فيبعدها الراهب عن متناول يديه.. يهمهم بشيء ما وهو يحرك يديه بحركات سريعة.

- "الأب (كاليستراتوس) يشفق عليك من قراءة تلك الأوراق.. هو يقول أن حياتك بعدها لن تعود كما كانت.. فهل ما زلت حريصاً على قراءتها؟".. يقولها الراهب (جوجي) بإنجليزية جيدة.. يمدُّ (غسّان) يده إلى الأوراق.

- "حياتي لم تعد كما كانت منذ زمنٍ أيها الأب".. يقولها (غسّان) بلهجة قاطعة.. يناوله الراهب الأوراق.. نظرة مشفقة تغزو عينيه.. يهمُّ (غسّان) بتوجيه سؤال ما إلى الأب (كاليستراتوس) فيقاطعه بإشارة من يده.. يهمهم بشيء ما.. ثم يستند إلى ذراع الراهب الشاب الذي ساعده في الرقود على حشوته الأرضية.. يعود الراهب الشاب إلى حيث جلس (غسّان) و(سيالا).. يعقد ذراعيه أعلى صدره وهو ينظر إليهم بحدة قائلاً بالإنجليزية:

"المقابلة انتهت!".

دير جيفاري

في 27 مارس 1994 م

أبانا الذي في السموات

ليتقدس اسمك،

ليأتي ملكوتك،

لتكن مشيئتك،

كما في السماء كذلك على الأرض،

أعطنا خبزنا كفاف يومنا،

واغفر لنا ذنوبنا و خطايانا،

كما نحن نغفر أيضا لمن اخطأ وأساء إلينا،

ولا تدخلنا في التجربة،

ولكن نجنا من الشرير

ولا تدخلنا في التجربة،

ولكن نجنا من الشرير

ولا تدخلنا في التجربة،

ولكن نجنا من الشرير

أقولها مراراً بقلبي بعد أن عجز عن قولها لساني المبتور.. أنهض من ركوعي الطويل أمام الصليب الضخم الذي علقته بتلك الغرفة التي اتخذتها ملاذاً بدير (جيفاري).. أمسك المطرقة، وبها أدق عشرات الصلبان على الجدار الحجري القاسي (لقلايتي – غرفتي) – الجديدة.. المطرقة التي حملتها يمناي المرتجفة تدق أصابعي عدة مرات.. يتفصَّد الدم من أصابعي فلا أشعر بالألم.. مازال جسدي يرتجف منذ تلك الليلة المشؤمة.. حتى الدماء التي انبجست من أناملي كانت ترتجف!

ولا تدخلنا في تجربة

ولكن نجنا من الشرير

انتهيت من تثبيت كل ما وجدته من صلبان وقد كلَّت ذراعي.. غداً سأحضر المزيد.. انثر الماء المقدس في أرجاء القلاية ومنه أتمضمض وأشرب علّه يحمي روحي الهشّة.. أعود لركوعي أمام الصليب الضخم وأستكمل صلاتي الصامتة.

ولا تدخلنا في تجربة

ولكن نجنا من الشرير

لأن لك المُلك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور.

آمين...

أنزوي في ركن القلاية حيث وضعت حشوة النوم.. أضمُّ ركبتي إلى صدري كجنين في رحم أمه.. يمسُّ النعاس جفنيّ أخيراً؛ فأغرق في الكوابيس وأنهار العرق.. أنهض صارخاً شارعاً في تمتمة بعض الصلوات للرب فلا تجد الصلوات لساني.. تنهمر دموعي غزيرة على وجهي.. مشكور أنت دوماً يا صاحب الملكوت.. لم تفعل بي شراً قط.. أنا من تملَّكه الزهو بإيمانه فألقى قفازه في وجه الشرير.. أنا من تملكّه الزهو بإيمانه فدعا الشيطان للمبارزة.. أنا من تملكه الزهو بإيمانه فكُشِف عنه ترس الرب وواجه الأبالسة بصدر مفتوح.

<u>العزيز الأب / متروفاتس كريتبولس</u>

ربما بدت صياغة الخطاب مختلفة مرتبكة.. ربما لم أسألك كيف حالك.. أصدقك قولاً، لست مهتماً بمعرفة أحوالك.. لست مهتماً بمعرفة أحوال أي مخلوق.. أكان معمراً للأرض أو صارخاً في البرية، شغلني حالي عمّن سواه.. وتملكتني مأساتي فما صرت أهتم بمآسي العالم.. ولئن دكَّت الأرض حجراً حجراً لظللت في قلايتي أرتجف أمام الصليب العملاق حتى تزهق روحي.. ويا لها من غبطة أرجوها، وما يمنعني عنها إلا خطيّة قتل النفس.. فلا تظن خطابي هذا توطيداً لصداقة قديمة أو إجراءً للمياه تحت الجسور.. فلن تحيي المياه روحاً جفت حتى تشققت.. فليكن خطابي هذا

الصرخات الأخيرة لتلك الروح اليابسة.. صرخات عجز اللسان المبتور عن إطلاقها فجادت بها الأوراق والقلم.

بالدم وقعت على ذلك العهد بألا أتكلم بما رأيت.. وبالكلام أنا لن أبوح بما رأيت.. بالكلمات المكتوبة سأفعل.. ربما كنت أتحايل على العهد بفعلتي تلك.. عذري أنني لم أسعَ لهذا العهد ولم أرده.. فرض عليَّ فرضاً.. عذري أنني إن لم أبُحْ بما في صدري سأجن أو أفقد إيماني.. لذا أضع أمامي الأوراق البيضاء ويمناي بها قلمي ويسراي تقبض على الصليب المعلق بصدري.. سأقصُّ عليك القصة المشؤومة في ذلك الخطاب.. ولربما لن أرسله بعدها أبدا!

دائماً ما كنت أقول أن امرأة فضولية واحدة خير من أجهزة مخابرات كاملة.. و(نيستان أكيبا) كانت فضولية إلى الحد الأقصى.. ليس ذلك النوع من الفضول المحمود الذي امتلكه (جاليليو) و(أينشتاين) وهم يتساءلون عن ألغاز الكون ثم يحاولون سبرَ أغوارِه.. بل هو ذلك الفضول الذي تتلصص صاحبته على غرف نوم الآخرين خلسة عبر النوافذ.. وتسترق السمع من وراء الأبواب.. وتنظر إلى الأكياس التي عدتَّ بها من السوق؛ محاولة إحصاء عدد كيلوات اللحم التي جلبتها لأطفالك.

علمت هذا عندما وجدت عينيها الجشعتين تلتهمان تفاصيل مكتبي الخاص بكاتدرائية (سفيتيتسكفالي) التهاماً، وقد اتسعتا كأنهما تحاولان ابتلاع كل ما استطاعتا من تفاصيل.. وتأكدت منه عندما سردت عليَّ كل ما فاتني من أحداث (متسخيتا) في الشهر السابق للقائي بها.. لن تقدر (البرافدا) أو(جورجيا اليوم) على إعطائي تفاصيلاً بكل هذه الوفرة والدقة!! كنت قد عدت لتوي من (روسيا) حيث أمضيت هناك شهراً كاملاً.. أن تمضي (يناير) بموسكو لهو تجربة مختلفة.. تجربة متجمدة إن جاز التعبير.. لا أدري من المعتوه الذي اقترح ذلك الزمان والمكان لمؤتمر الكنائس الشرقية!! وعندما انتهى المؤتمر أخيراً بعد شهر؛ عدت إلى (متسخيتا) ممتناً أنني لم أفقد يداً أو قدماً بفعل البرد.

عدت إلى متسخيتا لأجد أن الجنون قد دبَّ في المدينة الهادئة.. دبَّ في إحدى أحيائها الفقيرة على وجه الخصوص.. دبَّ في أحد الشوارع الضيقة لهذا الحي إن أردت الدقة.. هكذا أخبرتني (نيستان أكيبا) وهي تلهث فيرتج ثدياها السمينان.. أخبرتني أنه بإحدى بنايات الشارع الضيق قتل رجلٌ ما أخاه.. طعنه بسكين حادٍ أكثر من سبعين طعنة ثم جلس بجوار جثته المسجاة يبكي.. أخبرتني بأن أحد الحوانيت

على ناصية الشارع قد احترق عن آخره قبيل فجر أحد الأيام القليلة الماضية.. أحرقه صاحب حانوت منافس.. قبض عليه سكان الشارع ممسكاً بقارورة (الكيروسين) وأعواد الثقاب يكاد أن يقول خذوني!! أخبرتني أنه بعد احتراق الحانوت بعدة أيام، نشبت مشاجرة كبيرة بين أفراد أسرتين تقطنان شقتين متقابلتين في الطابق الأرضي لذات البناية بذات الشارع؛ أسرة (لاشخي) وأسرة (توجوشي).. مشاجرة أفنى فيها ذكور الأسرتين بعضهم البعض فقضى منهم خمسة.. لم يتبقَ سوى النسوة الباكيات المتشحات بالسَّواد.

قلت للمرأة إنها كعادة البسطاء تخلط بين مهنة الشرطة ومهنة رجل الدين.. وأن الشرطة قد قامت بعملها على أكمل وجه كما أخبرتني هي واعتقلت الجناة على كل الأحوال.. قلت للمرأة إن تردي الأحوال الاقتصادية الذي تعاني منه البلاد مؤخراً، والجوع الذي ينهش بطون أبنائها قادران على تحويل البشر المسالمين إلى وحوش ضارية.. قلت للمرأة بأن جنون الجريمة إن كان قد ضرب أحد شوارع (متسخيتا) الآن فهو ضاربٌ في مدن كاملة حول العالم منذ زمن.. قلت للمرآة أن تكثر من الصلاة وتنادي أهل شارعها لقداس الأحد.. فالصّبر والصلاة للرب هي سبيل الخلاص من تلك الجرائم البشعة.

أشرت للمرأة بإشارة البركة وأنا أنهض معلناً انتهاء الحوار.. فقامت متثاقلة وانحنت على يدي تقبلها.. قالت لي بلهجة خاصة وهي ترفع رأسها بأن ذلك الشارع الضّيق الذي وقعت فيه الأحداث هو شارع (خاندزتيلي) فاتسعت عيناي اندهاشاً وقد أثارت اهتمامي.. سألتها إن كانت تعرف اسم ذلك الأخ الذي قتل أخاه فأخبرتني بما توقعته.. أجل أيها الصديق العزيز الأب (متروفاتس) لقد قتل (ألكسندر جاكيلي) أخاه (أيونا).. لذا تراني قد عدت للجلوس على مقعدي وأنا أطلب من السيدة (نيستان أكيبا) أن تلقي بكل ما في جعبتها.

لسوء حظ (تمار) – امرأة (ألكسندر جاكيلي) – أن السيدة (نيستان) تقطن تلك الشقة المقابلة لشقة المتنيّح (كوبا جاكيلي) في الطابق الثالث والأخير من البناية الرمادية الكئيبة، والتي تعلو الطابق الذي تقع به شقتا (الكسندر جاكيلي) وأخوه (أيونا)...

لسوء حظ (تمار) أن السيدة (نيستان) فضولية كالهرَّة، لربما كان ليصير لها باع في الـ (كي جي بي) – أمن الدولة السوفييتي السابق – لو وُلِدَت في عهد (ستالين)..

تستخدم عيونها كـ (كاميرات) مراقبة عالية الجودة، وآذانها كـ (ميكرفونات) تنصت حساسة.

بأذنيها المتنصتتين سمعت(نيستان) (تمار) وهي تبكي قائلة لزوجها أنها هي من قتلت أباه وأمه وزوجة أخيه.. وبأذنيها المتنصتتين سمِعَت صلواتي إذ كنت أطهِّر منزلهم من رجس (بابلون) الملعونة.. وبأذنيها المتنصتتين سمِعَت (تمار) وهي تحرض (ألكسندر) على أخيه.. مخبرة إياه أن (أيونا) يرفض أن يشاركه في تجارته الناجحة تاركاً إياه يعاني الفاقة، وأن الجشع قد ملأ قلب (أيونا)؛ فأصرَّ أن يتقاسم مع أخيه الإرث القليل الذي تركه الوالدان المتنيحان.

بأذنيها المتنصتتين سمعت (تمار) وهي تحرض امرأة (لاشخي) التي تسكن في الطابق الأول على جارتها امرأة (توجوشي).. تقول لها إن امرأة (توجوشي) جميلة، وأنها تتعمد استعراض جمالها أمام السيد (لاشخي) الذي يغازلها بين الفينة والأخرى.. بأذنيها المتنصتتين سمعت (تمار) وهي تحرض صاحب الحانوت على صاحب الحانوت المنافس الموجود على ناصية الشارع.. تقول له أن صاحب الحانوت الآخر يعود إلى داره محملاً بالـ (لاريات) وأنه يبيع بضاعته بأرخص الأسعار فقط ليسبب للأول خسارة فادحة.

بعينيها المراقبتين رأتني (نيستان) إذ أغادر بيت (ألكسندر) بعد أن أنهيت صلواتي.. بعينيها المراقبتين رأت (تمار) واقفة تبتسم بينما يرتجف زوجها (ألكسندر) ذاهلاً ممسكاً السكين الملطخ بدم أخيه.. بعينيها المراقبتين رأتها وقد ارتسمت على وجهها ضحكة جزلة في شرفة منزلها قبيل الفجر، بينما كانت النيران تأكل الحانوت على ناصية الشارع.. بعينيها المراقبتين رأت الفزع في عيون سكان الشارع حين دار وطيس المشاجرة بين أسرتي (لاشخي) و (توجوشي) بينما عيني (تمار) قد أشعلتها ابتسامة من سقر!! بعينيها المراقبتين نظرت نحوي وهي تسألني عن رأيي في كلِّ هذا.

بلا اقتناع أخبرتها أنني قد صليّت في المنزل وحلَّت به البركة.. فتوسَّلت إليَّ أن أزور بيت (ألكسندر جاكيلي) وأن أعاود فيه صلواتي.. بلا اقتناع أخبرتها أنه إن كان شيئاً شريراً قد أصاب (تمار) فقد ذهب إلى غير عودة فتوسَّلت إليَّ أن أطهرها مرة أخرى؛ فإن لم تنفع الصلوات فلن تضر!! وبلا اقتناع أخبرتها وأنا أشيح بوجهي معلناً

انتهاء اللقاء أن (تمار) وإن كانت همّازة لمّازة مثيرة للفتنة فإنها لم تطعن أحداً بسكين أو تشعل عود ثقاب! فأخبرتني وهي تنهض مغادرة أنه كذلك الشيطان!!

تركتني المرأة اليائسة بعد أن ألهبت ظهري بسياط كلماتها الأخيرة (كذلك الشيطان).. نعم!! هو لا يقتل.. الإنسان يقتل.. هو لا يزني.. الإنسان يزني.. هو لا يسرق.. لا يخون.. لا يغتاب.. الإنسان هو من يفعل.. يكفي الإنسان من الشيطان همزاته يسوقه بها أمامه كبهيمة عجماء أعماها الغضب أو الشهوة، الحسد أو الشر، الغرور أو الكسل، يكفي الإنسان من الشيطان همزاته كدفعة بسيطة لعربة على شفا جرف عميق، فتجعلها تهوي في قلب جهنم.. أي همزات بذرتها (بابلون) الملعونة في روح (تمار) فأنبتت بها حقداً وحسداً نشرته بين جيرانها؟

تحت سياط كلمات (نيستان) أنهض متسلحاً بصليبي وكتابي المقدس متجهاً إلى الشارع الذي صرت أعرفه جيداً.. يحيِّني من تبقى من أهل الشارع وفي عيونهم نظرة تبحث عن الخلاص.. أرتقي سلم البناية المشؤومة.. أعرف نفسي – كضيف غير مدعو – وأنا أطرق باب بيت (ألكسندر جاكيلي) الذي اعتقلته الشرطة.. تفتح الباب الطفلة الصغيرة ذات السبع سنوات.. تدعى (كيتيفان) على ما أذكر.. أربِّت على شعرها الأسود الناعم وأنا أتقدم إلى داخل البيت سائلاً إياها عن أمها (تمار).

من إحدى الغرف تظهر (تمار).. بعينيها نظرة غير ودودة.. تزيح طفلتها جانباً بخشونة وتسألني بغلظة عمّا أفعل في بيتها.. فأجيبها مرتبكاً بأنني جئت لأطمئن على أحوالها هي والصغيرة، بعد أن علمت بمصابها.. تخبرني أنهما بخير وأنني غير مرحب بي في ذلك المنزل مجدداً؛ وهي تكاد تدفعني دفعاً إلى الخارج.. وبينما أنا أتراجع مرتبكاً إلى خارج البيت؛ ينقذني من ارتباكي رجل ضخم الجثة عظيم الكرش يهبط الدرج مسرعاً من الطابق الثالث وهو يرحب بي منادياً باسمي.. بيدٍ ضخمة يصافحني وبيده الأخرى يمنع (تمار) من غلق بابها في وجهينا

يخبر الرجل الضخم (تمار) بأنني القسُّ وقد جئت لمباركة المنزل والصلاة فيه.. يخبرها بأنها تحتاج لهذا، وهو يدفع الباب فاتحاً إياه أمام مقاومتها العنيفة.. يخبرها بأن هذا في مصلحة الجميع وهو يدفعها داخل الشقة بعد أن أنشبت مخالبها في لحم وجهه وصدره وهي تصرخ.. انقبض وجهها وتعقّدت ملامحه فصارت أشبه بشيطان يشْوى في سقر.. بجوار الباب أقف أنا منزوياً أتمتم بصلواتي بينما الضخم يحمل (تمار) حملاً إلى غرفتها.. أتبعه وأنا أرسم في الهواء إشارة الصليب.

أوردة (تمار) الزرقاء تطفو على سطح جلدها الشاحب وهي تعوي كضبع عقور، بينما يقيد الضخم ذراعيها وساقيها إلى قوائم السرير الأربع.. ينهي مهمته الكريهة فيدثِّرها بغطاءٍ ثقيل ثم يمسح الدَّم الذي سال من خدوش وجهه ورقبته معرفاً إياي بنفسه وهو يلهث كدب أشهب.. هو السيد (فانو أنجروكافا).. الرجل الوحيد المتبقي في البناية.. هو زوج السيدة (نيستان أكيبا).. أخبرني بهذا وهو يشير بذقنه إلى امرأته التي وقفت متوترة على باب الغرفة.. حيَّتني بصوت مرتجف وهي تنظر فزعة إلى (تمار) المقيدة في فراشها الثقيل.. لو لم أنجح في تطهير (تمار) لصار خراب بيت السيدة (نيستان) وزوجها حتمياً؛ ليكون انتقام (بابلون) منهما مروّعاً.

رددت تحية السيدة (نيستان) وأنا أنظر إلى الطفلة (كيتيفان) التي انزوت في أحد أركان الغرفة، تنظر مذعورة لأمها كهرٍّ يتيم.. أتحسَّس رأسها الطفولي وأقبِّل جبينها البارد.. أطلب من السيد (فانو) أن يصطحب زوجته والطفلة إلى الخارج.. يدفع الرجل كرشَه الضخم، وتجرجر المرأة أردافها الثقيلة متجهين نحو الباب وبينهما الطفلة.. أوصد وراءهم باب الحجرة الخشبي ثم أخرج كتابي المقدس وأستدير.. فتتفحص عيناي (تمار).. انقلبت عيناها فصارت تحدق فيَّ ببياض عينيها وقد اختفى سوادهما.. انتفش شعرها وأخذت تزوم كلبؤة جريحة، مما بدا عليها من الآيات الشيطانية يقشعر جلدي فأرتجف.. أتمتم باسم الرب في خفوت.. أريد أن أزيح توتري جانباً فأتجه إلى التلفاز الموضوع في أحد أركان الغرفة فأشغله.. برنامج ما يعرض صوراً متحركة لحيوانات البرية.. أعود لأنظر إلى (تمار) التي لا تكف عن الزَّوْمِ والتلوي في الفراش مقاومةً قيودها.. أبدأ بصلواتي فتصرخ غاضبة بصوت مزعج كصرير مزلاج قديم.. أوردتها النافرة تحوّل لون وجهها إلى الأزرق، بينما تتحرك عيناها البيضاوان في محجريهما بشكل جنوني.. أهتف بها:

"أفصحي عن نفسك أيتها الملعونة"

لا تجيب، فقط تزوم وتهتزّ.. الفراش كله يهتزُّ بعنف.. أعاود النظر إلى كتابي المقدس وأنا أرفع صوتي بالصلاة.. أكرر أمري:

"أفصحي عن نفسك أيتها الملعونة"..

فجأة يقفز في وجهي الغطاء الثقيل الذي دثَّرها به السيد (فانو) فيغطيني كطائر رخٍّ أسطوري عملاق.. بكثير من العسر أزيح عنِّي الغطاء الذي كبَّلني وحجب عني الرؤية.. ها أنا ذا أراها.. هي واقفة!! أطرافها مازالت مقيدة إلى القوائم الأربع

للفراش الثقيل الذي انتصب عمودياً فبدت كغراب مصلوب.. أتراجع وأنا أرسم في الهواء علامة الصليب.. أهتف بها:

"أيتها الملعونة (بابلون) دعي ابنة الرب!!"

يميل رأسها علي رقبتها وهي تنظر إليَّ بدهشة لو كان للشياطين أن تندهش.. تتساءل متعجبة بصوت المزلاج القديم:

"بابلون؟!!"

ثم تنفجر ضاحكة كألف عاهرة.. أعود مرتجفاً إلى كتابي المقدس.. أقرأ بصوت كالهتاف أو لعله كالنحيب.. تقاطعني منادية بصوت الصرير الذي صار صوتها:

"أمَّاه!!"

أُكمل صلاتي رافعاً صوتي لأغطي صوت نداءها المتكرر إذ تنادي (أمَّاه).. يقاطع صلاتي صوت نعيق حاد.. أستدير إلى مصدر الصوت.. التلفاز الذي يعرض صور الكائنات الحية في البرية قد امتلأت شاشته بعشرات البوم السوداء الصارخة.. يصطدم بشاشة التلفاز بعنف فيسيل عليها الدم.. بدا كل هذا ككابوس غير حقيقي.. أهرع إلى التلفاز، بينما العيون الصفراء للبوم الصارخة تتابعني من الناحية المقابلة للشاشة، ومناقيرها الحادة تحاول الوصول إلى يدي التي حاولت إغلاق التلفاز بلا جدوى.. أدفع التلفاز أرضاً فيسقط.. شاشته تتحول للسواد بعد أن انفجرت بصوت مكتوم.. تهدأ أنفاسي المتسارعة وأنا أنظر إلى الشاشة السوداء المكسورة.. أعود فأنظر إلى (تمار) التي ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيها المتشققتين.. تنظر إلى شاشة التلفاز المحطمة.. تهمس بصوت المزلاج القديم:

"أمَّاه!!"

أنظر إلى حيث تنظر.. رأس دائري أسود صغير يظهر من التجويف الأسود لشاشة التلفاز المكسورة.. يستدير الرأس استدارة كاملة لينظر إليَّ بعينين صفراوين.. بومة!! تطير البومة من الشاشة المكسورة تتبعها بومة أخرى ثم أخرى.. بدا التلفاز وكأنه نافذة تفتح على الجحيم.. عشرات البوم تخرج من شاشة التلفاز وتحلق في فضاء الغرفة المغلقة كاسية إياها بلون أسود.. تتخلى عني شجاعتي.. أهرول إلى باب الغرفة مبتغياً الهروب.. الباب الموصد لا ينفتح.. نعيق البوم يرج الغرفة ويصمُّ أذنيّ.. ركبتاي ترتعشان ثم تتخليان عنّي.. أسقط على الأرض وقد أغمضت عينيَّ

ووضعت راحتي يديَّ على أذنيّ.. أصرخ وأصرخ لعلَّ صوت صراخي يطغى على صوت نعيق البوم.

يخفُت الصوت تدريجياً.. لم أعد أشعر بحفيف أجنحة البوم من حولي.. أفتح عينيّ ببطء فأراها!! هي تقف بجوار (تمار) المصلوبة.. حولها يقف عشرات الأطفال الشاحبين.. صرخات صامتة على شفاههم الشاحبة، وبأعلى رقبة كلٍّ منهم جرحٌ دموي قبيح امتد من الأذن إلى الأذن.. تقول (تمار) في فخر.. لو كان للشياطين أن تفخر:

"حَسَبَنِي (بابلون) يا أماه"

- "صهٍ يا بنية"..

قالتها الوافدة الشيطانية بصوت كهدير شلال غاضب دون أن تنظر إلى (تمار).. شعرها الأحمر يتلوى غزيراً حول رأسها.. جناحا بومة عملاقة ينبتان من أعلى ظهرها فيضربان الهواء بقوة.. تنشلُّ قدماي وينعقد لساني فلا أحرك أُنملة.. فقط أرتجف بلا انقطاع كمحرك سيارة قديم.. جميلة هي كأفعى.. نحيفة هي كأفعى.. تتلوى هي كأفعى.. تتدثر بما بدا أشبه بمئزر قرمزي اللون، وقد انكشف عن ثديين عامرين بديا متناقضين مع نحافتها.

تتقدم نحوي فأسمع لخطواتها صوتاً غريباً.. أنظر إلى قدميها.. هما قدمان مخلبيتان لبومة عملاقة.. تتقدم نحوي فلا أستطيع أن أحدد لها طولاً.. تارة تساوي سقف الغرفة ارتفاعاً وتارةً هي بطول من أحاط بها من الأطفال الشاحبين.. تتقدم نحوي فتتحرك قدماي أخيراً فأعود لأهرول إلى باب الغرفة.. تلطمني بجناح البومة العملاق فأصطدم بالجدار، وأعود لأسقط أرضاً وقد طغى فزعي على ألمي.. يتقدَّمُ منِّي الأطفال الشاحبون بخطىً متصلبة فيحاوطوني.. أنظر إليهم في فزع.. أسمعها تقول:

" هم أطفال الفداء..أقنان الجحيم"

أرفع صوتي بالصلاة فيما يشبه النشيج.. فتهتف بي:

"فقط أولو العزم هم من يجابهون أصحاب المجد وأنت لست منهم فلا تحاول"..

أدعو الرب ليمدَّني بالقوة فيملؤني الضَّعْف.. أدعو الرب ليمدَّني بالشجاعة فيملؤني الجبن.. أدعو الرب أن يسبغ على روحي السلام فيملؤني الذعر.. لقد هزم

إيماني أيها الأب (متروفاتس).. ها أنا ذا أبكي كطفل صغير فقد أبويه في البرِّية.. تقول لي:

"والآن انهض".

بأظافر أناملها القرمزية تشير إلى مرآة في ركن الغرفة.. عليها أدوات تبرج (تمار) التي لم تمسَّ منذ زمن.. كالمنوَّمِ أتجه إليها.. ألتقط المقص الكبير الموضوع على المرآة بيدي وأقربه من فمي المفتوح.. يدي صار لها إرادة ذاتية وكأنها يد غيري.. أغرز المقص في لحم لساني.. الألم الحارق يتصاعد إلى رأسي فيسكره كجالونين من خمر رديء.. أشعر بالدم الساخن يسيل من فمي فيغرق شفتيَّ ولحيتي.. يدي الذاتية الإرادة مازالت تُعمل المقصَّ في لساني بجشع.. تقول لي:

"بما رأيت أنت لن تتحدث.. على هذا العهد أنت وقعت بالدم".

ينهي المقص مهمته البغيضة فيسقط لساني المدمَّى بين قدميّ وهو ينزُّ دماً.. تقترب مني.. من عنقي تحملني كدمية فتكاد أن تزهق روحي.. الدم المتفجر من منبت لساني يتناثر على وجهها وثدييها العاريين.. تقول:

"فقط للـ (مختار) الذي سيقصد (سولوكيدز) المقدس سوف تحكي ما رأيت.. فقط للـ (المختار) سوف تقول اسم قاتلة الأطفال".

تقرُّب فمها من أذني.. أرى لها لساناً مشقوقاً كلسان الحيَّة.. تهمس باسمها الملعون أبداً

"والآن أذهب".

تحرر رقبتي من قبضتها المخلبية فأسقط أرضاً وأنا أسعل.. أبصق كل تلك الدماء التي أغرقت وجهي وردائي الأسود.. أنهض مترنحاً محاولاً فتح الباب الذي كان يأبى؛ فينفتح أخيراً.. أستدير مرة أخيرة لألقي نظرة على الغرفة الملعونة.. ينتفض جسدي وتتسع عيناي.. كل شيء عاد كما كان.. أو كأنه لم يكن أبداً!

(تمار) نائمة في فراشها كرضيعٍ يحلم.. التلفاز في مكانه يعرض صور الحياة البرية.. لا أثر للملعونة القرمزية ولا لأطفالها الشاحبين. من خلفي أسمع الصوت الغليظ للسيد (فانو أنجروكافا) يسألني هل من خطب ما.. يخبرني أنني لم أمكث في الغرفة سوى دقيقتين.

أستدير ذاهلاً.. يرى وجهي فيصرخ.. يرسم علامة الصليب على صدره.. أسير مشدوهاً كميت حي.. ترى السيدة (نيستان) الدم الذي يغرق فمي ولحيتي وردائي،

فتطلق صرخات متواصلة وهي تضم الصغيرة (كيتيفان) التي اتسعت عيناها رعباً.. يسألونني ما الخطب.. فأجيبهم بمزيد من بصاق الدم.. يبتعدون عني مرتاعين وهم يرسمون علامة الصليب.. صرت كالموصوم.. أهبط درج البناية ذاهلاً.. فتقابلني العيون المرتاعة لسكان الشارع الضيق.. أراهم يتدافعون إلى داخل البناية التي غادرتها للتو.. أتركهم خلفي و أمشي في شوارع (متسخيتا) في تلك الساعة المتأخرة في الليل شارداً كمجذوب.. تسوقني قدماي إلى كاتدرائية (سفيتيتسكفالي).. على بوابتها الضخمة يلفني الظلام فأسقط فاقداً للوعي.

أفيق في فراش المرض بذلك المشفى.. قطبّوا جرح لساني المبتور.. يتحلق من حولي الآباء والقسس وفي عيونهم نظرة ملتاعة.. يسألونني عمّا ألمّ بي.. أنا لن أتكلم.. وقعت العهد بالدم.. أسمعهم يتهامسون بأني نذرت للرب صوماً عن الكلام.. حمقى هم.. سأدعهم يصدقون هذا الظن المريح.. فأنا لن أتكلم.. فقط طلبت الاعتكاف فوق الجبل في دير (جيفاري).. فيه غرست (سانت نينو) صليباً، وها أنا أدق عشرات غيره علّها تحفظ ما تبقى من إيماني المهزوم.. يسألني الرهبان عمّا أفعل.. لا أرد.. أنا لن أتكلم.. فقط للـ (مختار) القاصد لـ (سولوكيدز) سأبوح بما جرى.. فقط للـ (مختار) سأبوح باسمها الملعون.. سأبوح باسم (ليليث).

الأب / كاليستراتوس

دير جيفاري

متسخيتا – جورجي

!

الفصل العاشر

قال ر. حنينا: على الشخص ألا ينام بمفرده بالمنزل، وإن فعل فستقتنصه (ليليث)
التلمود – الجمارا – السبت (شبات) - (ص 100 ب)

- **"لن يسمحوا لك بالدخول مجدداً"..** تقولها (سيالا) بصوت مرتجف بفعل البرد.. ضمت ذراعيها إلى صدرها وهي تتراجع إلى حيث يقف (غسّان) غير بعيد عن مدخل دير (جيفاري) أو دير (الصليب) كما عُرف.. هو أيضاً يرتجف.. هواء الليل البارد يتلاعب بشعره في جنون وأنفه الأحمر يسيل بلا انقطاع.. أعلى التلة حيث الدير؛ لا يوجد ما يمنع الهواء البارد من ضربهما بسياطه في قسوة.. تطلق السيارة التي استأجراها بوقها المزعج وقد أنار سائقها كشّافاتها مبهرة الإضاءة؛ فاستطاع (غسّان) تبين أربعة من رجال الأمن يقفون متحفزين أمام مدخل الدير الحجري وقد أمسكوا هراواتهم السوداء القصيرة.. يشير (غسّان) لسائق السيارة أن انتظر قليلاً.. يهم بالتحرك في عصبية باتجاه بوابة الدير.

- "هلا توّقفت عن لعب دور الرجل القوي قليلاً؟".. تقولها (سيالا) وقد أمسكت ذراعه بيد مرتجفة.. ينظر لها (غسّان) بحدة.. تضيف وقد مطَّت شفتيها ضيقاً: "هؤلاء الرجال متحفزون.. ثق أن وقوفهم في العراء لحراسة بوابة الدير في ذلك البرد القارص لا يروق لهم إطلاقاً.. ما انتزعهم من تحت أغطيتهم الدافئة إلا التوتر الذي سببه وجودك اليوم".. تشهق لتمنع أنفها من أن يسيل.. تكمل: "ثق بأنهم سيسعدون أيما سعادة بتكسير عظامك!".

- "لدي العديد من الأسئلة لأوجهها لذلك الراهب.. خطابه هذا أضاف أسئلة جديدة، ولم يجب عن القديمة حتى!!".. يغمغم (غسّان) وقد فتر حماسه قليلاً.. يشعل سيجارته بصعوبة في ذلك الجو البارد.. يسعل مرتين.. ينظر إلى الحراس الأربعة الذين ينظرون له بدورهم بعدوانية كارهة.. بدا وكأنه يفكر.. يقول لـ (سيالا) وهو يعود متجهاً إلى السيارة: "دعينا نذهب إلى شارع (خاندزتيلي).. حيث بيت ذلك الرجل (ألكسندر جاكيلي) لربما وجدت هناك بعض الإجابات".. (سيالا) واقفة مكانها

ترتجف ولا تتحرك.. الهواء البارد يراقص شعرها الكثيف رقصة مجنونة فيخفي ملامح وجهها.. ينظر لها (غسّان) متسائلاً..

- "أنا لن أذهب إلى أي مكان".. تقولها (سيالا) بصوت مرتجف، تضيف: "أنتَ تثير رعبي أيها الوسيم.. ما قرأته وترجمته لك في ذلك الخطاب يثير رعبي.. لا أدري بأي شيء أنت متوّرط وأنا لن أزج بنفسي في مشاكل أجهل كنهها".

- "سأعطيك مئتي لاري إضافيةً".. يقولها (غسّان) وهو يخرج بعض المال من حافظة نفوده.

- "ليس المال هو ما أتحدث عنه الآن".. تجاهد الهواء لتزيح خصلات شعرها عن عينيها.. تنظر لعيني (غسّان) مباشرة.. تكمل: "لن أتحرك خطوة واحدة حتى تخبرني بكل شيء".. يشيح (غسّان) بوجهه صامتاً.. تنظر له (سيالا) وهي تمطُّ شفتيها.. تقول: "أنت لن تخبرني بشيء! أليس كذلك؟"

- "أعدك أن تكون زيارتنا لذلك البيت هي آخر ما أطلبه منك".. يقولها (غسّان) بصدق.. تتطلع (سيالا) إلى وجهه بنظرة طويلة وكأنها تختبر صدقه.. تمرُّ لحظات من الصمت، يعود ليقطعها نفير السيارة المزعج.

- "حسنا".. تمد (سيالا) أصابعها لتلتقط الأوراق المالية من بين أصابع (غسّان).. تتجه إلى السيارة في خطوات سريعة يتبعها (غسّان).. يغلِّفهم الصمت حتى تصل السيارة إلى الشارع المقصود.. تترجل (سيالا) من السيارة إلى الشارع الضيق الخالي المرصوف بحجر الإسكافي.. يتبعها (غسّان).

- "يبدو كشارع مهجور!!".. يغمغم (غسّان) متعجباً وعيناه تتفحصان الشارع الضيق.

- "الساعة الآن العاشرة مساءً.. لقد آوى الجميع إلى الفراش.. نحن المخبولان الوحيدان اللذان يتسكعان في مثل هذا الطقس".. تقولها (سيالا) بضيق وهي تنظر إلى ساعتها.

- "أين هي تلك البناية؟".. يغمغم (غسّان) في حيرة.. الشارع به عدة منازل هرمية السقف ذات طابق واحد.. لا أثر لتلك البناية الرمادية ثلاثية الطوابق التي ذكرها الراهب (كاليستراتوس) في خطابه.. يصارح (غسّان) (سيالا) بتساؤله.

- "الراهب مخبول.. هذا واضح!!".. تهز كتفيها ببساطة.. ينظر لها (غسّان) في غيظ.. يشير إلى النهاية الأخرى للشارع حيث بدت إضاءة خافتة قادمة من أحد الحوانيت على ناصيته.

- "دعينا نسأل صاحب هذا الحانوت!".. يتجه (غسّان) إلى مصدر الإضاءة.

- "هل هو ذات المتجر الذي أحترق من قبل؟".. تتساءل (سيالا) وهي تتبعه.. فيهز كتفيه بأنه لا يعرف.. يصلا إلى الحانوت.. بقَّالة هي.. يبدو عليها القدم.. بها مذياع صغير انسابت منه أغنية جورجية ما، ذات لحن هادئ.. بجوار المدفأة الزيتية العملاقة يجلس ذلك الشيخ المتهدم، وقد تدثر بمعطف ثقيل وقلنسوة صوفية.. ينظر إليهما متسائلاً بعينين رماديتين كعيني ذئب عجوز.. تحييه (سيالا) فيحييها متشككاً، ثم ينخرط معها في حديث طويل بالجورجية.. تنبسط أساريره بعد عدة دقائق وهو يدعوهم إلى الجلوس بجوار المدفئة العملاقة.

يراقب (غسّان) وجه (سيالا) الملائكي، الذي عاد الدفء ليكسبه حمرة.. ابتسامة ساحرة ترتسم على الشفتين الحمراوين المكتنزتين.. لا يفهم شيئاً البتة من الكلمات الجورجية التي انهالت بها (سيالا) على رأس الشيخ، فبادلها الشيخ الكلمات التي امتلأت (جيماً وخاءً) بغيرها في سرعة.. يسلِّي (غسان) نفسه بتفحص البضائع القليلة المرتبة والموضوعة على الأرفف الخشبية للبقالة.. تبدو وكأنها أنتجت في زمن الثورة البلشفية على أحسن الأحوال.

خمّن (غسّان) أن ذلك الشيخ لا يبيع شيئاً على الأرجح.. هو يفتح حانوته من باب التعود لا أكثر.. ربما كان هذا أفضل من بقائه على فراشه في انتظار الموت.

يعود ليتطلع إلى وجه (سيالا)، التي تبدو على مشارف إنهاء الحوار.. للحظة عاوده الشعور بأن كل هذا ليس حقيقاً.. حلماً يراه في قيلولة.. يجدر به الآن أن يكون في مناوبته الليلية بمستشفى (الشيخ زايد).. لكنه يجلس في حانوت دافئ في زقاق ضيق مع حسناء فاتنة، وشيخ متهالك يسمع حواراً بلغة مجهولة؛ على أنغام أغنية مجهولة في بقعة مجهولة من ذلك العالم.. حسناً.. لم يبدُ له الحلم سيئاً إلى ذلك الحد.. ولئِن كان (ياسين) برفقته لود أن تطول تلك اللحظة أكثر.

تقاطع (سيالا) شروده إذ تنهض محييةً الشيخ، الذي ينظر إلى (غسّان) محيياً إياه بهزة رأس، وفي عينيه نظرة ودود.. يخطو بخطوات بطيئة مرتجفة إلى ثلاجة قديمة في بقالته، ومنها يخرج زجاجيتين أثريتين امتلأتا بسائل أسود ما، مقدماً إياهما إلى

(غسّان) و(سيالا).. يهزُّ (غسّان) رأسه رافضاً بلطف، وقد أثار شكل الزجاجة هلعه، فتحدجه (سيالا) بنظرة محذِّرة، فيعود ويأخذ الزجاجة من الشيخ في حذر، كأن بها طاعوناً.. يودِّعان الشيخ ثم تعود أحذيتهما لتدق أرض الشارع المرصوفة بحجارة الإسكافي.

- "هو لا يبيع شيئاً، يفتح حانوته من باب التعوّد لا أكثر!!".. تقولها (سيالا) وهي تجدُّ الخطى محاولةً بعث الدفء في أوصالها الباردة.

- "ربما كان هذا أفضل من بقائه على فراشه في انتظار الموت".. ينظر لها (غسّان) بدهشة.. إذ تشاركه نطق الجملة الأخيرة بذات الوقت.. يتوقف عن السير فتتوقف هي الأخرى.. تتعلق عيناه بعينيها، فيعود لهما أسيراً مخيراً.. يشعر بهما يغوصان في أعماق روحه.. يدان دافئتان تربِّتان على أوجاعها.. تجبر ما انكسر بها.. يطول الحوار الصامت بين أعينهما الثرثارة.. عرق حار يتفصد من جبين (غسّان).. بينما تتلون وجنتا (سيالا) بلون الرمّان.. أخيراً تخفض (سيالا) عينيها ببطء عن عيني (غسّان).. تنسدل أهدابها الطويلة لتغطي العينين الواسعتين؛ كأنها تحميهما من المزيد من نظرات (غسّان).. تتنحنح:

- "هو نفس الحانوت الذي احترق من قبل".. تقولها (سيالا) بصوت مبحوح.

- "توقعت هذا.. ولكني لم أتوقع أن يخبرك بهذه بسهولة".. يجيبها (غسّان) بصوت مبحوح بدوره.

- "إطلاقاً!" تهز رأسها نفياً.. تضحك: "لم تنحلّ عقدة لسانه إلا عندما أخبرته أنني سأجعل أمي له زوجة!".

- "أظنها حتماً سترفض هذا الاقتراح".. يبادلها (غسّان) الضحكة بابتسامة.

- "هي متوفاة منذ زمن".. تمر لحظة صمت ثقيل.. تكمل: "دعك من هذا".

- "هل أخبركِ بما حلّ بآل (جاكيلي)؟".. يسأل (غسّان) محاولاً إدارة دفة الحوار.

- "بعد أن رأى سكان الشارع الأب (كاليستراتوس) يغادر البناية وفمه ينفجر بالدماء، صعدوا إلى البناية المشؤومة فأحرقوها".. تصمت لحظة وهي تتطلع إلى عيني (غسّان) اللتين اتسعتا ارتياعاً.. تضيف: "الشرطة لم تتهم أحداً نظراً لشيوع الجريمة.. في الحقيقة، تقبلّت الشرطة الأمر بارتياح.. لولا المبالغة لكرَّم رجال الشرطة الجناة.. كانت تلك البناية صداعاً في رأس شرطة (متسخيتا)، بعد عدة سنوات طال التطوير تلك المنطقة؛ فهدمت البناية".

- "وماذا عن (تمار)؟".. يتساءل (غسّان) بلهفة.

- "عثروا على عدة جثث ضيّع الحريق معالمها في البناية.. لم يستطيعوا الجزم!!".. تهزُّ (سيالا) كتفيها.. "الطفلة (كيتيفان) نجت من الحريق.. لا يوجد جثث أطفال.. هناك من رآها تبكي على قارعة الطريق وسط الفوضى.. لكنها اختفت منذ ذلك اليوم".

- "عدتُ لنقطة الصفر مرةً أخرى!".. يقولها (غسّان) بإحباط وهو يستند بذراعه إلى أحد الجدران.. ينظر أمامه في شرود.. خيّل له أنه يرى سيارة (تويوتا) سوداء تقف على ناصية الشارع، حيث الحانوت الذي تركوه منذ برهة، متدثِّرة بالظلال، لا يرى ركَّابها، وإن خمّن أنهم أربعة.. يقودها شخص قوي البنية ذو صلعة حمراء، ويبدو أجنبياً!! يبدو أن سائق الـ (تويوتا) قد لاحظ انتباه (غسّان) لوجوده، فأضاء كشافات السيارة الأمامية عازماً التحرك.. يتابعها (غسّان) في توّجس وقد همّ بالتحرّك ناحيتها.

- "لا ليس بعد!".. تقولها (سيالا) بهدوء.. يحوّل (غسّان) نظره إليها.

- "ماذا؟".. يتساءل (غسّان)، يعيد نظره إلى حيث كانت السيارة.. اختفت تماماً.

- "لم تعد لنقطة الصفر.. أستطيع المساعدة.. بشرط واحد".. تقولها (سيالا) ثم تصمت للحظات.. تكمل أمام عينيه المتسائلتين: "ستحكي لي كل شيء!".

حبك يرهقني

الظنون والأحزان بسببك

البعد وكثرة الفراق

كلهم ينظرون من عيون قلبي

يتقافز ذلك الراقص الجورجي بخطوات ضيّقة متصلبة على أنغام البزق.. بدا لـ (غسّان) كديك يطلب التزاوج.. صدره منفوش، ورقبته مشدودة، وذقنه مرفوعةً عالياً صوب الدجاجة الوسيمة – رفيقته الراقصة – التي جاوبت خطواته المتقدمة بعدة خطوات متأخرة.. ابتسامة واسعة تملأ وجهها القوقازي المنحوت، بدت كعروس في حفل عرسها بذلك الثوب الأبيض المزركش الطويل، الذي يغطّي جسدها كله من الرقبة حتى القدمين.. الثوب يضيق عند الخصر، ثم يتسع من أسفله حتى يصل لذروة اتّساعه عند مستوى الكاحلين.

بدا ثوبها مشابهاً لثوب رفيقها؛ وإن كان ثوب الأخير أسود اللون.. ينتهي عند أسفل ركبة الراقص، التي يغطّيها من أعلاها رقبة جلدية لحذاء أسود طويل.. يغطّي ساقي الراقص وقدميه القافزة على أنغام البزق، فتتداخل حركتهما مع حركة قدمي الراقصة في تناغم مدهش.. مع اهتزازها الراقص؛ يتطوّح شعرها المجدول على شكل ضفيرتين يمنى ويسرى، أسفل الوشاح الأبيض الذي غطّى رأسها؛ فبدت الضفيرتان الطويلتان، وقد برزتا من أسفل الوشاح كحبال رُبطت بها سفينة على رصيف ميناء يطل على بحر هائج.

أنتِ طيبة وسيئة أيضاً

تبدين مثل ضباب في قلبي

أريد أن أكرهك

يجرع (غسّان) كأس الويسكي الثالثة.. يشعل سيجارة جديدة ويسعل.. دائماً ما كان يظن أن السجائر المحلية المصرية هي الأردأ على الإطلاق.. حسناً لقد كان مُخطئاً!! ينظر إلى ذلك المغني الجورجي النحيل الجالس على كرسي خشبي في خلفية خشبة العرض.. تتحرك أصابعه عازفةً على أوتار البزق، وهو يغني بصوت مشروخ ألحان الأغنية التي جهل معانيها، تبدو كألحان تركية أو كردية سمعها منذ زمن سحيق في برنامج مجهول.. يُطيل النظر إلى العازف الذي ارتدى قلنسوة من الفرو.. يهزّ (غسّان) رأسه على ألحان البزق الذي بدا أشبه بعود صغير طويل العنق.

طيور الكرك تطير في السماء

في صفٍ واحد مثل الجيش

ألا ترين أيتها الكافرة

دموعي في عيني

- "عجباك؟".. تقولها (سيالا) بالمصرية.. فيحدّق بها (غسّان).. للحظة بدا له وكأن ملامح (تُقى) قد كست وجهها فينتفض جسده.. تتطلع له (سيالا) في دهشة.. تضيف بالإنجليزية: "هذه فرقة شعبية محلية تؤدي أغاني فلكلورية.. كنت سأترجم معاني الأغنية لك".. يحكُّ (غسّان) رأسه كأنه ينفض عنه تلك الهلوسات.. يبتسم ابتسامة خافتة و يهزُّ لها رأسه أن تفعل. كانا قد جلسا متجاورين على مقعدين طويلي الأرجل، بذلك البار الصغير الملحق بالفندق الذي اختاراه لقضاء الليلة بـ (متسخيتا)، في البار خشبة عرض ضيّقة عليها أدّت الفرقة الصغيرة عرضها الراقص على أنغام البزق.

حالة الفندق مزرية بالمقارنة بالفندق الأول في (تبليسي).. أراد (غسّان) العودة إلى (تبليسي) في ذات الليلة، إلا أن (سيالا) رفضت أن تقطع مسافة العشرين كيلو متراً التي تفصل (متسخيتا) عن (تبليسي) في الظلام، مع سائق السيارة الأجرة المجنون على حد قولها.. إن أراد (غسّان) الانتحار فهذا شأنه.. هكذا قالت له.. ببار الفندق حكى لها قصته كاملة.. حكى وحكى.. لاحظ الدموع التي ترقرقت في عيني

(سيالا) مع حكيه.. لاحظ راحتها الدافئة ذات الأنامل الناعمة وهي تربت على يده مواسية.. لكنه لم يلاحظ عقارب الساعة التي تجاوزت الثانية فجراً، إلا في تلك اللحظة حين أنهت (سيالا) ترجمة الأغنية الفلكلورية.. تطلّعت له بعدها لبرهة ثم قالت:

- "كما أخبرتك.. معرفتنا بمصير آل (جاكيلي) أو من تبقّى منهم على قيد الحياة هي مسألة وقت فقط.. أصدقائي في دائرة الشرطة سيبحثون عنهم.. وأصدقائي في الخدمات المدنية سيطلعونني عمَّن مات منهم وعمَّن بقي حياً".. ترشف جرعة من كأس موضوع أمامها، ثم تضيف: "نحن في 2016، لا يمكن أن يتبخر شخص بلا أثر.. سيُتْرَك ملفٌ طبي بإحدى المستشفيات، أو محضر بأحد مخافر الشرطة.. شهادة ميلاد.. شهادة تبني.. أو حتى شهادة وفاة".

-"وهل أنتِ واثقة أن هؤلاء الأصدقاء سيشاركوننا ما في جعبتهم من معلومات؟ يُفترض ألا تتاح تلك المعلومات – إن وجدت – للعامة، فما بالِك بأجنبي!" يقولها (غسّان) بقلق.

- "عندما ينتشر الفقر يكون كل شيء متاحاً للشراء.. وأولها الذمم!".. تجرَعُ ما تبقّى في كأسها ثم تتنحنح وقد اِحمر وجهها.. بعدما أنهى (غسّان) حكيّه، أجرت هي عدة اتصالات هاتفية ببعض الأصدقاء.. وعدتهم بمكافأة سخية – كما أخبرها (غسّان) – إن هم أعطوها ما تبحث عنه من معلومات عن آل (جاكيلي).

- "(سيالا) لمَ تساعدينني؟".. يجرع (غسان) كأسا آخر.. تتطلّع إلى وجهه مندهشة..

- "لأنك تدفع جيداً!".. تقولها (سيالا) مبتسمة.. تتسع ابتسامتها متحولة إلى ضحكة: "أنت أحمق يا (غسّان)، يمكنك الحصول على مرشدٍ محترف بنصف المبلغ الذي دفعته لي".

- "لن يكون بمثل هذا الجمال!!".. يردُّ (غسّان) بسرعة.. بدت لهجته صادقة مخلصة، بشكل أدهشه هو قبل أن يدهشها.. تعود العينان الواسعتان للاحتماء بالأهداب من نظراته.

- "في المطار.. في سيارة الأجرة عندما سالت دموعك.. بدوت كطفل ضاع من أحدهم".. تختفي ابتسامتها وهي تضيف: "لكنك رجلٌ حقيقي.. رجلٌ نبيل".. ترفع

عيناها إليه مرة أخرى.. تراه ينظر إليها متسائلاً.. تكمل: "الرجل الذي لا يمس امرأة جميلة أفقدها الخمر وعيها في فراشه هو رجل نبيل".

- "هذا لا شيء!".. يقولها (غسّان) صادقاً وهو يضحك.

- "هكذا شيم النبلاء.. يظنون الجميع أمثالهم!!".. تضحك هي الأخرى: "استيقظت في فراش شخص لا أعرفه.. أصابني الهلع فلملمت أغراضي وغادرت الغرفة.. غرفتي هي المقابلة لغرفتك.. استغرقت برهة لألملم أشلاء ذهني المبعثر، وأتذكر ما دار بيننا من حوار، وما اتفقنا عليه.. عدت إلى غرفتك فأبدلت لك شراشف الفراش التي لطّخها حذائي بالوحل".. تكمل وهي تتطلّع إلى وجهه الحليق: "لاحظت أنك قد حلقت لحيتك".. تكمل بمصريتها العرجاء وهي تمسك ذقنه بين سبابتها وإبهامها: "كده أحلى!".. يتسارع قلب (غسّان) فيسمع نبضاته مرة أخرى في أذنيه كقرع طبول.. يشعل سيجارة جديدة محاولاً التغلب على فيضان المشاعر الذي ألمّ به.

- "وددت أن أسألكِ: أين كنتِ بتلك الليلة.. ليلة أمس".. يقولها متردداً.

- "حفلة متأخرة أقامها بعض الأصدقاء.. وعدتني صديقة أنها ستقرضني بعض المال.. لهذا قضيت الليلة في (تبليسي) بدلاً من الذهاب مباشرة إلى (باتومي) حيث أقاربي".. تمطُّ شفتيها في ضيق.. تكمل: "لم تحضر الحفلة.. هاتفها مغلق.. على الأقل كانت الخمور مجانية.. شربت بما يعادل إحباطي".. ينظر لها (غسّان) صامتاً.. هي لا تفكّر سوى في المال.. تلاحظ نظراته.. بدت وكأنها استشفَّت ما يفكر به.. تقول: "تظنني مادية جشعة.. هذا لأنك تملك المال.. عندما تكون مفلساً؛ سيكون المال هو جلّ ما تفكر به!".. يوافقها (غسّان) بهزة رأس.. تضيف: "أنا مفلسة تماماً.. الحكومة تتكفّل بتكاليف دراستي في القاهرة.. لكنها غير مُلزمة بإطعامي".

- "فهمت!".. يقولها (غسّان) محاولاً إغلاق موضوع الحديث.. لا تلاحظ (سيالا) لهجته.

- "الترجمة للسيّاح الروس الذين يزورون القاهرة كانت توفر لي ما أحتاجه من مال.. الآن لا سياحة".. تضحك وهي تكمل: "هل أدركت الآن أنك هدية لي من السماء".. يشاركها (غسّان) ضحكات ظهر بها آثار ما شرب من (ويسكي).. صار رأسه ثقيلاً وجفناه أثقل.. يغمغم وهو يهمّ بالنهوض لينقد الساقي أجره.

- "سألقي عليكِ تحية المساء الآن".. يقولها وهو يتثاءب بملء فيه.

- "طابت ليلتك".. تقولها (سيالا).. بدت وكأنها تذكرت شيئاً".. المدينة المذكورة في خطاب الراهب هي نفسها مسقط رأسي.. ألا تراها صدفة مضحكة!".. يلتفت لها (غسّان) مندهشاً.

- "أي مدينة؟".. يقولها (غسّان) و قد تبخّر من عقله كل ما شرب من كحول.

- "مدينة (سولوكيدز) أو (خوني) كما يسمّونها الآن.. هي مسقط رأسي".

- **"طابت ليلتك!"..** تقولها (سيالا) لـ (غسّان) وهي تقف أمام باب غرفتها المفتوح.. من داخل الغرفة يشم (غسّان) رائحة عبيرها الدافئ.. تلك الرائحة التي تصاحبها أينما حلّت.. رائحة سكّرية مُسكِرة، كأنها رائحة خيالية لعسل مختمر.. فكّر (غسّان) أنه لو كان للحسن عطراً لكانت تلك الرائحة رائحته.. تزيح (سيالا) خصلة من الشعر تهدّلت على جبهته وهي تقول بالمصرية جملتها المعهودة:

-"كده أحلى!".. تنساب سبابتها من على جبينه لتتحسس وجنته، أنفه، شفتيه، ذقنه، تنظر إليه نظرة طويلة في دعوة صامتة للدخول إلى محراب الحسن الكامن في غرفتها.. يهزُّ (غسّان) رأسه ببطء كأنه يرفض الدعوة.. يلتقط أناملها من على وجهه ويقبّلها قبلة خفيفة..

- "طابت ليلتك!".. يودعها (غسّان) ثم يدخل غرفته.. يصفق بابها بعنف فبدا صوت انغلاقه كصرخة ملتاعة أطلقها جسده الذي امتلأ بالشهوة ورغب في الوصال.. يدخل إلى دورة المياه فيغسل وجهه.. يتطلّع طويلاً إلى وجهه في المرآة.. الوجه الذي بدا سعيداً!

"يلعن أبو شكلك!!"

يهتف بها لصورة وجهه السعيد في المرآة بصوت عالٍ.. عقله يؤنّبه بلا توقف.. كان قد رهن سعادته.. بل حياته كلها بالعثور على ولده المفقود.. الآن شُرخ جدار الحزن العالي الذي حبس فيه قلبه فتسربت منه بشائر سعادة.. كيف يجرؤ؟! كانت تلك هي ليلته الثالثة في ذلك الفندق في (تبليسي) بعد أن عاد هو و(سيالا) من (متسخيتا)، مازالا في انتظار الحصول على ما بغيا من معلومات عن مصير آل (جاكيلي)، لزم حجرته في ليلته الأولى مجترّاً أحزانه مع كؤوس الويسكي ودخان التبغ البالغ البشاعة.

بنهاية الليلة دقّت عليه (سيالا) غرفته قائلة إن الملل سيقتلها.. نظرت إليه متعاطفة قائلةً: "إن كانت عزلته البائسة في غرفته ستأتي إليه بولده فلا بأس بها!".. نصحته بأن يشاركها جولات في المدينة لتزجية وقت الانتظار القلق.. قبِلَ على مضض.. خلال اليومين التاليين، ذهب معها إلى العديد من المزارات السياحية.. بينما هي لا تكف عن الثرثرة كعصفور يغرّد.. فوجئ بعد برهة بتلك السعادة التي تتحسس طريقها وسط الحزن المتراكم في قلبه.. شعاع دافئ من النور يخترق روحه فيذيب أطنان من الظلام البارد..

"يلعن أبو شكلك !!"

كلما عاد إلى غرفته مساءً، يبدأ عقله – أم علَّه ضميره – في جلدهِ بسياط الحزن؛ فتفر السعادة من قلبه وجلة، ويبسط الثكل نفوذه، رافعاً الراية على القلب الذي أنهكه الكر والفر المتبادل بين المشاعر المتناقضة على ساحته.. يملأ الثكل عينيه بصورة (ياسين) المفقود، علّه يعود إلى صوابه، ويمنع تلك السعادة الطارئة من العودة إلى الحياة في نهار الغد التالي.. كم أفتقده!! لاحظ بمزيد من العجب أن الكابوس اليومي لم يأته منذ وطئت قدماه (جورجيا)، تعوّد أن يرى فيه (ياسين) على الرغم من إزعاجه.

افتقد ضحكته الرنّانة الجذلة.. حضنه الصغير الذي كان يصر أن يدفن رأس أبيه فيه بعد عودته من عمله.. قُبلته الرطبة مساءً وهو يخبره أن: "تصبح على خير"، بحروفه المهشّمة الطفلة.. حتى القناة التي تعرض أفلام الكرتون التليفزيونية، والتي كانت الخلفية الصوتية المزعجة لمنزله افتقدها.. أقسم في نفسه ألا يعود لحياته إلا ومعه (ياسين) أو جثته.. ملأه الخاطر الأخير بالذعر؛ فطفرت دموعه من عينيه وهو يستلقي على فراشه.. الأب (كاليستراتوس) قال في خطابه أنه فقط سيبوح بما رأى للـ(مختار).. هو (المختار) إذاً! المختار لأي شيء؟.. لا يمكنه التحديد.

هل (ياسين) ولده هو أحد أصحاب المجد الذين ذكرتهم الشيطانة (ليليث)؟ ألهذا اختطفته؟ أم سيصير واحداً من هؤلاء الأطفال الشاحبين الذين نعتتهم ليليث بـ (أبناء الفداء)، والذين رآهم (غسّان) مراراً؟!.. عقله يكاد أن ينفجر.

ينهض من رقدته ويعود ليجلس في فراشه.. يشعل سيجارة في الظلام.. يتذكّر باقي الحديث الذي دار بينه وبين (سيالا)، في تلك الليلة في بار الفندق بـ (متسخيتا)، تدلّى فكّه ببلاهة عندما أخبرته (سيالا) أن (سولوكيدز) هي مدينتها.. بالتحديد مسقط رأسها.. وقتها نظرت (سيالا) إلى وجهه المندهش وهي تقول:

- "ماذا كنت تظن أن الراهب يقصد وهو يقول فقط (المختار)، سيقصد (سولوكيدز) المقدّس؟".. تساءلت (سيالا) وقد صبّت لنفسها كأساً جديداً.

- "تقولين أنها مدينة.. يجدر بكِ إذاً أن تقولي (سولوكيدز) المقدّسة.. ثم".. قطع جملته.. إذ عقدت (سيالا) ذراعيها أسفل صدرها وقد مطَّت شفتيها استياءً.. تمتم مستدركاً بخفوت: "لا يوجد صيغة مؤنث بالإنجليزية".

- "ولا الجورجية المكتوب بها الخطاب.. لذا فالجملة تحمل معنى (سولوكيدز المقدّس) أو (سولوكيدز المقدّسة)، ونظراً لأن (سولوكيدز) مدينة؛ لذا تصير الجملة (سولوكيدز المقدّسة)".

- "متأكدة؟".. سأل (غسّان) متشككاً.

- "أقول لك أن (سولوكيدز) هي موطني!!".. قالتها له بنفاذ صبر.. صمتت لحظة ثم أضافت: "(سولوكيدز) هي عائلة نبيلة؛ موطنها هي مدينة (خوني) بمقاطعة (أمريتي) غرب البلاد.. الكثير من أبنائها كانوا من رجال الجيش، أو الزعماء السياسيين، أو رجال الأعمال.. منهم الجنرال (فادرين سولوكيدز)، الذي خدم في الجيش القيصري الروسي، ومن بعدها في جيش دولة جورجيا المستقلة عام 1918، وعندما صارت جورجيا تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي، صار من زعماء الثورة على الجيش الأحمر في (تبليسي).. اعتقلته الـ (تشيكا) وأُعدمَ رمياً بالرصاص في مايو 1923".

- "الـ (تشيكا)؟".. تساءل (غسّان) بجهل حقيقي.

- "البوليس السوفيتي السرّي".. تقولها (سيالا) مفسِّرة.. تكمل: "من أبناء عائلة سولوكيدز أيضاً (ألكسندر سولوكيدز) الذي كان – على نقيض قريبة (فاردين) – مناضلاً شيوعياً.. اعتنق الفكر الشيوعي أثناء دراسته في موسكو، وبعد عودته إلى جورجيا؛ قاد العديد من الإضرابات العمّالية في (تبليسي) و(باتومي).. (ألكسندر) أو (ساشا) – كما نسمّيه – كان من زعماء البلاشفة هو و(ستالين) عندما كان البلاشفة أقلية في جورجيا في ذلك الوقت.. لاحِظ أننا نتكلم عن نهاية القرن التاسع عشر، مات (ساشا) عام 1905 م بالسّل.. وكانت جنازته مهيبة".

- "تتكلمين عن تلك الأسرة وكأنكِ منها!".. عقّب (غسّان) في شك.

- "درسنا حياة (ساشا) بالتفصيل الممل في المدرسة.. لا تنسَ أن مسقط رأسي سميّ باسمه لما يزيد عن الستين عام".. قالتها (سيالا) ضاحكةً.

- "لم تكن مدينتك تحمل اسم (سولوكيدز) من قبل؟".. عاد (غسّان) للتساؤل.. فمطَّت (سيالا) شفتيها وكأنها لا تصدق وجود كل هذا الغباء!!

- "الاسم التاريخي لمدينتي هو (خوني)، حمَلَته منذ نشأتها في القرن السادس.. صار اسمها (سولوكيدز) تيمناً بـ (ألكسندر سولوكيدز) في الحقبة الشيوعية منذ عام 1935 م بالتحديد".. التقطت (سيالا) أنفاسها ثم أضافت: "عادت المدينة لاسمها التاريخي (خوني) بعد انهيار الشيوعية.. سكانها من كبار السن؛ مازالوا يطلقون عليها اسم (سولوكيدز)، إلا أنها لم تعد تعرف بهذا الاسم رسمياً".

- "لماذا احتارت شرطتكم إذاً فيما تعنيه كلمة (سولوكيدز)؟ لماذا احتار الأب (كاليستراتوس)؟ لماذا ظنّ الجميع أن المقصود هو رجل الأعمال (إيفاني سولوكيدز)؟".. وضع (غسّان) رأسه بين راحتيه كعادته كلما فكّر.

- "(خوني) أو (سولوكيدز) مدينة صغيرة.. هي أقرب للقرية.. لا أتوّقع أن أهل العاصمة (تبليسي) أو (متسخيتا) سيعرفونها بأي حال من الأحوال".. هزّت (سيالا) كتفيها.. صمتت لحظة ثم أضافت: "كان (إيفاني سولوكيدز) أمام أعينهم طوال الوقت.. ثري شرير، طرد ذلك العجوز (كوبا جاكيلي) من عمله.. فوجدوا اسمه بجوار جثته كرسالة انتحار.. من المنطقي أن تدور شكوكهم حول (إيفاني سولوكيدز) الشخص؛ وليس (سولوكيدز) المدينة المجهولة".

- "تفسير منطقي.. ربما أنتِ على حق".. قالها (غسّان) تلك الليلة وهو يشعل سيجارته الألف ثم أضاف: "وربما لا".. غرق في التفكير لبرهة ثم قال: "(سيالا) أريدك أن ترتّبي لي لقاءً مع السيد (إيفاني سولوكيدز).. هل تقدرين؟".

- "سأرى ما يمكنني عمله".. قالتها له برفق.

ينزعه من تداعى أفكاره رنين هاتفه المحمول.. (أنطوان) يطمئن عليه، في اتصال صار عادةً يوميةً منذ سافر إلى (جورجيا)، لولا وجود (أنطوان) لأحسَّ (غسَّان) بأنه صار وحيداً منبوذاً كمجذوب.. ينهي الاتصال بعد برهة.. لا يكفّ (أنطوان) عن الإلحاح عليه بالعودة.. وعندما لا يجد لـ (غسّان) أذاناً صاغيةً، يبدأ في لعنه هو والراهب المشلوح (متروفاتس) وأمه.. ثم يغلق الخط في وجهه دون وداع.. يتطلّع (غسّان) للهاتف شارداً للحظات.. نفس الشرود بدا على وجه (سيالا) وهي تتطلّع إلى هاتفها بالأمس بعد أن أنهت اتصالاً هاتفياً.. كانا في حديقة (بوتونيكال)

السياحية الشهيرة؛ عندما جاءها ذلك الاتصال الهاتفي.. أنهت حوارها مع المتصل باللغة الجورجية، ثم تطلّعت إلى (غسّان) لبرهة.. فنظر إليها متسائلاً..

- "(إيفاني سولوكيدز) ميت؛ متوفي منذ العام 2006".. قالتها له بخفوت.. ترى النظرة المتسائلة في عينيه، فأردفت مسرعة: "ميتة طبيعية.. شيخ عجوز مات في المستشفى.. لم يترك أي نجوم سباعية على الجدران، إن كان هذا ما يدور بخاطرك".

- "صار آل (جاكيلي) هم الخيط الوحيد إذاً".. قالها (غسّان) بذات الخفوت.

- "أنا لا أفهم.. كما فهمت من الخطاب لم تكن (تمار) زوجة (ألكسندر جاكيلي) تجسيد لـ (بابلون) تلك.. هي نفت ذلك بوضوح.. ماذا أصابها إذاً؟".. تساءلت (سيالا) في حيرة وهي تعبث بخصلة شعر بجانب رأسها.. أضافت: "هذه الـ (سبتاجرام) أو النجمة السباعية لا تمثل خاتم (بابلون)، فهل هي خاتم تلك الشيطانة (ليليث).. ومن هي (ليليث) تلك أساساً!!".

- "ماذا تظنين أنتِ؟".. رد (غسّان) السؤال بسؤال.

- "أظن أنكم جميعاً زمرة من المخابيل.. أنا لا أصدّق أساساً أنني أناقش هذه الترهات بجدية!.. أنت طبيب وأنا أحمل درجة علمية جيدة.. لا بد أن يكون هناك تفسير منطقي ما لكل ما يحدث".. قالتها (سيالا) ببطء وقد نظرت لعيني (غسّان) كأنها ترى وقع كلماتها عليه، لاحظت أنه لا يتابع ما يقول.. عيناه معلّقة بشخص ما قوي البنية أبيض البشرة، أصلع الرأس.. التمعت صلعته الحمراء بأشعة شمس الظهيرة.. يبدو أجنبياً.. أوروبياً على الأرجح.. جلس على مقعد خشبي من تلك المقاعد التي امتلأت بها الحديقة السياحية الشهيرة بهدوء.

- "(غسّان)!!".. قالتها له (سيالا) منبّهةً.. فنظر لها متسائلاً.. أضافت في ضيق: "أنت لا تتابع ما أقول".

- "معذرةً!!".. قالها لها صادقاً.. ثم أعاد النظر لذلك الرجل الذي جلس يقرأ صحيفة ما بهدوء تحت أشعة الشمس.

- "هل تعرف هذا الرجل؟".. تساءلت (سيالا).

- "لا".. يصمت لحظةً متردداً.. أضاف ضاحكاً ضحكة مضطربة: "لا تشغلي بالك.. يبدو أنني قد أصبت بجنون الارتياب".. تنظر له للحظة صامتة.

- "الراهب يعرف الإنجليزية.. كتب خطابه الأول بها.. لماذا كتب خطابه الثاني بالجورجية التي لا يفهمها الراهب اليوناني؟".. تتساءل (سيالا).

- "لأنه لم ينوِ إرساله أبداً".. يغمغم (غسّان) بخفوت.. يتابع: "هو فقط دوَّن ما حدث حتى لا يجن أو يفقد إيمانه كما قال.. خوفه منعه من البوح بما رآه لأي شخص.. ما كان ليعطيني الخطاب لولا اعتقاده بأنني (المختار)".

- "وهل أنت ذلك المختار حقاً؟".. تعود (سيالا) للتساؤل.

- "وما أدراني؟".. يقولها (غسّان) بنفاذ صبر.

- "هناك شيء ما.. ملاحظة قالها لي ذلك الصديق بالأحوال المدنية".. قالتها له مترددة.. فنظر إليها متسائلاً.. أردفت: "لا أعلم، هل ستكون ذات نفع لك أم لا.. هي فقط أثارت انتباه ذلك الصديق".. أسرعت تكمل بعد أن لمحت نفاذ صبره في عينيه: "(إيفاني سولوكيدز) لم ينجب.. ورثته زوجته.. ما أثار دهشة صديقي أنه لم يجد في سجلات المواطنين الجورجيين الأحياء من يحمل لقب (سولوكيدز)".. نظر لها بدهشة فأضافت بصوت حاولت أن تجعله هادئاً.

- "(إيفاني سولوكيدز) كان هو الأخير من نسل أسرة (سولوكيدز) النبيلة".

الفصل الحادي عشر

يا ليليث، أيتها العفريتة والغولة، أستحلفك برب إبراهيم القوي، بصخرة إسحاق، برب يعقوب الجبّار، أستحلفك بـ (ياهوو) أن تبتعدي عن (راشنوي) وزوجها (جيوني)، ها هو طلاقك ووثيقة انفصالك أرسلت عبر الملائكة المقدّسة.. آمين.. آمين.. هالوليا.

تعويذة قديمة للحماية من ليليث.

ينتبه (غسّان) من نومه على صوت الطرقات على باب غرفته في ذلك الفندق في (تبليسي).. يحاول أن يتجاهلها ويعود إلى نومه، إلا أن الطرقات كانت لحوحةً تأبى الانصراف.. ينظر لهاتفه المحمول.. تجاوزت الساعة منتصف الليل بعدة دقائق.. ينهض من الفراش شاعراً بالدوار.. تصطدم قدمه بحافة الأريكة فيطلق سبّة بالعربية.. يسمع صوت ضحكتها من الناحية الأخرى للباب إذ تسمع سبابه الحانق.. يفتح الباب فتدخل (سيالا) إلى الغرفة مسرعة أمام نظراته المندهشة.

- "هل نمت بتلك السرعة؟".. تقولها له وهي تضم ذراعيها المكشوفين إلى صدرها.. تضيف: "برد شديد.. برد شديد خارج الغرفة".. بدت وكأنها استيقظت لتوّها هي الأخرى.. شعرها مبعثر حول وجهها البلّوري الخالي تماماً من الأصباغ.. ترتدي (تيشيرت) منزلي ضيق كشف عن أسفل بطنها الناعم، و(شورت) ضيّق كشف عن ساقيها المخروطتين وفخذيها الممتلئين بلا ترهل. تمر من أمام (غسّان) المشتت الذهن؛ فترتج أردافها الممتلئة في تماسك داخل (الشورت) القرمزي الضيّق.

تجلس مرتجفة على الأريكة الواسعة الموجودة في الغرفة، وقد رفعت ساقيها لتضمهما إلى صدرها اتّقاءً للبرد، فتخفي عن ناظري (غسّان) النهدين النافرين الذي جسّدهما الـ (تيشيرت) الضيّق خير تجسيد.. بدت كمجسّم منحوت لاكتمال الحسن، نحته فنان يوناني في أسطورة إغريقية قديمة؛ فنفخت فيه آلهة (الأوليمب) الروح، ومنحته صوتاً شجياً قال لـ (غسّان):

- "(غسّان).. استيقظ!".. تبتسم.. يغلق (غسّان) عينيه بقوة ثم يفتحهما كأنه يتأكد من أنه قد استيقظ بالفعل، وأن كل هذا الحسن ليس حلماً خيالياً صوّره له عقله النائم.. يرفع درجة التدفئة في الغرفة وقد لاحظ ارتجافها.. يجلس على طرف فراشه.. يتثاءب وهو يدلّك شعره.. يقول لها بصوت مازال به أثار النعاس:

- "حسناً.. استيقظت تماماً".. كان قد ودّعها على مدخل غرفتها منذ أقل من ساعتين.. عاد إلى غرفته سعيداً كعادته منذ خمسة أيام، فمارس ما أصبح روتينه المسائي اليومي.. يسبُّ نفسه أمام المرآة مرتين؛ علّها تفيق من سعادتها.. يهاتفه (أنطوان) ويطلب منه العودة فيرفض، ثم يتلقّى سباب (أنطوان) الفاحش في هدوء حتى يملَّ (أنطوان) السباب؛ فينهي المكالمة دون وداع.. يرقد في فراشه فيجترّ مشاعره المتضاربة وأسئلته المعلّقة بلا إجابة حتى يأتيه النوم.

- "هاتفني ذلك الصديق في الأحوال المدنية ليخبرني بما ابتغيت من معلومات".. تصمت لحظة ثم تضيف مبتسمة: "لم أستطع الانتظار حتى الصباح لأخبرك بما وجده".

- "بالطبع.. بالطبع".. يقولها (غسّان) بلهفة وقد اختفت من صوته آثار النعاس.

- "هناك شهادة وفاة باسم (تمار)، يبدو أنها قد ماتت في الحريق.. الجثّة كانت متفحّمة تماماً.. لم تكن التقنيات العلمية بالتطوّر الموجود اليوم، فلم يجروا للجثّة فحص الـ (DNA)، كانت هناك جثتان متفحّمتان إضافيتان لتلك المرأة (نيستان) وزوجها".. تصمت (سيالا) لحظة كأنها ترى وقع كلماتها عليه.. تضيف: "(ألكسندر جاكيلي) انتحر أثناء جلسات محاكمته.. شنق نفسه في زنزانته".

- "وماذا عن الطفلة؟".. يقولها (غسّان) بخفوت وقد عاد اليأس ليدب بقلبه من جديد.

- "لهذا السبب بالتحديد تأخر صديقي في إبلاغنا بالمعلومات لخمسة أيام".. تقولها (سيالا) وقد عادت لتفرد ساقيها العاريتين، بعد أن عاد الدفء لأوصالها.. تتمطَّى بعمق.. فتبرز حلمتا ثدييها نافرتين حتى كادتا أن تخترقا الـ (تيشيرت) الأبيض الضيّق.. تضيف: "(كيتيفان جاكيلي) فرّت من البناية قبيل احتراقها.. وجدتها الشرطة هائمة على وجهها في طرقات (تبليسي) فأُدخلت ملجأ للأيتام.. حتى أتمت الثامنة عشر".

- "وأين هي الآن؟" يقولها (غسّان) بلهفة.

- "بعد مغادرتها للملجأ.. عملت ببعض المهن البسيطة لفترة وجيزة ثم التحقت بدير (ماتخوجي)".. تقول (سيالا) وهي تنظر إلى أصابع قدمها الحافية التي تعبث بطرف السجادة، التي افترشت أرضية الغرفة، التي تجاوزت مرحلة الدفء لتدخل مرحلة الحر الشديد.

- "لا بد من مقابلة تلك الطفلة.. أقصد تلك المرأة.. هي شابة الآن.. لربما تتذكر ما حلّ بأمها".. ينهض فيخفض تدفئة الغرفة الحارة مرة أخرى.. يسأل (سيالا) دون أن ينظر إليها: "أين هو ذلك الدير؟ قريب من (تبليسي)؟؟".

- "دير (ماتخوجي) يقع في مقاطعة (أمريتي).. بالتحديد في مدينة (خوني)".. تقولها وهي تنظر إلى (غسّان) الذي استدار إليها وقد اتسعت عيناه دهشة.. تضيف ببطء: "هي الآن راهبة في مسقط رأسي.. مدينة (سولوكيدز) الشهيرة بـ (خوني)!!".

- "ولم تكوني تعلمين أنها من راهبات الدير؟".. يقولها (غسّان) في غيظ.

- "إن كنت تظنني من مرتادي الأديرة فأنت مخطئ".. تجيب (سيالا) بغيظ مماثل.. تلتقط شهيقاً عميقاً ثم تضيف بخفوت: "لم أزر (خوني) منذ توفّي والديّ.. لم يعد هناك ما يربطني بالمدينة.. لا أخوة.. لا أقارب".. يصمت (غسّان) وهو يتطلّع إلى وجهها الذي ظهر عليه حزن عميق.

- "معذرةً.. لم أكن أعلم بأمر والديكِ".. يتمتم (غسّان) بصوت خافت.. سأل نفسه كثيراً عن فتور همّتها في زيارة مسقط رأسها.. صار الأمر منطقياً إذاً.. يضيف بصوت ارتفعت طبقته: "يبدو أنكِ كنتِ على حق.. (سولوكيدز) المقصودة هي المدينة.. إلى هناك ذهبت (كيتيفان)".. يمسح عن جبينه بعض قطرات من العرق أنبتها جو الغرفة الحار.

- "وأنت أيضاً كنت على حق.. هناك شيء ما غريب في كل هذا!".. تقول (سيالا).. عيناها مركّزتان على طرف السجادة حتى كادت أن تخرقها.. تضيف: "(سولوكيدز) المقدّسة.. هكذا يقول الخطاب.. أنا لا أفهم.. (خوني) مدينة صغيرة.. مسالمة كدجاجة.. لم تقع بها أي أحداث هامة.. ربما كان سر تميّزها في أنها لا يميّزها شيء!! أي قدسية في تلك القرية الحمقاء؟!".

- "أظن أن وجهتنا التالية صارت محسومة".. يقولها (غسّان) وهو يخلع قميصه.. تتطلع (سيالا) إلى جذعه الرياضي الذي التمعت عضلاته البارزة بالعرق.. أذاب التوتر والأرق وقلة الطعام الدهون القليلة التي اكتسبها جسده في سنين الدعّة الماضية، فعاد جسده لما كان عليه في شبابه الأول، وقت أن كان بطلاً للجمهورية في الـ (كاراتيه).. يهمّ بالتوجه إلى دورة المياه.

- "ماذا تفعل؟".. تسأله (سيالا) في دهشة.

- "سأرتدي ثيابي.. سنغادر إلى (سولوكيدز).. مسقط رأسك".. يقولها (غسّان) وهو يلتقط المنشفة.

- "لن نسافر ليلاً.. هذا انتحار محقق في (جورجيا)".. تهزُّ (سيالا) رأسها رافضةً.. يتطلّع إليها (غسّان) في غيّظ.. تكمل مسرعة وقد لاحظت غضبه: "(ساندرو بيريدز).. صديق قديم.. من نفس بلدتي.. هو سائق جيد.. أقلّني من (تبليسي) إلى (خوني) عدة مرات.. لطيف المعشر ويتحدث إنجليزية جيدة أيضاً.. سيكون مفيداً.. دعه يقلّنا إلى (خوني) في الصباح".

- "حسناً.. فلتهاتفيه إذاً".. يقولها (غسّان) بضيقٍ، وإن كان قد بدا عليه الاقتناع.

- "لقد هاتفته بالفعل، قبل أن أطرق باب غرفتك".. تقولها (سيالا) مبتسمة.. تضيف: "سيكون بانتظارنا في استقبال الفندق في السابعة صباحاً".. يختفي الضيق من وجه (غسّان).. يبتسم.

- "شكراً".. ينظر (غسّان) إلى (سيالا) بامتنان حقيقي.. بدت له كملاك حارس.. تلاحظ نظراته الطويلة التي تصلّي في محرابها.. فترخي أهدابها وهي تنظر لأظافر قدميها المصبوغة بالقرمزي في ارتباك.. هي حنون كأم.. مفيدة كصديق.. مثيرة كعاهرة.. نقية كقدّيسة.. هكذا فكّر (غسّان) وهو يراها تنهض من على الأريكة في تردد.

- "حسناً.. سأعود إلى غرفتي.. يجب أن نحظى بقسط من النوم.. سنغادر مبكراً".. قالتها (سيالا) بصوت مبحوح.. يوافقها (غسّان) بإيماءة رأس خفيفة، بينما تصرخ كل خلية في جسده مطالبة ببقائها.. تتّجه هي ناحية باب الغرفة؛ فيفتح لها الباب مودعاً.. تستدير إليه.. تزيح خصلات شعره التي ألصقها العرق بعينيه، تهمّ بإلقاء جملتها المعتادة فيسبقها (غسّان)..

- "كده أحلى".. يقولها بالمصرية مبتسماً.. فتبادله الابتسامة.. تضع يدها على صدره العاري، ثم تطبع حبتا الكرز في فمها قُبلة ساخنة على وجنته..

- "طابت ليلتك".. تقولها وهي تستدير مغادرة.

- "سيالا!".. يناديها (غسّان) بصوت خافت.. فتستدير له للمرة الثانية متسائلة.. يقول: "ما معنى اسمك؟"..

- "(سيالا).. تعني السماوي باللغة الجورجية".. تقولها مبتسمة.

- "بالطبع.. لن يحمل ذلك الاسم إلا ملاك.. لا يسكن السماء إلا الملائكة".. يرد عليها (غسّان) الابتسامة بمثلها.. تختفي ابتسامتها.. تصمت لحظة وهي تطرق للأرض.. تعود لترفع رأسها وهي تقول:

- "والشيطان أيضاً سكنها ذات يوم".. ثم تبتسم ابتسامة خافتة وهي تغادر في هدوء.

باستثناء أغنيات (الهيب هوب) الفاحشة الذي شغّلها بصوت صاخب في (أم بي ثري) سيارته، كان (ساندرو بيريدز) لطيف المعشر حقاً! في أوائل الأربعينات هو.. طويل القامة.. قوي البنية.. حاجباه الكثان البارزان وخصلات شعره السوداء الكثيفة التي انسدلت على جبهته العريضة تضافرت مع بنيته العضلية القوية في إعطائه مظهراً حيوانياً.. فبدا كثور غاضب بلا سبب.. حضر إلى الفندق في تمام السابعة صباحاً، فحيّا (سيالا) بحرارة كصديق قديم، وصافح (غسّان) ببعض التحفظ وهو يحمل حقائبهما القليلة إلى سيارته.. عرّفته (سيالا) على (غسّان) كصديق.

تهلَّلت أساريره بعدما عرف أن (غسّان) طبيب، فتحوّل وجه الثور الغاضب إلى وجه طفل صغير، في تبدّلٍ أدهش (غسّان) فابتسم.. زاد تهلّله عندما أخبرته (سيالا) أن (غسّان) قد درس الطب في بريطانيا.. أدار محرّك سيارته (المرسيديس) عتيقة الطراز، وهو يقول بإنجليزية شنيعة كالتي يتحدث بها عملاء الـ (كي. جي. بي) في أفلام (جيمس بوند) القديمة:

- "أنا أيضاً أقمت بإنجلترا لفترة".. قالها بفخر ثم شغّل (أم بي ثري) السيارة فهدر بإحدى أغنيات (الهيب هوب) الأمريكية، وكأنه يؤكد على ثقافته الإنجليزية الرفيعة.. كان قد أقام بشكل غير شرعي في إنجلترا لبضعة شهور، قبل أن تركل الحكومة هناك مؤخرته وتخرجه مطروداً.. عاد إلى (سولوكيدز – خوني) بحفنة من (الباوندات) وبعض اللغة الإنجليزية، وانبهارٍ بالمجتمع البريطاني الذي لم تفلح المعاملة المهينة التي تلقّاها منه في زحزحته.. بالمال اشترى تلك السيارة العتيقة، وبإنجليزيته المهشّمة التي لا يفقهها أهل مدينته صار يحدّثهم، فحسبوه قد صار (وليام شكسبير).

- "في الحقيقة أنا لست بريطانياً!".. يقولها (غسّان) مبتسماً وقد لاحظ حماسه الشديد لكل ما هو بريطاني.

- "أعلم.. أعلم.. أنت عربي كـ (مروان) الأطرش.. (سيالا) أخبرتني بذلك".. يقولها بصوت عالٍ.. ينظر (غسّان) متسائلاً لـ (سيالا) الجالسة بجواره على الأريكة الخلفية للـ (مرسيديس) العتيقة، التي شقّت طريقها إلى خارج (تبليسي) على الطريق السريع المحاط بجبالٍ خضراء من كل الجوانب.. تلْكُم (سيالا) مؤخرة رأس (ساندرو) القابض على مقود السيارة أمامها برفق.

- "قلت أنه عربي.. لم أقل أنه كـ (مروان) الأطرش!".. تقولها بغيظ.

- "هلّا أخبرتموني من هو ذلك الـ (مروان الأطرش)".. يتساءل (غسّان) بارتياب.

- "مروان بن محمد.. آخر حكّام بني أمية.. شنَّ حملة عسكرية على القوقاز كقائد عسكري قبل أن يصير خليفة.. في المعارك قُتل الكثير من أبناء جورجيا وخُرّبت الكثير من الكنائس".. تقولها (سيالا) ببعض الحرج.. تضيف: "لم يكن أطرش حقاً.. أطلق عليه الجورجيون هذا اللقب؛ لأنه لم يستمع لمطالبات وتوسلات أبناء جورجيا".

- "خرّب كنيسة (خوني) العامرة.. كنيسة القدّيس العظيم (سان جورج)".. يقولها (ساندرو) بصوت عالٍ ليتغلب على صوت الـ (أم بي ثري).. لا يبدو مستاءً لهذا الحد.. يضيف: "أتعلم أن ذراع (سان جورج) اليمنى مدفونة أسفل الكنيسة؟".. ينظر (غسّان) إلى انعكاس (ساندرو) في مرآة السيارة الأمامية.. (سان جورج)، (مار جرجس).. ذلك القدّيس متغلغل بشكل كامل في الروح المسيحية.. كنيسته في (مجمع الأديان) بالقاهرة تحوي بعضاً من الأدوات التي عُذِّب بها، وكنيسته بـ (خوني – سولوكيدز) في جورجيا تحوي ذراعه اليمنى.. العديد من الكنائس التي تحمل اسمه في شتّى بقاع الأرض تحوي شيئاً أو شيئين (من أثره) كما يقول المصريون. الأب المشلوح (متروفاتس) قال له أنّ تعلّق قلوب المسيحيين بـ (مار جرجس) كتعلّق المتصوفة بالقطب الصوفي.. هو يرى أن الأمر أعمق من ذلك.. هو يبدو وكأنه رمز إلهي.. يحمل الأمل للمستضعفين والمعذبين.. هو (حسين) آخر.. يمثل الانتصار المعنوي للإيمان على القوة الغاشمة التي هزمتها مادياً.. انتصار الهزيمة إن جاز ذلك التعبير.

- "أنا حقاً آسف.. أنا لا أعلم شيئاً عن كل هذا".. يقولها (غسّان) بدبلوماسية.. يشيح (ساندرو) بذراعه بمعنى: "لا عليك".

- "هل تعلم شيئاً أو شيئين عن الجلطة الدماغية".. يسأل (ساندرو) في لهفة، يبتسم (غسّان).. ما أن يعرف أي شخص بكونه طبيباً؛ حتى يبدأ في التنقيب في نفسه عن علّة أو اثنتين، وقد اكتشف فجأة أنه قد صار مريضاً.

يبدو أنها عادة عالمية!! يهزّ (غسّان) رأسه بالإيجاب، فيبدأ (ساندرو) في محاصرته بأسئلته عن الجلطة الدماغية.. لساعة يجيب (غسّان) بصبر، وهو يختلس النظر بين الفينة والأخرى إلى (سيالا)، التي أرخت نظارات شمسية على عينيها وهي تحاول النوم.

نجحت أغاني (الهيب هوب) الصاخبة في جعل محاولتها مستحيلة.. تنتهي أغنية فاحشة، فتتبعها أغنية أكثر فحشاً بالعامية الأمريكية؛ عن تلك المرأة التي تتغنى بجمال أردافها وأثدائها، وكيف تستغلهم في الإيقاع بالرجال.. تكسو حمرة خجل خفيفة وجه (غسّان) وهو ينظر إلى انعكاس وجه (ساندرو) في المرآة.. لا يبدو أنه يفهم حقاً تلك الكارثة التي هدرت من (أم بي ثري) سيارته.. يختلس النظر مرة أخرى إلى (سيالا) التي غطّت عينيها العدسات السوداء.. ابتسامة عجيبة امتزج فيها الخبث بالخجل تكسو شفتيها.. خمّن (غسّان) أنها متيّقظة بالفعل.

- "هل تعي حقاً ما تعنيه كلمات تلك الأغنية يا (ساندرو)؟".. يتساءل (غسّان) وهو يجاهد لكبح ضحكة.

- "بالطبع يا دكتور.. قلت لك أني أتحدث الإنجليزية كأهلها".. يقولها (ساندرو) بسرعة، ثم يبدأ في ترديد تلك الكلمة العاميّة الفاحشة المتكررة في الأغنية باستبسال..

(أردافي.. أردافي.. أردافي).

تخلع (سيالا) نظارتها الشمسية.. بعينيها نظرة دهشة ضاحكة، تتطلع إلى انعكاس وجه (ساندرو) الذي بدا عليه الجدّية.. لا يفهم حقاً ما يقول!!

(أردافي.. أردافي.. أردافي).

تلتقي عينا (سيالا) و(غسّان) للحظة، ثم ينفجرا في نوبة ضحك هيستيرية.. ينظر إليهم (ساندرو) في مرآة سيارته وقد عقد حاجبيه ضيقاً.

- "ما المضحك؟".. يتساءل (ساندرو) بغيظ وهو يطفئ (أم بي ثري) السيارة، فيتوقف سيل الفحش الذي صبَّه على رؤوسهم صبّاً.

- "تلك الأغنية لا تناسب الآنسات المهذّبات".. يقولها (غسّان) وهو يشير لـ (سيالا).. يكمل وهو يجاهد لمنع دموعه التي أسالتها ضحكاته: "ربما استمعنا إليها

في الحانة مساءً أيها الصديق".. فكّر (غسّان) أنه منذ أعوام مضت لم يضحك مثلما ضحك الآن.. من أعماق قلبه يطفو شعور الثكل مرة أخرى، وقد أزعجته تلك الضحكات المرحة!

حزنه ذبابة لحوح.. هجرته للحظات ثم عادت لتُلصق أقدامها اللزجة بعينيه.. تختفي ابتسامته، وهو يتطلع إلى التلال الخضراء التي تعدو على جانبي الطريق في شرود.. كانوا قد اجتازوا مئتي كيلو متر من الأربعمائة التي تفصل (تبليسي) عن (خوني – سولوكيدز).. تلاحظ (سيالا) شروده وتغيُّر مزاجه، تضع راحتها الناعمة على يده.

- "مالك؟".. تقولها بالمصرية التي لا يفهمها (ساندرو).

- "واحشني أوي!".. يرد (غسّان) دون أن ينظر إليها.. تربت (سيالا) على يده دون كلام.. تمر دقائق من الصمت الثقيل.. يقطعه (ساندرو) أخيراً.

- "أنت عربي يا دكتور.. لربما أعجبتك تلك الأغنية".. مازالت آثار الضّيق تبدو على وجه (ساندرو) يعاود تشغيل (أم بي ثري) السيارة.. يضيف وهو ينظر لـ (غسّان): "أعجبني لحنها.. أسمعها لي صديق عراقي.. لا أستطيع فهمها كالأغاني الإنجليزية!".. يجاهد الأخير لحبس ضحكة منعها ضيق (ساندرو) من الانطلاق.. ينساب لحن عربي عتيق يتبعه صوت (محمد عبد الوهاب) الرخيم.

جفنه علّم الغزل

ومن العلم ما قتل

فحرقنا نفوسنا في جحيم من القُبل

ونشدنا ولم نزل

حلم الحب والشباب

حلم الزهر والندى حلم اللهو والشراب

ابتسامة عذبة تطفو على شفتي (غسّان) وهو ينظر إلى عيني (سيالا).. لم يرَ عينين بمثل هذا الجمال والاتّساع من قبل.. تبدو كعيني غزال شارد.. أحس أن (عبد الوهاب) قد لحّن تلك الأغنية منذ ما يزيد عن الثمانين عاماً؛ فقط ليغنيها في تلك اللحظة في محراب عيني (سيالا).. تقابل هي ابتسامته بابتسامة أكثر عذوبة.. يتابعهم

(ساندرو) في مرآة سيارته، وقد لاحظ نظراتهم التي ملأها الشغف إلى بعضهما البعض.. يهزّ كتفيه وهو يبتسم بدوره؛ فتعود ملامح الطفل الصغير لتكسو وجه الثور.

هاتها من يد الرضى

جرعة تبعث الجنون

كيف يشكو من الظمأ

من له هذه العيون

تعود (سيالا) لتضع راحتها على يد (غسّان).. تقترب منه.. بدت وكأنها تودُّ أن تضع رأسها على كتفه.. مازال (ساندرو) يراقبهما صامتاً.. جلال الحب أخرسه؛ فظل صامتاً في محرابه.

يا حبيبي أكلما ضمّنا للهوى مكان

أشعلوا النار حولنا

فغدونا لها دخان

يعتدل (غسّان) في جلسته مبتعداً عن (سيالا).. يسحب يده من أسفل راحتها برفق.. تنظر له بعينين لائمتين متسائلتين.

- "ليه؟".. تهمس بها بالمصرية التي لا يفهمها (ساندرو).

- "أنا حبيب سيء يا (سيالا).. بخسر كل اللي بحبهم".. يجيبها هامساً بالمصرية.. تشرد عيناه.. يضحك ضحكة قصيرة عصبية وهو يضيف: "أنا والرب بنتنافس مين اللي هيخلّص على أحبائي الأول".. تنظر (سيالا) لوجهه نظرة طويلة.. تبتسم.. ترفع أناملها فتمسك بذقنه محوّلة وجهه إليها.

- "هجرّب حظي!".. همست بها مبتسمة.. لا يبتسم (غسّان) وإن ابتسمت عيناه التي أومأت إيجاباً.

- "ليه؟".. حان الوقت ليسألها (غسّان) نفس سؤالها.. لا ترد.. تميل واضعةً رأسها على كتفه.. (عبد الوهاب) مازال يشدو.. يقول بلسان حالها:

قل لمن لام في الهوى

هكذا الحسن قد أمر

إن عشقنا فعذرنا

أنّ في وجهنا نظر

ترفع عينيها إلى عيني (غسّان) وتردد مع (عبد الوهاب) بعربيتها الشنيعة: "إن عشقنا فعذرنا.. أنّ في وجهنا نظر".

تخترق الـ (مرسيدس) القديمة شوارع مدينة (خوني) وفقاً لتسميتها الحالية – (سولوكيدز) وفقاً لتسميتها في الحقبة الشيوعية – يتأمل (غسّان) الطرقات الضيّقة للمدينة.. كمصري لا يراها أكثر من قرية.. قرية صغيرة إن قارنها بالقرى المصرية.. الخضرة في كل مكان هنا.. على جوانب الطرقات، على الجبال الشاهقة التي أحاطت البلدة من جميع جوانبها.. شعور غامر بالارتياح يغزو قلب (غسّان).. هل يمكن للشر أن يتواجد في مثل ذلك المكان؟ أكسبته الخضرة والهدوء سكينة قلّ إن وجد (غسّان) مثلها.

- "الجو أكثر دفئاً من تبليسي".. يقول (غسّان) وهو يخلع سترته الثقيلة.

- "المناخ هنا مداري يا دكتور.. ولولا الطبيعة الجبلية للمنطقة لصارت أكثر حرارة".. يقول (ساندرو).. يضيف: "إلا أنني أوافقك.. الحرارة أعلى من معدلاتها الطبيعية في فبراير".

- "الأنهار في كل مكان هنا".. يقولها (غسّان) وهو يشير إلى مجرى مائي انعكست عليه أشعة شمس الظهيرة؛ فالتمع بلون الفضة.

- "(خوني) تمتد بين نهرين.. من الضفة الغربية لنهر (سخنيستكالي) وحتى الضفة الشرقية لنهر (جوبيستكالي).. العديد من الأفرع الصغيرة للنهرين تقطع اليابسة في عدة اتجاهات.. المنطقة كلها تقع على المنحدر الجنوبي لقمم جبال (ايجريسي).. في الأراضي المنخفضة لوادي (كولخيتي) بنيت كنيسة (سان جورج) في القرن السادس، وتدريجياً تكوّنت المدينة حول الكنيسة التي أصبحت قلب المدينة".. يقول (ساندرو) وقد امتلأت أوداجه فخراً لمعرفته بكل تلك المعلومات!!

- "صه يا (ساندرو)، (غسّان) لا يهوى تلك المحاضرات التثقيفية".. تقولها (سيالا) بصوتٍ ناعس وهي ترفع رأسها من على كتف (غسّان).. تعيد ترتيب خصلات شعرها التي بعثرتها غفوتها القصيرة على كتفه..

- "أنا حقاً مهتم بمعرفة كل المعلومات عن تلك المدينة بالذات".. يقولها (غسّان) صادقاً وهو يهزّ رأسه.. يعود لينظر من النافذة المجاورة له.. يتأمل سيدتين عجوزتين تسيران ببطء على جانب الطريق الضيّق، تحملان بعض أكياس التسوّق.. لفّتا رأسيهما بذلك الوشاح الأبيض الصغير المعقود من أسفل ذقنيهما، كعادة عجائز القوقاز والبلقان.. يضيف وهو يشير إليهما خفية: "أين كل الناس؟ منذ أن دخلنا المدينة لم أرَ إلا هاتين العجوزتين".

- "المدينة والقرى التابعة لها في الجبال؛ يسكنها ما لا يزيد عن عشرين ألفاً".. يقول (ساندرو) يضيف: "كذلك لا تنسَ أن اليوم هو الأحد.. أهل البلدة إمّا نائمين أو مشاركين في القدّاس".. تهتز أجسادهم إذ تتجاوز السيارة الطريق المرصوف، سالكةً طريقاً ترابياً واسعاً وإن كان غير ممهّد.

- "إلى أين نتجه؟".. يتساءل (غسّان) وهو يتأمل الأشجار على جانبي الطريق.

- "إلى منزلي.. أحتاج أن أضع أغراضي قبل الذهاب لتلك الراهبة بدير (ماتخوجي)".. تقولها (سيالا).. تكمل بنبرة معتذرة: "العادات في تلك المدينة الصغيرة تشبه كثيراً عادات الريف المصري.. لن تستطيع الإقامة في منزلي.. سيصطحبك (ساندرو) إلى الفندق".. يهزّ (غسّان) رأسه متفهماً.

- "لم يسكن المنزل منذ أن توفّى والديكِ يا (سيالا).. أليس كذلك؟".. يقول (ساندرو).. لا ينتظر إجابة.. يردف: "كان السيد والسيدة (جاتشافا) رمزاً للتّقوى والنبل والكرم.. لم يتركا محتاجاً إلا أجابوا حاجته، ولا مستجيراً إلا أجاروه.. فليرحم الرب روحيهما".. تشيح (سيالا) بعينين حزينتين إلى النافذة المجاورة لها، بينما يربت (غسّان) على يدها برفق.. يسود الصمت للحظات؛ حتى يقطعه رنين هاتف (ساندرو) المحمول.. يرد بالجورجية وقد ارتسمت على وجهه علامات القلق.. تتابع (سيالا) المحادثة باهتمام.. ينهي (ساندرو) المحادثة.

- "هل أمك بخير؟".. تتساءل (سيالا) برفق.

- "لا".. يهزُّ (ساندرو) رأسه نفياً: "هي غير واعية.. تقول زوجتي إنها تخرّف".. علامات القلق تكسو وجهه وهو يضيف: "منذ أن أصابتها الجلطة الدماغية وهي راقدة في فراش المرض.. ولكنها كانت تعي ما حولها وتتجاذب معنا أطراف الحديث".. تهزّ (سيالا) رأسها متفهمة وهي تنظر إلى (غسّان) كأنها تطلب رأيه.. فهم الآن لمَ حاصره (ساندرو) بأسئلته عن الجلطة الدماغية.

- "لست طبيباً باطنياً".. يقولها (غسّان) مرتبكاً.

- "ولكنك ستكون أفضل من أطباء مستشفانا.. هم أغبياء كبط في بحيرة.. جهلاء كحمير الجر".. يقولها (ساندرو) وقد امتزج قلقه بالحنق.. يكمل بما يشبه الرجاء: "أعلم أنك متعب من طول الطريق يا دكتور.. فلتفحصها لدقائق.. لن أطيل عليك".. يهزُّ (غسّان) رأسه موافقاً.. فتتهلل أسارير (ساندرو) وهو يتوقف بالسيارة عند نهاية الطريق التُرابي أمام منزل (سيالا) ذو الطابق الواحد.. بدا كعجوز غافٍ منذ زمن على أطراف تلك الغابة كثيفة الخضرة، التي بدت جلية من خلفه.. تخرج (سيالا) حقائبها من السيارة وقد ترجّل (غسّان) لمساعدتها.

- "اذهب أنت لفحص العجوز.. سأضع أغراضي ثم أتوجّه إلى الدير لتحديد موعد لمقابلة (كيتيفان).. سأقابلك لاحقاً في الفندق".. تقولها (سيالا) مبتسمة وهي تودّع (غسّان).

- "أي فندق؟".. يقولها وهو يعود ليستقل السيارة.

- "هو فندق واحد بـ (خوني)".. تقولها (سيالا) بصوت مرتفع؛ فتصل العبارة بصعوبة إلى مسامع (غسّان)، بعد أن عاد (ساندرو) للانطلاق بسيارته مسرعاً مجتازاً عدة طرق غير ممهّدة، حتى وصل إلى بيته ذي الطابق الواحد.. يدلف مسرعاً إلى المنزل مصطحباً (غسّان)، وقد اِنهال عليه بعبارات الترحيب.. من إحدى الحجرات تظهر زوجته النحيفة، وقد تشبّث طفلان صغيران بثيابها.

- "هذا صديقي.. طبيب بريطاني.. أحضرته خصيصاً لفحص أمي".. يقولها بالإنجليزية بفخر، وهو ينظر إلى زوجته التي تطلّعت إليه في بلاهة.

- "لست بريطانياً.. في الحقيقة أنا..."، تقاطعه نظرات (ساندرو) أن اِخرس.

- "هي بلهاء.. لا تفهم الإنجليزية".. قالها (ساندرو).. ينظر له (غسّان) في دهشة.. يتوجّه (ساندرو) بالحديث لزوجته، مترجماً ما قاله مسبقاً بالإنجليزية إلى الجورجية، ثم يصطحب (غسّان) إلى إحدى غرف منزله بسيط الأثاث.. الغرفة سيئة التهوية، خافتة الإضاءة.. بها فراش ضيّق، عليه رقدت أم (ساندرو) العجوز، يلاحظ (ساندرو) تقلص أنف (غسّان) إذ يعبق هواء الغرفة الآسن خياشيمه، فيهتف الأول في زوجته غاضباً وقد ارتسم الحرج على ملامحه.. تسرع المسكينة فتفتح نافذة الغرفة، فتنسل أشعة شمس الظهيرة الدافئة إليها.

- "تلك الرائحة.. أنا أعرفها جيداً".. يغمغم (غسّان) وهو يتّجه نحو الفراش الذي رقدت عليه العجوز الفاقدة للوعي.. يمسك كتفيها بخبرة وهو يقلّبها برفق: "هي محمومة بشدة!".. يقولها ولا ينتظر إجابة.. يعاونه (ساندرو) في إزاحة الثياب عن ظهر العجوز.. يشير (غسّان) إلى جرحين متقيّحين أسفل ظهر العجوز.. يضيف: "تلك قرحتا فراش، سبَّبهما الرقاد المزمن.. هما سبب الحمى التي تبعها انخفاض في درجة الوعي".. يعيد العجوز إلى وضعها الأول.. يخط عدة أشياء على ورقة جلبها له (ساندرو).. يقول وهو يعطي الورقة لـ (ساندرو): "ستحضر لي هذه المستلزمات من أقرب صيدلية".. يلاحظ نظرات التردد في عيني الأخير.. فيُخرج من حافظته رزمة من (اللاريات) ويدسّها في يد (ساندرو).. الذي هزّ رأسه رافضاً في ارتباك.. يقول (غسّان): "لم أنقدك أجرك بعد".

- "هذا أجري لعام كامل".. يتمتم (ساندرو) في خفوت.

- "ستشتري للعجوز مرتبة هوائية بدلاً من حشية الفراش العادية، لمنع المزيد من قرح الفراش.. تلك المرتبة ليست رخيصة".. يقولها (غسّان) مبتسماً.. ينظر له (ساندرو) ممتناً؛ فيهتف به (غسّان) أن يُسرع إلى الصيدلية.

يغادر (ساندرو) بينما يشمّر (غسّان) ذراعيه؛ واضعاً كمادات من الماء البارد على جسد السيدة العجوز، ثم يبدأ في تنظيف وتطهير قرح الفراش، بعد أن عاد (ساندرو) بما طلبه من أغراض.. يستغرق في عمله لساعتين كاملتين، حتى انتهى فوضع يديه أسفل ظهره الذي أنهكه طول الانحناء.. يقدّم له (ساندرو) صينية عليها بعض المخبوزات.

- "تفضل.. أنت لم تأكل شيئاً منذ الصباح".. يقولها له (ساندرو) وهو ينظر له بامتنان.

- "شكراً.. ما هذا؟".. يقولها (غسّان) وهو يمد يده ليلتقط إحدى المخبوزات.

- "خشبوري".. يقولها (ساندرو) مبتسماً!

- "أوه.. يبدو اسمه مشجّعاً".. يقولها (غسّان) بابتسامة دبلوماسية.. يلوك المخبوزة التي كانت شهية لحسن الحظ.. بينما يراقبه (ساندرو) مبتسماً.. نظرة الامتنان لا تفارق عينيه.. ينظر له (غسان) متسائلاً.

- "أنت أنبل من رأيت أيها السيد".. يقولها (ساندرو) وقد لاحظ نظرات (غسّان) المتسائلة.

- "قد أدّيت عملي فحسب".. يتمتم (غسّان) في خفوت.

- "ربما كنت مدّعياً.. متوسط التعليم والذكاء.. إلا أنني أميّز النبيل حين أراه.. لم أرَ من يفوقك نبلاً منذ توفّى السيد (ديفيد جاتشافا).. لقد ملكتني بكرمك.. لا أعرف كيف أردّ لك جميل صنعك.. فلتعتبرني أخاً لك".. يقولها (ساندرو) بحماس.

- "كيف توفّي؟.. متى توفّي؟".. يتساءل (غسّان) محاولاً إدارة دفة الحديث.

- "حزن على زوجته.. أقعده الهم والوحدة.. مات بعد وفاة زوجته بعدة شهور.. كانت أنيسه الوحيد منذ أن غادرت (سيالا) إلى (تبليسي) للدراسة".. يقولها (ساندرو) وهو يهزّ كتفيه.

- "ألم يكن له أخوة أو أقارب؟".. يعيد (غسّان) التساؤل.

- "لم يكن السيد (ديفيد جاتشافا) من أهل البلدة.. جاء إليها من (باتومي) هو وزوجته للعمل في مصنع الشاي القريب.. كانت (سيالا) ماتزال طفلة رضيعة.. كانت السيدة (جاتشافا) محظوظة لتنجب طفلة في عقدها الخامس، لم يغادر السيد (ديفيد جاتشافا) البلدة بعد تقاعده.. صارت موطنه".. يصمت (ساندرو) للحظة متردداً.. يكمل: "أنت محظوظ بحب (سيالا) يا دكتور.. هي أجمل فتيات البلدة.. ولقد تعجّبت عندما رأيت نظراتها العاشقة إليك.. لم أدرِ، لم اختارتك أنت بالذات؟!.. بعدما رأيت نبلك وكرمك زال عجبي.. أنت تستحقها وهي تستحقك".. لا يعلّق (غسّان).. يحوّل وجهه نحو فراش العجوز.. يسمعها تهمهم بكلمات خافتة.

- "لقد استعادت أمك وعيها".. يقولها (غسّان) وهو ينهض إلى الفراش.. يمسك معصم العجوز متفحصاً علاماتها الحيوية.. يحدّث (ساندرو) أمه بالجورجية وهو يطبع قُبلة على جبينها الضامر.

- "أقول لها أنك صديقي وأنك طبيب ماهر".. يقول (ساندرو) بالإنجليزية.. يهزّ (غسّان) رأسه صامتاً.

- "حسناً.. سأرحل الآن".. يقولها (غسّان) وهو يرفع يده عن معصم السيدة العجوز.. تقبض بقوة على يده وهي تغمغم بشيء ما بالجورجية.. يميّز (غسّان) لفظة (إيفاني سولوكيدز) في كلماتها الخافتة.

- "ماذا تقول؟؟".. يتساءل (غسّان) باهتمام.

- "لا شيء.. مازالت تهذي على ما أظن".. يصمت لحظة ثم يقول ضاحكاً: "هي تقول لم أكن أعرف أنك قد صرت طبيباً يا (إيفاني سولوكيدز)".. تتسع عينا (غسّان) في دهشة.. فينظر له (ساندرو) في تساؤل.. يقول:

- "هل تعرف (إيفاني سولوكيدز)؟ أنا لم أره إلا مرة واحدة في صباي.. هو يشبهك حقاً يا دكتور.. كأنه توأمك"

الفصل الثاني عشر

(شعرها طويل كـ (ليليث)، تجلس عندما تبول كوحش)

شروحات في لعن المرأة – البارايتا – تعليقاً على مبحث (عيروفين) – (ص 100 ب)

يترجّل (غسّان) من المرسيدس العتيقة متجهاً صوب مدخل الفندق يتبعه (ساندرو) الذي أقسم على حمل حقيبة (غسّان) الوحيدة.. (سيالا) تقف أمام بوابة الفندق متململة.. ترى (غسّان) فيشرق وجهها.. يبادرها (غسّان) قائلاً بالمصرية:

- "وحشتيني!".. منذ أسبوع وهي لا تغيب عن عينيه إلا في ساعات النوم.. صارت كوعيّه، لا يفارقه إلا عند خوضه في لجّة الأحلام.

- "أنتا كمان!".. تقولها (سيالا) وهي تنظر إليه بعينيها السوداوين الواسعتين نظرة خاطفة.. ترخي أهدابها لتحمي عينيها من نظراته الملهوفة.. تردف بالإنجليزية: "لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟".

- "كنت آكل (خشبوري)!".. يقولها (غسّان) ضاحكاً وهو يشير إلى (ساندرو) الذي لحق بهما.

- "استريحا أنتما.. سأنهي إجراءات حجز غرفة الدكتور".. يقولها (ساندرو) في حماس وهو يتجاوزهم مسرعاً عابراً مدخل الفندق.. هو أقرب لـ "نُزُلٍ" صغير منه إلى فندق حقيقي.. بيت ريفي من طابقين ذو سقف هرمي كأغلب بيوت (خوني – سولوكيدز)، تحيط به حديقة خضراء واسعة؛ تناثرت بها عدة طاولات خشبية تحيطها مقاعد فارغة من الخيزران بدأت في الاهتزاز تحت وطأة الرياح الباردة التي أرسلتها سماء تلبّدت فجأة بالغيوم، فحجبت الشمس الحمراء التي مالت في اتجاه المغيب.. يعبر (غسّان) و(سيالا) مدخل الفندق ليجلسا في إحدى أركان استقبال "النزل".

- "(كيتيفان) هناك.. في المقبرة القديمة".. تشير (سيالا) بيدها إشارة مبهمة.. ينظر لها (غسّان) متوجساً.. تضيف ضاحكةً: "رويدك، ليس بالأمر سوء.. هناك امرأة ما قد ماتت.. هي تشارك في طقوس دفن المرأة ليس إلا".

- "حسناً!".. يزفر (غسّان).. يضيف: "لنذهب إلى هناك".

- "إلى المقابر؟ الآن!".. تتساءل (سيالا).. لا تبدو متحمسة.. تكمل: "بإمكاننا زيارتها في الغد.. أخبرتهن في الدير بأن يعلموها أننا سنزورها في الصباح باكراً".

- "سنذهب الآن يا (سيالا)".. يقولها (غسّان) في تصميم وعيناه تراقبان (ساندرو) الذي وقف إلى مكتب الاستقبال أمام سيدةٍ عجوز بيضاء الشعر، منهياً إجراءات حجز الغرفة.. يعود لينظر إلى (سيالا) التي مطَّت شفتيها ضيقاً.. يضيف: "أعلم أنكِ مرهقة.. فلتذهبي إلى بيتك.. سأسأل (ساندرو) أن يصطحبني".. تمطُّ (سيالا) شفتيها مجدداً وقد ازداد الضّيق على ملامحها.. ينظر إليها (غسّان) كمن تذكر شيئاً.. يخرج من حافظته حفنة من الـ (لاريات).. يقول: "هاك.. لم أنقدكِ أجركِ منذ بضعة أيام".

- "لا أريد أموالك أيها الأحمق!! ليس بعد الآن!".. تقولها (سيالا) بعصبية.

- "ماذا تريدين إذاً؟".. يتساءل (غسّان) بعينين مبتسمتين وهو يعيد نقوده إلى الحافظة.

- "أنت تعرف!".. تتمتم بصوت خافت.. تبتسم عيناها هي الأخرى وقد نست غضبها السابق كطفلة صغيرة.. يلاحظ (غسّان) تغيُّر مزاجها فيقول:

- "(كيتيفان) سلكت طريقاً دموياً أوصلها إلى هنا.. لم تصل إلى هنا بلا سبب، لم تصل إلى هنا بلا هدف.. أنا أيضاً سلكت طريقاً ملطّخاً بالدماء.. دماء (مروة).. دماء (تُقى) و(أنطوان) ووصلت إلى نهاية الطريق.. فلن أتلكأ الآن.. لربما كانت الدقائق التي تمر هي ما تفصل رقبة (ياسين) عن سكّين سيذبحه".. يرتجف صوته وقد ملأت عينيه صورة الأطفال الشاحبين ذوي الأعناق الدامية والصارخين بلا صوت.. أسماهم الخطاب (أطفال الفداء).. يكمل (غسّان): "جهلي بمصير (ياسين) عذاب مقيم.. يفسد روحي.. لن يهدأ بالي حتى أعرف مكانه وإن كان مكانه قبر في برّيّة".. يصمت لحظة ريثما يبلع دموعاً حشرجت في حلقومه.. يردف بصوت مختنق".. على الأقل سأبكيه".

- "ستجده.. حياً!".. تربت (سيالا) على يده الباردة.. تبتسم بخجل ثم تقول بحرج: "أنا فقط أخشى المقابر".

- "سأذهب أنا و(ساندرو) إذاً".. يرتفع حاجبا (غسّان) بحنانٍ باسمْ.. فتقاطع (سيالا) عبارته بهزة رأس رافضةً.

- "سأذهب معك.. سأذهب معك حتى نهاية العالم".. تقولها (سيالا) بصدق.. تتشابك أعينهم في عناق طويل.. يقطعه صوت (محمد عبد الوهاب)

يا حبيبي

أكلما ضمّنا للهوى مكان

أشعلوا النار حولنا فغدونا لها دخان

تبتسم (سيالا) فيبادلها (غسّان) الابتسام وهو يرفع عينيه، فيقابلهما وجه (ساندرو) المتهلل بابتسامة طفولية.. الأغنية تنساب من مكبّر صوت هاتفه المحمول.. بجوار (ساندرو) وقفت السيدة العجوز بيضاء الشعر.

- "بتُّ أحب هذه الأغنية".. يقولها (ساندرو) وهو يجاهد لإغلاق سترته المبطّنة بالفرو فوق جذعه العضلي الضخم.. بدا بشعره الثائر كدبٍّ أشهبٍ يرتدي ثياباً.. يضيف وهو يناول (غسّان) مفتاحاً عتيقاً: "هذا مفتاح غرفتك يا دكتور".. ينظر إلى المرأة الشائبة الشعر وهو يردف: "أصرَّت السيدة (ناتيلا) على تحيّتك بعدما عرفت ما بذلته لأمي.. هي صديقتها".. تمد السيدة (ناتيلا) يداً معرَّقة مصافحة (غسّان).. ترحب به في فندقها المتواضع.. ترتسم على شفتيها ابتسامة واسعة وهي تردف بالجورجية التي يترجمها له (ساندرو):

- "ستكون (سيالا) زوجة رائعة.. هي أجمل فتيات بلدتنا وألطفهم".. تنظر إلى (سيالا) التي عقدت حاجبيها في دهشة غاضبة.. تكمل العجوز: "كان أبواها أكثر أهل البلدة نبلاً وشهامةً.. وكذلك كانت عائلتا أبويها.. أنا أعرفهم منذ أن كنت عاملةً في مصنع الصلب في (باتومي).. هم كرام من كرام".

- "ليس الأمر كما تظنين يا سيدة (ناتيلا)".. تقولها (سيالا) بالجورجية في ضيق.. تضيف بالإنجليزية وهي تنظر إلى (غسّان): "لا يستطيع (ساندرو) إبقاء فمه الكبير مغلقاً لدقيقة واحدة.. لو استمر في ثرثرته لصلَّينا صلاة الإكليل في الكنيسة مساءً!!".. تمطُّ شفتيها بعد أن لاحظت أن (غسّان) لا يتابع ما تقول.. عيناه معلّقتان بالدرج الداخلي للفندق في توتّر.. تنظر إلى حيث نظر.. ترى شخصاً ما قوي البنية، أبيض البشرة، أصلع الرأس، ينزل الدرج بهدوء وهو لا يكف عن النظر إليهم.

يبدو أجنبياً.. أوروبياً على الأرجح، من خلفه ثلاثة آخرون يهبطون الدرج في تؤدة.. أحدهم يبدو أوروبياً بينما بدا الآخران كقوقازيين، ربما أتراكاً أو عرباً.. خمَّنت (سيالا) أن أكبرهم سناً هو الأوروبي الضخم أصلع الرأس، الذي ربما تجاوز الخمسين، بينما كان الأوروبي الآخر أصغرهم بما لا يزيد عن أوائل الثلاثينات.. تعود لتنظر إلى (غسّان) الذي ثبتَّ عينيه في عيني ذلك الأوروبي الضخم.. تقول له بقلق: "هو نفس الشخص الذي رأيناه في حديقة (بوتونيكال)؟".

- "كان موجوداً أمام فندقنا في (تبليسي)، وفي ذلك الشارع حيث كان يسكن آل (جاكيلي)، وفي الحديقة، والآن هنا!! هو يراقبنا!! ولربما كان رفاقه الآخرون بصحبته.. بالسيارة كان معه ثلاثة أشخاص لم أستطع تمييز ملامحهم".. يقولها (غسّان) بحدّة وقد استحال توتّره غضباً.. ينعقد حاجبا (ساندرو) الذي تابع الحوار وقد عادت الشراسة لتكسو وجه الثور.

- "هل من مشكلة يا دكتور؟".. يقولها (ساندرو) وهو يكوّر قبضته.. يهمّ (غسّان) للنهوض من مقعده متجهاً صوب الأربعة.. تقبض (سيالا) على ساعده.

- "أنت لن تضربهم لكونهم موجودون أمام عينيك فحسب!! كفى حماقة!! لربما كانت صدفةً".. تقولها (سيالا) بتوتّر.. ينظر لها (غسّان) بحدّة.

- "لن أتشاجر.. فقط سأعرف من هم!".. يقولها (غسّان) في غيظ.

- "ستخبرنا السيدة (ناتيلا)".. تجيبه (سيالا) بسرعة، ثم توجِّه حديثاً جورجياً للعجوز التي ظلّت واقفة تقلّب فيهم عينين قلقتين وقد اختفت ابتسامتها.. تجيبها السيدة ببعض التحفظ.. تعود (سيالا) لتوجّه حديثها لـ (غسّان): "لولا أنني صديقة قديمة لما أخبرتني.. هي لا تثرثر كثيراً بشأن نزلاء فندقها.. تقول إنهم مجموعة مستثمرين يدرسون إقامة مصنع للشاي في (خوني).. هذا الضخم بريطاني، أما الأوروبي الآخر فهو ألماني، ثالثهما أمريكي من أصل تركي، والرابع إيراني".

- "هذا أغرب تجمّع رأيته.. أمِن برج بابل أتوا؟".. يقولها (غسّان) في شك.

- "هي صدفة لا أكثر.. لا داعي للمشاكل".. تقولها (سيالا) بذات التوتّر.

- "ليكن يا (سيالا).. سأتصنّع الاقتناع بكل ذلك الهراء.. ولكني سأراقبهم كما يراقبوني".. يقولها (غسّان) وهو ينهض بهدوء.. يضيف: "لقد تأخرنا عن تلك الجنازة بما فيه الكفاية".. يحيّ السيدة (ناتيلا) بهزة رأس.. يتجه نحو مدخل الفندق مغادراً وبجواره (سيالا)، بينما كان يتقدمهم (ساندرو).. يدير (غسّان) رأسه إلى الخلف في

التفاتة مفاجئة.. يرى الأوروبي الضخم يرمقهم بإصرار وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عابثة.

- "غسّان؟!".. تقولها (سيالا) لـ (غسّان) مندهشةً.. وقف متسمِّراً أمام مدخل المقبرة.. يرتجف جانب وجهه لا إرادياً؛ فيضع راحة يده على وجنته علّه يوقف ارتجافه، بينما عيناه معلّقتان بتلك القبة التي تعلو المدخل الحجري للمقبرة.. لا يبدو أنه قد سمع نداء (سيالا).. تعود مرة أخرى لمخاطبته: "ماذا بك؟".

- "أراهما في أحلامي كل ليلة".. يقولها (غسّان) وهو يشير بسبّابة مرتجفة إلى القبة الحجرية أعلى المدخل.. نحت عليها ملاكين متقابلين ذوي أجنحة يبكيان بدموع حجرية.. يسأل بصوت مرتجف: "متى بنيت تلك المقبرة؟".. تهزّ (سيالا) – المرتبكة – كتفيها بأنها لا تعرف.

- "منذ دهر يا دكتور.. منذ قرون عديدة مضت.. هي أقدم مقابر البلدة".. يجيب (ساندرو) الذي انضم لهما للتّو، بعد أن انتهى من ركن سيارته بجوار حائطٍ قريب.. لا يعلِّق (غسّان).. يتقدم إلى داخل المقبرة في توجّس يتبعه (سيالا) و(ساندرو).. ارتمت ظلالهم الطويلة على الشواهد الحجرية الأرضية التي تلوّنت بلون الغروب الأحمر؛ فبدت الظلال المتراقصة كشياطين تتلوى في سقر.. تلحق (سيالا) بـ (غسّان).. تمسك يده براحتها الباردة.

- "هناك".. تهمس (سيالا).. تشير بسبّابتها إلى جمع بعيد من البشر.. يبدون متحلّقين حول قبر في بقعة قصيّة من المقبرة الواسعة.. يجدُّ ثلاثتهم السير في الممرات العشبية الخضراء التي تفصل بين الشواهد الحجرية للقبور الأرضية.. يصلون إلى الجمع البشري.. رجال ونساء من أهل البلدة.. هناك طفلان أو ثلاثة يركضون ضاحكين، وقسٌّ بدين يرتدي الأسود، واقف على رأس القبر الذي أُغلق لتوّه يلقي عظة ما بالجورجية.. بينما تتهامس بعض العجائز المرتديات للوشاح القصير المعقود أسفل الذقن.

بدا المكان مفعماً بالحياة أكثر منه كمرقدٍ للهالكين.. وكأن الموت فيه هو ضيف عابر سيحمل عصاه العظمية مغادراً عمّا قريب.. تنظر (سيالا) إلى (غسّان) وهي تهزّ كتفيها وكأنها أحسّت بسخف خوفها السابق.. يقلُّب (غسّان) عينيه في وجوه الحشد باحثاً عمّن تصلح أن تكون راهبة شابة.. على وجوه الحشد ارتسمت ابتسامات عريضة وقد لاحظوا وجودهم.. وجود (سيالا) على وجه الدقة.. تهزّ رأسها محيّية القس.. فيهزّ رأسه مبتسماً.. من خلف ردائه الأسود؛ يتكشف رداءٌ أشد سواداً ترتديه تلك الشابة التي نظرت لهم بعينيها الضيقتين الزرقاوين في فضول.. يتقدّم (غسّان) خطوتين ليراها أفضل، بعد أن عاد جسد القس البدين ليحجبها عنهم من جديد.

- "هذه هي بلا شك!".. تقولها (سيالا) هامسةً.. فيميّز (غسّان) ما قالته بصعوبة بعد أن طغى صوت القس الجهوري المردد لعظته على المكان.. يوافقها (غسّان) بإيماءة رأس صامتة.. يتقدّم خطوتين للأمام ليرى الراهبة بشكل أفضل.. عيناه لا تفارقان وجهها، بينما اكتفت هي بنظرة فضولية مرتبكة بين الفينة والأخرى.. ينظر إلى ساعته.. مرّت ثلاثون دقيقة ولا زال القس الثرثار مستمراً في إلقاء عظته على مسامع الحشد، الذي صمّ الملل والبرد آذانه فانسحب أفراده واحداً يتبعه آخر.. أخيراً ينهي القس عظته.. فيرسم بيده إشارة البركة ويتراجع مغادراً بعد أن حيّا من تبقّى من جمع المشيعين بهزّة رأس أخرى.. تختلس الراهبة النظرات إلى حيث وقف (غسّان) و(سيالا) وخلفهم (ساندرو)، وهي تجد الخطى مع الحشد المتفرّق فيتبعها ثلاثتهم.

- "كيتيفان جاكيلي!!".. يهتف (غسّان) باسم الراهبة وهو يهرول خلفها.. تتوقف الأخيرة فجأة حتى كاد أن يختل توازنها.. تستدير فتتطلّع في وجه (غسّان) بنظرة طويلة غلب توجّسها فضولها.

- "لم أعد أُدعى بهذا الاسم منذ زمن.. أنا الآن (كيتيفان ميتسختيلي)".. تقولها (كيتيفان) بالجورجية.. فتترجمها له (سيالا) – التي لحقت بهما – إلى الإنجليزية.

- "الشق (إيلي) من الاسم الأخير هو نسبة للبلد.. (ميتسختيلي) تعني أنها من (متسخيتا)".. تضيف (سيالا) موضحةً.. تدير (كيتيفان) عينيها الزرقاوين المتوجّستين إلى (سيالا).. التي تعود لتحدِّثها بالجورجية وهي تشير إلى (غسّان): "هو طبيب مصري يُدعى (غسّان).. هذا الضخم هو (ساندرو) من أبناء البلدة مثلي.. أنا (سيالا جاتشافا)".

- "أعرف الضخم.. يُحضر المشتريات إلى الدير".. تقول (كيتيفان) وهي تقلّب عينيها القلقتين في ثلاثتهم.. تضيف متسائلة: "كيف أستطيع خدمتكم يا سادة؟".

- "جئت إلى (سولوكيدز) سالكاً طريقاً طويلاً.. بدأ بـ (سبتاجرام) دموية على جدار منزلي وانتهى براهب مقطوع اللسان".. يقولها (غسّان) بينما عيناه لا تطرفان.

- "(وينو كاليستراتوس)!!".. تقولها (كيتيفان) بصوت خافت فلا تصل الجملة إلى مسامعهم.. مزّقتها الرياح الباردة التي زادت حدّتها.. يقرأ (غسّان) الجملة على شفتيها.

- "(وينو كاليستراتوس).. أتذكرينه؟ غادر منزل أبويك والدم يتفجّر من بين شدقيه".. يقولها (غسّان) بصوت عالٍ ليتغلب على هزيم رعد دوّى في المكان.. تنظر (كيتيفان) بعينيها الضّيقتين إلى السماء القرمزية الشاحبة التي امتلأت بسحب أرجوانية.. تضع يداً نحيلةً معرَّقة فوق رأسها لتثبّت خمارها الأسود الطويل.. الريح الباردة تلوك أطرافه؛ فتجذبها بيدها الثانية لتعيد الخمار إلى وضعه الأول ليغطيها من قمة رأسها حتى أعلى بطنها.

- "الطقس عاصف يا سادة.. أرجو المعذرة.. سأغادر".. تقولها (كيتيفان) وهي تستدير لتكمل طريقها بخطوات سريعة، وقد رفعت ذيل ثوبها الأسود الواسع كاشفةً عن ساقين مستدقتين في حذاء أسود ضخم.. تتجنب الوحل الذي صنعته بشائر الأمطار التي انهمرت لتوّها؛ فتقفز من هنا إلى هناك كغراب ضخم.. يتبعها (غسّان) مهرولاً حتى يسبقها فيقطع عليها الطريق.

- "اسمعي أيتها المرأة.. سئمت التوسّل لكل من أقابلهم ليتحدثوا إليَّ بما يعرفون.. لم تلتحقي بدير تلك البلدة الحمقاء إلا لسبب".. يضرب السماء سوط من البرق فينعكس على عيني (غسّان) وقد ملأتهما نظرة غاضبة.. تنظر له (كيتيفان) بعينين جاهلتين لم تفهما ما قاله بالإنجليزية.. يدير (غسّان) رأسه باحثاً عن (سيالا) التي أتت من ورائه مهرولةً، وقد التصق شعرها بجبينها وعينيها بفعل المطر.. تقبض الأخيرة على ذراعه.

- "رويدك يا (غسّان).. أنت تثير ذعرها".. تهتف بها (سيالا).. تنظر إلى الراهبة المرتاعة وتغمغم بعبارات معتذرة.. تعود لتنظر لـ (غسّان).. عيناه معلّقة ببقعة قصيّة من المقبرة.. يخلِّص ذراعه من يد (سيالا) المرتجفة ويسير بخطى بطيئة نحو تلك البقعة القصيّة.. تتابع (سيالا) و(ساندرو) بنظرات مندهشة خطواته البطيئة التي

تسارعت تدريجياً حتى صارت هرولةً.. ثم يتبعانه بخطوات متوجّسة تاركان (كيتيفان) – التي راقبتهم بعينيها القلقتين – خلفهما.

يصل (غسّان) إلى البقعة التي بسط عليها الليل الوليد نفوذه.. يعود لسان من البرق ليضرب السماء فينير البقعة المظلمة للحظة.. يراها (غسّان).. امرأة عارية شوّهت الحروق جسدها تسري أمام عينيه اللتان اتّسعتا ذعراً.. يجفل (غسّان) متراجعاً وقد عادت البقعة إلى أحضان الظلام.. صرخة فزع قصيرة أفلتت من بين شفتيه.

- "ماذا هناك؟".. تهتف (سيالا) التي لحقت به بصوت مرتجف.. تسرع فتتشبث بكتفيه من الخلف.. لا يجيبها (غسّان).. يضيء كشّاف هاتفه المحمول وهو يصوّبه إلى البقعة المظلمة.. كذلك فعل (ساندرو) الذي لم ينبس ببنت شفة مذ دخلوا المقبرة، وإن أفصحت عيناه المتسعتان عن الكثير.. يتوارى الظلام في كسل أمام ضوء الكشّافات الخجول، كاشفاً عن بضع من أشجار الأرْز العتيقة.. بدت جذورها ظاهرة فوق الأرض وهي تمتد نحو بقعة ضيّقة وكأنها تستمد منها وجودها ذاته.. لا أثر للشبح المحترق.. يربت (غسّان) على يد (سيالا) القابضة على كتفه في رفق فتحرره الأخيرة.. يخطو إلى البقعة الضيّقة التي غطّتها أوراق نباتات متعفنة ممزوجة بطبقات من الوحل، جددت الأمطار المنهمرة شبابه.. تتابعه (سيالا) بعينين متوجّستين، إذ يجلس على ركبتيه غير عابئٍ بالوحل.. ينشب أظافره في النباتات الموحلة نابشاً التربة ككلب صيد.

- "(غسّان) ماذا تفعل؟.. أنت تخيفني!".. تقولها (سيالا) متوجّسةً.

- "القبر.. القبر هنا.. عند الجذور المكشوفة لأشجار الأرز.. هي تشرب من دماء الموتى".. يقولها (غسّان) وهو يلهث.. تنظر (سيالا) إلى (ساندرو) الذي وقف يتابع ما يفعله (غسّان) بنظرات بلهاء.

- "اللعنة يا (ساندرو).. هلّا تساعده؟!".. تهتف بها (سيالا) فينتفض جسد (ساندرو) كمن أفاق من كابوس.. يبحث بعينيه عن أداة تصلح للحفر حتى يعثر على رفش صدئ تركه لحّاد ما منذ سنين.. يهرع لمساعدة (غسّان).. بعد عشرين دقيقة من الحفر يصطدم الرفش بحجر صلب.. يزيح كلاهما باقي الأوحال عن اللوح الحجري المطمور.. هو شاهد حجري مهترئ لقبر أرضي بدا عليه القدم.. يسلِّط (غسّان) ضوء الكشّاف على اللوح.. أنْشَبَت فيه أشجار الأرز جذورها في عدة مواضع، فبدت

كمخالب خرافية لوحش مجهول.. في أعلاه نقوش جورجية نقشت بخط بدائي قبيح.. بأظافره يزيح (غسّان) أوحالاً علقت بالنقش، وهو ينظر إلى (سيالا) كأنه يطلب منها الترجمة.. الريح الباردة تعصف بشعرها بجنون.. عيناها خائفتان مثبّتتان على اللحد الحجري كالمنوَّمة.. ألصقت ظهرها بجذع إحدى أشجار الأرز فبدت كمن يبحث عن الحماية.

- "(سيالا).. ما الخطب؟".. يقولها (غسّان) متوتّراً وهو ينهض وقد لوّث الوحل ثيابه.. لا ترد.

- "هنا ترقد آليس.. سلامٌ عليكِ يا ابنه آنا".. ينظر (غسّان) متسائلاً إلى (ساندرو) الذي قال العبارة السابقة متردداً.. يزيح الأخير خصلات شعر التصقت بعينه، ثم يفرك وحلاً جافاً غطّى السطر الأخير من النقوش على اللحد الحجري.. يضيف: "هذه ترجمة ما نقش على شاهد القبر.. مؤرخاً بنهاية ديسمبر من العام 670 م".

- "ما معنى هذا؟! هل اكتشفت مقبرة أثرية للتّو؟!".. يتساءل (غسّان) متحيّراً.

- "معناه أنك وجدتَ ما أبحث عنه منذ سنين!".. يأتيه الصوت الأنثوي من خلفه.. يستدير فيرى (كيتيفان) التي ظهرت فجأة ككابوس أسود.. متى لحقت بهم؟ تضيف وهي تقترب من (سيالا) محدِّقة في عينيها اللتين بدا عليهما خواء غريب: "لقد عثرت على قبر (ليليث)!!".. تقولها وهي تمد ذراعيها فتحتوي فيهما (سيالا) التي انهارت فاقدةً للوعي.

- **"هي بخير"..** يقولها (غسّان) بهدوء وهو يغلق باب غرفة نوم (سيالا).. ينظر في وجهي (ساندرو) والراهبة (كيتيفان) الجالسان بجوار المدفأة يصطليان.. أوقدها (ساندرو) بعد أن وضع بها بعض الحطب المبتل بالزيت.. يجلس (غسّان) على إحدى الأرائك المجاورة للمدفأة.. بلّله المطر البارد حتى ليشعر به قد غسل نخاع عظامه.. يمد ساقيه المكدودتين أمامه لتقتربا أكثر من المدفأة وهو يتطلّع إلى قدميه العاريتين.. خلعوا جميعهم أحذيتهم التي لوّثها الوحل على مدخل البيت النظيف.. يشعل سيجارة ويمتص دخانها بشوق.. يضيف: "كان يومنا طويلاً ومرهقاً.. ولربما لم تتناول طعاماً كافياً.. لم تتحمل المسكينة كل هذا الضغط الجسدي والعصبي".. بدا وكأنه يلوم نفسه.. يكمل مؤكداً: "ولكنها ستصير بخير في الصباح".

- "جيد جداً".. تقولها (كيتيفان) بعد أن ترجم (ساندرو) عبارة (غسّان) الإنجليزية.. تنهض من كرسيها الخشبي الذي وضعته بجوار المدفأة.. تضيف: "سأغادر الآن".

- "تلك العاصفة في أوجها.. يجدر بكِ الانتظار".. يقولها (غسّان) بصوت خافت.. يدوّي هزيم الرعد وكأنه يأمِّنُ على قول (غسّان).. تخطو (كيتيفان) إلى نافذة غرفة المعيشة فتزيح ستائرها فقط ليغشى لسان من البرق على عينيها.. فتعيد الستائر إلى موضعها الأول وقد أغلقت عينيها ألماً.

- "يبدو أنك على حق!".. تقولها (كيتيفان) وهي تتطلّع إلى عدة صور فوتوغرافية موضوعةً بعناية فوق المدفأة.. تظهر الصور السيد والسيدة (جاتشافا) المبتسمين وبينهما (سيالا) رضيعة ثم طفلة ثم مراهقة.. هناك صورة أخيرة تظهر (سيالا) الشابة والسيد (ديفيد جاتشافا) وحدهما.. اختفت منها السيدة (جاتشافا) كما اختفت ابتسامة السيد (ديفيد).. تردف (كيتيفان) بعد برهة: "كانت طفلة جميلة!!"..

يوافقها (غسّان) بهزّة رأس.. تزفر (كيتيفان) بعمق وهي تضيف بصوت خفيض: "هي محظوظة إن نشأت بين أبوين محبين".

- "شكراً لمساعدتنا".. يقولها (غسّان) بذات النبرة الخافتة.

- "هذا لا شيء".. تهزّ (كيتيفان) كتفيها اللذان غطّاهما الخمار الأسود الطويل المبتل.. تضيف باسمةً: "لم أكن لأجد سيارات تحملني للدير في تلك العاصفة على كل حال".

- "أنا لا أفهم.. لمَ أعدتِ طمر القبر؟".. ينظر لها (غسّان) في حيرة.

- "لو علمت الحكومة بذلك القبر فلن نستطيع الوصول إليه ثانية!!.. هذا أثر إن كنت قد لاحظت!!".. تقولها (كيتيفان) بلهجة شابها السخرية.

- "قلتِ أنكِ كنتِ تبحثين عن ذلك القبر.. أكنتِ تعلمين بوجوده؟".. يسأل (غسان).. فتشيح (كيتيفان) بعينيها.. إغماءة (سيالا) والعاصفة المنذرة بالويل منعاها من الاسترسال أكثر عندما كانوا في المقبرة.. ترنّح جسدها النحيل وهي تحتوي جسد (سيالا) الفاقدة للوعي بين ذراعيها فأسرع (غسّان) و(ساندرو) ليحملا (سيالا) عنها.. أسرعوا جميعاً بالخروج من المقبرة الخالية بينما تطاردهم العاصفة بألسنة البرق وزخات المطر.. في ذعر اقترحت (كيتيفان) أن ينقلوا (سيالا) فاقدة الوعي إلى المستشفى.. فأخبرها (ساندرو) في حماس أنه لا داعي فـ (غسّان) طبيب ماهر.. أمَّن (غسّان) على رأيه وهو يتابع العلامات الحيوية المستقرة لـ (سيالا)، التي فتحت عينيها ببطء مستعيدة لوعيها، على الأريكة الخلفية للمرسيديس العتيقة حيث أرقدوها.

طلب (غسّان) من (ساندرو) أن يقود إلى بيت (سيالا) فهي بحاجة للراحة.. صحبتهم (كيتيفان) بعد أن شعرت أنه ليس من اللائق أن تترك الشابة الفاقدة للوعي بمفردها مع الرجلين.. فقط طلبت من (ساندرو) أن يعود إلى المقبرة فيخفي القبر الذي اكتشفوه للتّو.. عاد الأخير للمقبرة متوجساً فأعاد إهالة التراب الموحل على الشاهد الحجري العتيق، وهو يحمد حظه على خلو المقبرة تماماً من الزائرين في ذلك الجو العاصف.. نثرَ النباتات المتعفنة كما اتفق فوق الوحل، أملاً أن تخفي العاصفة المطيرة آثار حفرهما السابق، ثم ركض خارجاً من المقبرة كأنما تطارده الشياطين.

- "أنت أيضاً علمت بوجوده!".. ترد (كيتيفان) وهي تتفحص وجهه كأنها تبحث فيه عن إجابة.

- "حلمت به مراراً".. يتمتم (غسّان) في خفوت.

- "أنا لا أحلم".. ترد (كيتيفان) شاردة، تعود فتقول بعد لحظة: "فقط قرأت عنه".

- "ماذا قرأتِ؟".. يتساءل (غسّان).. فتعود (كيتيفان) لتشيح بوجهها بعيداً.. تبدو مترددةً.. ضربت سياجاً من السرية على حياتها طوال السنوات السابقة.. إلا أن عثور (غسّان) على القبر المطمور بتلك الطريقة الغرائبية خلخل ذلك السياج.. يزفر (غسّان) دخان سيجارته بصوت عالٍ بقول: "أعلم أن طريقكِ إلى (سولوكيدز) لم يكن مفروشاً بالورد.. كذلك طريقي، لكننا لم نلتقي هنا إلا لسبب.. سأخبرك بقصتي كاملة شريطة أن تخبريني بما أريد".. تهزّ (كيتيفان) رأسها موافقة.. فيشعل هو سيجارة جديدةً ويأخذ شهيقاً عميقاً ثم يبدأ في حكيه فيترجم (ساندرو) – الذي اتّسعت عيناه استبشاعاً – كلماته إلى الجورجية.. بينما اكتفت (كيتيفان) بهزّة رأس بين الفينة والأخرى حتى انتهى (ساندرو) المرتاع من ترجمة آخر كلمات (غسّان).. فيخيّم عليهم صمت ثقيل.. تقطعه (كيتيفان) بعد عدة دقائق.

- "تبدو القصة مألوفة!".. تقولها (كيتيفان) بهدوء.

- "كقصة (تمار).. والدتك".. يقولها (غسّان) بذات الهدوء.. تنظر له (كيتيفان) بعينين لا تحملان تعبيراً.. يضيف (غسّان): "من المدفون في القبر الذي وجدناه؟".

- "(آليس) ابنة (آنا جابيدافا)".. تقول (كيتيفان) وقد شردت عيناها كأنها تسترجع ذكريات بعيدة.

- "هل أُحرقت؟".. يعود (غسّان) للتساؤل.. تنظر له (كيتيفان) في دهشة.

- "السيد (إيراكلي ميخي) كان حاكماً لـ (خوني) في الفترة من 667 م وحتى نهاية العام 670 م.. في تلك الفترة كانت المدينة جزءاً من مملكة (ايجريسي) التي حكم ملوكها تلك البقعة من غرب جورجيا من عاصمتهم (كوتايسي). بعد التحاقي بالدير بفترة وجيزة عثرت في مكتبته على المذكرات القديمة للحاكم (إيراكلي ميخي) يتحدث فيها عن رعب أصاب البلدة.. رعب لم يصبها حتى جاء (مروان الأطرش)".. تصمت (كيتيفان) لحظة لتلتقط أنفاسها ثم تضيف: "في البداية اختفى طفل.. ثم بدأ الرجال في قتل زوجاتهم ببشاعة".

- "اختفى طفل!".. يكرر (غسّان) عبارتها كأنه يضع تحتها خطاً كي لا تتوه في خِضمّ المعلومات التي تتفوه بها (كيتيفان).. تهزّ (كيتيفان) رأسها مؤكدة.

- "كان هناك فتاة جميلة في البلدة.. يقول الحاكم في مذكراته أنها أروع ما وقعت عليها عينيه.. وجدتها إحدى نساء القرية رضيعة فتعهدتها بالرعاية حتى شبابها.. لم يعرفوا لها أبوين فنسبوها للمرأة".. تضيف (كيتيفان).

- "آليس ابنة آنا".. يقول (غسّان) بصوت خافت.

- "تمكّنت إحدى راهبات دير (ماتخوجي) في ذلك الزمن من ربط تلك الجرائم الغريبة بـ (آليس) ابنة (آنا).. كانت قد تبدّلت بشدة منذ وفاة المرأة التي كفلتها.. وشت بها الراهبة.. فقبض عليها عسس البلدة وحوكمت أمام جمع غفير من أهل (خوني).. وعندما وجدوا الرمز على جسدها أحرقوها بتهمة السحر".

- "أي رمز؟".. يتساءل (غسّان) بدهشة.

- "سبتاجرام.. نجمة سباعية زرقاء موشومة على ثديها الأيسر.. حسبوها وصمة الشيطان".. تقول (كيتيفان) وهي تحرّك سبّابتها كأنها تعيد رسم النجمة.

- "وهل كانت (آليس) تلك ساحرة حقاً؟".. يعود (غسّان) للتساؤل متوجّساً.

- "لم يعتقد الحاكم (إيراكلي) هذا.. ظنّ أن وشاية الراهبة كانت حقداً وحسداً من الراهبة وغيرها من نساء البلدة.. أَتَذَكَّر نص الكلمات الموجودة في مذكراته (تلك البلدة التي امتلأت بالقبح أحرقت أجمل ما فيها)".. تصمت للحظة مفكرةً.. تضيف: "ربما كان لديه أسباباً وجيهةً لاعتقاده.. خصوصاً بعد أن اختفى الطفلان".

- "أي طفلين؟".. يتساءل (غسّان) للمرة الثالثة.

- "طفلان من أبناء البلدة اختفيا بعد مصرع (آليس) بعدة أيام، كذلك اختفت الراهبة".. تهز (كيتيفان) كتفيها.

- "إذاً الجرائم لم تتوقف بحرق (آليس)!!".. يعلّق (غسّان).

- "توقفت بعد اختفاء (أوماري شفيلي) وابنته".. تتطلّع (كيتيفان) إلى عيني (غسّان) المتسائلتين.. تضيف: "كان حبيب (آليس).. أنجب منها ابنة غير شرعية.. اختفى ومعه ابنته بعد مقتل (آليس) بفترة وجيزة وفقاً لمذكرات الحاكم (إيراكلي)".

- "لم تكن (آليس) ساحرة إذاً؟".. يعاود (غسّان) التساؤل.

- "لا!!".. تقولها (كيتيفان) بلهجة قاطعة.. تضيف: "كانت تجسّد الشيطانة (ليليث).. بصورة أدق كانت واحدة من أصحاب المجد بعد تتويجهم".

- "سمعتكِ تقولينها على رأس قبرها".. يقولها (غسّان) وهو يتطلّع في وجهها بنظرة حائرة.. يضيف: "وما أدراكِ بأنها صارت (ليليث)؟".

- "كانت جميلة كـ (ليليث)، تقتل الأطفال كـ (ليليث)، تغوي الرجال كـ (ليليث)، ترتدي القرمزي كـ (ليليث).. من تكون إذاً، إن لم تكن هي!!".. ترد (كيتيفان) بعصبية.. (رشّاش) سريع الطلقات يطلق الكلمات الجورجية في وجه (غسّان) فاكتنفه الصمت لبرهة.. هي تعلم الكثير.. ربما كان ما أخبرته به كقمّة جبل جليدٍ مما تعرفه.. هكذا قال لنفسه.. تُخمِّن (كيتيفان) ما يفكر به فتضيف بصوت حاولت أن تجعله هادئاً فخرج منها مرتجفاً: "عندما كنت في السابعة، صفعتني أمي على وجهي فطار جسدي النحيل مصطدماً بالجدار وقد سال الدم من أنفي".

تشرد (كيتيفان) وكأنها تستعيد الذكرى.. تكمل: "رأيتها تضحك.. تضحك كأنثى ضبع فرغت من التهام فريستها للتو.. علمت أنها لم تعد أمي".. تختنق عباراتها بدموع مكتومة وهي تكمل: "أمي كانت حنون رؤوم.. لكم تبدّلت منذ ظهرت تلك (السبتاجرام) في حياتنا!!.. في الليل كنت أسمعها وهي تردد اسم (ليليث) بصوت كالفحيح.. فأنكمش في فراشي خائفة بينما تتراقص دموعي على أنغام ضحكاتها الماجنة المجنونة".

- "يبدو أنكِ قد عانيتِ أكثر مما فعلت أنا!".. يقولها (غسّان) بخفوت.

- "منذ مات كل من أحببت.. منذ احترق منزلنا الآمن.. منذ همت على وجهي حافية على الجليد في طرقات (تبليسي) وقد نذرت نفسي لهدف واحد".. تقولها (كيتيفان).. انعكس الضوء القادم من المدفأة على عينيها الزرقاوين اللتين التمعتا بنظرة متوحشة.

- "الانتقام!!".. يردد (غسّان) وهو يتطلع في وجهها العابس.. تهزّ رأسها موافقة.

- "لكي تحقق انتقامك، لا بد من دراسة عدوك.. أفنيت سنين عمري الماضية أجمع المعلومات عن (ليليث).. عن عالمها الشيطاني".. تقول (كيتيفان) بحماس.. تضيف: "وجودك هنا والآن لسبب.. أنت قلت هذا؛ فلنتوحد لمواجهتها.. لربما استطعنا إنقاذ ابنك قبل فوات الأوان".. يشيح (غسّان) وجهاً كسته كلمات (كيتيفان) الأخيرة بالشحوب.

- "أنا لا أعرف شيئاً عنها.. لا أعلم لما قتلت أحبائي أنا بالذات؟ لا أعلم لمَ اختطفت ابني أنا بالذات.. أنتِ تعلمين عنها كل شيء.. هلّا حدثتني بما تعلمين؟".. يقول (غسّان) بصوت ظهر عزمه واضحاً.

- "تأخر الوقت".. تقولها (كيتيفان) وهي تنهض متجهةً إلى النافذة فتزيح ستائرها مرة أخرى.. تضيف: "هدأت العاصفة.. لا بد لي من العودة للدير.. لا يُسمح لي بالبقاء خارجه كل هذا الوقت.. لتكونن العاصفة هي عذري الوحيد".. ترخي الستائر وتعيد النظر إلى (غسّان): "ستأتي إلى الدير في الصباح الباكر.. لم ينتهِ حديثنا بعد".. تصمت للحظه ثم تضيف: "ولم يعد هناك الكثير من الوقت".

- "ولكن ولدي".. يقول (غسّان) بصوت متبرّم.

- "ولدك مازال بخير.. حتى الآن.. كن واثقاً من هذا".. تقولها (كيتيفان) بلهجة قاطعة وهي تتّجه نحو الباب لترتدي حذاءها.. يهزّ (غسّان) رأسه ببطء.. ينظر إلى (ساندرو) الذي لم يكفّ لحظة عن الترجمة ولم تكفّ عيناه لحظة عن الاتّساع ارتياعاً.

- "ستقلّ الأخت (كيتيفان) إلى الدير يا (ساندرو).. سأبقى أنا بجوار (سيالا)".. يقول (غسّان).. يتردد لحظة وهو يضيف: "أعتذر عمّا أقحمتك به أيها الرجل الطيب.. يمكنك أن تقلّ الراهبة إلى الدير ولا تعود مطلقاً.. انسَ أمري تماماً، كأنك لم تقابلني قط".. يتطلّع (ساندرو) إلى (غسّان) بوجهٍ جامد.

- "لقد أفاقت أمي.. جلست في فراشها ومازحت أبنائي، كانت جائعةً فأكلت وجبة دسمة.. أخبرتني زوجتي بهذا في الهاتف".. يحكّ شعره الكثيف المبتل وهو يضيف: "لم تأكل بشهية منذ أيام صرت لا أذكر عددها.. كان ذلك القرح يأكلها من الداخل.. أنت أنقذتها".. يتصدع وجهه الجامد عن ابتسامة واسعة وهو يكمل بإنجليزيته التي تشبه إنجليزية عملاء الـ (كي. جي. بي) في أفلام جيمس بوند: "لقد أقسمت أن أرد لك جميل صنعك.. ولن أحنث بقسمي.. أنا في عونك وأنت في حمايتي ما دامت قدماك تطأان أرض جورجيا".. يهزُّ (غسّان) رأسه وهو ينظر لـ (ساندرو) بامتنان بينما ينهض الأخير ليرتدي حذاءه ليقلّ الراهبة (كيتيفان)، التي وقفت بجوار الباب الموصد.. ينظر لها (غسّان)..

- "متى تجسّدت (ليليث) في أمك (تمار)؟ أبعد الزيارة الأولى للأب (كاليستراتوس)؟".. يسألها (غسّان) بشكل عابر.. تنظر له (كيتيفان) في دهشة.

- "لم تتلبّس (ليليث) أمي!!".. تقولها (كيتيفان) وهي تبدو كمن فوجئت بجهله.. تضيف وهي تشير إلى أنفها الكبير: "كانت أمي مثلي.. قبيحة الوجه.. (ليليث) لا تتجسّد إلا في أروع الفتيات".. تنظر إلى باب غرفة (سيالا) المغلق وهي تستطرد

بصوت بارد كنصل سكّين: "فتاة كحبيبتك!".. يرتجف جسد (غسّان) فلا يدري هل سبَّب التوتر الذي عاد ليغزو جسده رجفة، أم أنه الهواء البارد الذي اقتحم المنزل من الباب الذي فتحته (كيتيفان) للتّو.

- "ماذا أصاب أمك إذاً؟.. لم تكن (بابلون).. هي أنكرت هذا!!".. تنتقل الرجفة من جسده إلى صوته.. تنظر (كيتيفان) إلى (ساندرو) الذي اتجه إلى سيارته.. ثم تعود لتنظر إلى (غسّان) وهي تمطّ شفتيها كأنها لا تصدّق كل هذا الجهل.. تقول بلهجة تقريرية.

- "كانت أمي سيدة القمامة.. (بعلزبول)!!.. ظننت هذا واضحاً!!".

الفصل الثالث عشر

نقل راب جوده عن صموئيل قوله "إذا كان السقط يشبه (ليليث) فإن الأم تكون غير طاهرة والسقط يكون طفلاً له جناحان"

التلمود البابلي – الجمارة – الحيض (نيدا) – (ص 22 - ب)

- **"لا تضئ الغرفة!"..** تقولها (سيالا) بهدوء لـ (غسّان) الذي فتح باب غرفتها – حيث أرقدها – ليطمئن عليها.

- "ظننتك نائمة".. يقولها (غسّان) بصوت خافت وقد تراجعت يده التي كانت قد سلكت طريقها نحو زر الإضاءة.

- "أغلق الباب يا (غسّان).. وهلمّ اجلس".. تقولها (سيالا) بذات النبرة الهادئة.. يغلق (غسّان) الباب.. يتقدم متعثراً في الغرفة المظلمة التي لم يألف تفاصيلها بعد.

- "لقد انصرفت (كيتيفان) مع (ساندرو)".. يقول (غسّان) وهو يتحسس ما بدا له ككرسي.. يجلس في الظلام.. يشعل سيجارة.. فينعكس الضوء المنبعث من لهب القدّاحة على جسد (سيالا) للحظة.. بدا شعرها مبعثراً حول رأسها بلا نظام.. رقدت في فراشها مدَّثّرة بغطاءٍ ثقيل وقد أولت (غسّان) ظهرها.

- "عندما كنت في الخامسة.. عزم أبواي على الانتقال من منزلنا القديم إلى هذا البيت الأكثر اتّساعاً.. كان هناك الكثير من الرجال لنقل الأثاث، وكان هناك الكثير من الفوضى.. وكعادة الأطفال؛ كنت أنا مستمتعة بكل هذا.. دخلت إلى خزانة ثياب أفرغتها أمي وقد تخيلتها بيتي الخاص.. مرَّ أحد الرجال فأغلق الخزانة من الخارج".. تصمت لحظة ثم تكمل: "لم أنتبه لكوني قد علقت في الداخل إلا بعد فترة.. اختفى بصيص الضوء الذي تسرّب إلى داخل الخزانة من شقوقها، فصار الظلام دامساً.. أصابني الرعب فطفقت أطرق الخزانة وأنا أصرخ.. كلّت يداي، وجرح الصراخ حلقي، وقد منع ضجيج الفوضى في الخارج أبويَّ من سماعي.. تدريجياً تسرّبت إلى قلبي سكينة عجيبة ممتزجة بخدر محبَّب".

- "ما الضير في الظلام؟ أنا هنا آمنة في ذلك الظلام المقدّس وكأنني عدت إلى رحم أمي.. خارج الخزانة المظلمة تجذب الفتيات ضفائر بعضهن.. خارج الخزانة المظلمة يصفع الآباء أطفالهم.. خارج الخزانة المظلمة تعوي الرياح وهي تنهش

أجساد السحب.. خارج الخزانة المظلمة يلوّث الوحل أقدام الرجال".. تصمت مرة أخرى فيسمع (غسّان) صوت أنفاسها ثقيلاً في الظلام.. تضيف: "أكاد أجزم بأنني قد سمعت أنغام عذبة فانتشيت.. أحسست بجسدي يطفو محلّقاً فوق المكان والزمان في ذلك الظلام الأزلي، وكأنني حُملت على أجنحة الملائكة".

- "في ذلك الوقت انتبه أبواي إلى اختفائي فبدأوا في البحث عني.. تذكَّر أحد الرجال أنه قد سمع صوتاً مكتوماً داخل الخزانة منذ فترة.. قال أبواي إنهم عندما وجدوني كنت أقرب إلى فقدان الوعي وقد اِزرقّ وجهي.

فهمت بعد ذلك أن نقص الهواء داخل الخزانة هو ما سبّب لي ما اختبرته داخلها من مشاعر رائعة وددت لو استمرت أبدا.. أتعلم يا (غسّان).. كلما استبدّ بي الخوف أو القلق أحبس نفسي داخل غرفتي في الظلام الدامس.

- "أتخيل غرفتي وقد صارت تلك الخزانة الصغيرة.. تنغلق حواسي كلها.. فأطمئن.. فليحيط بي ألف شيطان صامت.. لا بأس.. أنا لا أراهم إذاً هم غير موجودين".. تنهي عبارتها فيخيّم صمت ثقيل كثقل ظلام الغرفة.. تنقلب (سيالا) في فراشها لتواجه (غسّان).. لا ترى منه سوى شعلة السيجارة التي توهّجت إذ يمتص دخانها.. أدهشته عبارتها الأخيرة فلم يدرِ بما يجيبها.. تشابههما يكاد أن يكون تطابقاً.. مثله تجد راحتها في الظلام.. حتى أنها استخدمت ذات تشبيهه وألفاظه.

- "أنا خائفة يا (غسّان).. خائفة بشدة".. يرتجف صوتها وهي تضيف: "لقد رأيتها!".

- "من؟".. يتساءل (غسّان) في توجّس.

- "أليس ابنة آنا جابيدافا".. تجيب (سيالا).. تضيف بما يشبه النحيب: "كانت واقفة هنالك على رأس قبرها.. حسبتني أنظر لنفسي في مرآة.. هي نسخة مني.. نسخة محترقة!!.. كانت تنظر إليَّ بعينين لا تريان.. امتصّت عيناها روحي، فغصت فيهما كبئرين بلا قرار.. أحداث حياتها مرّت أمام عينيّ كقطار أهوج".

- "كنتِ فقط مرهقة".. يقولها (غسّان) بلا اقتناع حقيقي.

- "كانت جميلة بريئة نقية كليلة صيف.. إلى أن تلوّثت روحها.. فصارت كإناء من الحليب أُلقي فيه القَذَر".. لا تبدو أنها قد سمعت تعليقه المتهافت.. تكمل: "رأيت الحشد يحرقها.. أحسست بالرعب الذي ملأ قلبها وإن لم يظهر على ملامحها.. كان رعباً وحشياً.. كريه الرائحة إن كان هذا ممكناً.. كان رعباً كالقيح".. تصمت للحظة

ثم تكمل: "عندما ارتفعت النيران لتأكل جسدها.. أحسست بها تحرقني.. لم أتحمّل ففقدت الوعي".. تنهي كلماتها تاركة لـ (غسّان) مجالاً للتعليق.. لا يفعل.. يعود الصمت الثقيل ليخيّم على الغرفة المظلمة حتى تقطعه (سيالا)..

- "(غسّان)، هل نعست؟".. تقولها هامسة.

- "ما هو الحب يا (سيالا)؟".. يسأل (غسّان) وهو ينظر إلى (سيالا) بعينين أغمضهما الظلام.. لا تجيب الأخيرة وكأنها تتساءل عن علاقة سؤاله بما سردته للتّو.. يكرر (غسّان) سؤاله مرة أخرى على مسامعها.. فتتردد لحظة.

- "الحب هو أن أرى عينيك.. حتى وإن غشّيني الظلام".. تجيب (سيالا).. تضيف: "أرى فيهما قلقاً غمرهما.. كعيني قط ضال لا يدري من أين ستأتيه الركلة القادمة".

- "فقط اعتادت عيناك الرؤية في الظلام".. يقولها (غسّان) وعلى وجهه ابتسامة لا تراها (سيالا).

- "ستعتاد الظلام أنت أيضاً!".. تقول (سيالا) في خفوت.. يسود الصمت للحظات حتى يقطعه (غسّان):

- "أحببت عدة مرات.. أحببت (مروة).. أحببت (تُقى) وفي كل مرة تركت الحب ينساب من بين أصابعي.. كقبضة تحمل ماء.. وعندما صار قلبي صلداً، آذيت كلتيهما.. تخلّيت عنهما عندما كانتا في أمسّ الحاجة لعوني".. يشعل سيجارة جديدة وهو يضيف: "أتعلمين.. قبلهما لم آذِ شخصاً قط.. لم آذِ شخصاً سواي.. عندما تخلّيت عنهما كرهت نفسي.. حسبتني كالطفل يتعلّق بلعبة ثم يزهدها عن فوره.. حسبت قلبي لم يُخلق ليحب.. حتى رأيتك.. فأدركت شيئاً"..

"كل ما أحسست به من قبل، كان حباً يحدّه زمان مؤقت ومكان محدد.. كنت كراكب قطار تتبدّل عليه الوجوه ثم تغادر في محطتها المحددة.. ربما أحسست ببعض الألفة مع هذا الوجه.. ربما تبادلت الحديث مع ذاك.. إلا أنهم ظلّوا مجرد عابرين على طريق حياتي.. الحب الذي يحدّه الزمان والمكان ليس حباً!!".. ينفث دخان سيجارته كثيفاً وهو يضيف: "أنتِ يا (سيالا).. أنتِ من كنتِ معي منذ محطة صعودي وإن لم أعلم هذا.. وأنتِ من سترافقينني إلى محطة الوصول.. فطن قلبي لهذا منذ أن رآكِ أول مرة.. ربما قبل أن يدرك عقلي الأمر".. يصمت لحظة ثم يضيف: "أنا من أقحمك في كل هذا.. كما أقحمت (مروة) و(تُقى) من قبل.. تركتهما تواجهان مصيريهما

منفردتين.. ولكني لن أفعل الآن.. لتكن روحي فداء لعينيكِ من حزن ألّم بها أو قذى أصابها!".

- "نبيل أنت يا (غسّان).. لكنك مغرور".. تقولها (سيالا).. تضيف: "بعد كل ما رأيت، مازلت تظن أنك أنت من يصنع الأحداث بإرادتك الحرّة.. مازلت تظن أن الأرض قد خُلقت لتمشي عليها، وأن السماء قد خُلقت لتمشي تحتها".. يقطع عبارتها ضحكة عصبية أطلقها (غسّان).

- "سمعت هذا من قبل!".. يقول (غسّان).. تعوّدت عيناه على الظلام فصار يرى حدود جسد (سيالا).. ضمّت ركبتيها إلى صدرها وقد تدثّرت بالأغطية بفراشها فبدت أشبه بجنين في رحم الظلام.

- " لم تكن أنت المقصود بكل هذا الشر.. بل كنت أنا!".. تقولها (سيالا) بصوت خافت.

- "ماذا تقولين!!".. يهتف (غسّان) بصوت عالٍ وهو ينهض من على الكرسي.

- "(ليليث) لا تتلبّس سوى أجمل الفتيات.. فتاة مثلي.. لقد سمعت حديثك مع (كيتيفان)".. تقول (سيالا) بصوت مرتجف ينذر بهطول دموعها.. تكمل: "كل ما مررت أنت به من أحداث كان كريح عاتية.. عصفتك لتُلقي بك في طريقي لتحملني إلى هنا.. إلى مسقط رأسي الذي لم أنوِ زيارته مجدداً.. (سولوكيدز) المقدّسة.. قال الخطاب أن (المختار) سيتوجّه إليها.. فقط (المختار) هو من سيخبره الراهب مقطوع اللسان باسم (ليليث).. أنا من قرأت الخطاب يا (غسّان).. أنا من عرفت اسم قاتلة الأطفال وبه أخبرتك.. ظننت أن الحديث موجّه لك.. لكنه كان لي أنا".

- "هذا غير معقول".. يهزّ (غسّان) رأسه مستنكراً الفكرة.

- "فقط غرورك يغشي عينيك فيمنعك من رؤية الحقيقة.. ظننت نفسك البطل بينما أنت صاحب الدور المساعد!".. تقولها (سيالا).. يسمع (غسّان) صوت الدموع في عبارتها المتهدّجة إذ هطلت من عينيها.. يجلس على طرف فراشها.. يشعر بارتجاف جسدها، إذ تنقل حشية الفراش هزّاته.

- "اللعنة.. أنتِ ترتعدين!!".. يقولها (غسّان).. يقترب منها في الظلام فتنهض جالسةً.. تدفن رأسها في صدره.. يحيط كتفيها المرتجفين بذراعه.. عاريان باردان كالثلج.. يضمها إليه فيحسّ بثدييها العاريين إذ يلتصقان بصدره.. يتوتّر جسده كوتر قوسٍ مشدود.. تلاحظ (سيالا) توتّره فتبتعد عنه قليلاً.

- "كنتُ مبتلّة كفرخ سقط في وعاء شرابه.. خلعت ثيابي.. المعذرة".. تقولها من بين عبراتها المتلاحقة.. يعود (غسّان) فيضمها إليه.. يضغط جسدها بين ذراعيه وصدره وقد ودّ أن يسكنها بين ضلوعه.. يهزّ جسده أماماً وخلفاً وكأنها طفلاً يهدهده.. يضمهما الصمت لبرهة فلا يسمع (غسّان) سوى قرع قلبه المتوثّب.

- "لن يمَّسك سوء.. أعدك بذلك!".. يقولها (غسّان) بصوت حاول أن يجعله هادئاً مطمئناً.. يضيف: "أنتِ حمقاء يا (سيالا).. تظنين أن رؤيتك لتلك المرأة سبباً كافياً لتكوني (ليليث) أخرى.. رأيتها كل يوم في أحلامي.. رأيتها اليوم تسري بين أشجار الأرز في المقبرة قبل أن تخفيها عني الظلال".

- "لا تبدو خائفاً!".. تقولها (سيالا) وقد توقّفت أمطار عينيها عن الهطول.. بدا وكأن الطمأنينة قد وجدت طريقاً إلى قلبها.

- "فقط اعتدت كل هذه الغرابة.. أعيش أحداثها منذ فترة".. ينظر إلى عينيها فيراها بصعوبة.. تنظر إليه مطولاً وكأنها تستمد منه الأمان.. يضيف: "تظنيني لست خائفاً.. أصدقك قولاً أن الخوف هو ما قادني إلى هنا.. خوفي من أن أفقد ولدي".. يتهدّج صوته.. ترفع (سيالا) راحتيها الباردتين لتحيط بها وجهه.. تتحاور أعينهم للحظات وكأنهم يتناقشون فيمن سيكون البادئ.. تميل الأعين مقتربة من بعضها وكذلك تفعل الشفاه.. يطبق (غسّان) شفتين محمومتين على حبتي الكرز في فمها للحظة.. يتراجع بعدها مُسرعاً.. يقول بصوت مبحوح: "ربما كان هذا مبكراً!".. تقاطع (سيالا) كلماته وهي تلتقطها من فوق شفتيه بفمها.. أصابعها تتخلل شعره وتتحسس رقبته بينما لا تكفّ شفتاها عن طبع أثار خطواتها على وجهه.

يميل رأسه على صدرها فتضمه بين ذراعيها.. يلتقم نهدها العاري بشوق جنين ولد لتوّه.. يداه تتحسَّسان جسدها كفارسين يستكشفان أرضاً جديدة.. يتوقف الفارسان بعد طول تجوّل وقد أدركا روعة اكتشافهما.. سيبقيان هنا.. لقد استوطن (غسّان) تلك الأرض الطّيبة.. يغرس بها رايته فتشهق (سيالا) كمن عادت إليها الروح.. يتنفّس هو شهقتها فتشبع أنفاسها السكريّة المسكرة رئتيه بعبير خلق فقط من أجل تلك اللحظة.. يتبادلان الكر والفر في ساحة الهوى حتى يعلن جسد (غسّان) استسلامه فيهرق ماءه على مذبح معبدها.. يتشنج جسده وقد غمرته اللذة.. تمتزج ذرات خلاياه بذرات خلاياها وكأنهما عادا إلى قلب نجم سحيق صُنعا فيه عند بدء الخليقة.. صارا واحداً.. كياناً لا ماضي له ولا مستقبل.. تمددت اللحظة فصارت عالمهما الوحيد.

يرتخي جسد (سيالا) أخيراً، وقد أراحت رأسها فوق صدره.. تلتقط عنه حبّات العرق بشفتين مضمومتين كمنقار فرخ وليد.. تقول: "أحبك".

- "ستكونين زوجتي.. لقد خطبتك للتّو".. يقولها (غسّان) لـ (سيالا) وقد سرى خدر جميل في أوصاله.. فشعر بروحه تطفو هائمة فوق جسده.. كان آخر ما سمعه هو قولها..

- "زوجتك.. ابنتك.. أختك.. لا يهم.. أنا منكَ وأنتَ مِنّي".

- "أنت صحفي، لا تنسَ ذلك".. تقولها (كيتيفان) هامسةً فيترجمها (ساندرو) هامساً بدوره.. يهزُّ (غسّان) رأسه متفهماً وهو يتقدّم كليهما محيياً الأم (مريام) رئيسة راهبات دير (ماتخوجي) العجوز.. اتشحت بالسواد كغيرها من راهبات الدير اللواتي تجمعن غير بعيد عن بوابته الحجرية، يحملقن بأعين فضولية في (غسّان) كمن رأى فضائياً من زحل.. خمَّن (غسّان) أن الدير المعزول الذي بُنيَ على سفح الجبل بين الأشجار الكثيفة الظلال لا يأتيه الكثير من الزوّار.. ربما كان زوّاره لا يتعدون العشرات من قاطني قرية (ماتخوجي) أعلى الجبل، والتي لا تبعد عن مدينة (خوني – سولوكيدز) إلا بكيلو مترين اثنين.. الدير ليس وجهة جذب سياحية كدير (جيفاري) بـ (متسخيتا).. وإن كان يتشارك معه الطراز المعماري العتيق.

تحيّيه الأم (مريام) بحرارة وقد ارتفع حاجباها الكثان الأشيبان فوق عينيها المبتسمتين المرحبتين.. عرّفته لها (كيتيفان) كصحفي مصري مهتم بتاريخ الأديرة القديمة، فبدأت في سرد تاريخ الدير الممتد من القرن السادس الميلادي باستفاضة.. يشغّل (غسّان) تطبيق التسجيل الصوتي في هاتفه المحمول ويقربه من الراهبة العجوز وهو يتصنع الاهتمام.. يهزُّ رأسه بين الفينة والأخرى وإن ودّ أن تصمت الآن وفوراً.. يهرب من ثرثرة العجوز فيشرد في لجّة ذكرياته القريبة.

أيقظته أنفاس (سيالا) العطرة في الصباح، وهي تطبع قُبلةً دافئة على زاوية فمه.. كان قد غاص بفراشها في سبات عميق بلا أحلام.. هو قد عاش حلمه الخاص قبل نومه فلم يعد للأحلام مكان في غمرته.. هكذا قال لنفسه وهو يفتح عينيه بصعوبة متطلعاً إليها مبتسماً.. كانت منتعشة كهرّة تلعب تحت أشعة شمس دافئة.. ارتدت ثيابها كاملة.. قالت له وهي ترتدي فردة حذائها إنها ستذهب للتبضّع فأخبرها أنه لن ينتظر عودتها فلا بد أن يذهب لمقابلة (كيتيفان).. لم تبدُ متحمسة كثيراً لمقابلتها على أي حال.. قبل أن تغادر أخبرته أن كل ما حدث في المقبرة بالأمس قد صار مشوشاً في عقلها ككابوس، تبخَّر عندما أشرقت عليه أشعة الشمس.. فبدا هلعها سخيفاً بعد أن أناره ضوء النهار.

ارتدى ثيابه في عجالة وهو ينظر إلى عقارب ساعته التي تجاوزت التاسعة.. غادر منزل آل (جاتشافا) متوجهاً إلى حيث الفندق الوحيد سيراً على الأقدام، تحت سماءٍ صافية ألقت بالأمس ما في جعبتها من سحب.. وصل الفندق فبدَّل ثيابه الملوثة بوحل البارحة وهو يهاتف (ساندرو)، ثم عاد ليغادر الفندق الصغير ليجد المرسيدس

العتيقة بانتظاره.. أخبره (ساندرو) وهي يقطع دروب جبلية غير ممهدة بأنه هاتف الأخت (كيتيفان) مخبراً إياها بمجيئهم.. فأخبرته أنه على (غسّان) أن يتصنّع دور الصحفي حتى لا يثير شكوك راهبات الدير المنعزلات عن عالم الرجال إلا لحاجة.

تنهي الأم (مريام) سردها الرتيب بعد أن حكت تاريخ الدير حجراً حجراً.. فيشكرها (غسّان) بامتنان حقيقي كونها قد صمتت أخيراً.. تقترب منهم راهبة شابة على استحياء، وهي تقترح عليهم بحماس ساذج أن يتفقدوا زريبة المواشي التابعة للدير.. فيجيب (غسّان) بدبلوماسية؛ أنه يرغب في التقاط بعض الصور أولاً.. ثم يبدأ في التقاط الصور للدير الحجري ذو السقف المقبب المصنوع من القرميد الأحمر لبرهة.

يخبر رئيسة الراهبات بأنه يرغب في التقاط بعض الصور لمكتبة الدير العتيقة؛ فتوافق الأم (مريام) بهزّة رأس، ثم تأمر (كيتيفان) أن تكون مرشدته فتشير الأخيرة بذراعها إلى مدخل جانبي خلف المذبح الحجري للدير.. تتقدم (غسّان) و(ساندرو) هابطةً عدة درجات حجرية، حتى تصل إلى باب خشبي ضخم تشقق بفعل القدم؛ فتفتحه متقدمة إلى حجرة واسعة فيتبعها (غسّان) و(ساندرو) وقد امتلأت رئتيهما برائحة الرطوبة وأوراق الكتب القديمة.

- "حسناً فعلت بأن طلبت زيارة المكتبة!".. تقولها (كيتيفان) بهدوء.

- "كان من السهل فهم إيماءاتك الخفية!".. يجيب (غسّان) بذات الهدوء بينما تجول عيناه في الحجرة الحجرية التي امتلأت بالأرفف الخشبية، حيث رقدت الكتب التي عجز عن حصر عددها.. عدة طاولات حجرية انتثرت في الغرفة.. تبدو وكأنها معدّة للمطالعة.. بجوار كل منها مقعد خشبي أو اثنان.. صليب خشبي عملاق معلّق في صدر الغرفة يزحف عليه بُرصان في كسل.. لا فئران لحسن الحظ.. المكتبة والدير بأكمله يبدو عليهما الفقر المغلّف بمسحة من الخشونة.. بشكل ما بدا متعارضاً مع الطبيعة الخضراء الساحرة المحيطة به.. تستقر عينا (غسّان) أخيراً على وجه (كيتيفان).. يسألها: "لماذا التحقتِ بهذا الدير؟".. تنظر (كيتيفان) حولها كأنها تتأكد من عدم وجود فضوليين بالأرجاء، تشير بسبابتها إلى وجهها:

- "فتاة يتيمة.. ورثت كل دمامة أمها ولا تحمل أي درجات علمية يحتاجها سوق العمل.. ما هو احتمال ألا أموت جوعاً في هذا البلد؟!".. تقولها (كيتيفان) بلهجة ساخرة.. تضيف: "الدير يوفّر لي الطعام والصحبة.. بين جدرانه الحجرية.. أنا آمنة

من الموت تجمداً في ليالي يناير".. تشهق لتمنع أنفها الضخم من أن يسيل بفعل الرطوبة الباردة في المكتبة.. تفرد ذراعها وتشير بسبّابتها إلى رفوف الكتب: "الدير يوفّر لي هذا.. آلاف الكتب في مكتبات كبريات كنائس العالم غير متاحة لمن هم مثلك من العامة".

- "ربما أسأت صياغة السؤال أو أساء (ساندرو) الترجمة.. لم أقصد لمَ اخترت الرهبنة.. بل أقصد لماذا دير مدينة (سولوكيدز)؟".. يقولها (غسّان) وهو ينظر إلى (ساندرو) الذي انعقد حاجباه ضيقاً وهو يترجم العبارة لـ (كيتيفان).. وجّه (غسّان) لفوره إهانة لا تغتفر لإنجليزيته التي يحسبها أكسفوردية.

- "(سولوكيدز).. المدينة المقدّسة.. منها يبدأ كل شيء وإليها ينتهي كل شيء".. تضيق عينا (كيتيفان) الزرقاوين وهي تضيف: "لم تسألني أنت أو صديقتك الفاتنة لمَ كنت في المقبرة القديمة بالأمس!!".

- "ماتت إحدى نساء البلدة".. يجيب (غسّان) عن فوره.

- " بل قُتلت!".. تقاطعه (كيتيفان): "قتلتها إحدى جاراتها.. (الخشبوري) المخلوط بالزرنيخ لم يكن بالفكرة السيئة".. تشرد عيناها الضيقتان في الفراغ وهي تضيف: "كانت كلتيهما من المترددات على الدير.. ما الذي يدفع امرأة بدينة بلهاء لقتل جارتها التي تنافسها في البدانة والبلاهة؟".. تنظر إلى (غسّان) وكأنها تتوقع منه إجابة.. يهزّ الأخير كتفيه مبدياً جهله.. تكمل: "كانت جريمة القتل الخامسة في الستة شهور الماضية".. يرتفع حاجبا (غسّان) في دهشة.. هناك الكثير من الشر خلف غلالة السكينة الخضراء التي تحيط بالمدينة.. تتأمل (كيتيفان) ملامحه المندهشة لبرهة.. خُيّل له أنه يرى نظرة جزلة في عينيها الضّيقتين وهي تردف: "كلما كثر القتل.. توّج أحدهم".

- "من؟".. يتساءل (غسّان) في حيرة.

- "أصحاب المجد.. (ليليث) وزمرتها".. تقولها (كيتيفان) بنفاذ صبر.

- "من هي (ليليث).. أرجو المزيد من الشرح.. سئمت الإجابات المبتورة".. يقولها (غسّان) بذات الصبر النافذ.

تخطو (كيتيفان) نحو أحد المقاعد.. تجلس وهي تمد ساقيها أمامها متطلّعة إلى حذائها الأسود الضخم.. تقول:

- "(ليليتو) أو (ليليث) هي الأنثى الأولى.. زوجة (آدم) أبو البشر"...

يقطع الرائد (حسام) الممر الطويل المفضي إلى مكتبه بقسم شرطة (الشيخ زايد) بخطوات بطيئة.. يدفع كرشه أمامه، بينما وضع راحة يده أسفل ظهره كدعامة تخفف آلام ظهره المزمنة.. يضرب الشرطي الواقف أمام باب مكتبه قدمه بالأرض وهو يؤدّي التحية العسكرية بحماس.. فيرد تحيته شارد الذهن.. شغلته قضية ما من تلك القضايا التي ملأت ملفاتها أدراج مكتبه.. هي قضية قتل تقليدية.. باب مكسور.. بصمات الجاني تملأ المكان.. سيجدون الجاني الأحمق في غضون ساعات على الأرجح.

سيصفعه صفعتان؛ فيعرف منه تاريخه كله منذ أن ولدته أمه حتى ساعة ارتكابه للجريمة.. تلك الجرائم يبرع في حلها.. جرائم لم تهن ذكاءه، كتلك الجرائم الغريبة التي صاحبت اختفاء (ياسين) الطفل.. على الرغم من مرور ما يقارب الشهر، مازالت الأحداث المصاحبة لاختفاء (ياسين) تطلّ برأسها بين الفينة والأخرى من بين ركام المهام اليومية.. تُخرج له لسانها فتستفزه ويعود غموضها ليثير حنقه.

يفتح باب مكتبه فيطالعه الشخص الجالس أمام مكتبه في يده إحدى الجرائد اليومية كان يطالعها وهو يأكل شطيرة من (الفول) الذي لوّث شاربه.

- "(هاني) باشا!! إزيَّك يا كبير؟!".. يقولها الرائد (حسام) مبتسماً وهو يصافح المدعو (هاني) بحرارة.. هو أحد زملائه القدامى.. يهتف بالشرطي الواقف أمام بابه: "شاي للرائد (هاني) بسرعة".. يعود لينظر للرائد (هاني) بود: "فينك دلوقتي؟".

- "الآداب".. يقولها الأخير بسرعة.. يضيف بلهجة عمليّة: "مش هعطلك كتير، محتاج رأيك في حاجة".

- "طول عمرك عملي!! اتفضل!!".. يقولها الرائد (حسام) وهو يتابع الرائد (هاني) الذي أخرج (لاب توباً) صغيراً من حقيبته.

- "فيه واحدة ساقطة بتسوّق لنفسها على النت.. رفعت أكتر من فيديو لنفسها.. بس هي حذرة جداً.. مش بتحط أي معلومات أو طرق اتصال.. هي اللي بتتصل باللي عاوزها".. يعدّ الرائد (هاني) الـ (لاب توب) للتشغيل.. يضيف ضاحكاً: "واللي عاوزينها كتير بصراحة".

- "أنتا جاي تفرجني على فيديو فاضح!".. يقولها الرائد (حسام) ضاحكاً وهو ينظر إلى شاشة الـ (لاب توب) التي أدارها الرائد (هاني) تجاهه، عارضاً مقطع مسجّلاً بكاميرا فيديو عالية الجودة لشابة حسناء، وقفت أمام نافذة عريضة وهي تخلع ثيابها ببطء مؤدية حركات جنسية صارخة.

- "الفيديوهات التانية ليها في غرف مقفولة.. ده الوحيد اللي تقدر تشوف فيه المنطقة اللي هي فيها من الشباك اللي وراها".. يقولها الرائد (هاني) وهو يشير إلى البنايات القصيرة، أرجوانية اللون، التي تفصلها عن بعضها مساحات خضراء بدت واضحة من خلال النافذة الزجاجية العريضة في خلفية المشهد.. يردف: "أظن أن تصميم العمارات دي شبه تصميم كمباوندات (زايد).. فكَّرت أنك ممكن تعرف المكان ده فعلاً في (زايد) ولا لأ".

- "أيوة في (زايد)!".. يقولها الرائد (حسام) بينما عينيه لا تفارقان شاشة الـ (لاب توب)، يعيد أحد مقاطع الفيديو عدة مرّات.. يقرّب وجهه من شاشة الـ (لاب توب) وقد عقد حاجبيه.. يسأل وهو يشير إلى ركن الشاشة الأيسر: "الفيديو ده بتاريخ 25 يناير 2016؟ من أقل من شهر!!".

- "أيوة!! الكاميرا المستخدمة في التصوير بتسجّل اليوم والساعة بشكل تلقائي.. الفيديو ده بتاريخ 25 يناير الساعة ثلاثة فجراً".. يجيب الرائد (هاني) في حيرة!

- "هاني.. نقدر نكبر جزء معين من الفيديو ده للحد الأقصى؟".. يثبّت الرائد (حسام) المشهد الذي يوّد تكبيره.

- "طبعاً نقدر.. حظنا كويس إن الكاميرا اللي البنت بتستخدمها HD خاصة بالمحترفين".. يقولها الرائد (هاني)، وأصابعه تضرب مفاتيح الـ (لاب توب) في سرعة؛ مكبراً المشهد عدة مرّات.. يدقق الرائد (حسام) النظر إلى المشهد، وقد ازداد انعقاد حاجبيه حتى كادا أن يلتصقا فيصيرا خطاً واحداً.

- "(هاني)!!.. أنا هقولك على المكان اللي اتصور فيه الفيديو ده.. بس أنا هاخد نسخة منه".. يقولها الرائد (حسام).. يضيف هامساً كمن يحدّث نفسه: "ياسين!!".

- **"ما هذا الهراء؟!"..** يهتف بها (غسّان) في المكتبة الحجرية للدير.. تنظر (كيتيفان) لباب المكتبة بقلق.. يردف (غسّان) خافضاً صوته: "(حواء) هي أم البشر!! هذا ما نصّت عليه جميع الأديان الإبراهيمية!".

- "لم أقل أن (ليليث) هي أم البشر".. تقول (كيتيفان) وهي تمطّ شفتيها.. تضيف: "فقط قلت أنها الأنثى الأولى.. وزوجة (آدم) من قبل (حواء)".

- "وإن يكن.. مازال ما تقولينه هراء".. يقولها (غسّان) وهو يهزّ رأسه مستنكراً.. تعود (كيتيفان) لتمطّ شفتيها الرفيعتين.. تنهض من مقعدها الخشبي.

- "عجباً للإنسان.. هو عدوّ ما يجهل!".. تقولها (كيتيفان) وهي تتجه نحو باب المكتبة: "انصرف إذاً.. ولكن لا تنسَ التقاط بعض الصور للمكتبة".. ينظر (ساندرو) لـ (غسّان) نظرة لائمة فيتردد الأخير للحظة، ثم يهرع فيلحق بالراهبة.

- "عذراً يا أختاه.. لن أقاطعك مجدداً.. أودُّ حقاً معرفة ما تعرفينه".. يقولها (غسّان) وهو يتطلّع في عيني (كيتيفان) برجاء.. تنظر له الأخيرة للحظات ثم تعود فتجلس على مقعدها الخشبي.. تأخذ شهيقاً عميقاً، كمن أوشك على إلقاء محاضرة طويلة.

- "تطوّرت أسطورة (ليليث) في الأوساط العبرانية.. صُوِّرت دائماً كشيطانة الليل الخطيرة.. العاهرة المثيرة، صاحبة الرداء القرمزي.. خاطفة الأطفال في الظلام.. ربما أدرك اليهود وجودها منذ أدركوا أنهم يهود!! أقصد أن الشيطانة (ليليث) ذُكرت بشكل أو بآخر منذ المخطوطات اليهودية الأولى، واستمرّ وجودها وتطورها مع تطوّر الديانة اليهودية، بدايةً من مخطوطات البحر الميت فالجمارة.. فأبجدية (بن سيراخ).. فالمدراشيم.. فأطروحة الانبثاق الأيسر وانتهاءً بحكمة القبالة والزوهار".

- "بنهاية القرن الخامس عشر صارت (ليليث) جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العبرية، ونظراً لوجود قطاع كبير من اليهود بإسبانيا وغيرها من بلدان أوروبا في ذلك الوقت، تسرّبت (ليليث) إلى الثقافة المسيحية الأوروبية حتى صارت منها.. فصارت الأمهات تصنع التعاويذ والأحجبة لحماية أطفالهن من (ليليث)".. تصمت (كيتيفان) لحظةً وقد لاحظت تلعثم (ساندرو) في الترجمة.. نظرة بلهاء كست عينيه وهو لا يكفّ عن حك شعره الثائر كالأجرب.. تحوّل عينيها إلى (غسّان)، بعينيه نظرة نافست نظرة (ساندرو) في بلاهتها.. ابتسامة عابثة تطفو على شفتي (كيتيفان).

- "أنتما لا تفهمان شيئاً.. حسناً.. سأحاول أن أكون أكثر تفصيلاً ووضوحاً".. تقول (كيتيفان) ثم تنهض إلى أحد رفوف المكتبة فتتناول مجلداً ضخماً.. تضعه على الطاولة الخشبية بعنف..

"هذه نسخة من مخطوطات البحر الميت مع ترجمتها.. المخطوطات تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، أو الأول الميلادي، عثر عليها في كهوف جبلية قريبة من البحر الميت.. هي كتابات دينية لطائفة من اليهود ربما كانت (الأسينيون).. وهي عبارة عن أجزاء من العهد القديم (التوراة) وتفسيرها.. هناك أجزاء أخرى من المخطوطات لم يعرف هويتها بعد أو لم تترجم.. مخطوطات البحر الميت هي أقدم المخطوطات اليهودية الأصلية التي وصلت إلينا".

تفتح المجلد الضخم على صفحة محددة سلفاً.. تشير بسبّابتها إلى نسخة فوتوغرافية لإحدى المخطوطات وهي تضيف: "غني عن الذكر، أن تلك المخطوطة تتحدث عن (ليليث).. تُعرف تلك المخطوطة بـ (أغنيات الحكيم)، يتحدث فيها من يدعى بـ "المرشد" بأنه سيروّع كل أبناء الزنا، والشياطين، وليليث، والكامنين في البرّيّة إلخ.. إلخ".. تقلّب صفحات المجلد بسرعة حتى تصل إلى صفحة أخرى محددة سلفاً بدورها فتشير إلى نسخة فوتوغرافية أخرى من إحدى المخطوطات: "هذه المخطوطة تعرف بالمخطوطة (4 - 148 - Q).. تشير أيضاً إلى شيطانة أنثى وتصف طبيعتها الشنيعة".. تغلق المجلد الضخم بعنف.. تتجه إلى رف آخر بالمكتبة.. تنظر إلى (ساندرو) طالبة منه العون؛ فيهرع إليها ليساعدها في حمل حافظة كبيرة احتوت على ستة مجلدات ضخمة.

- "لا يجدر بهذا الكتاب أن يكون بمكتبة الدير.. لكن المكتبة لا يدخلها غيري على أي حال.. هذا هو التلمود البابلي.. هل تعرف ما هو؟".. تقولها (كيتيفان) لـ (غسّان)

وهي تلهث وقد ناءت بحمل المجلدات الضخمة.. تضعها على الطاولة الخشبية بجوار نسخة مخطوطات البحر الميت.

- "أظنه كتاب يتعلّق بطقوس السحر العبري!".. يجيب (غسّان) متردداً.

- "كل العرب يحسبونه كذلك.. حتى من قابلتهم من القساوسة!!".. تقولها (كيتيفان) وهي تطلق ضحكة قصيرة خافتة: "أظن أن السبب في تلك الهالة الأسطورية المحيطة بالتلمود ترجع لعدم ترجمته للعربية.. نسج العقل العربي الذي يجهل ما فيه العديد من الخرافات حوله".

- "التلمود هو النص الديني الثاني مباشرة بعد العهد القديم كمصدر للديانة اليهودية، وهو من قسمين: الـ (مشنا)؛ وهو مصدر شارح للعهد القديم ومفسِّر لمادته الدينية.. والـ (جمارا)؛ وهي الشروح والتفاسير على الـ (مشنا).. غني عن الذكر بأن المسيحين لا يعتقدون بالتلمود.. هم فقط يعتقدون بالكتاب المقدّس بشقّيه العهد القديم والعهد الجديد.. بينما لا يعتقد اليهود بالعهد الجديد".

- "ذُكرت (ليليث) في الـ (جمارا) في ثلاثة مواضع: أولهما كمسببة للإجهاض وقتل الأطفال في أرحام أمهاتهم.. وثانيهما كشيطانة طويلة الشعر.. وثالثهما كشيطانة تقتنص من يبيت ليلته بمفرده".. تقول (كيتيفان) بينما يديها تقلّبان صفحات الكتب الست كمن فعل ذلك مئات المرات فتشير إلى الفقرات المقصودة.. تكمل: "حتى ذلك الوقت كانت (ليليث) شيطانة ليلية ذات قوى شر مبهمة.. ربما لم تتضح طبيعتها كأنثى أولى وزوجة (آدم) المخلوقة معه من نفس الطين إلا في أبجدية (ابن سيراخ)".

- "(ابن سيراخ)؟".. يكرر (غسّان) الاسم بنبرة متسائلة، بينما عينيه تتابع (كيتيفان) التي حملت كتاباً آخراً من أحد الرفوف.

- "(يشوع بن أليعازر بن سيراخ)، أحد حكماء بني إسرائيل.. في الكتاب المقدّس سفر يحمل اسمه، يتناول حكمه ومواعظه.. السفر تعترف بقانونيته كلاً من الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية".. تقولها (كيتيفان) وهي تضع الكتاب على الطاولة بجوار سابقه.

- "إذاً فـ (ليليث) هذه مذكورة كأنثى أولى في الكتاب المقدّس؟!".. يقولها (غسّان) متسائلاً.

- "لا!".. تهزّ (كيتيفان) رأسها نفياً: "السفر الموجود في الكتاب المقدّس هو (حكمة بن سيراخ)، أما الكتاب الذي أقصده فهو (أبجدية بن سيراخ).. هو كتاب

مجهول المؤلف، ظهر في وقت ما في نهاية الألفية الأولى، وهو تعليقات وشروحات على سفر (حكمة بن سيراخ) بطريقة فلكلورية، وإن غلبت عليه البذاءة والسخرية.. إلا أنه كان مقبولاً بشكل كبير بين الأوساط اليهودية والمسيحية الشعبية في ذلك الوقت.. كذلك تقبلّته الفرق اليهودية الباطنية وحكماء الـ (القبالة) و(الزوهار)".

- "القصة باختصار كما يسردها الكتاب، أن (آدم) أحسّ بالوحدة في جنّة عدن حيث أسكنه الرب، فخلق الرب أنثى من ذات الطين الذي خُلق منه آدم، سُمّيت (ليليث) وصارت زوجة لـ (آدم).. إلا أن (ليليث) لم تقتنع بسيطرة (آدم) وتسلّطه عليها، وهي المساوية له، المخلوقة مثله من ذات التراب.. يقول الكتاب أنها نطقت باسم الله الأعظم فنبت لها جناحان، طارت بهما هاربة من جنّة عدن.. هنالك شكى آدم إلى ربه هروب زوجته فأرسل الرب لها ثلاثة من الملائكة؛ ليعيدوها إلى الجنّة فرفضت العودة.. فقضى عليها الرب أن يموت من أبنائها في اليوم مئة؛ لذا فهي تحمل حقداً كبيراً على بني آدم، وتتربّص بهم مهلكةً أطفالهم.. ومغريةً رجالهم بجمالها الساحر، دافعة إياهم للخطيئة والسقوط في هوّة الزنا".. تقولها (كيتيفان) وهي تتحرّك بسرعة بين الرفوف ملتقطة عدة كتب من هنا وهناك.. تضعهم على الطاولة.

- "في (القبالة) – وهي شروحات فلسفية وباطنية للديانة اليهودية – تطوّرت قصة (ليليث) فتم تناولها بعدة تفسيرات، ربما كان أشهرها أنها قد خُلقت في اليوم الخامس للخلق قبل (آدم) الذي خُلِقَ في اليوم السادس.. قبل أن يستريح الرب في اليوم السابع".. تقولها (كيتيفان) وهي تفتح أحد الكتب وتشير بسبّابتها إلى فقرة محددة بإحدى الصفحات.. تعود فتغلق الكتاب بعنف.. تفتح آخر: "هذا هو (مدراش أبخير)، فيه أنه أثناء صيام (آدم) الطويل جاءته (ليليث) لتغريه بجمالها على عكس رغبته".. تغلق الكتاب.. تفتح آخر بينما عيناها تلمعان بنظرة مجنونة: "أما هذا فهو (الزوهار)، وهو قمة الهرم الباطني اليهودي، فيه تُذكر (ليليث) كشيطانة سارية في الليل تثير الرجال".. تغلق الكتاب وهي تلهث وكأنما أرهقها كل هذا الشرح.. تزفر بعمق وهي عائدة لتجلس في مقعدها.. تشرد عيناها بينما تعيد التحديق في حذائها الأسود الضخم.

- "ربما تطوّرت أسطورة (ليليث) في الديانة اليهودية ومنها دخلت إلى المسيحية، إلا أن نشأتها سبقت اليهودية بكثير؛ فهي مشتقة من الشيطانة القديمة (ليليتو) الموجودة في تراث الشعوب القديمة لما بين النهرين كالسومريين، والآكاديين،

والأشوريين، والبابليين.. لاحظ أن اسم (ليليث) مشتق من اللفظة العبرية (لأيل) أو العربية (ليل).. نفس اللفظ استخدمته شعوب ما بين النهرين القديمة، ويعني الروح الحاملة للمرض أو الروح الليلية".

- "تحدثت ملحمة (جلجامش) الآشورية في ملحقها عن الشيطانة (ليليتو) التي اتّخذت من جذع شجرة الصفصاف مسكناً، بينما سكن طائر (الأنزو) الشرير قمّة الشجرة، وسكنت حيّة ضخمة جذورها.. قطع (جلجامش) الشجرة فقتل الحيّة، وطار (الأنزو) إلى الجبال، بينما فرّت (ليليتو) إلى الغابة.. هناك أيضاً منحوتة (بيرني) في المتحف البريطاني، وهي تعود لتلك الحقبة القديمة من تاريخ بلاد ما بين النهرين، وهي تصوّر امرأة عارية لها قدما بومة تقف بهما على ظهري أسدين متقابلين.. بينما تحيط بها بومتان".

- "لها قدما بومة!!".. يقولها (غسّان) بصوت خافت.. استعاد ذكرى قدم الطائر العملاقة التي حملت كياناً لم يره قبل أن يفقد وعيه في شقته.. تهزّ (كيتيفان) رأسها مؤمِّنة، وهي تنهض مجدداً ساحبة صورة فوتوغرافية للمنحوتة من رف قريب.. تضعها تحت أنف (غسّان) الواقف مكانه منذ أن دخل الغرفة الحجرية.. ينظر إلى صورة المنحوتة الدقيقة الصنع.. يضيف هامساً بالعربية: "أم قويق!".

- "هناك أيضاً تمائم (أرسلان طاش).. وهي ألواح من الحجر الجيري، اكتشفت في الجبل الذي يحمل ذات الاسم في شمال سوريا الحالية.. اللوح الأكبر يحمل اسم (ليليتو) أو (ليليث)".. تصمت للحظة ثم تضيف: "وجود (ليليث) في التاريخ البشري المكتوب، قديم بقِدم الكتابة نفسها.. لاحظ أن تلك التمائم الحجرية تسبق نشأة اليهودية بآلاف السنين، حيث قُدِّرَ عمرها بسبعة آلاف سنة قبل الميلاد".

- "أختاه!".. يقولها (غسّان) برفق.. يصمت لحظة كأنه يستجمع شتات أفكاره.. ثم يردف: "أقدِّر حقاً ما أخبرتني به من معلومات.. من الواضح أنكِ قد بذلتِ مجهوداً هائلاً في جمعها".

- "أفنيت في جمعها عمري كله!".. تومئ (كيتيفان) برأسها مؤمّنة.

- "ومع ذلك فهي تظلّ أساطير لا ترقى لمرتبة الحقائق.. مجرد تخيّلات للأقدمين".. يصمت لحظة وهو يتطلّع لعيني (كيتيفان) الذي ظهر ضيقها واضحاً من خلالهما.. يضيف: "أعني أن (ليليث) لم تُذكر في مصدر من المصادر الموثوقة؛ كالكتاب المقدّس على سبيل المثال".

- "من قال هذا؟!".. تقولها (كيتيفان) مستنكرة، تضيف وعلى شفتيها ابتسامة غريبة: "ذُكرت (ليليث) باسمها في الكتاب المقدّس.. سفر (أشعياء) الإصحاح 34 الآية 14 في وصف خراب (أيدوم)، حيث سُلّط على المدينة عذابات مهلكة، كان منها (ليليث) وبضع حيوانات لها تمثل شيطاني".. تخرج (كيتيفان) من طيّات ثيابها نسخة من الكتاب المقدّس.. تفتحه وهي تشير إلى الإصحاح المقصود.. تضيف: "تنوعت تسميتها في الترجمات المختلفة لهذا السفر ما بين (طائر الليل)، و(وحش الليل)، و(البومة النائحة)، و(لاميا)، إلا أن أغلب الترجمات اتفقت على تسميتها بـ (ليليث).. في ترجمة (فان دايك) العربية التي تعتمدها كنيستكم المصرية، ذُكرت بلفظ (الليل) وهذا يعود بنا إلى أصل التسمية كما أسلفت".

ينظر إليها (غسّان) صامتاً، بينما هي تقلّب صفحات الكتاب المقدّس.. بدا له علمها وكأنه غير محدود.. تشير (كيتيفان) إلى إحدى الصفحات: "ذُكرت (ليليث) أيضاً بصفاتها في الإصحاح الثاني من سفر (الأمثلة) في الآيات من 16 وحتى 19 بشكل يكاد يكون متطابقاً لما ورد في مخطوطة البحر الميت (4 - 148 - Q)، التي ذكرتها آنفاً.. كذلك ذُكرت بشكل أكثر غموضاً في الإصحاح الأول والثاني من سفر (التكوين).. السفر الأول في الكتاب المقدّس.. ربما كان هذان الإصحاحان هما السبب في نشوء أسطورتها كأنثى أولى من قبل (حواء)".. تصمت (كيتيفان) وهي تنظر إلى عيني (غسّان) المتسائلتين..

"يشير الإصحاح الأول من سفر (التكوين) في الآيتين 27 و28، أن الرب قد خلق الإنسان على صورته من ذكر وأنثى وباركهم وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض.. ثم يعود سفر التكوين فيشير في إصحاحه الثاني الآية 21 و22، إلى أن الرب قد أوقع سباتاً على (آدم)؛ فأخذ واحدة من أضلاعه وبنى من الضلع لآدم امرأة... لاحظ أن العهد القديم قد اعتمد الترتيب الزمني لأحداثه؛ فكل حدث فيه سابقاً زمنياً لما يليه.. إذاً هناك امرأتان: إحداهما وُجدت مع (آدم) والأخرى خُلقت من (آدم)".

- "يظلّ هذا استنتاجاً!".. يقولها (غسّان) بخفوت، وكأنه يودّ ألا تصل كلماته إلى مسامعها.. يضيف: "إذاً أنتِ تظنين أن (ليليث) هي الأنثى الأولى حقاً؟".

- "أنا لا أظن شيئاً.. وددت أن تعرف ما أعرفه فأخبرتك".. تقول (كيتيفان) وهي تشيح بذراعها بعصبية: "(ليليث)، أو (ليليتو)، هي شيطانة قديمة.. ربما سبقت البشر

في ذلك العالم، ربما كانت هنالك منذ الأزل، هذا ما اعتقدته دوماً.. أما أصلها المبهم فلا يعني لي الكثير".

- "أخبرتني قبل مغادرتك بالأمس، أن (ليليث) لم تتلبّس أمك (تمار)، قلتِ أنها كانت (بعلزبول).. ماذا عنيت بذلك؟ ما أعلمه أن (بعلزبول) اسماً من أسماء عدة للشيطان".. يسحب (غسّان) مقعداً خشبياً ويجلس مواجهاً (كيتيفان)، بعد أن كلّت قدماه من طول الوقوف.

- "(بعلزبول) هي ابنة (ليليث).. واحدة من أصحاب المجد".. تقولها (كيتيفان) وهي تعيد دفن الكتاب المقدّس في طيّات ثيابها السوداء.

- "ابنتها!!".. يقولها (غسّان) بدهشة.

- "ذكرت المصادر اليهودية التي ذكرتها لك سابقاً، أن (ليليث) قد تزوّجت من الملاك (صموئيل).. منه أنجبت أصحاب المجد".. تقولها (كيتيفان) وهي تهزّ رأسها إيجاباً.

- "تزوّجت أحد الملائكة؟!".. يتساءل (غسّان) مستنكراً.

- "(صموئيل).. الملاك الذي هوى.. المطرود من السماء.. المحروم من رحمة ربه.. تعرفه أنت باسم آخر".. تصمت لحظة وهي تتطلّع إلى وجهه: "تعرفه بـ (إبليس)!".

الفصل الرابع عشر

أشرافها ليس هناك من يدعونه للمُلك، وكل رؤسائها يكونون عدماً.
ويطلع في قصورها الشوك. القريص والعوسج في حصونها؛ فتكون مسكناً للذّئاب
وداراً لبنات النّعام.
وتُلاقي وحوش القفر بنات آوى، ومعز الوحش يدعو صاحبه. هناك يستقرّ الليل
ويجد لنفسه محّلاً.

سفر أشعياء – الإصحاح 34 – (12- 14)

قل لمن لام في الهوى

هكذا الحب قد أمر

إن عشقنا فعذرنا

أنّ في وجهنا نظر

تتمتم (سيالا) بكلمات الأغنية الملحّنة بعربيتها الشنيعة.. كست شفتيها ابتسامة واسعة، بدا وكأنها قد خُلقت هناك.. تحيي بابتسامتها رواد سوق المدينة العامر وهي تتنقل كفراشة من هذا الحانوت إلى ذاك.. أكسب دفء وجودها السوق حيوية، فأخذ الباعة ينادون على سلعهم كديوك أشرقت عليهم الشمس فشرعوا في الصياح.. هي سعيدة.. عندما تسللت يدا (غسّان) إلى جسدها تسللت السعادة إلى قلبها، لم تخفت سعادتها بمرور الوقت، بل نمت حتى صارت شجرة وارفة ظلّلت كل من قابلته؛ فطفق الباعة يبتسمون بلا سبب.

تدخل إلى أحد الحوانيت فتحيي بائعة الخُضار العجوز بابتسامتها العذبة.. تُحكم العجوز ربط وشاحها القصير فوق رأسها وهي تنظر لها بعينين رماديتين تغضّنت جفونهما.. لا ترد تحيتها.

- "متى عدتِ؟".. تسأل البائعة العجوز بصوت كساه العبوس.

- "بالأمس!!".. ترد (سيالا) وهي تضع بعض حبّات البندورة الطازجة في كيس ورقي.

- "ومتى سترحلين؟".. تسأل العجوز بذات العبوس.

- "لا أدري!".. تقولها (سيالا) وقد توقّفت عن التقاط الثمار.. تختفي ابتسامتها عن وجهها.. تتطلّع للحظة في وجه العجوز الذي حفر فيه الزمن أخاديد عدة.. تكمل: "لمَ تكرهيني؟! دائماً ما فعلتِ!!".

- "كنت أعرف أمك!".. تقولها العجوز كأنها تبصق.

- "كانت أمي أكثر أهل البلدة كرماً ونبلاً!".. تجيب (سيالا) وقد عقدت ذراعيها أعلى صدرها.

- "أحقاً؟".. تقولها العجوز بسخرية وهي تميل إلى الأمام فتنظر في عيني (سيالا) مباشرة، تبادلها الأخيرة النظرة بمثلها.. تلتقط الكيس الورقي بهدوء وهي تلقي للعجوز بعض الـ (لاريات).

- "شكراً!".. تقولها وهي تغادر الحانوت.. ينعقد حاجباها في غضب إذ تسمع من خلفها صوت البائعة العجوز، وهي تحدّث جارتها في الحانوت المقابل:

- "بات الأجنبي ليلته في منزلها.. ربما كان الفُرس أكثر منّا مروءة، هم يقتلون الزانيات".. تهمّ (سيالا) بالالتفاف وقد عزمت على توبيخ العجوز.. إلا أنها تتسمّر فجأة، وقد لمحت السيارة الـ (تويوتا) السوداء وقد توقّفت على ناصية السوق.. استند على مقدّمتها شخص ما لا يكفّ عن النظر إليها بحدّة.. شخص قوي البنية، أبيض البشرة، أصلع الرأس، يبدو أجنبياً.. أوروبياً على الأرجح.

تطيل (كيتيفان) النظر إلى وجه (غسّان) الذي عجز عن قول كلمة واحدة.. همّ بالحديث أكثر من مرة، إلا أن أفكاره المتلاطمة كأمواج محيط هائج أغرقت كلماته المرة تلو المرة..

-"هل يمكنني التدخين؟".. أخيراً يجد لسانه الكلمات.

-"لا!".. تقولها (كيتيفان) بهدوء.. يعود الصمت ليخيّم على المكتبة الحجرية لبرهة..

"كل ما أخبرتك به سابقاً يسهل الوصول إليه للباحث المدقِّق.. هي معلومات متاحة للعامة".. تميل إلى الأمام وهي تنظر إلى عيني (غسّان) بعينين حادتين: "لكن ما سأخبرك به الآن، فمعرفته غير متاحة سوى لقلة من كبار رجال الدين.. معرفة احتوتها دفّتي كتاب عتيق بقسم خاص بأعرق مكتبة دينية.. قسم محرَّم ليس فقط على من هم مثلي من الراهبات التافهات الشأن؛ بل هو محرم على أغلب الأساقفة ذاتهم!".

- "كيف عرفتِ ما به إذاً؟".. يتساءل (غسّان) في حيرة.

- "سرقته!".. تقولها (كيتيفان) ببساطة: "سرقته وقرأته وأعدته.. اختفاء ذلك الكتاب من تلك المكتبة كان ليكلّفني حياتي ذاتها".

- "مكتبة الفاتيكان؟".. يوجّه لها (غسّان) تساؤله في توجّس.. لا تجيب (كيتيفان) سؤاله.. اكتفت بابتسامة مبهمة.. يهزُّ (غسّان) رأسه متفهماً: "حسناً.. كُلّي أذان صاغية".

- "فلتلتقط بعض الصور أولاً للمكتبة.. ربما اقتحمت الأم (مريام) الحجرة في أي وقت".. تقولها (كيتيفان) ثم تنهض من على كرسيها إلى باب المكتبة الخشبي العتيق.. تلقي نظرة طويلة عبره ثم تغلقه بهدوء؛ فيصدر الأخير صريراً مزعجاً.. تعود لتجلس على كرسيها ببطء.. تقول: "أكره صوت الصرير.. كان لأمي صوتاً مثله!".. لا يرد (غسّان).. انهمك في التقاط عدة صور عشوائية لرفوف المكتبة وصليبها الخشبي

العملاق.. تتابعه (كيتيفان) ببصرها حتى انتهى فعاد ليجلس على كرسيه ناظراً إليها بصمت.

"أمراء الجحيم السبعة كما أسمتهم الكنيسة.. أو أصحاب المجد كما أسمتهم أمهم (ليليث).. هم أقدم أبنائها وأقواهم.. ستة سابعتهم أمهم.. يمثّلون الخطايا السبعة المهلكة.. أتعرفها؟".. يهزُّ (غسّان) رأسه نفياً فتضيف: "الغرور، الحسد، الغضب، الكسل، البخل، النهم، الشهوة".. قالتها بالجورجية كما هي العادة فترجمها (ساندرو) إلى الإنجليزية.. تتسعُ عينا (غسّان).. بدت الكلمات الجورجية مألوفة لمسامعه.

- "أختاه.. هلّا أعدت على مسامعي تلك الخطايا!".. يقولها (غسّان) وهو يشير إلى (ساندرو) بأن يتوقّف عن الترجمة.

- "سياماك.. شُيري.. ريسكفا.. سيزروماتس.. جامازجروبت.. تشوتشكياني.. سيرفيلي".. تقولها (كيتيفان) ببطء وهي تنظر إلى (غسّان) في حيرة.

- "(أنطوان)!!".. يقولها (غسّان) وقد شردت عيناه متذكراً انهماك (أنطوان) في تكسير سلاميات أصابعه وهو يرسم الـ (سبتاجرام) الدموية على جدار غرفته بينما يردد ذات الكلمات.

- "كل شيطان من أصحاب المجد يمثّل إحدى الخطايا السبع.. بها يوسوس لابن آدم حتى تتمكن منه فتهلكه.. فالغرور هو (لوسيفر)، والحسد (بعلزبول)، والغضب (ساتان)، والكسل (أبادون)، والبخل (مامون)، والنهم (بيلفجور) أمّا الشهوة".. تصمت (كيتيفان) وهي تنظر إلى (غسّان)..

- "أمّا الشهوة فـ (ليليث)؟!".. يكمل الأخير بصوت خافت..

- "عرفهم البشر بأسمائهم منذ زمن سحيق، وإن كانت معرفتهم بهم مبهمة تتخبط في ظلال الجهل والخرافة والظنون؛ فألبسوا إناثهم لباس الذكور حيناً وخلطوا أسماءهم أحياناً".. تهزّ (كيتيفان) رأسها مؤمِّنة.

- "لم يكن (بعلزبول) شيطاناً ذكراً".. يتمتم (غسّان) بنبرة متفهّمة.

- "كانت شيطانة الحسد أنثى.. كن واثقاً من هذا".. تقولها (كيتيفان).. تضيف بنبرة تشوبها السخرية: "أشبعتني من حنانها أياماً طوالاً في (متسخيتا)".. تنظر لـ (غسّان) كأنها ترى وقع كلماتها عليه ثم تضيف: "عموماً لا تعني الأسماء التي أطلقها عليهم البشر شيئاً.. هم يعرّفون بعضهم بعضاً بلغة غير منطوقة"..

"أرضعتهم أمهم كرهها لبني (آدم) فامتلأوا حقداً عليهم.. هم يخوضون ضد البشر حرباً أزلية.. وكأي حرب أخرى؛ هي عرضة دائماً لتغيير استراتيجياتها، وهذا ما فعله السبعة.. ما عادوا يكتفون بالوسوسة للبشر.. صاروا يغزون أجسادهم".. تقولها (كيتيفان) بصوت كالفحيح.

- "ولمَ؟".. يتساءل (غسّان).

- "الإنسان صاحب إرادة واختيار.. ملّوا من الإيعاز له بالخطيئة التي قد يمتثّل لها أو يعصي.. فطنوا أن فتنة الإنسان على أخيه الإنسان لا يفوقها فتنة؛ فتلبَّسوا البشر ليضمنوا ارتكاب الخطيئة.. استعبدوا جسد الإنسان فصار وجودهم مادياً.. نشروا الغرور والحسد والغضب فحققوا هدفهم".. تصمت لتلتقط أنفاسها ثم تضيف كمن تحدث نفسها: "أن يصير الإنسان مثلهم خاسراً أبدياً.. خاسراً في الدنيا وفي الدينونة!"..

"في البداية كانوا حمقى كالأطفال.. كانوا يتلبّسون ذات الجسد ويتنازعونه فيما بينهم.. ما كان لجسد بشري أن يتحمّل الخطايا جميعها، فكان الشخص يُجن أو يُصرع.. كذلك احتلّوا أجساد المؤمنين والعصاة بلا تمييز؛ فكانت أرواح المؤمنين تحارب هؤلاء الضيوف الغير مدعوين بضراوة، فإمّا أن تُهلك وإمّا أن يأتيها الخلاص من بعض أولي العزم".

- "أولو العزم؟".. يتساءل (غسّان) وقد استرجع الكلمة التي ذكرها خطاب الأب (كاليستراتوس).

- "أناسٌ قبسوا قبسة من نور الرب.. فليس لأصحاب المجد عليهم سلطان.. أنبياءٌ وقدّيسون وأولياء، وحتى بعض العامة ممن أنعم عليهم الرب بنوره.. هم يقارعوهم بجلد فيهزموهم المرة بعد المرة".. تجيب (كيتيفان).. ضمّت قبضتها بقوة كأنما أرادت تكسير أصابعها.. تضيف: "كانت (مريم المجدلية) هي آخر من تلبّسها أصحاب المجد مجتمعين قبل أن يهبها المسيح الخلاص.. مشتتين فروا من أمامه.. ثم عادت (ليليث) فجمعتهم حيث وضعت لهم (ميثاقاً)".. تصمت وهي تتطلّع إلى (غسّان) كأنما تنتظر سؤاله القادم.. لا يتكلم الأخير وقد اكتفى بالتطلّع إليها بعينيه المتسائلتين.. تكمل (كيتيفان) بعبرات مسجوعة وهي تشير بأربعة أصابع:

"لا تسكنوهم إلا فرادى"

"لا تسكنوهم إلا بعهد"

"لا تسكنوهم إلا بخطيئة"

"لا تسكنوهم إلا بفداء"

- "ما معنى هذا؟".. يقولها (غسّان) متوجّساً وقد اقشعر بدنه.. كانت العبارات الجورجية المسجوعة أشبه بنشيدٍ مظلم يزفُّ الهالكين إلى الجحيم.

- "فرادى فلا يتنازعون الجسد.. أمّا العهد فهو إذعان الجسد المختار لصاحب المجد.. وأما الخطيئة فهي ما يمثّلها صاحب المجد؛ يرتكبها المختار فتوهن روحه فلا تقاوم الحلول.. وأمّا الفداء بذبح طفل فيتحقق انتقام (ليليث) من أبناء البشر؛ فتقتل منهم كما قُتل من أبنائها".. تقولها (كيتيفان) وهي تعدُّ على أصابعها الأربعة.

- "أبناء الفداء!".. يقولها (غسّان) وقد عادت ذكرى أشباح الأطفال الصارخين لتملأ عقله من جديد.

- "انطلق أصحاب المجد لينفذوا (الميثاق)؛ فاختار كل منهم جسداً بشرياً يسكنه حتى يبلى فيغادره.. يكمن في الظلام السفلي متربّصاً اقتراف (المختار) القادم لخطيئته حتى يتم الحلول الجديد".. تصمت (كيتيفان) كأنها تبحث عن كلمات..

- "المختار!!".. أخيراً فهم (غسّان) ما تعنيه الكلمة.

- "الطبيعة البشرية الفانية وإن كانت قد منحتهم التجسّد المادي فهي لحسن الحظ قد حرمتهم من الاجتماع في ذات الوقت، وذات المكان.. فكلما تجسّد بعضهم كمن البعض الآخر في الظلام بانتظار (مختارهم) القادم".. تقولها (كيتيفان) وهي تهزُّ رأسها مؤمِّنة على عبارة (غسّان) السابقة.

- "وهل حدث ذلك الاجتماع من قبل؟".. يتساءل (غسّان).

- "اجتمعوا جميعهم مرات معدودة، وكادوا أن يقودوا البشرية إلى فنائها في كل مرة.. اجتمعوا عندما اجتاح الطاعون العالم في القرون الوسطى.. اجتمعوا في الحربين العالميتين في القرن المنصرم.. باتّحادهم قادوا ملايين المعذّبين من البشر إلى الهلاك".. ترسم بيدها في الهواء ما بدا أشبه بنجمة سباعية وهي تضيف: "صارت الـ (السبتاجرام) رمزاً لاتّحادهم".

- "لم تكن الـ (سبتاجرام) خاتم (بابلون) إذاً!".. يغمغم (غسّان).

- "لم توجد (بابلون) أبداً!!".. تهزّ (كيتيفان) رأسها نفياً بقوة كأنها لا تصدّق كل هذا الغباء.. تمطُّ شفتيها ازدراءً وهي تضيف: "كان (أليستر كراولي) نصّاباً ملفّقاً.. ربما سمع شيئاً أو شيئين عن (ليليث) وتجسّدها المادي.. ربما عرف شيئاً أو شيئين عن اتّحاد السبعة الذي تمثله الـ (سبتاجرام).. مزج (كراولي) معرفته المبتورة بما قرأه عن (عاهرة بابل) في الكتاب المقدّس؛ ليخلق (بابلون) الوهمية ويتخيل تجسّدها في حبيباته، جاعلاً منها قرينة للـ (وحش) كما أطلق على نفسه وينسب لها الـ (سبتاجرام).. الحق أن (كراولي) كان نرجسياً كطفل أحمق!".. تنهي (كيتيفان) عبارتها فيسود الصمت لبرهة.

- "كانت (تمار) إحدى المختارات!!".. يتمتم (غسّان) بصوت خافت وكأنه يخشى خدش السكون الذي خيّم على الحجرة الحجرية.

- "أجل!".. ترد (كيتيفان) وهو تومئ برأسها.

- "ارتكبت خطيئة الحسد فحلّت بها (بعلزبول)!".. يكمل (غسّان).

- "حسدت أمي الجميع.. نشأت يتيمة معذّبة في ملجأ الأيتام فحقدت على العالم بأسره".. تتمتم (كيتيفان) وقد أطرقت برأسها أرضاً.

- "مازال هناك شيء غامض!".. يقولها (غسّان) وقد شردت عيناه: "يقترف البشر تلك الخطايا السبع طوال الوقت.. فكيف يختار صاحب المجد (مختاره) الجديد؟".

- "أمّا تلك فلا أعرفها!".. تهزّ (كيتيفان) كتفيها.. تضيف: "فقط أعلم أن التتويج يكون هنا".. تدق الأرض بقدميها وهي تضيف: "(خوني) هي مسرح التتويج".

- "التتويج؟".. يكرر (غسّان) الكلمة متسائلاً.

- "طقوس حلول صاحب المجد في جسد (المختار)".. تقولها (كيتيفان) بصبر نافذ وكأنها ملّت أسئلته المتتالية.. تكمل: "يجتمع من سبق لهم التتويج من أصحاب المجد في حضرة (ليليث)؛ فيذبحون طفل الفداء وهم يمجّدون أمهم".. كسا التعاطف الآسف صوتها وهي تراقب ارتعاد جسد (غسّان) من وقع كلماتها الأخيرة.

- "وكيف يختارون طفل الفداء؟".. يتساءل (غسّان) بصوت مبحوح.

- "لا شروط.. الاختيار يكون عشوائياً تماماً".. تجيب (كيتيفان).

- "لمَ اختطفوا (ياسين) إذاً؟!".. يقولها (غسّان) مبهوتاً.

- "ألم تفهم بعد؟!".. تقولها (كيتيفان) بنبرة مستنكرة.. تضيف: "اختطاف ولدك كان طعماً لجلبك إلى هنا".. تنظر لعيني (غسّان) بتعاطف مضيفة: "طعماً التقطته عن آخره".

- **"ما رأيك؟"..** يقولها (ساندرو) لـ (غسّان) بينما عيناه مثبتتان على الطريق الجبلي الوعر الذي تجتازه المرسيدس العتيقة في طريق عودتهم إلى (خوني – سولوكيدز) بعد أن غادرا الدير أخيراً.. يدير (غسّان) الجالس بجواره له عينين حمراوتين خاويتين.

- "رأيي في ماذا؟".. يقولها (غسّان) بصوت مبحوح وكأنه استيقظ لتوّه.

- "في كل هذا".. يشيح (ساندرو) بيده في عصبية مرتبكة.

- "رأيي أن أمك لم تكن تهذي على كل الأحوال".. يجيب (غسّان) بذات الصوت المبحوح وقد قبض على جبهته بأصابعه.. يهمهم (ساندرو) بعبارات اعتراضية متخاذلة لم يبيّنها (غسّان) الذي أضاف: "أنت أيضاً رأيت تلك الصورة الفوتوغرافية!.. أنت أيضاً فهمت معنى الاسم".. يهزّ (ساندرو) رأسه ببطءٍ مؤمِّناً بينما السيارة تشق طريقها إلى مشارف (خوني – سولوكيدز).

- "ماذا ستفعل؟".. يلتفت متطلّعاً إلى وجه (غسّان) الذي أخرج هاتفه المحمول.

- "وما رأيك أنت؟".. يقولها (غسّان) شارداً بينما أصابعه تعابث شاشة هاتفه.

- "رأيي أن تعود إلى بلدك.. فِر كأنما تطاردك الشياطين.. هي تطاردك بالفعل!".. يجيبه (ساندرو) عن فوره.

- "وإن كنت نذلاً بما يكفي لأترك (سيالا) لتواجه مصيرها منفردة، فهل أتخلّى عن ولدي أيضاً؟!".. يقول (غسّان) مستنكراً.

- "سألتني عن رأيي.. أعلم أنك لن تضعه موضع التنفيذ".. يقولها (ساندرو) بارتباك.. ينظر له (غسّان) نظرة طويلة كأنه يفكر.

- "لن تتوّج (سيالا) بدون قتل (ياسين).. ولن يقتل (ياسين) إلا عند تتويج (سيالا)".. يشيح (غسّان) بيديه: "هم يملكون (ياسين) ونحن نملك (سيالا) فلنحافظ على ذلك التوازن.. هو يضمن سلامتهما سوياً".

- "إلى متى؟".. يتساءل (ساندرو) بصوت خافت كأنه يخشى إغضابه.

- "إلى أن أجد وسيلة لاستعادة (ياسين)!".. يقولها (غسّان).. يضيف بعصبية: "بعدها سأفِر كأنما تطاردني الشياطين.. أعدك!".. يعابث شاشة هاتفه المحمول مجدداً وهو يقول: "(ساندرو).. فلتقلّني إلى بيت (سيالا).. هي لا تجيب على اتصالاتي الهاتفية".. يهزّ (ساندرو) رأسه وهو يدير مقود السيارة متجهاً نحو بيت آل (جاتشافا).

- "ها هي واقفة أمام المنزل.. يبدو أنها قد نسيت هاتفها بداخله".. يشير (ساندرو) بسبّابته إلى (سيالا) التي بدت لناظريهما عندما اجتازت السيارة مدخل الطريق الترابي الواسع.. واقفة هي أمام بوابة منزلها.. تشيح بذراعيها في عصبية وقد بدت أنها تحدّث شخصاً ما أخفاه جذع إحدى الأشجار عن عيونهم.. يعتدل (غسّان) قلقاً في مقعده داخل المرسيدس العتيقة التي اجتازت النصف الأول للطريق الترابي.. يستطيع الآن رؤية الشخص الذي تحدّثه (سيالا).. شخص قوي البنية، أبيض البشرة، أصلع... هو أوروبي على الأرجح.

- "اللعنة.. أسرع يا (ساندرو)".. يهتف بها (غسّان) فتدعس قدم (ساندرو) دوّاسة الوقود لا إرادياً.. تثير إطارات المرسيدس عاصفةً من الغبار تحجب عنهم الرؤية للحظة.. ينقشع الغبار فتتسع عينا (غسّان) في ارتياع وهي ترى الأوروبي الضخم وهو يدفع (سيالا) عبر الباب الخلفي للـ (تويوتا) السوداء التي بدت وكأنها برزت من العدم.. تنطلق الـ (تويوتا) قبل حتى أن يستقر الضخم بجوار (سيالا) على المقعد الخلفي؛ فتثير عاصفة جديدة من الغبار حاجبةً الرؤية عن (غسّان) الذي انهمرت لعناته بلا توقف.. تتجاوز الـ (مرسيدس) سحابة الغبار، فيرى (غسّان) الـ (تويوتا) السوداء وقد انطلقت عبر نهاية الطريق الترابي لتتجاوزه فيهتف (غسّان) بـ(ساندرو): "ألحق بهم.. هم يتحرّكون بأسرع مما توقعت!".

لا يبدو (ساندرو) في حاجة إلى من يأمره.. زاد من سرعة سيارته مطارداً الـ (تويوتا) عبر شوارع البلدة التي كادت أن تكون خاوية في نهاية الظهيرة.. يزفر أنفاساً ثقيلةً من أنفه التي اتّسعت طاقتاها وإن لم ينبس ببنت شفة.. يخيّم الصمت القلق على السيارة فلا يقطعه إلا صرير إطارات السيارة أو صرير أسنان (غسّان) الذي ضغط فكّيه ببعضهما فتقلّصت عضلاتهما فضلاً عمّا تقلّص من عضلات جسده فبدا

كوتر قوس مشدود.. فجأة يصدر محرّك المرسيدس ضجيجاً مزعجاً فتهتز السيارة وهي تنزلق على الطريق الأسفلتي قبل أن تتوقف تماماً.

- "اللعنة!".. يهتف بها (ساندرو) وهو يحاول إعادة تشغيل السيارة بلا فائدة، فيبدأ في إطلاق وابل من السباب الجورجي البذيء.. يغادر (غسّان) السيارة مسرعاً بينما عيناه معلّقتان بالـ (تويوتا) التي صغر حجمها تدريجياً وهي تغيب في الأفق.. يتردد لحظة ثم يطلق ساقيه للرياح في ذات الطريق الذي سلكته الـ (تويوتا) أمام عيني (ساندرو) الذي غادر سيارته بدوره.. يقلُّب الأخير عينين حائرتين بين سيارته المتعطلة و(غسّان) ثم يحسم أمره فيركض لاحقاً بـ (غسّان).

يستمر (ساندرو) في الركض عدة دقائق حتى لحق بـ (غسّان) الذي توقف لاهثاً على جانب الطريق بجوار الـ (تويوتا) الخالية التي انفتحت أبوابها كلها.. يدير (غسّان) رأسه في الاتّجاهات الأربعة.

- "أين ذهبوا؟!".. يقولها من بين شهقاته اللاهثة فيميّزها (ساندرو) بصعوبة.. يهزّ الأخير كتفيه بعد أن أعجزه لهاثه عن قول (لا أدري).

- "ما هذه؟".. يقولها (غسّان) وهو يشير إلى الأشجار الكثيفة على يمين الطريق.

- "الغابة!".. أخيراً استطاع (ساندرو) أن يلتقط الكلمات من بين براثن أنفاسه اللاهثة.. ودّ أن يضيف شيئاً؛ إلا أن قاطع (غسّان) استطراده وهو يعاود الركض مخترقاً حاجز الأشجار الكثيف.. يرتفع حاجبا (ساندرو) في دهشة، ثم يهزّ رأسه في استياءً.. يلتقط شهيقاً عميقاً ثم يعود للركض مخترقاً الغابة بدوره.. يركض لدقائق عدة بين أشجار الأرز التي تشابكت أغصانها وهو ينادي بين الفينة والأخرى: "يا دكتور".

تصل نداءاته المتكررة إلى (غسّان) الذي استمر في الركض.. عاد الألم الحارق ليتصاعد من ركبته المصابة إلى رأسه.. عشرات الأشياء التي يجهل كنهها تمزِّق لحم ساقيه فلا يدري هل هي أشواك نباتات ما، أم مخالب حيوانات مجهولة.. يضيق صدره وقد عجزت رئتاه عن استقبال المزيد من الهواء.. يدور رأسه وقد اصطبغت الموجودات بلون أحمر ينبض بانتظام مع دقات قلبه.. يتوقف أخيراً وقد أوشك على فقدان الوعي؛ فيحني ظهره وقد أمسك ركبتيه براحتيه.. يعود ليرفع رأسه متلفتاً حوله، اختلطت عليه الدروب فلم يعد يدري من أين أتى.. يمسح عن عينيه طبقة كثيفة من دموعٍ لا يدري أسبَّبَها ذعره أم مئات النباتات التي ضربت وجهه أثناء ركضه

المجنون.. لقد فقد (سيالا)!.. فقدها وفقد (ياسين)!.. كما فقد أبيه وأمه وأخيه.. فقدهما كما فقد مربيته و(مروة) و(تُقى).. (يكفي هذا).. يقولها لنفسه.. يرفع عينيه إلى السماء التي اختلست النظر إليه من أعلى قمم أشجار الأرز.. يصرخ بالعربية: "كفاية بقى.. ارحمني!".

"غسّان".. يأتيه صوتها الصارخ من مكان ما حوله.. يدور حول نفسه في جنون ليث حبيس وقد عجز عن تحديد مصدر الصوت.. يبرز (ساندرو) الراكض فجأة من خلف إحدى الأشجار وهو يشير بسبّابته إلى ما خلف ظهر (غسّان):

- "مِن هُنا!!".. يقولها (ساندرو) دون أن يتوقّف عن الركض.. يتبعه (غسّان) جرياً فيتجاوزه.. يسمع صوت (سيالا) المستغيث مرة أخرى.. صار أقرب وأوضح.. يأتي من خلف سياج من الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان.. يتجاوز (غسّان) السياج الشجري ركضاً.. يتوقف فجأة عندما يرى المشهد المألوف.. يصطدم به (ساندرو) القادم من ورائه بعنف كاد أن يسقطه..

- "اللعنة!".. يقولها (ساندرو) وهو ينظر إلى حيث نظر (غسّان).. (سيالا) ممددة على أرض سوداء جرداء إلا من بعض الحشائش القصيرة المتفرقة، أحاط بها ذات الأربعة الذين رأوهم في الفندق.. ثبتَّ كلٌّ من الإيراني والأمريكي ذراعيها المفرودتين جانباً إلى الأرض.. بينما ثبتَّ الألماني الشاب قدميها فبدت كالمصلوبة.. أعلى رأسها جلس الإنجليزي وقد مال رأسه الأصلع على أذنها.. بدا وكأنه يهمس فيها بشيءٍ ما.. أعلى الجمع الغريب انتصبت شجرة بلوط عملاقة توسطت تلك المساحة الجرداء في قلب الغابة.. بدا وكأن أشجار الغابة قد تنحّت عن تلك الرقعة العارية، وإن تزاحمت حولها في شكل دائري فبدت كمسرح روماني قديم، وقفت فيه شجرة البلوط الضخمة تترقب من سيبارزها.

ينتبه الأربعة إلى الدخيلين فيقفون متحفزين وقد حرّروا (سيالا) من بين أيديهم.. تزحف الأخيرة إلى جذع شجرة البلوط.. بها تجويف لم يصنعه صانع، بدا أشبه بكهف خشبي.. ينكمش جسدها داخل الكهف وهي تنظر بعينين زائغتين إلى (غسّان) الذي اندفع باتّجاه الأربعة.. يقفز وقد ثبتَّ راحتيه على كتفي الإنجليزي الأصلع.. تطير قدماه فتصطدم إحداها بوجه الألماني الشاب بعنف؛ فيتهاوى الأخير أرضاً.. تعود قدما (غسّان) إلى الأرض فيرتكز على يسراه المصابة بينما ترتفع يمناه من جديد ضاربة الإنجليزي الضخم في صدره.

ترى (سيالا) جسد الضخم وقد طار في الهواء ساقطاً أسفل قدمي (ساندرو)، الذي قبض بقبضتيه الضخمتين على رقبتي الأمريكي والإيراني وقد انهمك في طرق رأس كل منهما بالآخر مطلقاً سيلاً من السباب الجورجي.. يهرع (غسّان) إلى (سيالا) المنكمشة في الكهف الخشبي.

- "هل أنتِ بخير؟".. يهتف بها (غسّان) بصوت لاهث.. نظرة متفحّصة قلقة تملأ عينيه.. تهزّ (سيالا) رأسها وقد عجزت عن الكلام.. حجب جسد (غسّان) عنها ساحة المعركة فلم ترَ الإنجليزي الضخم وقد نهض وقد كوّر قبضته لاكماً مؤخرة رأس (ساندرو) بكل ما أوتي من قوة.. يطلق الأخير صرخة ألم قصيرة وقد ترنّح جسده للحظة.. ينتبه (غسّان) لصوت الصرخة فيلتفت إلى (ساندرو) الذي ارتخت قبضتاه القابضتين على عنقي الرجلين فيخلّصان نفسيهما من بين براثنه.. يطلق الثلاثة سيقانهم للرياح ليلحقا بالشاب الألماني الذي سبقهم إلى الفرار.. فيختفون جميعاً بين الأشجار الكثيفة.. يهرول (غسّان) إلى حيث سقط (ساندرو) على ركبتيه فيطمئن عليه.. ينهض الأخير.

- "لقد ضربني ابن الزنا.. لا أحد يضرب (ساندرو)".. يقولها (ساندرو) وهو يدلّك مؤخرة رأسه براحته.. يهمّ بمطاردة الأربعة الهاربين.. يقبض (غسّان) على ساعده الضخم.

- "يكفي الآن يا (ساندرو)! هي بخير".. يقولها (غسّان) لاهثاً.. يعرج عائداً إلى جذع شجرة البلوط بعد أن عجزت ركبته المتألمة عن حمله بشكل لائق.. يحيط خصر (سيالا) بذراعه فتستند عليه وهي تنهض.. تترنّح وقد عجزت عن الوقوف.. يساعدها (غسّان) لتعاود الرقاد.. ينظر إلى (ساندرو) كأنه يسأله المشورة..

- "سنتناوب في حملها حتى منزلها".. يقول (ساندرو).. مازال وجهه يحمل علامات الألم.. يرمقه (غسّان) بنظرة مستنكرة فيضيف وهو يشير بسبّابته إلى إحدى الاتّجاهات: "يفصلنا عن بيت آل (جاتشافا) كيلو متر واحد تقريباً".. يكمل وقد لاحظ النظرة الغبية في عيني (غسّان): "البلدة تشكّل هلالاً حول الغابة.. بيت آل (جاتشافا) في أحد طرفيّ الهلال، بينما توقفت الـ (تويوتا) عند طرفه الآخر.. نحن ركضنا في الغابة عائدين إلى طرف الهلال الأول حيث البيت".

- "فهمت".. يقولها (غسّان) باقتضاب.. ينحني فيحمل (سيالا) بين ذراعيه بحنان.. تتحسّس الأخيرة وجنته التي كساها العرق براحة باردة.

- "أنت أنقذتني!".. تقولها (سيالا) وقد اتّسعت عيناها التي أخذت تلثم كل ملامحه بنظراتها.

- "هذا ما كان ليفعله أي فرد من العائلة".. يقولها (غسّان) وقد عادت روحه لتغوص في عينيها.

- "العائلة؟!".. تتمتم (سيالا) متسائلة.. يصمت (غسّان) للحظة ثم يبدأ في السير في الاتّجاه الذي سبقه إليه (ساندرو).. يجيب بخفوت كأنه يودّ ألا تسمعه.

- "عائلتي.. عائلة (سولوكيدز) النبيلة".

- **"(ساندرو).. هاتف.. يتكلم"..** تقول (كيتيفان) الواقفة أمام مدخل منزل آل (جاتشافا) الكلمات الإنجليزية المتضعضعة، وقد رفعت قبضتها بجوار أذنها صانعة إشارة الحديث في الهاتف.. يهزّ (غسّان) رأسه متفهماً وهو يفسح لها طريقاً لدخول المنزل.. تمرُّ عبره بينما عيناها الزرقاوتان الضّيقتان لا تكفّان عن الدوران وكأنهما تبحثان عن شخص ما.. تردد وعيناها لا تكفّان عن الدوران: "سيالا؟.. سيالا؟".

- "صرت تغادرين الدير كثيراً يا أختاه".. يقولها (غسّان) وقد ضايقته نظرات (كيتيفان) المقتحمة للمنزل وكأنها تُعرِّيه.. تلتفت إليه (كيتيفان) متسائلة.. لم تفهم كلماته الإنجليزية.. يمطّ (غسّان) شفتيه في استياء عجز أن يخفيه.. يتناهى إلى مسامعه صوت (ساندرو) الجهوري القادم من مدخل المنزل.

- "لا أثر لهم كما توقعت أنت.. غادروا الفندق صباح اليوم.. بهذا أخبرتني السيدة (ناتيلا)".. يقولها (ساندرو).. أطنان من الشحم الأسود غطّت ذراعيه حتى كوعيه.. يضيف: "انقطع سير المحرّك.. استطعت تغييره أخيراً".. ينظر إلى دورة المياه التي انغلق بابها.

- "(سيالا) في الداخل".. يقولها (غسّان) وقد لاحظ نظرات (ساندرو).. يضيف: "تلوّثت كلياً بالوحل وبقايا القيء".

- "ماذا حدث بالضبط؟".. تقول (كيتيفان) بالجورجية في ضيق وهي تتابع حوارهما باللغة الإنجليزية في جهل.. ينظر لها (غسّان) متسائلاً فيسرع (ساندرو) بالترجمة.

- "ليس هناك الكثير من التفاصيل".. يهزُّ (غسّان) كتفيه.. يستطرد: "في السوق، لاحظت (سيالا) أن هناك من يتتبعها.. ذات الأشخاص الذين لاحظت أنهم يراقبونا من قبل.. عادت مسرعة إلى المنزل.. بعد عودتها بدقائق دقَّ بابها ذلك الإنجليزي الضخم.. سألها عن أحد العناوين الوهمية فأخبرته أنها لا تعرف، ثم أخبرته أنها

سئمت هذا العبث وأنها قد لاحظت ملاحقتهم لنا منذ كنا في (تبليسي).. سألته عمّا يخفيه فلم يجب.. دفعها دفعاً إلى الـ (تويوتا) السوداء حيث كان الثلاثة الآخرين داخلها.. وعندما حاولت المقاومة لكمها بقوة خلف أذنها ففقدت الوعي.. عادت إلى وعيها في الغابة فوجدت الأخير يهمس في أذنها بكلمات لم تتبينها".

- "ثم؟".. تتساءل (كيتيفان) وهي تجلس على إحدى الأرائك بجوار المدفأة.

- "ثم نصب لهم الدكتور سيركه الخاص!".. يجيبها (ساندرو) بالجورجية ضاحكاً دون أن ينتظر إجابة (غسّان).. يهزُّ (غسّان) رأسه كمن سئم هراء (ساندرو).. فهم الجملة الجورجية دون ترجمة.. كررها (ساندرو) ما يزيد عن مائة مرة منذ غادروا شجرة البلوط.. يهمّ بقول شيء ما لولا أن قاطعه صوت (سيالا) قادماً من دورة المياه منادياً باسمه.. يتّجه إلى دورة المياه.. يطرق بابها..

- "ادخل.. لم أغلق الباب من الداخل".. يأتيه صوتها الخفيض من خلف الباب.. ينظر إلى (كيتيفان) و(ساندرو) اللذان راقباه.. يشيح (ساندرو) بعينيه بينما بقت عينا (كيتيفان) مسلّطتان على وجهه كعيني صقر.. يتردد لحظة ثم يفتح الباب بهدوء، ثم يعود ليغلقه خلفه بإحكام.. يراها وقد رقدت في حوض الاستحمام؛ فلا يظهر منها سوى ركبتيها الناصعتين ورأسها الذي حملته رقبتها المرمرية الطويلة.. يتأمل (غسّان) وجهها الشاحب الذي التصقت به بلا نظام خصلات شعرها المبلل.

- "(سيالا) هل أنتِ بخير؟".. يتساءل في قلق.

- "تقيأت ثانية".. ترد (سيالا) بصوت خافت.

- "هو أثر الضربة.. لا تقلقي ستكونين بخير".. يقولها (غسّان) مطمئِناً.

- "كلما حاولت النهوض تميد بي الأرض.. عجزت عن مغادرة حوض الاستحمام".. تقولها (سيالا) وقد شردت عيناها.

- "دعيني أساعدك".. يقولها (غسّان) متردداً؛ فتهزّ (سيالا) رأسها أن نعم.. يرتكز على ركبتيه على الأرضية المبتلّة الزلقة.. تقبض (سيالا) على ذراعه بيسراها بقوة فيجفل.. ترفع يده إلى شفتيها اللتين انطفأ احمرارهما المتوهّج فبدتا كشعلة خامدة.. تُقبّل يده وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين.. يبتسم (غسّان) مرتبكاً.. تعود فتحمل يده بيسراها وقد أزاحت عن ثديها الأيسر الصابون الذي غطّاه بيمناها.. تضع يده على ثديها وهي تضغطها بقوة.. مازالت تنظر إليه بعينيها الكاشفتين فتلمسان قاع روحه.. "ماذا تفعلين؟".. يقولها (غسّان) بصوت مبحوح.

- "لم أرها سوى الآن".. تنظر إلى حيث وضعت يد (غسّان).. تتابع عينا الأخير عينيها فيراها.. أعلى ثديها الأيسر.

- "ما هذه؟".. يتساءل (غسّان) متوجّساً وعيناه تتفحّصان الوشم الأزرق الصغير.. تردُّ (سيالا) بهدوء:

- "(سبتاجرام)!!"

الفصل الخامس عشر

هي تسري في الليل، تثير أبناء الرجال فيدنّسون أنفسهم

الزوهار (19 ب)

مازال (غسّان) جالساً على ركبتيه بجوار حوض الاستحمام الذي رقدت فيه (سيالا) بينما التصقت عيناه بذلك الوشم الصغير على جسدها.. تقول الأخيرة:

- "غطّى ألم رأسي على كل شيء آخر.. عندما خفّ ألمه أحسست بألم الوشم الحارق.. رأيته عندما خلعتُ ثيابي في دورة المياه".

- "يجعلك أجمل!!".. يقولها (غسّان) بصوت حاول أن يجعله مرحاً؛ فجاء متوتّراً مرتبكاً.. تعود (سيالا) لتنظر إلى عينيه طويلاً.

- "أرى كل ما يعتمل داخل روحك وإن كتمه لسانك".. تقولها وقد أمالت رأسها فأراحته على كتفه: "أنا متعبة.. أريد أن أنام".

- "فلنحملك إلى فراشك".. يتمتم بها (غسّان).. يحملها برفق، فتحيط رقبته بذراعيها وهي تلصق جسدها بجسده كهرّة مبتلّة تبحث عن الدفء في ليلة ماطرة.. يغطّيها بمنشفة عملاقة ثم يغادر دورة المياه؛ فيطالعه وجه (كيتيفان) الواقفة أمام دورة المياه.. بدا له وجهها النحيل منفراً كوجه أنثى ماعز؛ وهو من تشبّعت عيناه بوجه (سيالا) الساحر.. ترمقهما (كيتيفان) بنظرة ثابتة غريبة؛ فتحكم (سيالا) قبضتها على رقبته.. ابتسامة صغيرة تتسلل إلى ركن فمها.

-"لم تخبرني أن الراهبة في البيت!".. تقولها (سيالا) بدهشة بدت له مصطنعة.

- "جاءت لتطمئن عليكِ".. يقولها (غسّان) بضيق.. مجدداً تعود نظرات (كيتيفان) المقتحمة لتزعجه.

- "تبدين بخير حال!".. تقولها (كيتيفان) بالجورجية وهي تتأمل جسد (سيالا) من رأسها حتى أظافر قدميها.. نبرة صوتها الهجومية واضحةً.

- "وكيف لا أكون وأنا بين ذراعيه!".. ترد (سيالا) بذات اللغة وهي تهزُّ قدميها اللتين مازالتا تقطّران ماءً.. في صوتها غنج لم يعتده (غسّان).

- "عذراً.. هي بحاجة للراحة".. يقولها (غسّان) بالإنجليزية منهياً الحوار المسموم بين المرأتين، وقد خمّن محتواه.. يضع (سيالا) في فراشها، ثم يخرج مغلقاً باب الغرفة بإحكام.. يعود إلى الردهة حيث عادت (كيتيفان) لتجلس بجوار المدفأة.. على الأريكة المجاورة تمدد (ساندرو)، سال اللعاب من زاوية فمه وقد غلبه النوم.. توقظه كلمات (كيتيفان) فيترجم بصعوبة.

- "ما الأمر؟".. تسأل (كيتيفان).. نظرتها المقتحمة انتقلت إلى صوتها.. ينظر لها (غسّان) في غيظ.. ودَّ أن يحملها من أنفها الكبير ملقياً بها خارج المنزل ككيس قمامة أسود.. ما كان ليتحمّل تدخلها في شؤونه الخاصة لولا احتياجه لها.. هي بئر معلومات لا ينضب.

- "سبتاجرام زرقاء.. وُشمت هنا".. يشير (غسّان) إلى جانب صدره الأيسر.

- "ذات العلامة التي وجدوها على جسد (آليس) ابنة (آنا).. لقد وصمت الفتاة!".. تقولها (كيتيفان) كمن يحسم أمراً.. تنهض من أريكتها.. تهتف قائلة: "لقد أخبرتك! لقد أخبرتك!".. هي أخبرته بالفعل.. يقول (غسّان) لنفسه وهو يتابعها ببصره.. بدت في ثيابها السوداء كنسر حبيس يدور في الغرفة.. دار مثلها متوتّراً في المكتبة الحجرية منذ بضع سويعات خلت، عندما أخبرته بأن اختطاف (ياسين) كان طعماً لجلبه إلى مدينة (خوني).. وقتها سألها عما قصدته فقالت:

- "كما أخبرتك، عندما كثر القتل في البلدة؛ علمت أن تتويج أحد أصحاب المجد قد صار قريباً.. لكنني لم أعلم أياً من السبعة هو المقصود.. لم أستطع تحديد شخص المختار الجديد".. تنهّدت ثم أضافت: "حتى رأيتك بالأمس؛ فعلمت أن التتويج القادم هو لـ (ليليث)، وعلمت أن (المختارة) القادمة هي فتاتك".. نهضت من مقعدها وتقدَّمت نحوه، ثم أخذت تدور حوله كمن يتفحّص عبداً اشتراه، ثم استطردت: "عرفتها بك.. كنت أنت علامتها!".

- "ماذا تعنين؟".. تساءل (غسّان) متوجّساً.

- "بعد أن وضعت (ليليث) لأبنائها (ميثاقهم)، انطلقت تبحث عن مختارتها الأولى.. فتاة جورجية كانت قد هامت حُبّاً بأحد فتيان بلدتها.. تحت جسده ارتكبت خطيئتها!".. تشير إلى صدره بسبّابتها، وهي تقترب منه، فتمس سبّابتها أعلى صدره..

- "الشهوة!!".. قالها الأخير بينما أذناه لا تكفّان عن استرجاع تأوهات (سيالا) الشبقة بالأمس.

- "التتويج لم يزد الفتاة التي صارت (ليليث) إلا حُبّاً للفتى صاحب الفضل في منح المختارة خطيئتها الأولى.. سرى حب الفتى من روح الفتاة إلى روح (ليليث)؛ فصار معشوقها الأبدي".. نظرة غريبة كست عيني (كيتيفان)، التي أضافت بينما سبّابتها تنزلق من أعلى صدره إلى أسفله ثم إلى بطنه: "ومع كل تتويج جديد تستدعي (ليليث) معشوقها إلى حيث المختارة الجديدة.. وفي كل مرة يقع الفتى في حبِّ المختارة، وفي كل مرة ترتكب خطيئتها تحت جسده".

- "وهل أنا ذلك العاشق الذي لا يموت؟!".. تساءل (غسّان) بسخرية وهو يتراجع متفادياً لمسات (كيتيفان) الجشعة.. نظرة محتقرة جالت في عينيه.

- "هي تستدعي من هم من نسله.. ظننت هذا واضحاً!!".. مطَّت شفتيها وهي تتراجع.. خفضت سبّابتها وهي ترمقه بنظرة مزدرية.

- "هل تدّعين أنني من نسل ذلك العاشق الأول؟!".. تساءل (غسّان).. لم تختفِ السخرية من صوته تماماً.

- "أنا لا أعرف عن العاشق الأول، أو المختارين الأوائل سوى القصص المرسلة.. لكنني عرفت (آليس) ابنة (آنا).. المرأة القرمزية.. تجسّد (ليليث) في ذلك الزمن الغابر.. أنت كشفت قبرها.. عرفت أيضاً مذكرات الحاكم (إيراكلي ميخي)، الذي تحدّث عنها وعن محبوبها (أوماري شفيلي) باستفاضة".. قالتها (كيتيفان) وهي تتجه إلى رفٍّ ناءٍ في المكتبة.. حملت بحرص ما بدا أشبه بالمخطوطات المغلّفة في حافظات من البلاستيك.. رفعت المخطوطات وهي تقول: "تلك هي المذكرات.. اهترأت بشدة بفعل الزمن.. ولكني أملك نسخة فوتوغرافية منها على كل حال".

أعادت وضع المذكرات في مكانها ثم اتجهت إلى رفٍّ جديد منه حملت نسخة المذكرات.. وضعتها على الطاولة التي ازدحمت بالكتب: "بعد مقتل (آليس) واختفاء (أوماري) من (خوني).. عاد ليظهر بعد ثلاثة أعوام في (كوتايسي) عاصمة مملكة (ايجريسي)، التي تتبعها (خوني)، كان محارباً في جيش الملك (جريجور) الأول.. أنجب ولدين هما: (أوري) و(سولوكي).. استمر (سولوكي) محارباً في جيش مملكة (ايجريسي) وأنجب عدد من الأبناء".. تشير بسبّابتها إلى فقرة محددة في النسخة الفوتوغرافية للمذكرات.. رفعت عينيها إلى (غسّان).. نظرة متشككة ملأت عينيه..

مطَّت (كيتيفان) شفتيها، وقد لاحظت تشككه: "أنت تثق بمترجمك الضخم هذا؟ جيد جداً.. (ساندرو) علّك تستطيع قراءة هذه الفقرة!".

- "جورجية قديمة جداً هي.. ولكني أظنكِ على صواب يا أختاه".. قالها (ساندرو) بعد أن استغرق عدة دقائق لقراءة الفقرة المقصودة.. التفت بعدها إلى (غسّان) وهو يقول بالإنجليزية: "هي تقول ما كتُب بالفعل في تلك المذكرات".

- "وماذا حدث بعد؟".. تساءل (غسّان).

- "اجتاح (مروان الأطرش) المملكة".. هزَّت (كيتيفان) كتفيها..

"لم أستطع العثور على أي معلومات عن (سولوكي) ابن (أوماري شفيلي) ونسله من وقت اجتياح (مروان الأطرش) للمملكة وحتى القرون الوسطى"..

"منح الملك (جورج الثالث) ملك (أمريتي) عائلة (سولوكيدز) شرف النبالة، مما أعاد اسم (سولوكي) ونسله إلى السطح من جديد.. المقطع (يدز) في آخر الأسماء الجورجية يعني (ابن)؛ أي أن العائلة هي عائلة أبناء (سولوكي)"..

"استمر نسل عائلة (سولوكيدز) في التواجد في ذلك المكان بغرب (جورجيا).. المكان الذي وُجدت فيه مملكة (ايجريسي)، ومن بعدها مملكة (أمريتي)، ثم مملكة (جورجيا المستقلة)، مروراً بالحقبة الروسية القيصرية ثم الحقبة البلشفية وانتهاءً بكونها مقاطعة (أمريتي) في دولة جورجيا المعاصرة"..

"(خوني) هي إحدى مدن مقاطعة (أمريتي) الحالية.. هي موطن آل (سولوكيدز).. الذين جاء منهم (فاردين سولوكيدز) و(ألكسندر سولوكيدز) الذي سُمّيت المدينة باسمه في الحقبة الشيوعية.. وانتهاءً بـ (إيفاني سولوكيدز) صاحب مصنع النسيج الذي عمل به جدّي (كوبا جاكيلي).. كان آخر نسل (سولوكيدز).. لم ينجب ذرّيّة.. هذه هي صورته".. من طيّات نسخة مذكرات الحاكم (إيراكلي ميخي) أخرجت (كيتيفان) صورة فوتوغرافية وضعتها تحت أنف (غسّان) الذي اتسعت عيناه حتى كادتا تخرجان من محجريهما.

"أجل.. يكاد أن يكون أنت.. ربما باستثناء الشارب الضخم والوجه الممتلئ".. تصمت (كيتيفان) أخيراً معطيةً لـ (غسّان) فرصة للكلام.

- "في مصر يقولون إنّ الله يخلق لكل شخص أربعين شبيهاً".. يقولها (غسّان) متردداً وهو يحاول أن يترجم المثل المصري لـ (كيتيفان): "أتظنين أن الشبه بيني

وبين السيد (إيفاني) كافٍ لإثبات كوني أحد أفراد العائلة؟! أنا مصري يا أختاه.. أبي مصري.. وجدّي مصري".

- "ما هو اسم عائلتك يا سيدي؟".. سألته (كيتيفان) بغتة.. فجفل (غسّان) لحظة..

- "الكرجاوي!!".. قالها (غسّان) متردداً.

- "توقّعت شيئاً كهذا".. ضحكت (كيتيفان).. نظرت لعيني (غسّان) المتسائلتين وهي تضيف: "أطلق العرب قديماً على بلادنا اسم (بلاد الكرج)!!.. أنت (غسّان الكرجاوي)؛ أي (غسّان الجورجي).

يجرجر الراهب الشاب (جوجي) قدمين متثاقلتين متجهاً إلى قلاية الأب (كاليستراتوس) بدير (جيفاري).. صار يكره زيارته.. حتى النظر إلى باب القلاية الخشبي – الذي صار موصداً على الدوام – صار مرهقاً كريهاً كالنظر إلى برصٍ ميت. منذ التحق (جوجي) بالدير قبل خمسة أعوام صارت خدمة الأب (كاليستراتوس) مهمته الرئيسية.. لازمه بشكل دائم حتى صار يفهم الهمهمات الغامضة للِّسان المقطوع.. ورغم سنين خدمته الخمس، عجز الراهب (جوجي) عن صنع علاقة مودّة حقيقية مع الأب مقطوع اللِّسان.. كانت عينا الراهب المذعورة أبداً كعيني فأر.. تُمزّق كل حبال المودّة التي يغزلها الراهب (جوجي) باستمرار حتى توقف الأخير عن المحاولة.

كم تغير الأب (كاليستراتوس) في الأيام الأخيرة.. كان غريب الأطوار فازداد غرابةً.. طلب من الراهب (جوجي) أن يحضر له خمسين صليباً خشبياً.. لم يدري (جوجي) أين سيدق (كاليستراتوس) كل تلك الصلبان الجديدة.. جدران غرفته مغطاة بالصلبان بشكل كامل.. لكنه نفَّذ طلبه على كل حال.. أعطاه الصلبان الخشبية فأخذها منه بلا كلمة شكر، ثم أغلق باب القلاية الخشبي في وجهه.. صار يمنعه من دخول قلايته.. صار لا يمسُّ الطعام الذي يضعه له (جوجي) أمام باب الغرفة.

تهامس الآباء والكهنة بأن (وينو كاليستراتوس) قد أصابه خرف الشيخوخة.. (جوجي) لا يظن ذلك.. كان جدّه مصاباً بذلك الخرف، ولم يبدُ مثل الأب (كاليستراتوس).. فالأخير عيناه متيقظتان كقطٍ مطارد.. لا يبول في ثيابه كما فعل جدّه، صارت وفاة الأب (كاليستراتوس) قريبة.. هكذا قال (جوجي) لنفسه.. هؤلاء الشيوخ يتوقفون فجأة عن تناول الطعام ويصيروا عدائيين صعبي المراس كطفل نزق، ثم تتوقف أجسامهم عن العمل ويموتون.. هكذا أخبر رئيس الدير فأرسل الأخير في جلب الطبيب لفحص (كاليستراتوس).. باستثناء نحوله الشديد فهو بخير.. هكذا

أخبرهم الطبيب.. ببساطة، نصح (جوجي) بإطعامه ثم انصرف.. كأن إطعامه مهمة يسيرة!

- "أيها الأب (كاليستراتوس)".. يقولها (جوجي) وهو يطرق باب القلاية.. لا رد.. يرفع صوته بالنداء وهو يطرق الباب الخشبي بقوة أكبر علَّه يتغلب على صوت الموسيقى العالي القادم من داخل القلاية.. إحدى سيمفونيات (شوستاكوفيتش) كالعادة.. همَّ بالنداء والطرق للمرة الثالثة، لولا أن تناهى إلى سمعه ذلك الصوت الذكوري القادم من داخل القلاية ممتزجاً بموسيقى (شوستاكوفيتش)..

"نعم.. نعم.. سأتمّ مهمتي".. هكذا قال الصوت.. يرتفع حاجبا (جوجي) في دهشة.. ظنَّ الراهب وحيداً في الغرفة.. هو مخطئ إذاً!.. يعود لطرق الباب وهو ينادي باسم الأب (كاليستراتوس).. يفتح الأخير الباب.. مبعثر الثياب هو.. صار أكثر ضآلة إن كان هذا ممكناً.. ينظر إلى (جوجي) بعيني القط المطارد..

- "معي لك خطاب من مصر".. يقولها (جوجي) وهو يشير بمظروف أمسكه، بينما عيناه تجولان داخل القلاية الحجرية.. لا أحد هناك.. لا شيء سوى الكتب المكدّسة.. يغمغم الراهب ببعض الأصوات الغير مفهومة؛ فيضيف (جوجي): "أُرسل الخطاب على عنوان كاتدرائية (سفيتيتسكفالي).. ظلّ بالكاتدرائية لفترة حتى فطنوا إليه فأرسلوه لنا".. يلقي نظرة على اسم المرسل وهو يردف: "يبدو أن مرسله لم يتواصل مع قداستك منذ زمن.. (أجابيوس فانيوكس) هل تعرفه؟ لا يبدو اسماً عربياً!!"

بيدٍ مرتجفة يلتقط الأب (كاليستراتوس) المظروف، وقد تجاهل الرد على أسئلة (جوجي).. يهم بإغلاق باب القلاية من جديد؛ فيمنعه (جوجي) برفق..

"هل أنت بخير أيها الأب؟".. يقولها الأخير بينما عيناه تتفحصان القلاية مرة أخرى بسرعة.. يهزّ الأب (كاليستراتوس) رأسه بعصبية أن "نعم!"، وهو يدفع الباب بعنف مغلقاً إياه.. من الفُرجة الضيّقة بين الباب والجدار يرى (جوجي) النافذة الحجرية الضيّقة بأعلى الجدار الشمالي للغرفة.. خُيّل له للحظة أنه رأى بومة سوداء تنظر له بعينين شريرتين عبر النافذة، قبل أن يحجبها عن بصره الباب الذي انغلق من جديد.

- "يا دكتور!!".. يقولها (ساندرو) بصوت عالٍ فينتزع (غسّان) من شروده.. يلاحظ نظرات (كيتيفان) المستنكرة له.

- "لقد أخبرتك أن فتاتك هي المنشودة عندما جئتني إلى الدير صباحاً.. لكنك أبيت التصديق".. توقفت (كيتيفان) أخيراً عن الدوران في ردهة منزل آل (جاتشافا) وعادت لتجلس على أريكتها بجوار المدفأة.

- "بالعكس".. يهزّ (غسّان) رأسه: "ربما كنتُ حقاً الأخير من نسل (سولوكيدز).. ربما انتقل أحد أجدادي الأقدمين إلى بلاد العرب مع حملة (مروان الأطرش)!.. ربما بعدها.. لا أستطيع الجزم".. يصمت لحظة ثم يضيف: "ربما كان وجود أحد أبناء (سولوكيدز) مهماً أثناء مراسم التتويج.. ربما كان ذبح أحد أبنائهم ضرورياً".. يهزّ قدميه في توتّر: "فقط لا أستطيع تصديق أمر العاشق الأبدي هذا.. ربما بدا الأمر مناسباً لقصة عاطفية سخيفة للمراهقات وليست قصة كقصتنا تلك!!"

- "أنا أجدها قصة جيدة".. يعقب (ساندرو) وقد قرر الإدلاء بدلوه.. يحدجه (غسّان) بنظرة حادة؛ فيشيح بوجهه وهو يواصل الترجمة.

- "أياً كانت الحقيقة فالنتيجة واحدة.. صار تتويج (سيالا) دانياً.. كذلك قَتْلُ ولدي!!".. يقولها (غسّان) وهو يشيح بيديه بعصبية.

- "لم تعطِ العهد بعد".. تقولها (كيتيفان).. تكمل بلهجة خاصة وهي تنظر بثبات لعيني (غسّان): "ولم تقترف خطيئة.. أليس كذلك؟!"

- "وما أدراني!".. يشيح (غسّان) بعينيه بعيداً.. يضيف مغيّراً لدفة الحوار: "ما هي خطتنا الآن؟!"

- "لا شيء.. سننتظر خطوتهم التالية.. وإن كان ظنّي صحيحاً فالقادم هو التتويج.. حينها سيظهر ولدك".. تقول (كيتيفان) وقد لاحظت تجنب (غسّان) لإجابتها.

- "وماذا يفترض بي أن أفعل وقتئذٍ؟ هل أختطف ولدي من بين أيديهم ثم أطلق عليهم الرصاص؟!".. يقولها (غسّان) مستهجناً.

- "يبدو ذلك حلاً جيداً!!".. تقولها (كيتيفان) بجدية.

- "أنا لست بقاتل يا أختاه".. يقولها (غسّان) وهو ينظر إليها مبهوتاً: "حتى وإن افترضنا حدوث ذلك.. سيتوّج غيرهم.. هذا ليس حلاً!!"

- "فلتعُدْ إليه إذاً.. هو يبطن أكثر مما يظهر".. تهزّ (كيتيفان) كتفيها ببساطة.

- "من؟".. يتساءل (غسّان)؛ فتمطّ (كيتيفان) شفتيها وهي تجيب:

- "الراهب مقطوع اللسان.. (وينو كاليستراتوس)".

يفيق (غسّان) من غفوته القصيرة.. انتزعه منها صوت الباب وهو يصفق.. ينتفض من على الأريكة المجاورة للمدفأة.. يهرول إلى غرفة (سيالا) حيث أرقدها.. لا أثر لها في الغرفة.. يدور في أرجاء منزل آل (جاتشافا) باحثاً عنها بلا نتيجة..

- "سيالا!!".. ينادي بها فلا يجيبه إلا السكون البارد. كان قد اعتزم أن يبقيها تحت عينيه فهو لم يعد يرغب في مزيد من المفاجآت. بعدما انصرفت الراهبة برفقة (ساندرو)، تمدّد على الأريكة المقابلة لغرفة (سيالا) بعد أن اطمئن على كونها نائمة منتظمة الأنفاس.. مقاوماً للنعاس أخذ يتصفح النتائج التي أمده بها محرك بحث هاتفه المحمول لأصل اسم عائلته.. أطلق العرب على (جورجيا) اسم بلاد (الكرج) بلا سبب واضح للتسمية.. ابتسم وهو يسترجع ذكريات الميدان عندما أخذ يهتف هو و(مروة) ورفاقهما في حماس مجنون (ارفع رأسك فوق.. أنت مصري).. حسناً لم يكن مصرياً لهذه الدرجة إذاً!! لعدة ساعات تفحص عشرات المقالات؛ حتى هزم الدفء والرتابة جفنيه فسقطا صريعين على مقلتيه.

(أي مخبر لم ينهِ دراسته الثانوية أفضل منه في هذه المهمة).. قالها لنفسه وهو يحشر قدميه في حذائه كما اتفق.. ساعة الحائط المعلّقة على الجدار بجوار باب المنزل تشير إلى بضع دقائق بعد الثالثة فجراً.. يفتح باب المنزل بعنف فيضربه الهواء البارد بعنف أكبر.. لا أثر لـ (سيالا) على الطريق الترابي الممتد أمامه، والذي أناره على استحياء ضوء أصفر خافت قادم من عدة مصابيح إنارة بعيدة.. يدور حول المنزل فيلمح ضوءاً أبيضاً يخترق سياج الأشجار التي تفصل بين البلدة والغابة التي عادا منها منذ بضع ساعات.. يهرول باتّجاه مصدر الضوء حتى يراها.. تدثّرت بمعطفها القرمزي الذي ارتدته عندما رآها أول مرة.

- "(سيالا)!!".. يقولها منادياً الحسناء التي تشق طريقها بين الأشجار المتشابكة مهتديةً بضوء كشّاف هاتفها المحمول.. لا تلتفت.. لا تبدو أنها قد سمعته بالأساس.. لا

يكرر نداءه.. صامتاً يتبعها وهو يتجاوز الأشجار التي صارت سوداء بلون السماء عديمة القمر.. تستمر مسيرته المتعثرة الصامتة لعدة دقائق حتى يصل إلى الرقعة الجرداء التي تتوسطها شجرة البلوط الضخمة.. هي واقفة أمامها وقد أولته ظهرها.. خلعت معطفها القرمزي فتلألأ جسدها العاري على ضوء كشّاف الهاتف المحمول الذي وضعته أرضاً بجوار معطفها.. بجوارهما استقر فأس ذو قبضة خشبية.. يتأملها (غسّان) وقد عجز عن الكلام.. لم تبدُ أكثر حسناً من تلك اللحظة.. صارت كقيمة مطلقة للجمال؛ يُقاس بها ولا تُقاس هي.

- "اقترب يا (غسّان)".. تقولها دون أن تلتفت.. شعرها يتطاير بعنف فيضرب ظهرها اللؤلؤي عدة مرات.

- "ستتجمدين!! ".. يقترب (غسّان) من شجرة البلوط الضخمة.

- "كنت هنا من قبل".. تقولها (سيالا) وقد صار صوتها كالفحيح.

- "كنتِ هنا منذ بضع ساعات".. يتمتم (غسّان) في خفوت.

- "لا!!".. تهزّ (سيالا) رأسها.. تضيف: "كنت هنا عشرات المرات".. تلتفت إلى (غسّان)، ترفع يدها الباردة فتتحسس وجنته: "أنت أيضاً كنت هنا".. تقولها وهي تنظر في عينيه الشاردتين.. منذ أن رأى شجرة البلوط في الظهيرة، وهو يعلم أنه قد زارها عشرات المرات.. في أحلامه – أو لعلها كوابيسه – اليومية.

- "ارتدي معطفك، البرد قارص".. يهمّ بجلب معطفها القرمزي.. إلا أن يدها الباردة تتحرك بسرعة إلى خلف عنقه.. تجذب رأسه في اتّجاه صدرها.

- "ألقمتك ثديي.. أرضعتك لبناً ودماً".. تنحني (سيالا) المتشبّثة بعنق (غسان) حتى تفترش الأرض الجرداء.. تريح رأسه على صدرها.. أحال البرد جلدها لجلد إوزّة بلا ريش.. تضغط شفتيه على ثديها كرضيع.. تهتز أماماً وخلفاً وهي تهمس في أذنه بأغنية جورجية مازال يذكر ترجمتها..

أنتِ طيّبة وسيئة أيضاً

تبدين مثل ضباب في قلبي

أريد أن أكرهكِ

لكنكِ مرتبطة بقلبي بقوة

- "(سيالا) ما الأمر؟".. يزيحها عنه برفق.. ينهض وهو ينظر إليها بقلق.. يطلق ضحكة قصيرة مرتبكة وهو يضيف: "أنتِ تخيفينني!!".. لا ينتظر ردها.. يلتقط معطفها القرمزي ثم يعود فيدثّرها بها.. لا تقاومه هي وقد اكتفت بالنظر إلى وجهه في صمت.

- "هناك".. تشير بسبّابتها إلى بقعة ما في الأرض الجرداء.. تنهض وهي تُحكم إغلاق معطفها حول جسدها.. تلتقط الفأس ذو المقبض الخشبي.. تسير ببطء إلى حيث أشارت؛ فتنطبع على التربة الندية أثار قدميها الحافيتين.

- "دعينا نعود إلى المنزل".. يتابع (غسّان) خطواتها بقلق.. لا يجاوبه سوى الصوت المكتوم لارتطام الفأس بالأرض السوداء.. تعيد (سيالا) رفع الفأس من جديد.. ضربة ثم ضربة ثم عدة ضربات أخرى.

- "أحتاج بعض الإضاءة".. تقولها دون أن تلتفت.. فيشغِّل (غسّان) كشّاف هاتفه المحمول.. يراها وهي تزيح بعض الوحل اليابس عمّا وجدته داخل الحفرة التي صنعها الفأس.

- "علمت بأنني سأجده ها هنا".. ترفع الجمجمة الصفراء الصغيرة.

- "ما هذا؟!".. تتسع عينا (غسّان) في استبشاع، وهو يتقدم عدة خطوات مسلّطاً ضوء الكشّاف على الجمجمة التي تساقطت أجزاء من قبّتها ومحجر عينها اليسرى.

- "أحد أبناء الفداء هو!!".. تتحسس (سيالا) الجمجمة.. نظرة غريبة تكسو عينيها.. منذ متى صارتا برتقاليتين؟ أم علّه انعكاس ضوء الكشّاف عنهما.. يلتقط (غسّان) الجمجمة.. خبرته في الطب الشرعي محدودة، ولكنه خمّن أن صاحبها مات طفلاً لم يتجاوز الستة أعوام.. مات منذ مائة عام أو أقل قليلاً.. يعود لينظر إلى (سيالا) التي نهضت مجدداً وهي تقول: "وهناك".. يعود الصوت المكتوم لضربات الفأس ليصطدم بأذنيه.. المزيد من عظام الأطفال.

- "كيف عرفتِ بأمر تلك العظام؟".. يقولها (غسّان) وقد اقشعرّ جسده.

- "لا أدري.. مذ عدت من الغابة ظهراً.. صرت أعرف أشياء عدة".. تشرخت النظرة الهادئة في عينيها فطفر منهما الفزع: "(غسّان).. ماذا أصابني؟!".. جسدها كله يرتجف.. لا يرد الأخير.. يحمل عنها الفأس، يدق به الأرض الجرداء في موضع آخر لدقيقة.. المزيد من العظام.. يحفر في موضع آخر، وآخر... كلما حفر وجد!!

بعض العظام فتتها القِدَم، وبعضها الآخر مازالت تحمل بقايا لحم كساها يوماً.. يرتجف جسد (غسّان) وهو يتخيّل أن تكشف ضربة الفأس القادمة عن جثة (ياسين).

- "هي مقبرة كبيرة.. مقبرة لا تضم سوى رفات الأطفال".. يقولها (غسّان) من بين أنفاسه المتتالية وهو يلقي بالفأس أرضاً.

- "أطفال الفداء.. بلا صلاة دفنوا.. بلا تابوت وبلا شاهد دفنوا".. عبراتها تسيل من كلماتها كما سالت من عينيها.. التصقت بظهر (غسّان) اللاهث وكأنها تستمد منه الحماية.. تضيف: "فلنبلغ الشرطة!!"

- "وبما سنخبرهم؟".. يتمتم (غسّان) متسائلاً!

- "الحقيقة!!".. تهتف (سيالا) بحماس مفاجئ: "سأخبرهم بأمر هؤلاء الأربعة الذين اختطفوني في ذلك المكان الذي امتلأ بعظام قتلاهم!!"

- "لا!!".. يقولها (غسّان) قاطعة كسيف بتّار.. "سيملأ رجال الشرطة المكان كالجراد.. سيختفي أصحاب المجد.. ولربما تعثرت طقوس التتويج".

- "وهذا جيد.. أليس كذلك؟".. تدور (سيالا) حوله فتواجهه.. يشيح بوجهه بعيداً ثم يعود إلى حيث العظام.

- "سنعيد دفن العظام!".. يقولها وقد بدأ في إهالة التراب الأسود على العظام من جديد.

- "أنت تريد لذلك الأمر أن يستمر!!".. تتراجع (سيالا) بظهرها وقد اتسعت عيناها.. بدا وكأنها قد فطنت لتلك الحقيقة أخيراً.. تضيف بصوت خافت: "ظهور ولدك متعلّق باستمرار تلك الطقوس!! ظهور (ياسين) مرتبط باستحواذ تلك اللعينة على جسدي".

- "تقصدين أن ذبح (ياسين) مرتبط باستحواذ اللعينة على جسدك!!".. يلهث (غسّان) وقد انحنى مواصلاً إهالة التراب على العظام: "استمرار الطقوس سيضمن ظهور (ياسين) المختفي.. وإنقاذي لـ (ياسين) سينقذك".

- "تستخدمني طعماً!".. تهمس (سيالا) وقد استندت بذراعها على شجرة البلوط كمن خارت قواها.. يعتدل (غسّان) وهو يتطلع إليها صامتاً.

- "أتظنين أن الشرطة تستطيع إنقاذك؟ لم تنقذ الشرطة (مروة) ولم تنقذ (تُقى).. لم تنقذ الشرطة آل (جاكيلي)!!".. يقولها وهي يشيح بذراعيه بعصبية: "ما الفائدة من إبلاغ الشرطة إذاً؟!"

- "ستبدو وكأنك تخشى على حياتي على الأقل!!".. تقولها (سيالا) وقد أولته ظهرها.. تتحرّك عدة خطوات كأنها عزمت المغادرة.. يهرول (غسّان) ناحيتها.

- "ألا تعلمين كم أعاني.. ألا تعلمين أنني حتى أتمكن من إنقاذكما معاً، أقامر بحياتكما معاً.. حياة الشخصين الوحيدين اللذين أحببتهما حقاً".. يقبض على كتفيها براحتيه لتواجهه.

- "حياتي ليست ملكك لتقامر بها!".. تهتف بها (سيالا) بتوحّش.. تزيح ذراعيه عن كتفيها بعنف: "أنت لم تحبني.. أنت لم تحب أحداً.. لم تحب سوى نفسك!!".. تضيف: "أنا مجرّد جورجية حمقاء مرّت بسمائك كسحابة عابرة.. لا يعنيك إن انقشعت أو تفتتت أمطاراً!!".. تحدّجه بنظرة قاسية وهي تتراجع: "أنت لم تعرف الحب.. ربما لم تحب ولدك سوى لكونه – فقط – جزءاً منك".. لا يرد (غسّان)، فقط نظر لها نظرة لائمة طويلة.. يستدير فيعود إلى حيث الفأس.. يكمل ما بدأه من دفنٍ للعظام.

- "اقترب الفجر".. لا ينتظر رداً.. يكمل: "بعد عدة ساعات سأقصد (وينو كاليستراتوس) أرجو أن أجد لديه حلاً تطمئنين أنتِ إليه".

- "وإن لم تجد؟".. تراقبه (سيالا) وهو ينتهي من دفن آخر العظام.. يمسح عرقاً موحلاً سال على جبينه.. يرفع الفأس واضعاً ذراعه الخشبية على كتفه.

- "سأُبلغ الشرطة".. يقولها بوجه جامد ثم يخطو في اتّجاه طريق العودة إلى منزل آل (جاتشافا).. تحدّق (سيالا) في ظهره للحظات، ثم تسرع لتلحق به تاركةً شجرة البلوط العتيقة خلفها، فلم تلاحظ الأطفال الشاحبين الذين أحاطوا بالشجرة من كل جانب، وقد أخذوا يشيّعون المغادرين بنظرات صارخة.

دير (جيفاري) من جديد..

يفرك (غسّان) عينيه بقوة بينما يترجّل من السيارة التي استأجرها له (ساندرو) صباح اليوم.. السائق لا يفهم الإنجليزية؛ لهذا لم يبدِ اهتماماً بالحوار الذي دار بين (ساندرو) و(غسّان) صباحاً أمام دير (ماتخوجي) بمدينة (خوني).. كان (ساندرو) يتكئ على بندقية قديمة طالها الصدأ في عدة مواضع، أخبره (غسّان) أن يقوم بحراسة (سيالا) حتى يعود؛ فحمل البندقية على كتفة وقد تصلبت وقفته كجندي، وأخذ يستعيد ذكريات رواها له جدّه الذي حارب بذات البندقية في صفوف الحلفاء إبّان الحرب العالمية الثانية.

أخبره (غسّان) أن الدير ربما كان المكان الأكثر أمناً لبقاء (سيالا) حتى يعود.. ودّ أن تكون برفقته فلا تغفل عنها عيناه.. لكنها مازالت تعاني أثار ضربة رأسها بالأمس.. ستكون رحلتها إلى (متسخيتا) عذاباً مليئاً بنوبات التقيؤ.. ستمكث مع الأخت (كيتيفان) في غرفتها في الملحق السكني المجاور للدير.. ستعتني بها (كيتيفان) داخل الغرفة، بينما يحرسهما (ساندرو) من الخارج.. أعاد تأكيده على (ساندرو) بالانتباه والحذر عدة مرات، بينما عيناه ترنوان إلى نافذة حجرة (كيتيفان) حيث وقفت (سيالا) تنظر إليه بوجهٍ خالٍ من التعبير.. لوَّح لها مودعاً وهو يستقل السيارة بجوار السائق الذي لا يفهمه.. كان هذا من حسن حظِّه إذ ظفر بساعتين من النوم، قبل أن يوقظه السائق وهو يشير إلى دير (جيفاري) الذي توقفت السيارة أمامه.

المدخل الحجري للدير مزدحم بالسيّاح العابرين دخولاً وخروجاً.. لا مزيد من رجال الأمن العابسين لحسن الحظ.. يعبر المدخل الحجري إلى صحن الدير الذي امتلأ عن آخره بالزوّار.. لا يرى أياً من رجال الدين.. يتلفت حوله شاعراً بالارتباك وقد عجز عن تحديد خطوته القادمة.

- "أيها السيد".. يسمع من ينادي بالإنجليزية من أحد الأركان.. يلتفت فيرى الراهب الشاب الذي صرعه أرضاً منذ أسبوع.

- "معذرة أيها الأخ (جورجي) لم أرك!".. يصافح الراهب.. فيصافحه الأخير بيدٍ باردة.

- "(جوجي) هو اسمي".. يقولها بصوت نافست برودته برودة يده: "الأب (كاليستراتوس) بانتظارك"..

- "بانتظاري؟".. يسأل (غسّان) بدهشة.

- "هو في انتظارك منذ غادرت الدير سابقاً.. قال إنك ستعود".. يقولها (جوجي) وهو يتقدمه إلى الباب الخشبي العملاق للغرفة الخلفية التي اتّخذها الأب (كاليستراتوس) قلاية له.. يطرق الباب مرتين؛ فينفتح كاشفاً من خلفه عن الراهب مقطوع اللسان، مرتدياً زيّه الكهنوتي كاملاً.. مازالت ألحان (شوستاكوفيتش) تنساب داخل الغرفة وكأنها قد امتزجت بذرات هوائها، لاحظ (غسّان) أن الراهب قد ازداد نحولاً على نحوله، وإن كانت عيناه البرّاقتان تشيان بعدم وجود مرض عضال.

مازالت القلاية كما هي.. أطنان الكتب المبعثرة هنا وهناك، مئات الصلبان الخشبية مختلفة الأحجام والمثبّتة على الجدران الحجرية للقلاية، حشوة النوم المنزوية في أحد الأركان، الطاولة البلاستيكية في صدر القلاية والتي استقر عليها الـ (لاب توب) الموصّل بمكبري الصوت المتوسطي الحجم، الذين يعلوهما نسخة متقنة الصنع من لوحة الصلب لـ (فرانشيسكو دي زوربران).

- "هل أنت بخير أيها الأب؟".. يقولها (غسّان) عن فوره.. فينظر (جوجي) إلى الراهب نظرة (ألم أقل لك!).. يشيح الراهب بيده وهو يهمهم بكلماته المشوهة الغامضة.

- "هل أنت واثق أيها الأب (كاليستراتوس)؟".. يسأل (جوجي) الراهب الذي عاد للجلوس على كرسيه الخشبي أمام الطاولة البلاستيكية.. يلتفت (جوجي) إلى (غسّان) قائلاً: "يريد الراهب التحدث إليك منفرداً!".

- "كيف؟".. يسأل (غسّان) مندهشاً؛ فيهزّ (جوجي) كتفيه بمعنى أن (الأمر لم يعد يعنيه).

- "دعه هو يخبرك كيف!!".. يتمتم (جوجي) بصوت خفيض تلتقطه أذن (غسّان).. يتابعه الأخير ببصره وهو يخرج من الغرفة صافقاً بابها خلفه بعنف؛ فيسمع ذلك الصوت الرجولي الهادئ يقول من خلفه:

- "ها قد صرنا بمفردنا أخيراً.. هلمّ اجلس!"

الفصل السادس عشر

أنا المرشد. أعلن عظمته المجيدة لأخيف وأروّع كل أرواح الملائكة المُهلكة، أرواح أبناء الزنا، الشياطين، ليليث، والقرود الموّلولة والكامنون بالبرّيّة

مخطوطات البحر الميت ـ (أغنيات الحكيم)

ينظر (غسّان) في دهشة إلى مكبري الصوت الذين جاء منهما الصوت الرجولي الهادئ ممتزجاً بموسيقى (شوستاكوفيتش).. يتقدم في الغرفة الحجرية ليجلس على المقعد الخشبي الآخر المواجه للطاولة البلاستيكية.. يعود الصوت ليأتي من مكبري الصوت.

- "برنامج لتحويل الكلمات المكتوبة إلى كلام مسموع.. صار هذا سهلاً في ذلك العصر.. لم أستخدمه كثيراً.. مازلت أتدرب على طريقة استخدامه".. يحوّل (غسّان) بصره إلى الأب (كاليستراتوس) الذي تضرب أصابعه لوحة مفاتيح الـ (الاب توب) وهو ينقل عينيه بينها وبين وجه (غسّان).. يهزُّ الأخير رأسه متفهماً.

- "لماذا كنت بانتظاري أيها الأب؟".. يسأل (غسّان) رافعاً صوته ليعلو فوق صوت مقطوعة (شوستاكوفيتش).

- "توقعت عودتك ولم يخب توقعي".. ابتسامة تلوح في عيني الأب (كاليستراتوس) ولا تنتقل إلى شفتيه: "يدفعك أملك لأن تظن أنني أملك حلاً ما".. يقول الصوت الإلكتروني الهادئ الممتزج بالمقطوعة الموسيقية: "في الحقيقة أرغب في سماع ما توّصلت أنت إليه".

- "ما توصلت أنا إليه!!".. يكرر (غسّان) عبارة الراهب وقد بدا الاستنكار على وجهه.. الصوت الإلكتروني يردُّ بشيء لا يسمعه (غسّان) وسط النغمات العالية.. يهتف: "هلّا أغلقت هذه الموسيقى بالله عليك.. بالكاد أسمعك!!".

- "تلك هي مقطوعة (الفالس الثانية) لـ (ديميتري شوستاكوفيتش) الموسيقي السوفيتي.. كان شيوعياً كما يجب للشيوعي أن يكون.. أعشق ألحانه بمقدار كرهي للشيوعية نفسها.. هل ترى في ذلك تناقضاً؟".. يداعب الراهب العجوز لوحة المفاتيح، فتكفّ مكبرات الصوت عن بث الموسيقى فيسود الصمت.

- "جميعنا مملوء بالتناقضات!!".. يتمتم (غسّان) بالإجابة الجاهزة وائداً الصمت الوليد.

- "لم أكره شيئاً في حياتي كما كرهت الشيوعية بقمعها وتسلطها.. لكن.. ألم يكن للحزب الشيوعي بعض الحق في إحكام قبضته الحديدية على دولة بحجم الاتّحاد السوفيتي؟!.. بعض المجازر هنا وبعض المجازر هناك.. هذه المجازر شريرة لكنها كانت ضرورية.. ضرورية لإعطائنا سبباً قوياً لكره الشيوعية وتطلعنا للتحرر".. يدق الأب (كاليستراتوس) على لوحة المفاتيح دون أن يرفع عينيه إلى (غسّان).. بدا شارداً..

"نكره (بيلاطس البنطي) لإعطائه الأمر بصلب المسيح.. لكن تخيّل عالماً كان فيه المسيح يشيخ ويهرم ويموت في فراشه، هل كانت المسيحية لتوجد؟!".. يطوّح الراهب بذراعه إلى ما خلف ظهره فيطيح بلوحة الصلب من على الجدار.. تصطدم اللوحة بالأرض بصوت مكتوم وقد انقلبت رأساً على عقب.. ينظر الأب (كاليستراتوس) لصليب اللوحة المقلوب للحظات وقد اغرورقت عيناه بدمع محبوس.. يعود للدق على لوحة المفاتيح مرة أخرى..

"ربما كان صلب يسوع ضرورياً لنجد نحن الخلاص.. فهل نشكر (بيلاطس) أم نلعنه؟؟ نحن نلعنهم.. (بيلاطس).. (ستالين).. وكل من هم على شاكلتهما. لكن ذلك الجزء النفعي داخلنا يهمس وهو يهزُّ كتفيه (كان هذا ضرورياً!!).. لكننا لا نسمع صوته وسط البكائيات التي تتصنع النبالة والتي تعزفها أرواحنا المنافقة.. بعض الشر ضروري؛ فهو يعطي للخير مبرراً قوياً ليتجلّى وقد امتلأ تيهاً بنفسه، وهؤلاء الأوغاد الشجعان الذين يقترفون الشر بلا تردد، ربما تساووا في الأهمية مع الدعاة والمصلحين".

- "فهمت!!".. يقولها (غسّان) كلمة مقتضبة كأنه يغلق هذا الباب للحوار.. كانت التأملات الفلسفية للراهب العجوز هي آخر ما يرغب في سماعه في تلك اللحظة.. يلاحظ الأب (كاليستراتوس) تململه فيبتسم وهو يهزّ رأسه.

- "أخبرني بما عرفت عن أصحاب المجد".. يعود الصوت الافتراضي ليتردد.

- "عرفت أن فتاتي ستصير منهم!!".. يقولها (غسّان) وهو يشيح بذراعه: "تلك الفتاة التي كانت برفقتي في زيارتي الأولى لك.. هل تذكرها؟".. يهزّ الراهب العجوز رأسه إيجاباً فيضيف (غسّان) متسائلاً: "لا بد وأن هناك وسيلة لإنقاذها أليس كذلك؟"

- "لا خلاص لمن قطع عهده يا بني".. يهزّ الأب (كاليستراتوس) رأسه نفياً.

- "لكنها لم تُلقِ بأي عهد بعد يا أبتاه".. نظرة أمل تعود لتلتمع في عيني (غسّان).

- "إن كانت (مختارة) لتصير من أصحاب المجد فقد فعلت.. قطعت عهدها منذ دهور".. يتردد الصوت الإلكتروني بارداً كئيباً.. يلاحظ الراهب نظرة الحيرة في عيني (غسّان) فيعود ليكتب: "الماء يحفظ العهد.. الماء لا ينسى!!"

- "الماء؟".. يردد (غسّان) في حيرة.

- "الماء.. النطاف.. المادة الوراثية.. الجينات.. أنت أكثر دراية مني باللفظة الصحيحة".. يطرق الراهب بسبّابته على لوحة المفاتيح كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة: "قطع العهد المختارون السبعة الأوائل ومازال العهد ينتقل في نسلهم من جيل إلى جيل.. كلُّ مختار جديد هو من نسل المختار السابق".

- "ويكمن صاحب المجد في انتظار ارتكاب المختار الجديد لخطيئته ليتم تتويجه".. يردد (غسّان) كمن فهم أخيراً.. يضيف: "لم تخبرني (كيتيفان) بهذا!"

- "لم تكن تلك الحمقاء الصغيرة هي فقط من قرأت عن (ليليث) وزمرتها.. لكنني لم أكن لأسرق الكتب كما فعلت هي".. يبتسم الراهب العجوز.. هو يعلم بنشاطات (كيتيفان) السرية إذاً.. تشرد عينا (غسّان) وهو يسترجع ذكريات قريبة.

يقول (ساندرو).. لا ينتظر إجابةً.. يردف: "كان السيد والسيدة (جاتشافا) رمزاً للتقوى والنبل والكرم.. لم يتركا محتاجاً إلا أجابا حاجته، ولا مستجيراً إلا أجاراه.. فليرحم الرب روحيهما".. تشيح (سيالا) عينين حزينتين إلى النافذة المجاورة لها؛ بينما يربت (غسّان) على يدها برفق..

****

تكمل العجوز(ناتيلا): "كان أبواها أكثر أهل البلدة نبلاً وشهامةً.. وكذلك كانت عائلتا أبويها.. أنا أعرفهم منذ كنت عاملةً في مصنع الصلب في (باتومي).. هم كرام من كرام"..

- "لا يمكن أن تكون (سيالا) المختارة الجديدة.. كان أبواها أكثر أهل البلدة نبلاً.. هم كرام من كرام".. يتمتم (غسّان) بصوت سمعه الراهب بالكاد.

- "إن كانت كذلك فلا خوف عليها.. هي طاهرة كقلب طفل".. يعود الصوت الإلكتروني البارد ليتردد في القلاية الحجرية.. يزفر (غسّان) مع إجابة الراهب وقد تسللت الراحة إلى قلبه.. اطمأن على (سيالا) على الأقل.

- "من ستكون (ليليث) الجديدة إذاً؟!".. يسأل (غسّان) في حيرة.. يضيف: "ليس أنا بالتأكيد!!"

- "(ليليث) لا تتجسّد في البشر يا بني.. فقط أبناؤها هم من يفعلون!".. ينظر الراهب إلى (غسّان) وكأنه قد استغرب جهله بالأمر: "هي أسمى من ذلك.. أو أدنى!!".. يكتب الراهب العجوز عبارته الأخيرة بينما يطرق (غسّان) برأسه أرضاً واضعاً إياها بين راحتيه كعادته.. (ليليث) لا تسكن البشر!!.. سئم كل هذا الغموض والارتباك والتناقض.. هو ككرة بلهاء تتقاذفها أقدام لاعبين مهرة، فتظن أنها تشاركهم اللعب! يعود الصوت الافتراضي ليتردد: "التتويج سيكون لأحد أصحاب المجد من أبناء (ليليث)".

- "إذاً هو أنا!! أنا المختار!!".. يقولها (غسّان) بذات الصوت الخافت وقد شحب وجهه.. يشير بانطباق صدره.. حجر ثقيل يجثم عليه حتى يكاد يزهق روحه.

- "تُصرّ أن تعطي نفسك دور البطولة في رواية لم تكتب لك؟!".. يبتسم الراهب من جديد: "ابنك هو طفل الفداء.. هذا كل شيء!"

- "ولمَ ابني أنا بالذات؟!".. يقولها (غسّان) بعصبية: "أرجوك لا تخبرني بأمر عاشق (ليليث) الأبدي.. كلماتك السابقة نسفت تلك القصة من أساسها".

- "من نسل أولي العزم يكون الفداء".. يكتب الراهب عن فوره وكأنه توقع هذا السؤال.

- "من قبسوا قبسة من نور الرب!".. يسترجع (غسّان) كلمات (كيتيفان) بالأمس.

- "ربما كنت أنت وولدك من نسل أحدهم؛ بذبح طفل الفداء يتحقق انتقام (ليليث) من أبناء البشر.. ومن أولي العزم الذين هزموها مراراً".. يكتب الراهب العجوز وهو يومئ برأسه مؤمِّناً على عبارة (غسّان).

- "ولكن (ليليث) أخبرتك أن (المختار) سيقصد (سولوكيدز).. أنت أخبرتني باسمها".. يهزّ (غسّان) رأسه في ارتباك.

- "لم تكن أنت وحدك من أخبرته بالقصة".. يكتب الراهب.. يتراجع في كرسيه ممسكاً كتفه الذي آلمه من فرط الكتابة.. نظرة (غسّان) الحائرة تدفعه دفعاً لمعاودة الطرق على مفاتيح الـ (الاب توب): "أخبرت بها شخصاً آخراً قصد (سولوكيدز)، هو شخص من نسل أحد (المختارين) السابقين، شخص حللت أنت عليه بغتة بـ (سولوكيدز) فكدت أن تفسد لحظة تتويجه، شخصاً ضللك ومازال".. يرفع عينيه فتقابله عينا (غسّان) المتحفزة.. يشيح الراهب بوجهه بعيداً ثم يعود ليكتب فيتردد الصوت الافتراضي عبر مكبرات الصوت:

"شخص أراد أن يبعدك عن ساحة تتويجه.. فنصحك بالمجيء إلى هنا"

- "يا أختاه!".. لا ترد..

تعاود (سيالا) نداءها للراهبة الشابة التي وقفت أمام النافذة الزجاجية الصغيرة، تراقب الشمس التي سلكت دربها نحو الغروب، وقد سلّطت أشعتها البرتقالية على قمم الأشجار المتشابكة المحيطة بالدير.

- "ما الأمر؟".. أخيراً تستجيب (كيتيفان) للنداء.. بدت كمن استيقظت لتوّها من نوم عميق.. تلتفت إلى حيث جلست (سيالا) على أريكةٍ خشبية خشنة تشغل ركن غرفة الراهبة بالملحق السكني الخاص بدير (ماتخوجي).

- "لا عليك".. تردد (سيالا).. تستدرك مغمغمة: "قلتِ شيئاً ما.. حسبتك تحدثينني".

- "قلت لقد اقترب الوقت".. تنظر لها (كيتيفان) بثبات.

- "أجل.. سيعود (غسّان) قريباً!".. ابتسامة عذبة ترتسم على حبتي الكرز اللتين استعادتا لونهما الأحمر: "لم يغب سوى بضع ساعات ولكني افتقدته بالفعل".

- "دائماً ما كنتِ محظوظة!".. عينا (كيتيفان) الضّيقتان تنهشان جسد (سيالا) بلا رحمة.

- "أحقاً؟".. تقولها (سيالا) وهي تشدّ ظهرها فيبرز ثدياها النافران.. تضع ساقاً على أخرى؛ فينحسر ثوبها عن ساقيها المرمريتين.. ابتسامتها تنتقل من شفتيها إلى ركن فمها.

- "نشأتِ في بيت عامر بين أبوين محبّين، امتلكتِ حُسناً لا تضارعك فيه النساء؛ فتهافت عليك الرجال كفراشٍ اتّجه نحو اللهب، وعندما اخترتِ رفيقك أحسنتِ الاختيار".. تبتسم (كيتيفان) ابتسامة صفراء.

- "لا أختار سوى الأفضل".. الابتسامة الصفراء تنتقل إلى شفتي (سيالا).

- "أتعلمين؟.. حاولت غوايته وفشلت".. تشيح (كيتيفان) بوجهها إلى النافذة مرة أخرى... تتجمد الابتسامة على شفتي (سيالا) للحظات وهي تحدّق في (كيتيفان) التي أولتها ظهرها.

- "أين إيمانك يا أختاه؟ ألا تخشين الرب؟!".. تقول (سيالا) بعد برهة.. نبرة ساخرة تتسلل إلى لهجتها:

- "أتعلمين!! لولا الضخم الواقف بالباب.. لألقيتك إلى الخارج!!".. تهزّ (كيتيفان) رأسها وكأنها لا تصدّق كل هذا الهراء.

- "أعدك ألا أكرر الزيارة".. تقولها (سيالا) بذات النبرة الساخرة.. تضيف بجدّية: "توقفي عن إغواء (غسّان) فهو لم ولن يكون لكِ".

- "لا تقلقي.. هو متيّم بكِ!!".. تدير (كيتيفان) رأسها لتنظر إلى (سيالا) للحظات.. تهزّ الأخيرة رأسها في صمت وقد عادت ابتسامتها العذبة لتزيّن شفتيها.. فتعود (كيتيفان) للنظر من النافذة مجدداً.. تراهم يتسللون من خلف الأشجار الكثيفة.. تراقبهم للحظات ثم تعود فتهمس:

"لقد حان الوقت!"

ينفتح الباب الخشبي العملاق لقلاية الأب (كاليستراتوس) بعنف.. عبره يمرق (غسّان) كسهمٍ لا يولي عن شيء، تتابعه عينا الراهب (جوجي) بدهشة إذ يعبر بوابة دير (جيفاري) الحجرية مغادراً، فيصطدم كتفه بأحد الزائرين الداخلين للدير بعنف.. لا يلتفت (غسّان) ولا يعتذر لمن صدمه.. عبر البوابة الحجرية يراه الراهب (جوجي) إذ يستقل تلك السيارة الواقفة بانتظاره، فتنطلق عن فورها.. ينعقد حاجبا (جوجي) في قلق، ويسرع الخُطى نحو قلاية الأب (كاليستراتوس) المفتوحة.

- "هل أنت بخير أيها الأب؟".. يقلّب (جوجي) عينيه في القلاية الحجرية بسرعة.. مازال (كاليستراتوس) العجوز جالساً إلى الطاولة البلاستيكية الذي وضع عليها الـ (لاب توب) الموصول بمكبرات الصوت.. بدا الأب (كاليستراتوس) جامداً كتمثال شمعي يحدّق في وجه الراهب الشاب.. يكرر (جوجي) سؤاله بمزيد من القلق.. أخيراً يومئ الراهب الهرِم برأسه إيجاباً.

- "الخوف يا (جوجي)".. يكتب الأب (كاليستراتوس) دون أن يخفض عينيه.. فيتردد الصوت الرجولي الافتراضي حاملاً كلماته.. ينظر الراهب الشاب إلى مكبرات الصوت في دهشة، وقد أدرك أخيراً مصدر الصوت الذي تردد في قلاية القسّ الوحيد.. يكمل الصوت الإلكتروني قائلاً:

"طالما ظننت أن الخوف هو أقوى مشاعر الإنسان.. الخوف هو من يحمي وجودنا ذاته.. لكن أتدري ما هو الشيء الأقوى من الخوف؟.. إنه الأمل يا بني!!".. يومئ الراهب العجوز بيده برفق، ثم يعود الصوت الافتراضي ليردد: "انصرف يا بني.. باركك الرب".. لا يفهم (جوجي) الكثير من عبارة الراهب.. همهماته البكماء كانت أكثر وضوحاً من تلك الكلمات الملتوية.. يهزّ رأسه على كل حال.. يغادر القلاية مغلقاً خلفه الباب الخشبي العملاق الذي صار يكرهه.. أمّا داخل القلاية فقد نهض الراهب من كرسيه الخشبي متجهاً بخُطى متعثرة بطيئة إلى حيث حشوة نومه.. من

أسفلها يخرج ذلك الظرف المفتوح الذي احتوى الخطاب الذي أرسله له الراهب اليوناني المشلوح (متروفاتس).. يعود ليجلس إلى الطاولة البلاستيكية وهو يخرج الخطاب الذي قرأه عشر مرات على الأقل.. يعود ليقرأه من جديد:

((القاهرة))

في 31 يناير 2016

العزيز الأب / كاليستراتوس

أرجو أن يجدك ذلك الخطاب بصحة جيدة، والأهم أن يجدك حياً!! لو كان الرب قد كتب لك طول الأجل – كما أتمنى – فلا بد أنك قد تجاوزت السبعين مثلي.. لربما تساءلت عن هوية صاحب الخطاب عندما قرأت اسمي على المظروف، هذا أنا صديقك القديم (متروفاتس كريتبولس) وقد عدت لاسمي العلماني الذي أطلقه عليَّ أبي حين وُلدت: (إيجابيوس فانايوكس).. صار الاسم الذي عدت لأحمله منذ ما يزيد عن العشرين عاماً بعد أن سُلب مني كهنوتي.. أنت لا تعلم هذا وأنا لم أخبرك.. لم أجد بالاً رائقاً لتدوين الكلمات المنمّقة.. وأصدقك قولاً؛ مازلت لا أجد لها بالاً.. فلا تلومني إن لم أسألك عن أحوالك طيلة السنوات السابقة ولا تلومني إن لم أسألك الآن.. فلتكن حياً وكفى.. فإن كنت فذاك الخطاب جداً مهم.. وإن كان التراب قد احتضنك، فموتك قد تكفّل بتنفيذ ما سوف أطلبه منك في ذلك الخطاب.

لا تؤاخذني لسوء خطي فالقلم ينزلق بين أصابعي التي غلّفها قفّازي الصوفي الثقيل، لم أخلعه منذ صافحت (البابا) قبل أن يباشر بنفسه التحقيق معي.. جاءتني الرؤيا فرأيته يوقّع قرار شلحي.. لا أستطيع لومه، على كل حال.. فمصرع طفل في التاسعة أثناء جلسة لطرد الشياطين من جسده ليس بالأمر الهيّن.. وخصوصاً إن كانت الجلسة قد سبقت موافقة الكنيسة.. منذ ذلك الحين، أخذت على نفسي عهداً بألّا أخلع قفّازي أبداً ما حييت.. عليَّ أن أحبس تلك الهبة في زنزانة القفّاز.. منذ أن صرت أرى مصيري في مصائر الآخرين كمن يتطلّع إلى وجهه في مرآة.. صرت أعتبرها نقمة.. داء مزمن بلا دواء.. هل تذكر تلك الهبة التي طالما غبطتني عليها؟ ما أن تمس يدي العارية يد أحدهم حتى تتداعى إلى رؤى متفرقة من مستقبله.

إلا أن السهو هو آفة البشر.. فلربما خلعت القفّاز ثم نسيت وضعه فمسست أحدهم بيدي العارية.. هكذا فعلت مع ذلك المدعو (غسّان).. مسسته بيدي فرأيت

مصيره كما مسست من عشرين عاماً مضت اليد الدافئة لذلك الطفل فرأيت مصيره.. وقتها رأيت الطفل جثّةً باردة مسجاةً على فراشه، وقد صرعته الشياطين التي سكنته.. مسحت على رأس الطفل المسكين ولم أحدّث أهله بما رأيت.. تملّكني الأمل في تغيير مصيره المؤلم؛ فقط لأفيق على حقيقة موته أثناء الجلسة بين يديّ أنا بالذات.. تباً للأمل؛ ذلك الوهم المراوغ.. لم أعد أؤمن به وإن مازلت أوزّعه على من حولي من المعذبين كتاجر يبيع المخدرات ولا يتعاطاها.. اليأس حقيقة مريحة.. حقيقة تسمع وقع أقدامها مع عقارب الساعة كل يوم.. فقط أبقى جدباً.. أبقى مصمتاً.. فقط احذر أن يخدعك غرورك فينبت يأسك أملاً.. الأمل عدوٌّ فاحذره!! ....)).

لا يكمل الأب (كاليستراتوس) قراءة الخطاب.. بقلم أمسكه بين أصابعه يضع عدة خطوطٍ أسفل آخر جملة قرأها.. الأمل عدوٌّ فاحذره.. على لوحة مفاتيح الـ (لاب توب) يكتب حروفها.. فيرددها الصوت الإلكتروني.. من أسفل الطاولة البلاستكية يلتقط مطرقة عملاقة ومسماراً حديدياً لا يقل عنها حجماً.. ينهض.. يقف على الكرسي الخشبي ويدقّ المسمار العملاق في الجدار الحجري.. ينهمك في عمله لبعض الوقت، ثم يهبط لاهثاً من على صهوة الكرسي.. يعود ليلتقط الخطاب من على الطاولة البلاستيكية.. يكمل قراءته ثم يضم قبضته فتنبعج الورقة التي كتب عليها الخطاب في قبضته المضمومة.

يعيد تشغيل مقطوعة (الفالس الثانية) لـ (ديميتري شوستاكوفيتش)؛ فينساب اللحن الناعم ويتحسس موجودات الغرفة.. يتمايل الراهب.. يدور حول نفسه وهو يراقص نغمات (الجاز) المتقافزة حوله في القلاية.. يتوقف أمام المسيح الذي قُلب رأساً على عقب على صليبه في لوحة (فرانشيسكو دي زوربران)، والتي أطاح بها ذراعه منذ قليل.. يسقط على ركبتيه أمام اللوحة المقلوبة.. يقبّل قدمي المسيح التي دُقّتا بمسمارين حديديين إلى قائم الصليب الزيتي.

تنهمر دموعه فتسيل على اللوحة.. تبلل قدمي المسيح المصلوب، ومنها تنزلق هابطةً إلى عينيه المسبلتين.. فبدت الدموع وكأنها تعود إلى ينبوعها الأول.. يراقبها الأب (كاليستراتوس) للحظة بعينيه الغائمتين.. يشهق فيبتلع دموعه.. ينهض.. يعتلي الكرسي الخشبي مرة أخرى.. يحيط عنقه بتلك الأنشوطة التي ثبّتها على المسمار

الحديدي بالجدار.. يتأكد من إحكامها ثم يركل الكرسي الخشبي بقدميه فيسقطه أرضاً.. تضرب قدماه الهواء للحظات.. ثم تتشنج كأنها تؤدّي رقصتها الخاصة على نغمات مقطوعة (الفالس)، إلى أن تهمد تماماً مع انتهاء المقطوعة.

تتوقف السيارة المستأجرة أمام الملحق السكني التابع لدير (ماتخوجي).. على وجه سائقها علامات الضيق.

- "صديقك هذا مختل!! أجبرني على القيادة بتهوّر.. قطعت الطريق من (متسخيتا) إلى (خوني) في نصف الوقت المُفترض!!".. بالجورجية يصرخ السائق بـ (ساندرو) المتكئ على بندقيته العتيقة أمام غرفة (كيتيفان).. لا يجيبه (ساندرو) الذي كان يتابع بعينيه (غسّان) الذي ترجّل من السيارة مهرولاً نحوه.

- "ما الخطب يا دكتور؟".. ينعقد حاجبا (ساندرو) في قلق.

- "ما خطبكم أنتم.. هواتفكم المحمولة مغلقة!".. يردُّ (غسّان) بعصبية.

- "لا تغطية في تلك المنطقة النائية، ألم تلحظ ذلك؟!".. يجيب (ساندرو) في ضيق، وهو يهرول خلف (غسّان) الذي اتّجه نحو باب غرفة (كيتيفان).. لا يعلّق (غسّان).. بلا استئذان يقتحم غرفة (كيتيفان).. تدور عيناه في الغرفة المتواضعة الأثاث.. مازالت (سيالا) جالسة على ذات الأريكة الخشنة، وهي تطالع كتاباً ما.. ترى (غسّان) فتقفز من مكانها كجرو سعيد.. تدفن رأسها في صدره.

- "وحشتني!".. تهمس بالمصرية.

- "أين (كيتيفان)؟".. بلهفة يسأل (غسّان).

- "خرجت منذ ساعة".. يجيب (ساندرو) الذي تبع (غسّان) إلى داخل الغرفة.

- "إلى أين ذهبت؟".. يعود (غسّان) للتساؤل.. علامات الجهل تبدو على وجه (ساندرو) وعلى وجه (سيالا)؛ التي رفعت رأسها من على صدر (غسّان).. تراجعت وقد عقدت حاجبيها في ضيق.

- "أنا آسفة".. تعود (سيالا) لتهمس بالمصرية.. ينظر لها (غسّان) متسائلاً كأنه يجهل عن أي شيء تعتذر.. تستطرد (سيالا) بالإنجليزية: "ما كان لي أن أخيّرك بيني وبين ولدك.. فُرض عليك موقف صعب، وما تفعله هو أفضل الحلول المتاحة".. ترفع

خصلة شعر تهدّلت على جبينها وهي تضيف بارتباك: "إن كانت حياتي هي ثمن سلامة (ياسين) فسأمنحها لك عن طيب خاطر".

- "أنتِ لستِ المختارة".. يقولها (غسّان) وهو يهزّ رأسه نفياً: "أبواكِ كانوا كراماً.. عائلاتهم كذلك.. هم كرامٌ من كرام".

- "ما معنى هذا؟".. ينعقد حاجبا (سيالا) مجدداً وهي تراقب (غسّان) الذي أحضر إليها معطفها.

- "(كيتيفان) هي المختارة الجديدة.. المختار الجديد يكون من نسل المختار السابق.. لا خوف عليك الآن".. تتسع عينا (سيالا) في دهشة بينما يناولها (غسّان) المعطف.

- "وماذا عن الوشم؟ وماذا عن (ليليث) التي تتلبّس الجميلات؟".. تسأل (سيالا) وهي ترتدي معطفها.

- " تضليل.. كلُّه تضليل أحسنت (كيتيفان) صنعه".. تعود عينا (غسّان) لتدوران في الغرفة.

- "وماذا عن الرؤى التي انتابتني بعد اختطافي؟".. تعود (سيالا) للتساؤل.

- "فقدتِ الوعي، وعندما استيقظتِ كان ذلك الأصلع يهمس في أذنك بأشياء.. ربما زرع في عقلك شيئاً ما".. يجيب (غسّان) وهو يلتقط شيئاً ما من ركن الغرفة: "هيا.. هيا!!".. يقولها وهو يدفع (سيالا) و(ساندرو) أمامه باتّجاه مدخل الغرفة.

- "إلى أين؟!".. يهتف (ساندرو).

- "ما صرّفتني (كيتيفان) اليوم إلا لسبب.. سيكون تتويجها اليوم.. سنذهب إلى حيث سيتم التتويج".. يقولها (غسّان) وهو يفتح باب سيارة (ساندرو).. يجلس هو خلف المقود.

- "وهل تعلم أين هو؟".. تقول (سيالا) وهي تجلس بجواره تاركة (ساندرو) يحتل الأريكة الخلفية.

- "أستطيع التخمين.. عسى ألّا نكون متأخرين".. قلق عنيف ينهش نبرات صوته؛ بينما هو ينطلق بالسيارة.. عينا (ساندرو) تموجان بقلق لم يفصح عنه لسانه، وهو يتابع (غسّان) الذي انطلق بالسيارة بسرعة لا تتناسب مع الدروب الجبلية الوعرة التي يجتازها في طريق عودته إلى (خوني – سولوكيدز).. يصل إلى مشارف المدينة

التي لطّخها الغروب بدماء الشمس الصريعة.. يجتاز طرقات المدينة حتى يصل إلى الطريق الترابي الواسع؛ فيجتازه متجها إلى بيت آل (جاتشافا) ليتوقف أمامه.

- "هل هي ببيت آل (جاتشافا)؟".. يسأل (ساندرو) وقد بدت الدهشة في عينيه.

- "هي في الغابة.. عند شجرة البلوط القديمة.. عسى أن يكون ظنّي في محله".. يجيب (غسّان) وهو يترجّل من السيارة.. يلتفت إلى (سيالا) التي ترجّلت من السيارة بدورها؛ موجّهاً حديثه إليها: "ستمكثين في منزلك وستُحكمين إغلاقه.. لن تفتحي إلا لي أنا فقط".

- "هذا لن يكون.. سأرافقك".. تعقد (سيالا) ذراعيها على صدرها في تحدٍ.

- "لن أعرّضك للخطر".. يقول (غسّان) بنفاذ صبر.

- "قلت أنه لا خطر عليّ".. تجيب (سيالا) متبرّمة كالأطفال.

- "يتبقى الخطر الفيزيائي المعتاد أيتها الحمقاء".. يدفعها (غسّان) دفعاً باتّجاه باب المنزل.

- "سأرافقك شئت أم أبيت!".. تتملَّص من بين ذراعيه.. ينظر لها (غسّان) بارتباك.. هو متعجِّل.. لا وقت للجدال.. يهزّ رأسه موافقاً.. يدور ثلاثتهم حول المنزل متّجهين صوب سياج الأشجار الكثيفة.. يلتفت (غسّان) إلى (ساندرو):

- "شكراً على كل شيء أيها الصديق الطيب.. لكنك ستبقي هنا".. يقولها (غسّان) بامتنان.. يضيف: "أحتاج إلى دعم من خلفي".

- "ماذا تريديني أن أفعل؟".. يقولها (ساندرو) بصوت اختنق تأثّراً.

- "إن لم نعُد قبيل الفجر؛ ستشعل النار في محيط شجرة البلوط.. بعدها اتصل بالشرطة إن أردت، وإن كنت لا أرى هذا مجدياً!".. يقول (غسّان) وهو ينظر إلى عيني (ساندرو) اللتين طفرتا بدموع عجز عن حبسها.. يكمل (غسّان) بصوت مرتجف: "النار تغسل جميع الشرور!"

- "ليكن ما تريد!".. يهزّ (ساندرو) رأسه وقد شوّهت الدموع مخارج ألفاظه.

- "أحتاج إلى بندقيتك".. يقولها (غسّان) وهو يمد ذراعه إلى (ساندرو) الذي ناوله البندقية.. يحملها (غسّان) بين ذراعيه متفحصاً؛ بينما يخبره (ساندرو) في عجالة بكيفية استعمالها.. يهزّ (غسّان) رأسه متفهما ثم يقول: "ربما استعملت تلك البندقية".. يصمت لحظة مفكراً ثم يدور حول (ساندرو) مستطرداً: "يمكنك أن تخبر الشرطة أنني قد ضربتك وسلبتها منك".

- "لا أحد يضرب (ساندرو)".. يقول (ساندرو) مبتسماً قبل أن تختفي الابتسامة عن شفتيه، وهو يتهاوى أرضاً كبالون مثقوب بعد أن هوى (غسان) بكعب البندقية على مؤخرة رأسه بعنف.

- **"لا أصدّق أنك قد ضربته!!"..** تقول (سيالا) لاهثةً وهي تجد الخُطى خلف (غسّان)، الذي سحبها من ذراعها ورائه وهو يجتاز أشجار الغابة الكثيفة.

- "أنا لم أقتله.. سيفيق بعد عدة دقائق!".. يقول بضيق.. يصمت لحظة فلا يسمع سوى صوت لهاث (سيالا).. يضيف: "لم أرِد توريطه.. سيكون جرح رأسه برهاناً على صدق شهادته بأنني قد سلبته بندقيته عنوةً؛ فلربما استعملتها".

- أنت لست بقاتلٍ يا (غسّان)!".. تقولها (سيالا) بقلق.

- "إن اضطررت سأكون يا (سيالا)!".. يغمغم (غسّان) وقد تباطأت خطواته.. يضع سبّابته على شفتيه.. يهمس لـ (سيالا) التي صارت بمحاذاته أخيراً: "صهٍ!.. أتسمعين؟".. من خلف سياج الأشجار الذي أحاط بالرقعة الجرداء التي تتوسطها شجرة البلوط القديمة، تسمع صوت الهتاف الذي وصل أذنيها خافتاً..

"هه... هه"

- "ما هذا الصوت؟".. تتساءل (سيالا) متوجّسة.

- "إنهم هم!!".. يجيب (غسّان) بصوت كالفحيح.. يعود ليجذبها من ذراعها وهو ينسلُّ بين الأشجار المكوِّنة للسياج: "انظري!".. من خلف صفصافة عملاقة أخفتهما يشير (غسّان) بسبّابة مرتعشة إلى شجرة البلوط الضخمة التي توسّطت البقعة الجرداء.. انعكس عليها ضوء القمر المكتمل فمنحها لوناً فضياً.. تنظر (سيالا) إلى حيث أشار (غسّان).. بطلاءٍ أزرق على الأرض الجرداء رُسمت نجمة سباعية ضخمة مركزها هو شجرة البلوط.

"هه... هه"

حول جذع الشجرة استطاعت (سيالا) أن تميّز بصعوبة وجوه الأشباح الخمسة الذين يطوفون بها.. هم ذات الأجانب الأربعة الذين اختطفوها بالأمس بالإضافة إلى (كيتيفان).. ارتدى جميعهم أسمالاً لا لون لها.. ثياب (كيتيفان) الكهنوتية السوداء مكوّمةً غير بعيد بجوار ثياب رفاقها.. انتعلوا الحفاء وهم يخطون مهرولين في حركة

دائرية حول شجرة البلوط.. ثم تبطؤ خطواتهم حتى يتوقفوا.. يصفع كلاً منهم ظهر من سبقه مرددين ذات الصوت:

"هه... هه"

ثم يعيدون الكرّة من جديد.. الآن ترى (سيالا) أجساماً سوداء عديدة، وقفت على فروع شجرة البلوط بأجسادها الصغيرة وهي تراقب الطائفين الخمسة بعيون صفراء.

- "أهذا بوم؟".. تهمس (سيالا) وهي تغرس أصابعها المتوتّرة في ذراع (غسّان).

- "أم قويق!!".. يقولها بالمصرية، ثم يعود ليضيف بالإنجليزية: "ليليث تبارك التتويج الجديد!"

تهزّ سيالا رأسها بتوتر.. من فُرجة ضيّقة تفصل جسد (كيتيفان) النحيل عن جسد من سبقها، تلمح (سيالا) الجسد الصغير المقيّد إلى جذع شجرة البلوط.. مالت رأسه على صدره كالنائم وقد تهدّل شعره الأسود على عينيه، فلم تستطيع تمييز ملامحه.. تجذب ذراع (غسّان).

- "هل هذا؟!".. لا تكمل سؤالها وهي تنظر إلى وجه (غسّان) الذي رأى ما رأته عينا (سيالا).

- "ياسين!!".. يقولها خافتة فتتردد كهزيم الرعد داخل نفسه.. يقولها حارة فتكاد أن تحرق شفتيه اللتين اشتاقتا للنطق بالاسم العزيز.. يقولها قلقة كقلبه الذي صار الجزع رفيقه الدائم، بصوت يحمل قسوة كل الليالي التي حُرِمَ فيها من ولده... يقول لـ (سيالا): "ابقِ هنا!".. لا تجادله (سيالا).. صوته الصارم وأد جدالها في مهده.. تهزّ رأسها بينما تتابع عيناها (غسّان) الذي اجتاز سياج الأشجار إلى الرقعة الجرداء.. تراه وهو يعدو ملوّحاً بالبندقية القديمة التي التمعت تحت ضوء القمر؛ فبدا كمحارب أسطوري قادم من زمن غابر.

أمّا (غسّان) فقد اقترب من مركز الرقعة الجرداء التي تتوسطها الـ (سبتاجرام) العملاقة المحيطة بشجرة البلوط.. لا يلاحظ الطائفون الخمسة اقترابه.. بدوا له كمنتشين لا يعون ما حولهم.. يشدُّ (غسّان) أجزاء البندقية كما علّمه (ساندرو) مُعدّاً إياها للإطلاق؛ فتنتبه (كيتيفان) أخيراً للصوت.. تراه فتجفل، وقد توقفت عن الدوران.. ينتبه الأربعة الباقون فيتوقفون عن الدوران حول الشجرة هم أيضاً.

- "حِلّي وثاق الطفل!".. يهتف (غسّان) بصوت مرتجف وهو يصوب فوّهة البندقية إلى الخمسة.. تند عن الأصلع الضخم حركة عصبية، فيتراجع (غسّان) وهو

يوجّه فوّهة البندقية إلى رأسه: "لن أتردد في إطلاق الرصاص".. يصرخ (غسّان) فيتجمد الأصلع في مكانه، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باردة زادت من توتّر (غسّان).. تقول (كيتيفان) شيئاً ما بالجورجية وهي تضحك.. يرفع (غسّان) فوّهة البندقية ويضغط الزناد؛ فيمزق صوت الرصاصة سكون الغابة.. يليه صوت مكتوم لارتطام واحدة من البوم بالأرض.. أصابتها الرصاصة في مكانها فوق شجرة البلوط فهوت صريعة عند أقدام (كيتيفان)، التي تعلّقت عيناها بها وقد زالت ضحكتها.

"الرصاصة القادمة ستكون في رأسك".. يعود هتاف (غسّان) ليمزق سكون الغابة بينما، ارتجفت ذراعاه اللتان حملتا البندقية.. البوم الذي أصابه صوت الرصاصة بالهياج يحلّق فوق رقعة الأرض الجرداء؛ صانعاً سحابةً سوداء زادت من توتّر (غسّان) الذي صرخ: "أنا لا أمزح!!".. تراقب عيناه اللتان اتّسعتا في جنون (كيتيفان)، التي تحرّكت ببطءٍ مقتربة من (ياسين).. تحل الحبال الليفية التي قُيِّدَ بها إلى شجرة البلوط.. تدفعه بيدها صوب (غسّان).. يحمله الأخير بذراع واحدة وهو يضمه إلى صدره؛ فيحس بنبضات قلبه الصغير وهي تعانق نبضات قلبه اليابس من الشوق.. تغيم عيناه بدموع الفرحة.. فيتمالك نفسه.. فليفرح لاحقاً.. أما الآن فوقت الفرار.

يتراجع (غسّان) حاملاً (ياسين) بينما لا يكفّ عن تصويب البندقية للخمسة الناظرين له في برود أدهشه.. يصل إلى الصفصافة الضخمة حيث توارت (سيالا).. اتّسعت عيناها في رعب وهي تنظر إلى ما خلف (غسّان) فيلتفت (غسّان) بجسده كله إلى حيث نظرت.. سرب من البوم الصامت يقتفي أثره، فلا يسمع سوى حفيف أجنحته.. بدا كموجة عاتية لمحيط أسود هائج.. تهرب من فمه صرخة فزع قصيرة.. لا إرادياً يضغط أصبعه زناد البندقية فتهوي بومة فوق رأسه صريعةً.. تخمشه بمخالبها بينما روحها تزهق.. يزيحها عن رأسه في تقزز وهو يمسح دماءً حارّة سالت على جبينه، فلا يدري أهي دماؤه أم دماء الطائر الصريع.

- "هيا!".. يصرخ في (سيالا) وهو يجذبها من ذراعها راكضاً.

- "إلى أين؟".. تقول وهي تلهث من فرط الإثارة.

- "بيتك".. يقولها وهو يركض حاملاً (ياسين).. يحني رأسه ليتفادى أجنحة البوم التي نال وجهه منها عدة صفعات.. تتعثر (سيالا) فيتوقف (غسان) ليمد لها ذراعه فتنهض.. يدور البوم فوق رؤوسهم كإعصار عاتٍ.. يصرخ (غسّان) وهو يطلق

رصاصتين متتاليتين من البندقية العتيقة، فيتفرّق البوم للحظة.. يعود (غسّان) و(سيالا) للركض من جديد.. يستمران في الركض لعدة دقائق حتى يظهر سياج الأشجار.

- "البيت خلف ذلك السياج".. أنهك اللهاث عبارتها فجاءت متقطّعة.. يتجاوزان سياج الأشجار.

- "اللعنة!!".. يقولها (غسّان) وهو يتوقف بغتة حتى كاد أن يسقط.. أمام عينيه امتدت الرقعة الجرداء التي توسّطها شجرة البلوط.. أمامها وقف الخمسة.. (كيتيفان) والأجانب الأربعة.. انعكست أشعة القمر على وجوههم المبتسمة في برود.

- "لقد أخطأنا الطريق".. تهتف (سيالا) فيجذبها (غسّان) من ذراعها مجدداً.. يعودان للركض.. الألم الحارق يتصاعد من ركبة (غسّان) – المصابة – إلى رأسه، فيغيم الطريق أمام عينيه.. نبضات قلبه صارت كصوت الطّبل في أذنيه، لتغطّي على صوت حفيف أجنحة البوم المحلّق فوق رأسه مطارداً.. بآخر أنفاس أمدّه بها صدره المنطبق يدفع أقدامه إلى الأمام متجاوزاً سياج الأشجار.. مرة أخرى هو بذات الرقعة الجرداء.. مازال الخمسة واقفين ذات الوقفة، ويحملون ذات الابتسامة وكأنهم تماثيل شمعية.. ينحني (غسّان) جالساً القرفصاء، وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه.. بيمناه المنهكة يصوّب فوّهة البندقية إلى الخمسة مجدداً بينما احتضن (ياسين) بيسراه.. عينا الطفل المفتوحتان خاويتان كمن تم تخديره.

- "الآن ماذا؟".. تقولها (سيالا) وقد انقبضت أصابعها المتوتّرة على كتف (غسّان).. لا يجيبها الأخير إلا باللهاث.. تعلّقت عيناه بسرب البوم الذي غادر رؤوسهم متجهاً صوب شجرة البلوط كبُرادة حديد يجذبها مغناطيس عملاق.. من بين الأجساد السوداء الصغيرة التي غطّاها الريش، تبدأ في التجسد.. كيانها الآخذ في التّجلّي يتموّج كماءٍ ألقي فيه حجر.. تتضح حدود جسدها تدريجياً.

- "ليليث!".. يقولها (غسّان) وقد عاد لينهض على قدميه.. يشدد احتضانه لولده، بينما عيناه لا تفارقان وجهها الكمّثري بارع الحسن.. تضم الشيطانة ذراعيها، وقد رفعتهما أعلى رأسها.

"المجد للغانية الأولى.. المجد لمن قالت لا عندما وجب قول نعم!!"

بجورجية قديمة تهتف (كيتيفان) ورفاقها الأربعة، وقد انحنوا راكعين أمام (ليليث) التي قلّبت فيهم عينيها الزرقاوتين الواسعتين.. شعرها الأحمر الغزيز يتطاير في الهواء فيتلوّى حول رأسها.. جناحا البومة العملاقان النابتان من أعلى ظهرها يصفقان الهواء بقوة.. تتدثّر بما بدا أشبه بمئزر قرمزي اللون، وقد انكشف عن ثديين عامرين بديا متناقضين مع نحافتها.. لدقائق يسود الصمت؛ فبدت الرقعة السوداء بمن فيها وكأنها كادر سينمائي تم إيقافه.. تنظر لـ (غسّان) الذي تلبّدت أفكاره وانعقد لسانه.

- "غسّان!".. تقولها (سيالا) بصوت أشبه بالعويل، وهي تنظر إلى الأطفال الشاحبين الذين ظهروا من خلف شجرة البلوط.. الجرح الدامي بأعلى الرقبة، والصرخة الصامتة على الوجه التعس.. يحيطون بـ (ليليث)، فتخفض الأخيرة ذراعيها.

"المجد لروح الليل.. المجد لمن قتلت الأطفال!!"

تخطو (ليليث) بخطوات بطيئة في اتّجاه (سيالا) و(غسّان) الذي حمل ولده بينما عيناه الناظرتان إلى (ليليث) لا ترمشان.. لخطواتها وقع غريب.. ينظر إلى قدميها.. هي قدما بومة عملاقة.

يصوّب نحوها البندقية القديمة مطلقاً رصاصة.. يدوّي صوتها في الأرجاء.. ترتد الرصاصة عن (ليليث)؛ فتخترق الأرض الجرداء صانعةً سحابةً صغيرةً من الغبار.. بدا وكأن الرصاصة قد أُطلقت على حائط من الفولاذ.

- "هذا لا يجدي!!".. يردد (غسّان).. ينظر إلى (سيالا) قائلاً: "احملي (ياسين)".

يناولها الطفل ثم يتقدمها بهدوء في اتّجاه (ليليث).

الفصل السابع عشر

يا ابني، لا تسلك في الطريق معهم امنع رجلك عن مسالكهم؛ لأن أرجلهم تجري إلى الشر وتسرع إلى سفك الدم.

سفر الأمثلة – الإصحاح الأول (15- 16)

- **"اسمي (حسام).. رئيس مباحث (الشيخ زايد).. اتقابلنا قبل كده في دفنة مدام (مروة) الله يرحمها"..** يقولها الرائد (حسام) لـ (أنطوان) وهو واقف بعتبة باب بيت الأخير، والذي فتحه للتّو وبعينيه نظرة متسائلة.

- "آه.. افتكرت.. أهلاً وسهلاً.. اتفضل يا (حسام) باشا".. يزيح (أنطوان) جسده الضخم من أمام الباب مفسحاً للرائد (حسام) مجالاً للدخول، بينما يختلس النظر إلى ساعة الحائط المعلّقة على جدار (الريسيبشن) والتي أشارت للثامنة صباحاً.

- "إيديك خفّت بسرعة ما شاء الله".. ينظر الرائد (حسام) إلى ذراعي (أنطوان) اللتين أُزيلت عنهما الضّمادات: "اعذرني إني جيتلك بدري كده من غير معاد.. واضح إنك كنت نايم.. عموماً مش هاخد من وقتك كتير".. يتقدم الرائد إلى ردهة الشقة، وهو يقلّب عينيه في زجاجات الويسكي الفارغة والمبعثرة في أنحاء المكان: "دكتور (غسّان) فين؟"

- "في جورجيا!".. يجيب (أنطوان) عن فوره؛ وكأنه توقّع السؤال.

- "إجابة واضحة وسريعة والأهم أنها صحيحة!".. يرفع الرائد (حسام) حاجبيه بدهشة مصطنعة.

- "أنا هكذب ليه.. (غسّان) مش متهم بحاجة ومش هربان؛ فأنا مش هتستر عليه!!".. ينعقد حاجبا (أنطوان) في ضيق.

- "طيب تعالى اتفرج كده".. يجلس الرائد على أحد الأرائك وهو يشير لـ (أنطوان) ليجلس بجواره.. يخرج (لاب توب) حمله معه منذ مجيئه من حقيبته ويقوم بتشغيل أحد مقاطع الفيديو.

- "إيه ده؟!!".. يضحك (أنطوان) ضحكة مرتبكة.

- "وحدة شمال.. مستأجرة شقة في نفس (الكومباوند) بتاع دكتور(غسّان)، بالصدفة الفيديو ده وقع تحت إيدي".. لا ينظر الرائد (حسام) للفيديو، عيناه معلّقتان

بوجه (أنطوان)، يضيف: "الفيديو بتاريخ 25 يناير.. نفس اليوم اللي اتخطف فيه (ياسين)".

- "مش فاهم بتقصد إيه يا (حسام) باشا".. يقول (أنطوان) بِحيرة حقيقية.

- "من الشباك اللي ورا البنت تقدر تشوف عمارة دكتور(غسّان)".. يشير بسبّابته إلى ركن الإطار الذي يعرض فيه مقطع الفيديو.. يكمل: "ده مدخل العمارة.. ركّز كويس".. يضغط زر الإيقاف المؤقت للمقطع.. يُكبّر المقطع عدة مرات.. يعود لينظر إلى وجه (أنطوان) الذي ارتفع حاجباه في دهشة؛ فلم يبدُ بحاجة إلى سبّابة الرائد (حسام) التي أشارت إلى ذلك الوجه الذي بدا واضحاً علي شاشة الـ (اللاب توب)

- "مين ده؟!"..

- "(غسّان)!"

تقولها (سيالا) بصوت مرتجف وهي تراقب (غسّان) الذي خطا للأمام باتّجاه (ليليث).. تراه يخرج بخاخ الطلاء الذي اختلسه من غرفة (كيتيفان).. ينحني على الأرض الجرداء راسماً خطاً طويلاً كتب عليه بذات الطلاء كلمة (سنوي) بالإنجليزية "ماذا تفعل؟".. تقولها (سيالا) وقد غلبت دهشتها خوفها.. لا يجيب.. من إحدى نهايتي الخط الذي صنعه يتراجع مسرعاً، وهو يرسم خطاً آخراً مائلاً.. فوقه يكتب (سانسينوي).. إلى النهاية الأخرى للخط، يركض صانعاً الضلع الثالث ليكمل المثلث الذي رسمه.. فوق الضلع الثالث يكتب (سيمانجيلوف).

- "هيا!".. يصرخ في (سيالا) التي تحمل (ياسين).. فغرت فاهاً في بلاهة وهي تراقب ما يفعل.. يدفعها دفعاً داخل المثلث المرسوم على الأرض.

- "ما هذا؟".. تسأله (سيالا) وهي تنكمش خلف ظهره.

- "أسماء الملائكة الحامية".. يجيب (غسّان) هامساً.. أبقى عينيه مسلّطتين على (ليليث) التي أخذت تقترب بهدوء، وهو يسترجع تلك الحوارات القريبة.

- "رسمت مثلث على الأرض وحطّت جوّاه ياسين!.. هي كانت كاتبة إيه على المثلث؟".. يتساءل (أنطوان) باسماً.

- "سنوي، سانسينوي، سيمانجيلوف.. يومها قالت: إنهم ملائكة بتحفظ الطفل من الشيطانة اللي بتقتل العيال".. يرد (غسّان) باسماً بدوره.

****

"... هنالك شكى آدم إلى ربه هروب زوجته، فأرسل الرب لها ثلاثة من الملائكة ليعيدوها إلى الجنة فرفضت العودة".. تقولها (كيتيفان) وهي تتحرّك بسرعة بين الرفوف ملتقطةً عدةً كتب...

- "هل سيجدي هذا نفعاً؟".. تعود (سيالا) للتساؤل وهي تزيد من التصاقها بظهر (غسّان).

- "لا أعلم! سنرى!".. يجيب (غسّان) بعصبية.. عيناه تتابعان (ليليث) التي اقتربت أكثر.

- "(غسّان)!!".. تعود أصابع (سيالا) لتنغرس في كتفه.. ينظر حوله.. على جانبيه تقدّم الأجانب الأربعة بينما تقدّمت (كيتيفان) من الخلف.. بدا المثلث الذي رسمه على الأرض الجرداء كمصيدة دخل فيها بإرادته.. يرتجف جانب وجهه لا إرادياً في توتّر، وهو يدور حول نفسه شاهراً البندقية في وجوه الخمسة؛ محذراً إيّاهم من الاقتراب أكثر.. بدا القلق على وجوه الخمسة وهم يتوقفون، ثم أخذوا في التراجع للخلف ببطء.. يعود لينظر إلى (ليليث) التي توقفت أمام الضلع المستعرض للمثلث ولم تتجاوزه.. من ورائها يسري الأطفال الشاحبون.. تدور حول المثلث وهي تتفحص (غسّان) ببصرها، كلبؤة تدور حول فريسة اقتنصتها للتّو.. بدا المثلث المرسوم على الأرض وكأنه حاجز غير مرئي امتد من الأرض للسماء يمنعها من الوصول إلى من هم داخله.. للحظات يسبر (غسّان) الوجوه الباردة الصارخة، والتي أخذت تنظر إليه من الجهات الأربع.. يبلل فمه ببعض من لعابه اللزج.

- "خذي أبنائك وانصرفي.. لن تقدري على إيذائي".. يهتف بها (غسّان) بصوت محشرج، بينما عيناه تتابعانها وقد وقفت تهتز كأفعى على وشك الانقضاض.. على شفتيها الحمراوين ترتسم ابتسامة ساخرة.. تتصاعد الابتسامة لتصبح ضحكات ماجنة، فيسمع (غسّان) دويّها وهو يتردد عبر الغابة.. ترفع راحة مفرودة تجاهه، فيرتج دماغه كمن سقطت السماء على رأسه.. وبينما يتهاوى وعيه.. يسمع صوتها داخل رأسه يردد بإنجليزية ذات لكنة جورجية:

"لمَ أؤذيك وأنتَ منّي!!"

تميد الأرض من تحت قدميه.. حفرة سوداء ابتلعت جسده الذي هوى بلا توقف.. بدت الحفرة كأنبوب مظلم بلا نهاية.. تضيق بجسده تارة وتتّسع تارة أخرى.. لكنه مستمر في ذلك السقوط المظلم، وكأن السقوط صار هدفاً في ذاته.. بعد دهر يلقي به الأنبوب المظلم على تلك الأرض الترابية؛ فيتدحرج جسده للحظة، ثم يستقر على ظهره.. تباً لشمس الظهيرة في سماء صافية!! تبدو كأفضل رامٍ للنبال.. صوّبت سهاماً دقيقة نحو عينيه؛ فاخترقتها بلا بادرة رحمة.. تغتسل عيناه ببعض دموعها علَّها تطيب جروح السهام المنهمرة.. بمحاذاة رأسه الذي افترش التراب يرى الأحذية الجلدية تروح وتذهب حاملةً أصحابها فوقها.. يتوقف زوج من الأحذية بمحاذاته.. ينحني صوبه ذلك الرأس الذي ارتدى عقالاً عربياً؛ فيسمع صوته قائلاً في فضول:

- "أنت بخير؟".. اعتلت الشمس رأس صاحب العقال فعجز عن تحديد ملامحه.

"انهض!! فلا تملك ترف التعثر".. يقولها لنفسه وهو ينهض.. لا يجيب سؤال صاحب العقال.. يثبت (طربوشه) الأحمر على رأسه بحركة عفوية بيمناه؛ بينما تحتضن يسراه الحقيبة الجلدية الثقيلة.. عبر البيوت القصيرة المصنوعة من الطين المحموس، ترى عيناه المأذنتين الرفيعتين ذواتا القبتين الفيروزيتين للمسجد الكبير يغير اتّجاه ركضه.. هو يعلم أن هناك سوقاً كبيراً قرب مسجد (المقام).. سيخفيه زحام السوق عن مُطارديه.. فقط يجب عليه التخلص من ثيابه التي تشي بمصريته.. يخلع (طربوشه) ويلقي به بجوار تلك اللافتة الخشبية الكبيرة التي كتب عليها (مرحباً بكم في البصرة).. يعود ليشق طريقه بين الكتل البشرية بمدخل السوق بينما تطبق راحته على حقيبته الجلدية.

يتوقف بأحد حوانيت الثياب.. يبتاع ثوباً تقليدياً وعباءةً.. يدخل حجرة ضيقةً في الحانوت؛ فيخلع بدلته الرمادية.. يقف أمام المرآة الطويلة التي احتلّت الجدار الشمالي

للغرفة.. ينظر إلى صدره الرياضي الواسع.. النجمة السباعية الزرقاء الموشومة على جانب صدره الأيسر ترتفع وتنخفض بسرعة مع لهاثه.. يبقى ساكناً لبرهة حتى تستعيد أنفاسه اللاهثة انتظامها، ثم يخرج من الغرفة الضّيقة وقد ارتدى الثوب التقليدي والعباءة.. يضع على رأسه ذلك (الشماغ) الأبيض المطرز بخيوط سوداء – المميز لأهل العراق – ويثبته بالعقال الأسود.. تلوح منه نظرةً عابرةً للتقويم المعلّق على جدار الحانوت قبل أن يغادره.. اليوم هو الثلاثين من يونيو لعام 1923 م.

يختلط بزحام السوق لبرهة قبل أن يسلك طريقه إلى أحد الأزقة الخالية.. لقد ضلل مطارديه بلا شك.. يجلس القرفصاء على الأرض الترابية.. من الحقيبة الجلدية يخرج ذلك اللوح العتيق من الطين اليابس.. يتأمل النقوش.. تصوِّرُ أسدين متقابلين قد أحاطت بهما بومتان.. على ظهري الأسدين، وقفت تلك المرأة العارية ذات الأجنحة تحدّق فيه في شر.

- "صرلنا تلت أيام عم نبرم وراك يا زلمة!!".. ينتفض جسده وهو يلتفت إلى مصدر الصوت الذي قال العبارة باللهجة السورية.. سدَّ ثلاثة رجال مدخل الزقاق بأجسادهم.. يتراجع ببطء وهو ينظر خلفه.. أربعة آخرون يسدّون نهاية الزقاق.. يمد ما بدا أنه قائد مجموعة السبعة أشخاص يده باتّجاهه في طلب صامت.. فتند عنه حركة عصبية.. لا يمهله السبعة.. ينهالون عليه باللكمات حتى انهار أرضاً فانهالوا عليه بالركلات.. ينتزع أحدهم الحقيبة من بين أصابعه المنقبضة.

"بيكفي يا شباب.. رح يموت".. يقولها الصوت السوري فتتوقف الركلات العنيفة.. يسمع وقع أقدامهم المهرولة إذ يغادرون الزقاق.

"فشلت.. سامحيني".. يقولها بصوت متقطّع بينما يغيب وعيه؛ فينزلق في أنبوب أسود بلا قرار.

يلقي به الأنبوب الأسود على الأرض.. عشبية خضراء هذه المرة.

- "انهض يا فتى".. يسمع الصوت الأجشّ الزاجر، وهو يتردد بالعربية، بينما الرمح الحاد ينخس ظهره.

- "أنهكني الوقوف".. يتمتم بعربية كسيحة؛ فلا تجيبه إلا نخسة رمح أخرى.. يتحامل على قدميه المكدودتين لينهض من جديد.. يدير رأسه إلى الجانبين فيرى مئات الصبية يشاركونه الوقوف في ذات الصف الطويل الذي امتد على الأرض العشبية، تحت شمس ترسل ضوءاً بلا حرارة.. أحاط بصف الصبية عشرات الجنود الذين يمتشقون سيوفهم.. لوحت وجوههم شمس صيف ولّى، وقد أبى إلا أن يترك لهم تذكاراً.. يري الجند يتأهبون في وقفتهم؛ بحركات متصلبة يعيدون تنظيم الصبية ليستقيم الصف، بينما عينوهم لا تكفّ عن النظر إلى الوافد الذي دنا من صف الصبية في ثلة من رجاله.. يقترب منه الوافد.. يتفحصه ملياً، بعينين زرقاوتين صافيتين، كالسماء الباردة التي ظللتهم.

- "هل تعرف من أنا أيها الصبي".. يقولها الوافد مبتسماً.

- "أنت (مروان الأطرش)".. يرد هو عن فوره.

- "هو سيدك (مروان الجعدي) فتحدّث معه بأدب".. يعود الرمح لينخس ظهره من جديد.. فيرفع (مروان الجعدي) راحة يده للجندي الحامل للرمح أن توقف.. يدير وجهاً شاهق البياض إلى أحد مرافقيه متسائلاً.

- "هو ابن أحد سادة الكرج!".. يجيب المرافق عن السؤال الافتراضي مسرعاً.

- "أين أبوك يا فتى؟".. يعود (مروان) ليسأل.

-"قُتل في المعارك.. كذلك أخوتي".. يجيب هو بصوت ثابت وهو يتطلّع إلى وجه (مروان) بعينين لا تطرفان.. يهزّ الأخير رأسه.. يعود للنظر إليه كأنه يفكر.

- "أرسلوه إلى بيت الإمارة.. فيتعلّم ديننا، ولغتنا، ولينشأ نشأةً صالحة.. فإن اشتد عوده عاد إلى قومه فصار لنا خير سفير".. يقولها (مروان) لرجاله بصوت جهوري.

- "هيا يا فتى".. يقولها الجندي له وهو يجذبه من ذراعه فيقاومه.

- "للفتى اسماً يا (عمرو)".. يقولها (مروان) الجعدي وهو ينظر إليه.. يتساءل "ما هو اسمك يا بني؟!"

- "ملخازي!".. يجيب الفتى بعد لحظة تردد.

- "اسم عسير هو!!".. يبتسم (مروان) الجعدي.. يتفحصه بنظراته من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه: "لقد صرت (صالحاً).. (صالحٌ) هو اسمك الجديد!!".. وتعود الأرض لتميد به من جديد..

- **"صار الأمر مملاً!!"..** يقولها وهو ينهض من على الأرض التي افترشها للمرة الثالثة.. منهكٌ هو، يكاد لا يقوى على حمل ذبابة.. يقلّب عينيه في وجوه الحشد حوله.. اجتمعوا في ذلك البهو الواسع للبيت الكبير.. معظمهم من النساء وقليلهم من الرجال.. تحلَّق الجميع حول تلك المرأة التي بدت في منتصف عقدها الرابع.. يقترب مرتجفاً من مركز الحشد.. يتكلمون بالآرامية التي صار يفهمها.. لا يعبأ به أحد ولا يبدو أن أحداً يراه.

- "لقد منّ عليك (يهوه) بالشفاء يا (مريم)".. تقولها إحدى النسوة للمرأة التي تحلّق الجمع حولها، وهي تربت على كتفها.. تبتسم (مريم) في اضطراب.. تبدو كمن لم يستجمع شتات نفسه بعد.

- "ببركة ذلك (الناصري) الصالح".. يقولها أحد الرجال في رزانة، وهو يشير إلى باب البهو الواسع الذي غادره ذلك (الناصري) للتّو.. تنهض (مريم) متجهةً إلى حيث أشار الرجل، وسط نظرات الحشد المندهشة.

- " إلى أين تذهبين يا (مريم)؟".. تسأل امرأة أخرى.

- "سأتبع سيدي".. تقولها (مريم) وهي تخطو نحو الباب الواسع.

- " أتتركين (مجدالا) وأنتِ من سادتها؟".. تسأل امرأة ثالثة.

- "سأتبع سيدي".. تكرر (مريم) وهي تقف بعتبة الباب.. تلتفت فتنظر للحشد نظرة طويلة وكأنها تودعهم.

- "ماذا عن بيتك الواسع؟ ماذا عن أموالك؟".. يسأل الرجل الرزين.

- "خذوها!!".. تقول (مريم) بهدوء؛ قبل أن تستدير لتلحق بأثار الأقدام التي تركها السيد الناصري.. السيد الذي يدعوه أتباعه.. (يسوع المسيح).

- **"أنت مني!!".. ينتزعه** صوتها الهادر من سفره الخشن بين الأزمنة والأمكنة.. يعود وعيه ليحط بعنف داخل جسده الواقف بقلب المثلث المرسوم على الرقعة الجرداء في الغابة.. يسقط على ركبتيه وهو يلهث من طول الرحلة.. يسعل كمن خرج من تحت سطح البحر: "منذ طردك (المسيح) أنت وإخوتك من جسد (مريم المجدلية) وأنت مني.. منذ وقعت في أسر (مروان الأطرش) وأنت مني.. منذ وجدت طلسمي المنقوش على الطين وأنت مني".. تضيف: "أنت مني جيلاً بعد جيل، وأباً من بعد جدّ".. تشتعل عينيها اللوزيتين بالنيران، وهي تتابع (كيتيفان) ورفاقها الأربعة الذين عادوا ليقتربوا من حدود المثلث المرسومة بالطلاء.

- "سأفجّر رأس من يقترب أكثر!".. يصرخ (غسّان) وهو يصوّب فوهة البندقية إلى الخمسة بيدٍ مرتجفة.

- "هم أبنائي الخمسة.. أنت سادسهم".. تقولها (ليليث) بصوت بدا حنانه واضحاً إن كان هذا ممكنا: "لطالما غيّرنا مجريات هذا العالم البائس.. تولّينا زمام الأمور مرة، واكتفينا بأثر الفراشة مرات.

- "ألهذا اختطفتِ ولدي؟.. كان طعماً لجلبي إلى حيث تتويجي!".. يقولها (غسّان) من بين أنفاسه اللاهثة، وهو ينظر إلى (كيتيفان).. لم تضلله تماماً إذاً.

- "(ليليث) لا تختطف أحداً".. تقولها (ليليث) بازدراء: "أنت من أحضرته إليّ!!".. يسمع (غسّان) عبارتها فتّتسع عيناه دهشة..

ثم تميد به الأرض مجدداً..

"(غسّان)!!".. يقولها (أنطوان) بارتباك وتوتّر.

- "عليك نور يا دكتور.. هو دكتور (غسّان) بعينه".. يقولها الرائد (حسام) بصرامة.

- "أكيد فيه سوء تفاهم.. (غسّان) هيخطف ابنه ليه؟".. يسأل (أنطوان) بارتباك.

- "الفيديو واضح".. يقول الرائد (حسام) بعصبية: "نازل من العمارة الساعة تلاتة الفجر بيتسلل زي الحرامية وهو شايل (ياسين)".. يعود لتشغيل مقطع الفيديو: "شوف.. محاولش يخرج من بوابة الكومباوند.. راح ينط من على السور زي الحرامية هو واللي معاه".

- "اللي معاه؟!".. يعود (أنطوان) للتساؤل.

- "أنا مش جاي أسألك عن دكتور (غسّان) أنا عارف شكله كويس!".. يبتسم الرائد (حسام) بسخرية.. يعود لإيقاف مقطع الفيديو مرة أخرى ثم يُكبّر (الكادر) عدة مرات.. ثم يعود ليشير إلى الشاشة بسبّابته.

"الوش ده وش مين؟؟"

يصعد درج بنايته في (الشيخ زايد) على أطراف أصابعه.. لا يريد أن يجذب الانتباه في تلك الساعة المبكرة من يوم العطلة الرسمية.. يصل إلى شقته فيفتح بابها ويخطو إلى الـ (ريسبشن) بهدوء.. لا يضيئه.. يسمع الصوت الخافت المحطِّم للأعصاب.. على الإضاءة الخافتة القادمة من أعمدة الإنارة بالـ (كومباوند)، والتي تسرّبت من النافذة الزجاجية المغلقة يرى (مروة) الواقفة أمام الجدار.. صوت أناملها وهي تتحطّم على الجدار راسمة للنجمة السباعية يستمر بلا توقف.

- "أعملك العشا؟".. تقولها (مروة) دون أن تلتفت.. صوت قطرات الدم المتساقطة من جرح ذراعها على (سيراميك) الريسيبشن يتداخل مع صوت تهشيم العظام صانعاً سيمفونية جديرة بالعزف في سقر.. ينظر هو لظهرها بلا مبالة.. فتضيف: "ياسين نايم جوّه".

يدخل الغرفة فيحمل (ياسين) النائم.. يعود ليخرج إلى الريسيبشن فيوجّه لـ (مروة) نظرة أخرى بلا معنى.. يتّجه إلى باب الشقة.

- "أمك مستنياك.. سألتني عنك النهارده".. تقولها (مروة) بلهجة روتينية.

- "هروح لها".. يجيب وهو يفتح الباب.

- "(غسّان)!!".. تقولها (مروة) فيتوقف.. يلتفت نحوها.. تضيف وهي تحاول إعادة عظام سبّابتها الملتوية إلى وضعها الطبيعي: "أنا حبيتك قوي!"

- **"أنا قتلتها.. قتلت (مروة)!!"..** يصرخ (غسّان) الجاثي على ركبتيه.. تنفجر الدموع من عينيه غزيرةً فلا يحاول منعها.

- "لا لم تفعل.. هي من قتلت نفسها".. تقول (ليليث) الواقفة أمامه بصوت بارد كنصل سيف.

- "كان بإمكاني إنقاذها".. ينظر إلى (ليليث) بكراهية.. يكمل بمقت: "أيتها العاهرة!".. يصوّب نحوها فوّهة البندقية.. يطلق طلقة، ثم طلقة، ثم طلقة، لا يقطع رصاصاته المتتالية إلا صوت صرخات (سيالا) الفزعة من خلفه.. ترتد الطلقات عن جسد (ليليث) لتصيب الأرض من حوله.. يسمع الصوت المعدني إذ تفرغ البندقية العتيقة من الطلقات، فيفلتها ويستند إلى الأرض الجرداء وهو يلهث.

- "كف عن هذا السخف".. تقولها (ليليث) بصوتها الهادر.

- "لن أكون منكم!!".. يهتف بها (غسّان).

- "لقد ألقيت عهدك.. أنت منّا شئت أم أبيت".. تقولها (ليليث) وهي ترفع راحتها نحوه.. فينسحب عنه وعيه من جديد..

مرة أخرى هو في بيت (مريم المجدلية) الواسع.. بدأ الحشد في التفرّق.. يخرج من باب البهو الواسع الذي خرجت منه (المجدلية) لتلحق بـ (المسيح).. زوج من الحرس يتسامران أمام الباب؛ فيسري من بينهما فلا يفطنان إليه.. هو بالفعل كيان غير مرئي للبشر.. صار متأكداً من هذا!! يغادر البيت والقرية و(فلسطين) كاملةً.. تنطوي المسافات تحت أقدامه طيّاً حتى يصل (القوقاز).. يبلغ ذلك الماء الكثير؛ حيث الغابة التي امتدت بين نهرين.. من الضفة الغربية لنهر (سخنيستكالي) وحتى الضفة الشرقية لنهر (جوبيستكالي).. يدنو من شجرة البلوط الضخمة التي اتّخذتها أمه سكناً..

- "طرَدَنَا (الناصري) مِن التي كنا نسكن جسدها يا أماه".. يقولها لـ (ليليث) التي وقفت تتلوّى أمام جذع الشجرة.

- "أنتم حمقى كأجنّة تتصارع داخل رحم".. تقولها (ليليث) بصوت هادر.. تنظر إلى عينيه بعينين زرقاوتين مشتعلتين.. تتسع عيناها فتحتويه.. زُرقة عينيها تصير سماءً نهارية.. تتبدّل إلى ليل مظلم.. يتعاقب في عينها الليل والنهار بسرعة حتى يتداخلا.. ثم تعود عيناها لتلفظه بعد برهة.. يراها واقفةً وعلى وجهها أمارات العظمة.. تحدِّق في وجوه البشر السبعة الذين جثوا أمامها على الأرض العشبية.. يسمعها تقول:

"سيتّخذ أبنائي أجسادكم سكناً.. لن تصيروا مجذوبين.. لن تنصرعوا.. لن تملأكم الأسقام.. ستصبحون أقوى، أجمل، أغنى... إن ضللتم الطريق فأبنائي سيحدونكم.. إن ارتجّ عليكم فأبنائي سيتحدّثون بلسانكم.. إن بليت أجسادكم، فأبنائي سيمنحونكم خلوداً لا يفنى".

- "المجد للغانية الأولى.. المجد لمن قالت لا، حين وجب قول نعم!".. يهتف السبعة الجاثون، فيسمعها هو مدوّيةً في جنبات الغابة.

- "على هذا أخذت منكم العهد".. تقولها بصوتها الهادر.. فينطلق هو باتّجاه ذلك الشاب طويل القامة ذو الملامح الوسيمة.. يتسرَّب عبر جلده إلى داخله فيعانق كريات دمه.. يتشمم نخاع عظامه.. يرسي دعائمه في قلبه.. صار منه وصار فيه.. كان هناك الكثير من المرح في السنين الأربعين التالية.. عاث هو وإخوته في الأرض فساداً.. أجّجوا الحروب.. أفسدوا الأرض وأهلكوا النسل.. إلا أنه كديدن الأوقات الرائعة.. انقضت السنين الأربعين سريعاً.. وبُلي الجسد الذي سكنه.. ها هو يتوكأ على عصاة متجهاً إلى شجرة البلوط مواجهاً (ليليث).. الباقون في الجوار.. ستة هو سابعهم.

- "قلتي أننا سنُمنح الخلود".. يقولها صاحب الجسد الذي يسكنه فيضحك هو خلسةً.

- "والخلود هو ما ستحصلون عليه".. تجيب (ليليث) بابتسامة ماكرة.

-"بُليت أجسادنا وسكنتها العلل.. وصار القبر أقرب من ارتداد طرفي".. يعود صاحب الجسد ليقول.

- "خلودك في مائك.. في أبنائك.. في العهد الذي ستمرره إليهم".. تقول (ليليث).

- "لقد خدعتِنا".. يقولها صاحب الجسد بصوت واهن.

- "بل أنت من لم يفهم الكلمات".. تهتف (ليليث) بصرامة، ينخلع لها قلب صاحب الجسد.. يخفق القلب عدة خفقات مضطربة، ثم يهمد فيحمل هو دعائمه التي أرساها في ذلك القلب منذ عقود.. يغادر الجسد دون وداع ليعود ليقف بجوار أمه.

"فلتتربص ببنيه أي ولدي.. متى ارتكب (المختار) منهم خطيئته يصير جسدك الجديد".. جسدها الأملس يتلوّى حول كيانه الغير مرئي.. في وجهه ترفع راحتها وهي تضيف:

"والآن اذهب".

"هم سبعة!!".. يتمتم بها (غسّان) وهو ينهض ببطء من جثوٍ طال.. ينظر إلى (ليليث) وهو يضيف: "أبناؤك سبعة وليسوا ستة.. السبتاجرام هي رمز أبنائك السبعة".

- "نسيت أن أعرّفك بابنتي السابعة.. (بابلون)!!".. تقولها (ليليث) ساخرة وهي تشير إلى ما خلف ظهر (غسّان).. يلتفت مسرعاً إلى حيث أشارت.

- "مستحيل!!".. تتّسع عيناه في دهشة وهو يقول: "لا يمكن.. كان أبواكِ كراماً وكذلك كانتا عائلتيهما".. يسمع صوتها إذ تجيب في برود:

"كنت طفلة متبناة!!"

- "لم يكن السيد (ديفيد جاتشافا) من أهل البلدة.. جاء إليها من (باتومي) هو وزوجته للعمل في مصنع الشاي القريب.. كانت (سيالا) ماتزال طفلة رضيعةً.. كانت السيدة (جاتشافا) محظوظة لتنجب طفلةً في عقدها الخامس...".. يصمت (ساندرو) للحظة متردداً.

****

تكمل: "لمَ تكرهينني؟! دائماً ما فعلتِ!!"

- "كنت أعرف أمك!".. تقولها العجوز كأنها تبصق.

- **"اسمها (سيالا)"..** يقول الرائد (حسام) وهو يشير إلى شاشة الـ (لاب توب): "جورجية.. مبتعثة إلى جامعة القاهرة".

- "قلت لك معرفهاش".. يغمغم (أنطوان) بعصبية.

- "في البداية افتكرتها (تُقى) الله يرحمها.. بس دي أجمل بكتير منها.. أجمل من أي ست شوفتها الحقيقة".. يضحك الرائد (حسام) ثم يعود وجهه ليكتسب صرامة مفاجئة: "متعرفش إيه علاقتها بالدكتور (غسّان)؟"

- "إطلاقاً".. يهزّ (أنطوان) رأسه نفياً.. يتطلّع الرائد (حسام) إلى وجهه طويلاً كأنما يستشف صدقه.

- "أنا لسه عند اقتناعي إن الدكتور (غسّان) مش مجرم.. بس أنا مضطر أفتح القضية تاني".. يقول الرائد (حسام) وهو ينهض بعد أن أعاد إغلاق الـ (اللاب توب).

- "إيه اللي هيحصل لـ (غسّان)؟".. يسأل (أنطوان) في قلق.

- "هيتحط على قوائم المنع من السفر وترقب الوصول".. يقولها الرائد (حسام) وهو يتّجه نحو باب الشقة.. همَّ بفتح الباب قبل أن يدوّي صوت تهشّمُ زجاج يحدثه سقوطه أرضاً، فاقداً للوعي، وقد انفجر الدم من مؤخرة رأسه.. أمام جسده وقف (أنطوان) قابضاً على عنق زجاجة ويسكي ثقيلة مهشّمة.. يتطلّع بهدوء إلى الجسد المسجى أرضاً قبل أن يدخل المطبخ ويعود وهو يحمل سكيناً ضخمة.. يهمس وهو يحزّ رقبة الضابط الفاقد للوعي.

"أعذرني بس مش عاوزين مشاكل.. أمه مش عاوزة مشاكل".

الفصل الثامن عشر

فأنا أيضا أضحك عند بليتكم، أشمت عند مجيء خوفكم فإذا جاء خوفكم كعاصفة،
وأتت بليتكم كالزوبعة، إذا جاء عليكم شدة وضيق؛ حينئذ يدعونني فلا أجيب،
يبكرون إليَّ فلا يجدونني.

سفر الأمثلة – الإصحاح الأول (26- 28)

واقفةٌ هناك أمام شجرة البلوط.. تحمل ولده.. على وجهها الساحر ابتسامة ساخرة.. يحيطها (أطفال الفداء) الشاحبون من كل صوب.. يرفعون أيديهم الصغيرة فيتحسسون ساقي (ياسين).. تزجرهم (سيالا) كقطة غاضبة.. تتمايل وهي تضم صدر (ياسين) إلى صدرها.. تحمل راحته اليسرى بيدها اليمنى كأنها تراقصه رقصة (تانجو) على أنغام أغنية جورجية تغنيها.. أغنية ترجمت معانيها لـ (غسّان) ذات يوم.

أنتِ طيّبة وسيئة أيضاً

تبدين مثل ضباب في قلبي

أريد أن أكرهك

لكنك مرتبطة بقلبي بقوة

- "ربما منعني المثلث الحامي من الدخول إليك.. ولكنه لم يمنع ابنتي من الخروج".. تقولها (ليليث) بهدوء.. عادت لتدور حول المثلث الحامي المرسوم على الأرض الجرداء: "(بابلون) هي الشهوة المجسّدة.. كثيرون هم من خلطوا بيني وبين ابنتي فحسبونا واحدا!!".. تقرّب وجهها الكمثّري من الحاجز الغير مرئي، والذي يفصلها عن (غسّان) القابع داخل المثلث، وهي تضيف: "لم يكن (أليستر كراولي) أحمقاً تماماً بعد كل شيء".. لا يجيبها (غسّان).. لا ينظر لها حتى.. تعلّقت عيناه بـ (سيالا)، التي أخذت تدور حول جذع شجرة البلوط في حركات راقصة وهي تحمل (ياسين).. لاحظ الآن السيف الذهبي المغروس في الأرض بجوار جذع الشجرة.

- "(سيالا).. هذه لستِ أنتِ.. أفيقي!!".. يهتف بها (غسّان) وهو يقترب منها بخطوات حذرة.. ترك حصنه الآمن داخل المثلث الحامي.

- "توقف.. وإلا ذبحته".. تهتف (سيالا) بشراسةٍ مفاجئة، وهي تنتزع السيف الذهبي من مكانه شاهرة إيّاه.. فيتجمّد (غسّان) في مكانه.. تشرد (سيالا) لحظة كأنها تفكر قبل أن تتّسع عيناها السوداوان في جنون: "دعني أخبرك سرّاً صغيراً.. سأذبحه على أي حال".. تقولها بينما تعمل نصل السيف في رقبة الطفل فتنفجر الدماء الحارة لتغرق وجهها الضاحك.

لا يصرخ.. لا يبكي.. تجمّدت سيّالاته العصبية.. يشحب وجهه، ومعه تشحب مشاعره.. أمام كل هذا الشر يتضاءل.. ينكمش كثقب أسود يجتذب كل آلام العالم.. كل بؤس نبت في قلب الدنيا صار هو بذرته.. وعندما فاضت روحه بحزنه تقيأ.. تقيأ وتقيأ على الأرض الجرداء، فرواها بطعم العلقم.. ينهض بينما يلوّث عرقه البارد عينيه ويغيم رؤيته.. يخطو في اتّجاه جسد ولده الذي توقف أخيراً عن الارتجاف.. ابتعدت عنه (سيالا) بعد أن ألقت السيف الذهبي.. التصقت بشجرة البلوط وقد شحب وجهها.. وضعت أناملها التي صارت حمراء على فمها.

- "ماذا فعلت!! ماذا فعلت!!".. تنتحب (سيالا)؛ فتصل كلماتها إلى أذني (غسّان) الذي وقف أمام جثمان ولده الصريع.

- "ياسين!!".. يقولها (غسّان).. أحاط به الأطفال الشاحبون يتلمّسونه في تأبين صامت.. يلتقط هو السيف من على الأرض بيد مرتجفة.. يبدو ثميناً.. عليه عظمة قرون غابرة.. يخطو باتّجاه (سيالا).. تسري (ليليث) فتقطع طريقه.. تمددت فصارت بطوله مرتين.

- "كان هو فداؤك.. كان هذا ضرورياً لتصير منّا".. تحني (ليليث) رأسها نحوه فيضرب شعرها الأحمر وجهه.

- "لن أكون منكم!!".. يصرخ (غسّان) وهو يضربها بالسيف فيسمع للضربة صوتاً حاداً وكأنه ضرب به حجراً صلداً.. تتراجع (ليليث) وهي ترمقه بنظرة ساخرة، تدور حوله مفسحة له المجال للوصول إلى (سيالا) الذاهلة والملتصقة بشجرة البلوط.

- "لم أكن أنا يا (غسّان).. كانت (بابلون)".. تقولها (سيالا) الباكية وهي تحدّق في (غسّان) العائد إلى حمل السيف، بينما تقرِّب (ليليث) الواقفة خلفه شفتيها الحمراوين من أذنه.

- "أنت غاضب يا ولدي.. اقتلها.. أطلق لغضبك العنان".. تهمس (ليليث) بصوت كالفحيح.. يرفع (غسّان) السيف عالياً وقد ارتجف كيانه كله: "كن الغضب الهادر.. اقتلها وكن (ساتان)!"

- "لن أكون منكم!!".. يصرخ (غسّان) من جديد.. فتعود الأفعى الحمراء لتلتف حوله فتواجهه.

- "إذاً ارحمها تُرحم".. تقول (ليليث).. على وجهها ابتسامة خبيثة: "أو اقتلها وكن (ساتان).. خطيئتك هي الغضب يا بني!"

ينظر لعيني (سيالا) الدامعتين.. عينان طالما أحبهما.. عينان طالما تحسستا روحه.. عينان ذبحتا قلبه كما ذبحت هي (ياسين).. لم تكن هي من قتلت.. كانت (بابلون).. إن ضربها بالسيف ستموت (سيالا) وتبقى (بابلون).. إن ضربها بالسيف سيصير منهم.

- "لطالما أحببتك".. تهزّ (سيالا) رأسها وهي تضيف هامسةً: "لا تكن منَّا!! لا تكن مثلي.. أرجوك".. تمر أمام عينيه صورة (مروة)، (تُقى)، (أنطوان)، (ياسين)... يهتزّ السيف المرفوع عالياً.

- "سامحوني جميعاً".. يقولها (غسّان) هامساً وهو يُلقي بالسيف من يده.

يهوي (أوماري شفيلي) بالسيف الذهبي على الأصفاد التي قيّدت الأخت (نينو) بشجرة البلوط، فيحطّمها ثم يطوح بالسيف بعيداً.

- "اذهبي فأنتِ حرة.. عسى أن يغفر لك الرب".. يقولها (أوماري) بينما ارتجف جسده.. أخيراً تطفر من عينيه الدموع التي تجمّدت فيها منذ مصرع (آليس).. يجثو على ركبتيه أمام شجرة البلوط وهو يتحسس أرض عشبية طالما تنفست عطر (آليس).. بينما انكمشت الأخت (نينو) الدامعة بجوار جذع الشجرة، وقد ضمّت ركبتيها إلى صدرها.. من فوق الشجرة يسمع (أوماري) نعيق البومة الغاضب.

- "لم يثأر ممن قتلت خليلته".. يقولها أحد الأشباح الأربعة المتسربلين في الظلام.

- "أمسك بلجام غضبه وعفا عن القاتلة".. يقول شبح آخر.

- "هو خير عباد الرب".. يقول شبح ثالث.

يغمغم (أوماري) بما لا يمكنهم سماعه.. تشرد عيناه الباكيتان لبرهة.. فلم يلحظ ما دار خلفه، إذ يلتقط أحد الأشباح الأربعة السيف الذهبي العتيق، فيحزّ به رقبة ذلك الطفل الأشقر الذي كمّم فمه براحته، فعجز عن الصراخ.

يخطو (غسّان) متثاقلاً إلى حيث جسد ولده الصريع، فيجثو على ركبتيه بجواره.. يحتضن الجسد الصغير الذي بدأ في فقدان حرارته.

- "سامحني يا بني.. ضيّعتك مرتين".. يقولها وهو يهتزّ أماماً وخلفاً كأنه يهدهده.. ودَّ لو احتواه صدره.

- "ألن تقتل قاتلة ولدك؟!".. تقول (ليليث) وهي تتلوّى في جنون: "ألن تنتصر لغضبك؟!"

- "لم أرَ مثل هذا النبل في حياتي الطويلة".. تقول (كيتيفان) القادمة من ورائه بدهشة.

- "هو خير من مشى عن الأرض.. لذلك أحببته".. تهمس (سيالا) الدامعة، وهي تتقدّم منه بدورها.. ينظر لها بعينين حمراوتين فتضيف وهي تضع يداً باردةً مترددةً على كتفه: "غسّان؟!".. لا يجيبها.. يرفع عينيه إلى السماء التي التمع فيها نجم يقاوم بنوره البارد ذلك الضوء الأرجواني الذي تدثّرت به السماء لتستقبل النهار الوليد.. تتكوّر السماء الأرجوانية حوله فتحتويه كرحم أم.. يصرخ ويصرخ؛ يأكل الفراغ صوت صراخه.

يطيل (مروان الجعدي) النظر إلى ذلك الصليب المزخرف الذي زيّن زجاج النافذة الصغيرة بتلك الحجرة الضّيقة بكنيسة (أبو صير).. تسرّبت من النافذة بعض نسمات الليل؛ فأنعشت روحه الآسنة.. يحوّل بصره إلى (صالح الكرجي) الذي جلس غير بعيد وهو يشحذ سيفه بحجر صلد.

- "أيكون المرء مملوكاً بعد أن كان مالكاً للدنيا يا (صالح)؟!".. يقولها (مروان الجعدي) بصوته الجهوري.

- "نعم!".. يجيب (صالح) دون أن يرفع رأسه: "إن أَمِنَ غدْرَ الزمان يا أمير المؤمنين!"

- "صرت شاباً فتياً يا (صالح)".. ينظر (مروان) إليه مليّاً: "ما كان اسمك قبل أن أكُفلك؟"

- "أخبرتك منذ ما يربو عن العشرين عاماً يا أبا (عبد الملك)!".. يغمغم (صالح).. يرفع عينيه إلى وجه (مروان) الذي خلا من التعبير فيضيف: "ملخازي.. ملخازي سولوكيدز".

- "وما يعنيه (ملخازي) يا بني؟".. يسأل (مروان) وهو يبتسم.

- "الشاب الوسيم بلغة الكرج يا أمير المؤمنين".. يبتسم (صالح) بدوره.. علم أن سيده يبتغي بعض السمر في ساعات الليل الموحشة.

- "أنشأتك لتكون والياً على قومك".. تشرد عينا (مروان) في الفراغ من جديد، يضيف: "وها أنت ذا تصحبني هارباً من بني العبّاس من الشام إلى فلسطين إلى أرض مصر.. لكم بعدنا عن القوقاز!"

- "لكل جواد كبوة يا خليفة رسول الله".. يتمتم (صالح) بصوت خافت: "تلك هي كبوتك!!"

- "بسط بنو العبّاس سلطانهم من أدنى الأرض إلى أقصاها".. يشيح (مروان) بذراعه.. "السفاح يريد رأسي وجدَّ في الطلب.. لم يبق لنا سوى الهرب".

- "صار الهرب عسير المنال يا أمير المؤمنين".. يقولها (صالح) وهو ينظر عبر النافذة الصغيرة إلى الأرض السوداء.. "أتعلم يا (أبا عبد الملك).. سأبتاع تلك الأرض ومحيطها.. لأتخذن مصر موطنا".

- "لا يأخذنك العجب.. فالأرض تُشرى بالذهب".. يغمغم (مروان).. ينعقد حاجباه في قلق إذ يسمع صهيل الخيول في الخارج.. يرى (صالحاً) وقد امتشق سيفه.

- "بل تُشرى برأس أمير المؤمنين".. ابتسامة مخيفة ترتسم على وجه (صالح) وهو يضع ذبابة سيفه أسفل عنق (مروان): "هم بانتظارك في الخارج أيها (الأطرش).. اِفزع للقتال ومت كالرجال".

- "أخنتني يا (صالح)؟".. يتراجع (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية، وهو يستل سيفه.. يهوي به على رأس (صالح) فيتفادى الشاب الفتيّ ضربته بيسر.

- "(صالحاً) ليس اسمي!!".. يصرخ بها الشاب، وهو يركل (مروان) في صدره.. فيندفع جسد الكهل عبر النافذة الضّيقة للكنيسة فيسقط في العراء بين خيول بني العبّاس.

- **"أنا خير عبادك"..** يهمس بها (أوماري شفيلي).. مازال جاثياً على الأرض العشبية يرفع رأسه إلى السماء السوداء صارخاً بذات الجملة: "أنا خير عبادك".. يتصلّب جسده بغتةً فينقلب على ظهره.. بدورها تنقلب عيناه فصارت كلها بيضاء.. تأخذه رعدة، ثم أخرى، ثم أخرى.. يتوقف جسده أخيراً عن التشنج.. ينهض مترنّحاً.. ينشب أصابعه في جانب قميصه الأيسر فيمزقه.. يتطلّع إلى لحم صدره الذي وشِمَ بنجمة سباعية لم تكن هناك.. يقترب منه الأشباح الأربعة؛ فتتضح ملامحهم.. كذلك تفعل الأخت (نينو).. يتطلّع إلى جسدها الضامر العاري.

- "هلّا كسوتم أختكم (بعلزبول)؟".. يقولها (أوماري) بصرامة.. فينزع الأربعة من ثيابهم.. يكسون الأخت (نينو) كما اتفق.

- "لقد عاد السيد!!".. تقولها الأخت (نينو) بصوت مبهور وهي تتطلّع في وجه (أوماري).

- "كان الثمن فادحاً!".. يقولها (أوماري) بمرارة: "فقدنا (بابلون)!"

- "كان هذا ضرورياً!".. تقولها الأخت (نينو) بارتباك وهي تختلس النظر إلى البومة التي راقبتهم من أعلى شجرة البلوط.

- "لا لم يكن!".. تعود الصرامة إلى صوت (أوماري).. يولّي وجهه شطر شجرة البلوط التي اعتلتها البومة: "أماه!!".. ينحني في تبجيل، ثم يستدير مولّياً ظهره للخمسة وهو يخطو مبتعداً في هدوء.

- "إلى أين؟".. تسأل الأخت (نينو).

- "لديَّ طفلة لأنشئها.. هي (بابلون) الجديدة".. يقولها (أوماري) دون أن يلتفت.

- "خذني معك.. دعني أكون لك زوجة!".. تقولها الأخت (نينو).

- "تعلمين من هي حبيبتي.. أبداً لن تكون أنتِ".. لا يكلّف نفسه عناء النظر إليها.

- "(أوماري).. توقف!!".. تهتف بها الأخت (نينو).. يلتفت لها (أوماري) أخيراً.. على وجهه ابتسامةٌ ساخرة.

- "اسمي ليس (أوماري).. تعلمين ما هو اسمي".

يستقر جسده في النهاية على ما بدا سطحاً مخملياً ناعماً.. وإن كان له ذات لون السماء الأرجوانية.. يخطو فوقه فتغوص فيه قدماه كمن يخطو فوق السحب.. يهتف (غسّان) فلا يسمع لهتافه صوتاً، وإن تردد داخله كنحيب قبيلة من الثكل.

- "أنا خير عبادك!!
أنا من أوذيت ولم أؤذي سوى نفسي..
أنا من عُذبت ولم أعذِب..
أنا من قُتلت ألف مرة ولم أقتُل..
أنا من شُوي في لظى روحه ومازال يرجو رحمتك ويفرّ من عذابك..
من صَبرَ صبري من عبادك؟!.. من منهم تجلّد بجَلَدي؟!
لو كان أحدهم محَلِّي لكفر بك ألف مرة..
انظر لي بعين رحمتك..
فأنا خير عبادك".

حزمة قرمزية من الضوء تلتمع وسط السماء الأرجوانية.. يتلوّى الضوء القرمزي مشكّلاً جسدها الناعم الذي التف حوله ثوباً قرمزياً مخملياً.. شعرها الأحمر تحركه رياح غير موجودة.. تقترب منه (ليليث) بهدوء.. تنظر إليه بعينين امتزج في نظرتهما الحنان مع خيبة الأمل..

- "أي رحمة تلك التي ترجوها وأي عذاب تفرّ منه! أليست حياتك تلك جحيماً!.. هنا تحترق أعصابك كل لحظة! أي عذاب أشد من موت أبيك وأمك أمام عينيك! أي عذاب أقسى من رؤيتك للسان مربيتك الأزرق وقد تدلّى أمامك كأنه يستفزك! أي

عذاب يفوق عذاب خوضك في دماء وحيدك التي أهرقتها المرأة الوحيدة التي أحببت!

أي جحيم يفوق جحيمك الخاص استعاراً! جحيمك صنعته بقراراتك الخاطئة، وانتظارك لخلاص لن يأتي! عبدٌ ساخطٌ أنت!! أفق أيها الأبله.. أنت في القاع! وإن كان هناك عذابٌ أشد إيلاماً؛ ليكونن اجترارك للذكرى.. لن تنبت أرض الشقاء رحمة.. فلقد لُعنت منذ الأزل!

لم تكن سوى بيدقاً يتحرّك على رقعة الخطة الكونية.. بيدقٌ لم يشعر أحد بآلامه.. لم يتحرّك لعذابه قلب!"

ترفع ذراعها إلى أعلى فتضيء قبّة السماء التي صارت فضية كشاشة عرض، عليها صور آلاف البشر المنهمكين، كلٌ في شأنه.. تشير إلى الصور بذراعها كله وهي تضيف:

- "هل فطن أي من هؤلاء لآلامك؟ هل فطنوا حتى لوجودك؟ هم يستمتعون بصحبة آبائهم.. بأحضان أبنائهم.. بقبلات زوجاتهم.. ويتمنون نعيماً أُخروياً.. كأن ما ينعمون به ليس كافياً!

اِنهض الآن يا فتى أو اُسقط أبداً!! كن بطل قصتك أو ابقَ ظِلاً صامتاً يوطأ بالنعال!"

- "ماذا أفعل؟".. يسأل (غسّان).

- "تمرّد!! تمرّد كما فعل أبوك!! إن كانت حياتك بائسة فلتجعل حياتهم أشد بؤساً!

إن كان الجحيم مصيرك.. فلتأخذهم معك! واستمتع بحياتك الدنيا فليس لك غيرها..

أعلن التحدّي وفرّ من الملكوت".

- "وكيف السبيل إلى الفرار؟".. بلهجة مرتبكة يعود (غسّان) للتساؤل.

- "هو سيرشدك.. سيأخذ بناصيتك إن أظلم الطريق".. تقول (ليليث) وهي تشير إلى النجم النابض في قلب السماء.. يهوى تجاههم كشهاب ساقطٍ؛ فيغلق (غسّان) عينيه وقد بهرهما الضوء الأبيض.. يعود فيفتحهما ببطء فيراه.. تتّسع عيناه دهشةً.. للحظة خُيّل له أنه يرى انعكاسه في مرآة.. إلا أن القادم كان حليق الذقن.. مصفّف الشعر.. يرتدي الأسود حتى أخمص قدميه.

- "من أنت ؟".. يسأل (غسّان).

- "سُميتُ أسماءً عدة.. أُدعى (أوماري شفيلي) أو (صالح الكرجي).. (ملخازي سولوكيدز) أو (عبّاس الكرجاوي)".. يقولها القادم بابتسامة واثقة.. يضيف وقد اتّسعت ابتسامته: "أنا أنت!!"

- "أنا؟!!".. يقولها (غسّان) كالمنوم.. يمدُّ القادم يداً متعرِّقة معروقة إلى الجانب الأيسر من صدر (غسّان).. فيشعر بها الأخير حارة كجمر يشوي قلبه.

"اسمي نجم الصباح.. اسمي (لوسيفر)".

"اسمي (لوسيفر)".. يهتف بها (صالح الكرجي) عبر نافذة كنيسة (أبو صير)، بينما تنغرس سيوف بني العبّاس في جسد (مروان بن محمد).

"اسمي لوسيفر".. يهتف بها (أوماري شفيلي) عند شجرة البلوط بينما تلاحقه الأخت (نينو).

"اسمي لوسيفر".. يهتف بها (غسّان الكرجاوي) في الغابة، بينما تهزّ (سيالا) كتفه مرددةً نداءها بـ (غسّان).

يقولها ثم يمدد جسد ولده الصغير على الأرض الجرداء.

- "رأيت جسدك يتشنج.. لم تستجب لندائي".. تقولها (سيالا) في جزع.

- "هذا أنا يا (بابلون).. كفاكِ تظاهراً!".. يقولها (غسّان) بجورجية صار يجيدها فجأة وقد انعقد حاجباه ضيقاً.. تنظر (سيالا) إلى وجهه متفحصةً؛ كأنها تختبر صدقه.. يمدُّ يمينه فيمزّق قميصه من الناحية اليسرى من الصدر.. هناك وشمت الـ (سبتاجرام) الزرقاء.. تراها (سيالا) فتبتسم.. تتّسع ابتسامتها فتصير ضحكةً جذلةً..

- "اكتملت صيرورته يا أماه.. هو حقاً (لوسيفر)!".. تقولها (سيالا) وهي تحتضنه في شوق.. من خلفها يرى وجه (ليليث) وهي تتطلع إليه راضيةً.

- "أبداً لم يكن الغضب خطيئته!!".. تقولها (ليليث): "دائماً ما منعه نبله من الثأر لأحبّائه.. ومتى غلبه نبله طغى عليه زهوه بذاته.. وفخره بتقواه.. وهذا لعمري أشد ألوان الغرور".. تبتسم في غبطة وهي تقول: "مرحباً بسيد إخوته.. من ورث خطيئة أبيه إبليس".

- "مرحباً بالسيد!!.. مرحباً بحامل الضياء!!".. يهتف بها أصحاب المجد فترتجّ الغابة لهتافهم.. تفزع الطيور من أعشاشها فتطير متخبطة، وقد أزعجها استيقاظها

مبكراً.. أما (غسّان) فقد ثبّت عينيه على وجه (ياسين) الصارخ الذي احتل مكانه بين الأطفال الشاحبين الذين أحاطوا بـ (ليليث).

- "ستنجب غيره!!".. تقولها (ليليث): "لم يكن ليصير (مختاراً).. لم توجد به البذرة!!".. تشرد عينا (غسّان) وهو يسترجع حواراً قديماً.

((كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي احتضنه فيها جدّه.. يومها همس في أذنه بصوت ثابت: "أنت وريثي!!.. البذرة فيك أنت.. فاحذر!!"))

تضيف (ليليث): "كانت البذرة في جدّه ولم تكن بأبيه.. كانت البذرة فيه ولم تكن بولده".

- "تركتيه يتخبط في ظلال الجهل".. يقولها (غسّان) وهو يحتضن (سيالا) التي أراحت رأسها على صدره كقط هانئ.. يضيف: "لمَ كان كل هذا التضليل؟".

- "كان لا بد لجميع من عرفوا الحقيقة أن يضللوه.. أن يرشدوه إلى الطريق ولا يخبروه بما ينتظره في نهايته.. كان لا بد وأن يحدوه أمله حتى يقابل خطيئته على حين غُرّة".. تقول (ليليث) بصوتها الهادر.. تضيف وهي تشير لـ (كيتيفان): "ضللته (بعلزبول)، وضللته (بابلون).. ضلله (وينو كاليستراتوس).. ما كان ليستطيع أن ينقض عهده الذي وقّعه بالدم.. لكن ضميره عذّبه فانتحر!".. تضحك: "أجل ضللته.. ولكني تركت له بعض العلامات الدموية هنا وهناك".

ترفع ذراعيها إلى السماء.. يخبوا أطفال الفداء كجذوة لهب تنطفئ.. أمامها ينحني أصحاب المجد السبعة.. تقلّب فيهم عينين مشتعلتين.. تقول: "والآن وقد اكتمل عقدكم.. فقد آن لـ (ليليث) أن تستريح قليلاً".. من كل صوب يأتي البوم فيحيط بها كريح أسود.. يتفكك جسدها النحيل وسط إعصار البوم الهائج.. ثم يعود البوم ليحلّق متفرقاً فيختفي بين قمم الأشجار.. معه تختفي (ليليث).

يحدّق (جوجي) المرتجف في جثمان الأب (كاليستراتوس) الذي أراحوه على حشية نومه.. أنزلوه بصعوبة من على المشنقة البدائية التي صنعها لنفسه.. يلاحظ الورقة المنبعجة التي قبضت عليها أصابع الراهب المنقبضة.. يستخلصها بصعوبة.. لاحظ خطوط عدة وضعها الراهب مقطوع اللسان أسفل إحدى الجُمل.. يقرأ الجملة مراراً وتكراراً، ثم يكمل قراءة باقي الخطاب.

... الأمل عدوٌّ فاحذره!!

من قال أن اليأس والأمل ضدّان.. فالأمل وإن كان خبز المُعذب؛ فهو كذلك يأس المغرور.. هو وجعه المقيم.. ينخسه برمح حاد من الأمنيات فيدفعه أمامه إلى الهلاك.. لذا لم أخبر (غسّان) بمصيره المظلم حين تماسَّت يدانا.. كان ليجزع.. ومن قلب يأسه كان لغروره أن ينبت أملاً عنيداً يتحدى ذلك المصير.. أملاً يحدوه في طريقه الموحش حتى يوصله إلى المحتوم.. لم أخبره عسى أن يظل متخبطاً في ظلام حيرته حتى يعجز عن إكمال الطريق، ولربما كان عجزه منقذاً له من مصير رأيته في رؤياي ويقوده إليه أمله.

لسوء حظه وحظك، لم أمسّ يده إلا بعد أن أشرت له على بداية الطريق.. وكنت أنت أيها الأب (كاليستراتوس) تلك البداية.. لذا أرجو أن يسبقه ذلك الخطاب إليك!.. وقع عليك عبئ أن تجعله يعجز.. فمثله قد يعوّل على عجزه، وليس يأسه والفارق بينهما كبير، عليك أن تسحب الطريق من تحت قدميه.. أن تضلله بكل ما أُتيح لك من حيّل. لعلنا ننجح في إنقاذه، وإنقاذ ذلك العالم البائس من مستقبل أسود كاد أن يصير واقعاً.. فلتغلق في وجهه الأبواب والنوافذ ومنه فلتهرب.. فما رأيتُ عندما صافحته إلا كوناً مظلماً، يسوده بؤس لم تره من قبل أعين البشر.. رأيت عالماً تسوده أجساد

بلا أرواح وأرواح بلا أجساد.. عالم يحكمه شياطين تطأ الأرض بقدمين من لحم.. ورأيته سيداً لكل وحوش البرّيّة وكل أبناء الزنا.. رأيته ملكاً على أمراء الجحيم.

باإخلاص،

إيجابيوس فانيوكس.

وسط البلد – القاهرة.

ينتهي (غسّان) من دفن جثمان ولده بجوار رفات من سبقوه من أطفال الفداء.. للحظة يقف صامتاً أمام البقعة التي ستصير القبر المجهول لـ (ياسين).. تفوح منها رائحة التربة الرطبة، والممزوجة برائحة دم طازج لم يفتر بعد.. تقترب منه (سيالا) فتربت على كتفه.. يحيطها بذراعه بهدوء..

- "أيها السيد!".. تهتف بها (كيتيفان) بصوت مزعج كصرير مزلاج قديم.. ينظر إليها وقد عقد حاجبيه ضيقاً.. يراها تشير إلى سياج الأشجار الذي أحاط بالرقعة الجرداء التي نبتت فيها شجرة البلوط.. يلتقط أنفه رائحة الخشب المحترق، قبل أن يرى ألسنة النيران التي استطالت حتى بلغت قمم الأشجار فأحاطت بهم.

- "ساندرو!".. يقولها (غسّان) وقد نسي أمره!

- "ماذا سنفعل؟".. تقولها (سيالا) بقلق وهي تسعل وقد آذى الدخان رئتيها.. ينظر (غسّان) في عينيها اللتين صارتا برتقاليتين.. يهمس مردداً بصوت ملحّن.

- "يا حبيبي.. أكلما ضمنا للهوى مكان".. ينظر لها كأنه يطلب منها أن تكمل المقطع.

- "أشعلوا النار حولنا.. فغدونا له دخان!".. تقولها (سيالا) في ارتباك هامس، وهي تنظر إلى عينيه اللتين اتّسعت حدقاتهما، فلم تعد ترى من عينيه سوى السواد.. ببطء يرفع (غسّان) ذراعه.. يضم قبضته.. ثم يخفض ذراعه ببطء.. تنخفض ألسنة النار مع انخفاض ذراعه حتى تخبو.

- "والآن ليذهب كلاً منكم من حيث جاء".. يقولها (غسّان) بصوت صارم لأصحاب المجد: "ولتبقوا على تواصل فأمامنا من العمل الكثير".. يعود لينظر إلى (سيالا) بعينين عادتا إلى طبيعتهما الأولى: "هيا!!".. يقولها ثم يغادر معها الرقعة الجرداء إلى سياج الأشجار.. يجتازا الغابة بخطى بطيئة تحت أشعة الشمس التي صارت برتقالية.. منها يجتازا سياج الأشجار الذي يفصل الغابة عن بيت آل

(جاتشافا).. أمام المنزل وقف (ساندرو) يرتجف.. يراهما يبرزان من بين الأشجار متشابكي الأيدي.. يهرع ناحيتهما.

- "ماذا حدث؟".. يقولها (ساندرو) وهو يقلّب فيهما عينين قلقتين.. يرى (غسّان) وهو يفتح باب البيت.

- "كان مجرد سوء تفاهم أيها الصديق الطّيب".. يقولها (غسّان).. تدخل (سيالا) البيت بينما يتبعها هو تاركاً (ساندرو) خارجه.. ينظر للأخير مبتسماً.. ثم يعيد إغلاق الباب بهدوء.

الختام

تبليسي

في 2 مايو 2016

الأعز/ أنطوان

في الحرب الكونية الثانية لم يكن هناك منتصرين..

تنتفخ أوادج الحلفاء فخراً وهم يزعمون أنهم قد انتصروا.. أي انتصار هذا الذي يرسل أرواح خمسين مليوناً من أصحابه إلى العالم الآخر؟! على أي حال؛ لتكونن الحرب الكونية الماضية عرض تجريبي مصغر للهول القادم الذي ينتويه أصحاب المجد.. هو أخبرني بنيته وأراني خططه.. لذا دعني أصدقك قولاً: ما رأيته كان بؤساً لم يختبره ابن آدم من قبل.. أجل يا صديقي العزيز، هو يحدِّثني وأحدّثه فأنا – على عكس ما تتوقع – لم أصر دميةً يحركها (لوسيفر) بخيوط شُبكت بأصابعه.

مازال (غسّان) موجود ها هنا.. يتنفس ويأكل وينام.. يحلم ويحب.. يحب (سيالا) التي صارت له زوجة منذ شهرين.. أنا وهو صرنا كصديقين مخلصين يتشاركان السكن.. نحن نتشارك ذات الجسد.. وكأي صديق مخلص فأنا أتفهمه.. أقدّر أقواله وأفعاله وأتغاضى عن نزواته.. هو قال لي أن الشر أساس هذا العالم.. قال لي أن الشر هو الفعل الأول، والخير هو ردة الفعل.. فما كان فعل ابن آدم الأول في تلك الدنيا إلا شراً وخطيئة.

أُحذّره بأن البشر لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وهم يراقبون ذلك الهول يقطف رؤوسهم واحداً بعد آخر، فقال لي: "إنه عندما يموت بعض البشر فسيصرخ الباقون رعباً.. سيصرخ الباقون غضباً، لكن عندما يقتل منهم ألفاً وتبدوا لهم المذبحة بلا نهاية، سينسدل ستار من الصمت"، قال لي أن: "الشرور مثل المطر، لا يصرخ فيها أحد لكي تتوقف"، قال لي أن: "الجرائم عندما تبدأ في التكدّس تغدو غير مرئية"، قال

أنه: "عندما تتجاوز الآلام كل قدرة على الاحتمال لا تعود الصرخات مسموعة، وتروح تتساقط هي الأخرى كمطر صيفي واهن".

أُخبره بأن عباراته السالفة هي بعض من أشعار (بريخت).. فيقسم أنها كلماته.. حسناً.. من قال أن الشيطان لا يجيد الادعاء؟! هو يتنفس كذباً.. به امتلأت رئتيّ؛ فلم يعد هناك مكان للمزيد.. لكنني أصدقه حينما يعدني بالأمان؛ فليس له خياراً آخر.. إلى أن يأتي من نسلي (مختارٌ) آخر على الأقل.. كذلك طلبتُ لك منه الأمان فوافق مرحباً.. أنقذت عنقه وعنقي.. فلولاك ما استطعت أن أحلم بزيارة مصر من جديد.. أعلم أن قتلك للضابط لم يكن من صميم إرادتك الحرّة.. فقد اختبرت مثلك قدرة (ليليث) في السيطرة على العقول.. ولكن الجريمة التي أُجبرت على تنفيذها، أمر تحمَّلت أنت عواقبه كاملة.. لذا وجبت مكافأتك.

وفي الأخير ابقَ حياً وبصحة جيدة حتى يجمعنا اللقاء.

بإخلاص،

غسّان الكرجاوي.

تبليسي – جورجيا.

ينهي (غسّان) كتابة الرسالة الإلكترونية إلى (أنطوان) فيضغط على زر الإرسال.. يشعر بخطوات (سيالا) الرشيقة من خلفه.. تميل عليه فتحيط رقبته بذراعيها من الخلف، فتملأ أنفاسها العطرة خياشيمه.. تقبّل عنقه ثم تهمس في أذنه:

- "ماذا تفعل؟".. تقولها بدلال.

- "أكتب رسالة إلكترونية لـ (أنطوان)".. يرد (غسّان) بهدوء.

- "هل استطاع التخلّص من جثّة الضابط؟".. تسأل (سيالا) باهتمام.

- "لا تقلقي عليه".. يقولها (غسّان) ضاحكاً: "(أنطوان) مجرم بالفطرة!!".. ينهض من كرسيه الذي وضعه في شرفة الشقة التي استأجروها في الطابق العاشر بأحد الأبراج السكنية في (تبليسي).. يستدير فيواجه (سيالا).. ينظر في عينيها طويلاً ثم يسأل: "ألم تخشِ أن أقتلك في ذلك اليوم في الغابة؟"

- "لا!".. تقولها ببساطة.. تصمت لحظة ثم تضيف: "وضعت بذات الاختبار عشرات المرات.. لم تفعلها قط!".. يهزّ (غسّان) رأسه متفهماً.

- "متى تم تتويجك؟.. لم أسألك عن هذا الأمر من قبل".. يعود (غسّان) للتساؤل.. مازال يتطلّع إلى عينيها الجميلتين.. تبتسم (سيالا).. تشيح بعينيها بعيداً ولا تجيب.

- "عندي لك مفاجأة".. تقولها (سيالا) لتغيّر دفة الحديث.

- "أحقاً؟.. عندي لكِ مفاجأة أيضاً".. يقولها (غسّان) مبتسماً.

- "ابقَ هنا!".. تقولها (سيالا) ثم تتقافز إلى داخل الشقة كعصفور يلتقط الحب، فتغيب في إحدى الغرف.. تخرج منها وهي تحمل ملفاً ورقياً.. ترى (غسّان) فتتّسع عيناها فزعاً.. يسقط الملف من يدها فتتناثر منه الأوراق.

- "ماذا تفعل أيها الأحمق؟!".. تصرخ وهي ترى (غسّان) واقفاً على ذلك (الإفريز) الضيق للشرفة.. تتقدم باتّجاهه..

- "إذا اقتربتِ أكثر سأقفز الآن وفوراً؟".. يهتف (غسّان) فتتجمّد (سيالا) مكانها. "أتعلمين يا فتاة.. لم يحتل (لوسيفر) كل روحي".. تشرد عيناه وهو يضيف: "هو مغرور حد الحمق!.. لم يفطن لتلك النفحة الطاهرة التي بقيت في روحي ولم تدنّس".. يصمت للحظة وهو يسترجع ذكريات شهرين مضيا: "بها أخفيت كل ما أودُّ إخفاءه عن (لوسيفر) وعنكم.. بها أخفيت إيماني برحمة الخالق، رغم كل محاولات (ليليث) لإقناعي بعدم جدواها".

- "غسّان!".. تقولها (سيالا) وهي تنتحب.

- "أتدرين ما هي تلك النفحة؟ ما هو ذلك الجزء؟؟ كان جزءاً من روحي أحبَّ (ياسين)!".. بدا وكأنه لا يسمعها.. يضيف بمرارة: "ولقد قتلتموه".. تتغيّر تعبيرات وجهه بغتة، فتنبسط أساريره.. ترتسم على وجهه ابتسامة ساخرة: "قتلكم له كان حماقة.. كان هو ولدي الوحيد.. الآن صرت أنا آخر نسل (سولوكيدز) حقاً!!".. يضحك: "بانتحاري لن يكون هناك نسل.. لن يكون هناك (مختارٌ) جديد.. سيتفتت تحالف السبعة.. وليبقَ (لوسيفر) روحاً هائمة في الجحيم!!"

- "(غسّان).. سيكون هناك حلٌ يرضيك.. لا تفقد الأمل!!".. تقول (سيالا) وقد سال الدمع غزيراً على وجنتيها.

- "الأمل؟!.. قادني الأمل إلى هلاكي".. يصرخ (غسّان): "فلأجرّب اليأس؛ فلربما كان فيه نجاتي ونجاة العالم!!".. ينظر إلى عيني (سيالا) الباكيتين وهو يضيف: "اقتربي.. دعيني أرنو إلى عينيكِ فلطالما أحببتهما".. تقترب منه (سيالا) ببطء فيضيف: "تذكّري أنه دائماً ما أحببتك!!"

يقولها وهو يفلت السور.. يهوي جسده أمام عيني (سيالا) الغائمتين بالدموع.. تتجمّد على فمها صرخة فتنفجر مدوّية في أعماقها.. تقترب من سور النافذة فتنظر إلى الجسد الوسيم الذي افترش أرض الطريق وقد غابت عنه الحياة.

- "غسّان".. تقولها هامسة، وهي تتحسس بطنها.. بطنها التي تحرّك فيها جنينٌ أرادت أن تفاجئه به.. جنين لم يدرِ عنه شيئاً!!

ما بعد الختام

- **"لماذا سجّلت المنحوتة باسمي إن كنت أنت من دفع ثمنها في المزاد يا سيد (عبّاس)؟"..** يتساءل السيد (جورو ساكاموتو) بإنجليزية طغت عليها اللكنة اليابانية.

- "هناك من يراقب عمليات البيع والشراء الخاصة بي.. لا يمكن أن أسمح بمعرفة أمر شرائي للمنحوتة".. يقولها (عبّاس الكرجاوي) بصرامة.. تعود عيناه للتطلّع إلى تلك المنحوتة المصنوعة من الحجر الطيني والتي وضعها بحرص على مكتبه في بيته الفاخر بلندن.

- "ولمَ اشتريتها وأنت تعرف أن السلطات البريطانية لن تسمح بنقلها خارج البلاد؟".. يعود السيد (جورو) للتساؤل وقد ضاقت عيناه الضّيقتان أصلاً.. يضيف: "كيف ستنقلها إلى مصر؟"

- "وما حاجتي لنقلها إلى مصر؟".. يبتسم السيد (عبّاس) بسخرية: "سأودعها بأحد خزائن البنوك ممتازة الحماية".

- "أنا لا أفهم شيئاً!!".. يقولها السيد (جورو) مبهوتاً.

- "عثر أبي على تلك المنحوتة في العام 1923 م بجنوب العراق.. إلا أن بعض صائدي الآثار السوريين سلبوها منه".. يقول السيد (عبّاس).. يضيف: "هي ميراث عائلتي إن راقك هذا التعبير".

- "فهمت!!".. يقولها السيد (جورو) بارتباك.. أمارات الغباء تلوح على وجهه.. يراها (عبّاس الكرجاوي) فيضحك ضحكة قصيرة.

- "صائدو الآثار باعوها إلى تاجر الأثار (سيدني بيرني) الذي أتاحها للعرض في المتحف البريطاني.. حاولت شراءها منه فرفض.. بعد وفاته عرضت في ذلك المزاد.. فاشتريتها".

- "اشتريت ما هو ملكك! يا للخسارة!".. يقولها السيد (جورو) بأسف.

- "كنت لأشتريها مائة مرة يا سيد (جورو)".. يقولها السيد (عبّاس) بحرارة.. يعود للتطلّع إلى المنحوتة.. يضيف: "أطلقوا عليها في المزاد اسم منحوتة (بيرني) نسبة للتاجر البريطاني.. لكنني اخترت لها اسماً أفضل".

- "وما هو؟".. يسأل السيد (جورو) في فضول.

- "ملكة الليل!!".. يقولها السيد (عبّاس) وهو يتأمل المنحوتة بِوَلَهْ العاشقين.. المنحوتة التي فقدها أبوه وأوصاه قبل وفاته بالعثور عليها.. المنحوتة التي لا بد أن تبقى آمنة مدى الدهر مهما كان الثمن.. ينهض (عبّاس الكرجاوي) فيحمل اللوحة بحرص، ويتّجه إلى الخزينة الضخمة الموضوعة بغرفة مكتبه فيفتحها.. برفق يضع المنحوتة بداخلها.. يهمُّ بإغلاق الخزينة.. قبل أن يتردد ويعود ليلقي نظرة أخيرة على المنحوتة.. تصوِّر نقوشها أسدين متقابلين قد أحاطت بهما بومتان.

على ظهري الأسدين وقفت تلك المرأة العارية ذات الأجنحة تحدّق فيه في شر.

(تمت)..

"إلى لقاء قريب مع (سبتاجرام 2 - العارف)"